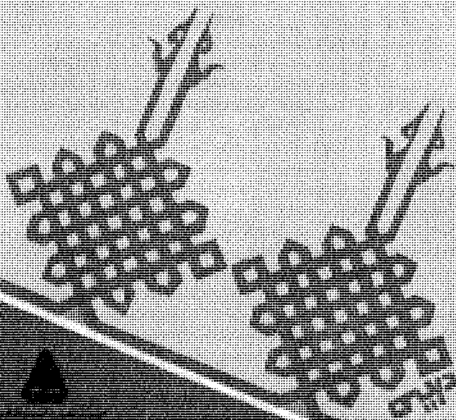
الحسبة في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي

تأليف
سهام مصطفى أبو زيد



الحسبة فى مصر الإسلامية

من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى

الحسبة في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي

تأليف
سهام مصطفى أبو زيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

تقديم

الحسبة نظام إسلامى قديم قدم الإسلام ، تطور بتطور الحضارة الإسلامية الرائعة وأصبح له قواعد وقوانين تكاد تدخل فى جوانب متعددة فى الحياة فى العصور الوسطى . أما جوهر هذا النظام فهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وحين نشأت وظيفة المحتسب صار للمحتسب مكانة بارزة بين سائر الموظفين لخطورة أعماله وأهميتها البالغة فى المجتمع الإسلامى .

ونظام الحسبة نظام عرف فى كافة أرجاء ديار الإسلام وتشابهت أحكامه أو اختلفت اختلافاً جزئياً فى قطر عنه فى القطر الآخر . والحسبة تمثل جانبا بارزا من جوانب الحضارة الإسلامية يمكن الإفادة منها وتطويرها فى عصرنا الحاضر .

وقد اخترت للسيدة سهام مصطفى أبو زيد موضوع «الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى» . وكنت أعرف أن الموضوع يحتاج إلى جهد عميق وصبر ومثابرة فى البحث لكنى لمست فى السيدة سهام منذ البداية الجدية فى البحث والعمل العلمى ، وكانت المؤلفة عند حسن ظنى ، فلم تأل جهداً فى التنقيب بين المصادر الأصيلة فضلا عن المراجع الحديثة العربية والأجنبية فجاء كتابها موضحا لكثير مما غمض فضلا عن مناقشتها وتفنيدها لأراء الكثير من المستشرقين والمؤرخين المحدثين معتمدة على الأصول والمصادر .

والحق أنى أشعر بفخر كبير واعتزاز حين أقدم للمكتبة العربية التاريخية هذا الكتاب الذى يقدم لنا صفحة مشرفة وجانباً هاماً من جوانب الحضارة الإسلامية فى مصر فى فترة تقرب من تسعمائة عام هى تاريخ مصر فى العصر الوسيط .

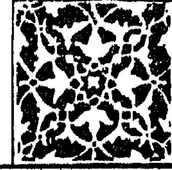
ومن خلال هذه الدراسة القيّمة للحسبة نقف على جوانب هامة فى حياة مصر الدينية والإجتماعية والاقتصادية فضلاً عن النواحى الصحية والاهتمام باجازات الأطباء وبصحة التغذية .

وإنى أرجو أن يكون جهد المؤلفة فى هذا الكتاب القيّم باكورة للعديد من الأبحاث الأصيلة فى تاريخنا الإسلامى الذىَ يجب أن يكون متصلاً بعالمنا المعاصر نستمد منه الكثير دون أن نتخلف عن ركب التطور العلمى المعاصر ودون انقطاع عن ماضينا المجيد .

والله ولىّ التوفيق

دكتورة
سيدة اسماعيل كاشف
أستاذة التاريخ الإسلامى والوسيط
ورئيسة قسم التاريخ - كلية البنات
جامعة عين شمس

٢٩ صفر ١٣٩٥هـ
١٢ مارس ١٩٧٥ م



مقــدمة

إن النظم الإدارية فى مصر الإسلامية جانب بارز من جوانب الحضارة الإسلامية ، ونظام الحسبة يعد أحد أركان هذه النظم التى تعكس أصالة هذه الحضـارة ، وعمقها ، وأسسها الدينية المثالية .

ولم يحظ هذا الموضوع بدراسات علمية تتفق وما له من أهمية كبيرة ، لذا عولت على القيام بهذا العمل العلمى لكشف جانب من الجوانب الهامة فى تاريخ مصر الإسلامية .

ولكى يُبرز الباحث المنصف مثل هذا الموضوع ، ويظهره بالمظهر اللائق به ، فعليه أن يطرق ميداناً زاخراً بالصعوبات والمشكلات .

وأولى هذه الصعوبات : طول الفترة الزمنية التى يتناولها الكتاب ، إذ ان الموضوع هو : «الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى» ، وهى فترة تبدأ بالعام الحادى والعشرين وتمتد حتى تنتهى عام تسعمائة وثلاثة وعشرين من الهجرة . ولا شك أنها فترة زمنية طويلة ، ومع ذلك فهناك سببان جعلانى لا أنقص من هذه الفترة شيئاً :

السبب الأول : أن النظم الإدارية كنظام الحسبة لا تكتمل صورتها إلا بدراستها دراسة مقارنة من حيث البعد الزمانى والبعد المكانى والبعد الحضارى . وعلى ذلك فقد عقدت المقارنات والموازنات بين الحسبة فى مصر ، والحسبة فى شرق العالم الإسلامى ، والحسبة فى المغرب والأندلس .

والسبب الثانى : وهو وثيق الصلة بالسبب الأول ؛ أن المادة التاريخية عن الحسبة فى مصر ، التى احتوتها ثنايا المصادر التاريخية والفقهية وغيرها تتفاوت فى مبلغ ما تيسره لنا ، من عصر إلى عصر آخر : فعلى حين يجد القارىء ، مثلا ، مادة علمية وفيرة عن الحسبة وأعمالها فى عصر المماليك ، نراه يعدم هذه المادة ، أو يكاد ، فى عصر الولاة ، الأمر الذى يجعل المنهج المقارن منهجاً حتمياً لابديل له .

ثانى هذه الصعوبات : خاص بالمصادر ، إذ ان معظمها لا يزال مخطوطا لم يحقق بعد ، إلى جانب البردى ، وصنج السكة ، وأختام المكاييل وكلها تحتاج فى دراستها إلى جهد لا يقل ، إن لم يزد عن الجهد المبذول فى دراسة المصادر الخطية ، من حيث نقد النصوص ، وتصحيح قراءاتها ، وإجراء التصويبات المناسبة .

كما كانت هناك صعوبات خاصة بالمنهج : لأن موضوع الكتاب يشمل فى ثناياه تأريخ الحسبة ثم دراسة مدى الالتزام بتطبيق مبادىء الحسبة ، وتعليماتها النظرية ، ثم عقد مقارنة تبين مدى اتفاق الحسبة ، أو اختلافها ، مع بقية النظم الأخرى : فكان من ثم أن وضعت فى الاعتبار المنهج التاريخى ، والمنهج الاستقرائى التحليلى ، إلى جانب ما راعيته من المنهج المقارن .

وقد استنفدت فى إعداد هذا الكتاب كل ما توصلت إليه من مصادر مخطوطة ، ومطبوعة ، وأوراق بردية ، وصنج للسكة ، فضلا عن المراجع الحديثة ، العربية والأجنبية ، وقد أرفقت به لوحات فوتوغرافية عن الملابس مأخوذة من كتاب : «تاريخ الأدب العربى» للأستاذ نيكلسون : Nicholson A. R Litrary-history of the Arabes نقلا عن النسخة الخطية لمقامات الحريرى ، الموجودة بالمتحف البريطانى ، ومؤرخة عام ٦٥٤ للهجرة . ومن كتاب : « الملابس المملوكية » للأستاذ ماير : Mayer L.A.—: Mamluk Costume.

كذلك أرفقت بالكتاب لوحات للصنج منقولة من كتابى الدكتور جورج ميلز : Miles. (G. C.). Contribution to arabic Metrology. Early arabes glass Weight and Stamps. وكتاب الأستاذ ستانلى لين بول : . Lane Poole Stanley Catalogue of Arabic Glass Weights in the British Museum.

والكتاب مقسم إلى ستة أبواب وخاتمة ، بالإضافة إلى هذه المقدمة .

- **البـاب الأول** : يتناول « **مصادر الحسبة ومراجعها** » وقسمته إلى أربعة فصول هى :

الفصل الأول : مصادر الحسبة فى مصر الإسلامية .
الفصل الثانى : مصادر الحسبة فى المشرق الإسلامى .
الفصل الثالث : مصادر الحسبة فى المغرب الإسلامى .
الفصل الرابع : المراجع الحديثة .

- **أما الباب الثانى فيعرض للحسبة** : معانيها وألقابها تعريفاتها وأصولها . ولهذا الباب يتناول معانى الحسبة التى صيغت على مضمونها ألقاب الحسبة ، كما يعرض للتعريفات المختلفة التى عرفت بها الحسبة ، ونظراً لتداخل مادة هذا الباب وضآلتها ، لم يكن من

الممكن تقسيمه إلى فصول ، وإنما اضطررت إلى تصنيف هذه المادة تحت عناوين جانبية فعرضتها على النحو التالى :-

١ - الحسبة : معانيها وألقابها .
٢ - الحسبة فى اللغة .
٣ - الحسبة فى الشرع وأساسها الدينى .
٤ - أصول الحسبة .
٥ - الحسبة فى دراسات المستشرقين .

● **أما الباب الثالث فهو بعنوان : « الحسبة فى مصر الإسلامية . »**
وقد قسمته إلى ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : «الحسبة : نشأتها وتطورها من عصر الولاة إلى نهاية الدولة الفاطمية» وهو يتضمن العصور التالية : عصر الولاة - الدولة الطولونية فترة ما بين عصرى الدولة الطولونية والاخشيدية - الدولة الاخشيدية ثم الدولة الفاطمية .

الفصل الثانى : «الحسبة فى عصر الدولة الأيوبية . »

الفصل الثالث : «الحسبة فى الدولة المملوكية . »

● **الباب الرابع بعنوان : «محتسب مصر : حقوقه وواجباته»**

وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول ، وهى :-

الفصل الأول : «من هو المحتسب؟ وما هى الشروط العلمية والأخلاقية التى ينبغى توافرها فيه . »

الفصل الثانى : «مراسم تعيين المحتسب ، ملابسه ، وأعطياته . »

الفصل الثالث : «أعوانه ، وسلطاته التنفيذية . »

وقد عنيت ، فى هذا الباب ، بإبراز مكانة المحتسب بين سائر موظفى مصر الإسلامية ، وعقدت المقارنات بينه وبين زميله فى المشرق الإسلامى ، وفى المغرب الإسلامى .

والتفاصيل التى أدرجتها عن المراسم والاحتفالات التى تقام تكريما لتولية المحتسب ، تبدو غاية فى الطرافة . واستكمالاً لهذه الصورة أوردت ، فى نهاية الكتاب ، ملاحق بنصوص سجلات تولية محتسبى : القاهرة ، والفسطاط ، والاسكندرية .

ولاشك أن مهام الوظيفة قد اتسعت جداً ، بحيث أصبح من المتعذر أن يقوم بأعبائها شخص واحد ، ومن ثم فقد لجأ المحتسب إلى اتخاذ الأعوان والمساعدين ، كى يعينوه على القيام بأعباء وظيفته بكفاءة واحكام .

● **الباب الخامس بعنوان : وظيفة المحتسب وعلاقتها بالميادين المختلفة .**

وينقسم الباب إلى ثلاثة فصول طويلة وهى :

الفصـــل الأول : « وظيفة المحتسب وعلاقتها بالمجال الدينى » .
الفصـــل الثـانى : « وظيفة المحتسب وعلاقتها بالمجال الإقتصادى والاجتماعى » .
الفصـــل الثالث : « وظيفة المحتسب وعلاقتها بالمجال الصحى » .

ويعد هذا الباب ، فى الحقيقة ، من أطرف أبواب البحث ، إن لم يكن أطرفها على الإطلاق . إذ أنه يبين الكيفية التى طُبقت بها التعاليم النظرية للحسبة عبر قرون طويلة .

● **الباب السادس بعنوان : « الحسبة وعلاقتها بالنظم الأخرى » .**

وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول هى :-

الفصـــل الأول : « الحسبة وعلاقتها بالقضاء » .
الفصـــل الثانى : « الحسبة وعلاقتها بالمظالم » .
الفصـــل الثالث : « الحسبة وعلاقتها بالشرطة » .

وتأتى ، بعد ذلك ، الخاتمة . وهى تتناول أبـرز النقاط التى عـولجت فى الكتاب ، والنتائج التى توصلت إليها .

وأخيرا يجىء دور الملاحق : وقد ألحقت بنهاية الكتاب خمسة ملاحق :-

○ **الأول** : ملحق خاص بسجل تولية محتسب قاهرى .
○ **الثانى** : ملحق خاص بسجل تولية محتسب مصر (الفسطاط) .
○ **الثالث** : ملحق خاص بسجل تولية محتسب الإسكندرية .

وترجع أهمية هذه الملاحق الثلاثـة ، إلى ما تحـويه من مـادة علمية ، تـطلعنا عـلى مسئوليات المحتسب ، وتعليمات عمله فى صورتها النظرية .

○ **والملحق الـرابع** : ملحق خـاص بـإلغـاء ضـريبـة المشـاهـرة والمجـامعـة فى ثغـر الإسكندرية . التى يقع الحديث عنها فى الفصل الثالث من الباب الثانى .

○ **الخـامس : ملحق يحتوى عـلى قائمـة مفهـرسـة بـأسـماء محتسبى القـاهـرة ومصـر (الفسطاط) ، وتاريخ وأسماء الحكام المعاصرين وهو ثبت احصائى جامع لم أكتف فيه** بذكر أسماء المحتسبين ، ومن عاصرهم من الحكـام ، وإنما أيـدت ذلك بـذكر المصـادر

والمراجع التى ذكرت هؤلاء الأشخاص ، وتحدثت عنهم ، بغية تسهيل مشقة البحث على الباحثين والقراء ، ولمن يرغب فى الاستزادة من العلم .

***

ومن الممكن عموماً إيجاز النقاط الجديدة فى هذا الكتاب على النحو التالى :ـ

أولا : مناقشة أصول الحسبة وتفنيد نظرية الأصل البيزنطى .

ثانيا : مناقشة آراء المؤرخين المحدثين ، المصريين والمستشرقين ،فيما يختص بأعمال الحسبة فى مصر ، ابتداء من عصر الولاة إلى نهاية العصر الطولونى ، بوصفها وظيفة مستقلة ، مع تحقيق صنجه الأستاذ ستانلى لين بول .

ثالثا : ماتوصلت إليه ، من وجود وظيفة الحسبة والمحتسب فى عصر الدولة الأموية ، وفى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) ، وذلك رغم إجماع المؤرخين ، المحدثين والمستشرقين ، على أن بداية وظيفة الحسبة ، وتنصيب المحتسب ، فى الدولة الإسلامية ، بوجه عام ـ يرجع إلى العصر العباسى ، فى عهد الخليفة المهدى سنة ١٦٩هـ . ومدى ارتباط مصر بالخلافة فى هذا الشأن ، شأنها شأن سائر ديار الإسلام .

رابعا : إبراز مكانة المحتسب بين سائر موظفى مصر الإسلامية ، وعقد المقارنات بين المحتسب فى مصر الإسلامية ، وبين زميله فى المشرق الإسلامى ، وفى المغرب الإسلامى .

***

وأخيراً أوجه شكرى الجزيل وتقديرى وامتنانى للأستاذة العلامة ، والأم الحنون ، والمنارة الهادية الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف على معونتها التى كانت ولاتزال بلاحدود . كما أوجه شكرى للأستاذ الدكتور سعيد عاشور والدكتور حسن حبشى والدكتور عبد الرحمن فهمى والدكتور عبد الوهاب شعيرة والأستاذ عبد العزيز عبد الحق والدكتور جورج شحاته قنواتى والأستاذة وفية عزى مديرة المتحف الإسلامى ،لسخائهم ، وسعة صدرهم فى الاهتمام بكل استفساراتى ، وبما أتاحوا لى من فرصة الاطلاع على مصادر علمية فى حوزتهم .

والله ولى التوفيق .

سهام مصطفى أبو زيد

الباب الأول

بحث في مصادر الكتاب ومراجعه

وينقسم إلى أربعة فصول هي :

- **الفصل الأول** : مصادر مصر الإسلامية .
- **الفصل الثانى** : مصادر الشرق الإسلامى .
- **الفصل الثالث** : مصادر الغرب الإسلامى .
- **الفصل الرابع** : المراجع الحديثة .

عقدنا هذا الباب للمصادر والمراجع التى رجعنا إليها فى كتابنا ، وقد رجعنا إلى الكثير من المصادر الأصيلة : وهى مؤلفات المؤرخين القدامى ، ومخلفات من قاموا بالحسبة أنفسهم ، سواء أكانت هذه المصادر كتباً مخطوطة أو مطبوعة أو آثارا أو فنونا مثل أوراق البردى والسكة والنقوش الأثرية .

كذلك رجعنا إلى المراجع الحديثة باللغة العربية أو اللغات الأجنبية .

وهذه المصادر والمراجع كثيرة ومتنوعة : بعضها خاص بمصر ، وبعضها الآخر بالمشرق ، والبعض الثالث خاص ببلاد المغرب والأندلس .

وفى مقدمة المصادر التى استعنت بها القرآن الكريم والحديث الشريف لما يتضمناه من تشريع .

الفصـــــل الأول

مصــادر مصر الإســلامية

ومن المصادر الخصبة ذات الأهمية الكبرى أوراق البردى العربية ، وقد فصل لنا البردى الكثير من الحياة الإجتماعية والاقتصادية والنظم الإدارية فى مصر ، وسبل التعامل بين الناس . كما أمدنا بتفاصيل دقيقة عن الصناع والزراع والعمال وأجورهم وأسعار السلع وغير ذلك . وجل هذه الجوانب تتصل من قريب أو بعيد بأعمال الحسبة ، ومن ثم فإننا استندنا عليه فى الكتاب الذى نحن بصدده .

كذلك اعتمدنا على أختام المكاييل وصنج السكة فى فجر الإسلام فى مصر ، قمت بتصويرها وقراءة ما كتب عليها من نقوش ، وبينت علاقتها بأعمال الحسبة والمحتسب ، ومادار من نقاش حول ذلك .

أما مصادر الحسبة الأصيلة التى تختص بالحديث عن حسبة مصر فلم يبدأ ظهورها إلا متأخرا فى القرن السادس الهجرى - الثانى عشر الميلادى - على الرغم من ظهور الحسبة فى مصر قبل ذلك بكثير - وكان «عبد الرحمن بن نصر الشيزرى» (٥٨٩ هـ - ١١٩٣م) ، من أسبق مؤلفى هذا القرن ، وقد خصص مؤلفه «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» للحسبة عن مصر الإسلامية ، وعاصر الدولة الأيوبية التى كتب عنها ، وكان من قضاتها البارزين فى بلاد الشام [١] ، وكان معاصراً للسلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وتوفى فى نفس السنة التى توفى فيها صلاح الدين وهى ٥٨٩ هـ/١١٩٣م[٢] .

وقد أفدنا من كتابه إفادة كبيرة ، وأصبح كتاب الشيزرى أساسا لما ألف بعده فى الحسبة فى القرن السابع والثامن الهجريين مثل كتاب ابن بسام ، وابن الأخوة .

---

(١) أشار حاجى خليفة فى «كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون» ، جـ٣/ ، ص ٥١٠ إلى أنه كان قاضياً لطبرية ببلاد الشام .

(٢) Brockelmann : Geschichte der Arabischer Litteratur I . P . 832 , Leiden 1937 .

والكتاب يوجد منه نسختان خطيتان فى دار الكتب[3] . وقام بتحقيق الكتاب الأستاذ الدكتور السيد الباز العرينى ، وتولى نشره مع تعليقات وشروح قيمة ، وضمن آخر الكتاب ثلاثة ملاحق مفيدة . ونشر بالقاهرة سنة ١٩٤٦ .

والجدير بالذكر أن ننوه هنا إلى فضل الدكتور فالتربرناور أمين المكتبة الإمبراطورية بفينا فهو أول من فطن إلى كتاب «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» للشيزرى . ولنا عودة إلى ذكر هذا المستشرق بعد .

واعتمدنا على كتاب «قوانين الدواوين» للقاضى الأسعد أبو المكارم بن مماتى المصرى (٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩م) ، وأصله من نصارى أسيوط بصعيد مصر ، أسلم فى بداية عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وخاف على نفسه فهرب من مصر مستخفيا وقصد مدينة حلب وأقام بها حتى توفى[4] .

وهو يعالج فى كتابه عدة موضوعات متباينة عن تاريخ مصر وإدارتها وحضارتها فى عصر صلاح الدين الأيوبى ، والكتاب عشرة أبواب مطبوع بمطبعة الوطن بالقاهرة سنة ١٢٩٩ غير كامل ، وأنفس أبوابه الباب التاسع الذى تحدث فيه عن دار الضرب ودار العيار واختصاصاتها ، ومواردها وعلاقتها بأعمال المحتسب .

ومن المصادر الهامة كتاب للمؤلف عز الدين عمر بن محمد بن عمر المقدسى قاضى القضاة الحنفى بمصر المعروف «بابن عوض السنامى» (٦٩٦ هـ/١٢٩٦م[5]) له «نصاب الاحتساب فى الحسبة ، يوجد منه نسختان مخطوطتان فى دار الكتب أحدهما تحت رقم ٥ «معارف عامة حليم» ، مرفق بها نسخة من مخطوط ، الرتبة فى طرائق الحسبة «لعبد الرحمن بن نصر . ونصاب الاحتساب يقع فى ٧٤ ورقة ، وثلاثة وستين بابا . والنسخة الخطية الأخرى توجد تحت رقم ٨٩ اجتماع تيمور . ويلاحظ أن السنامى قد نقل عن سابقيه ولكنه انفرد عنهم بالتفصيل فى تعريف معنى الحسبة والاحتساب مصدرا واسما .

كذلك رجعنا إلى كتاب «الرتبة فى الحسبة» «لابن الرفعة» وهو الامام نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن على الأنصاري ولد بالفسطاط (٦٤٥ هـ/١٢٤٧م) وتوفى (سنة

---

(٣) انظر فهرس الكتب العربية بدار الكتب المصرية ، جـ ٦ ، رقم ٢٠ صناعات و ٧٢ صناعات

(٤) ياقوت : «معجم الأدباء» جـ ٢ ، ص ٢٤٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٨٤ ، المقريزى : «الخطط» جـ ٢ ، ص ١٦٠ ، السيوطى «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة «جـ ١ ، ص٢٧٠ . سركيس : «معجم المطبوعات» جـ ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٥) البغدادى : هدية العارفين ، جـ ١ ، ص ٧٧٨ ط استانبول سنة ١٩٥١ ، Brockl ,s ,2 ,P , 427 .

٧١٠ هـ/ ١٣١٠م) أحد أئمة مصر الأجلاء علما وفقها ورياسة ، حامل لواء الشافعية ، (وكان ممتازا فى الاجتهاد)

تولى حسبة الديار المصرية ، وله مؤلفات عدة منها : «النفائس فى هدم الكنائس» وكتاب فى المكيال والميزان[٦] يوجد نسخة خطية منها بدار الكتب تحت رقم ٣١٢ رياضة تيمور تحمل اسم : «الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان»[٧] وقد استعنا بها جميعاً فى بحثنا هذا .

ويعد «ابن الرفعة» من القلائل الذين فطنوا إلى أهمية كتابات الماوردى وخاصة مصنفه «الرتبة فى طلب الحسبة» . والغالب أنه تنبه لها عندما ولى حسبة مصر ، وان كان السيوطى لم يوضح تاريخ توليه هذه الوظيفة عندما ترجم له .

والواضح أمامنا أن ابن الرفعة « محتسب مصر » حرص على قراءة كتابات الماوردى وحاكاه مادة وأسلوباً كذلك . وليس أدل على تأثر ابن الرفعة بالماوردى مما أورده فى كتابه «الرتبة فى طلب الحسبة» من احالات ونصوص كثيرة استقاها من مصنف الماوردى وذكرها بحرفها . ومع ذلك فهناك بعض الفروق الطفيفة فى ثنايا كتاب ابن الرفعة وقد استفدنا منها تماما ، فمنها ما أورده ابن الرفعة من نقط جديدة لم يوفها الماوردى حقها من الشرح وذكرها فى ايجاز مما حدا بابن الرفعة إلى أن يتصدى لسد هذه الثغرات فنراه يفصل الكلام عن المحتسب من هو ؟ ومن الذى ينصبه ؟ وما هى مهمته ؟ .

وعلى حين نجد الماوردى قد أغفل ذكر هذه النقطة نجد ابن الرفعة يعالجها فيفيض فى الكلام عن : سقوط تولية المحتسب ؟ ومتى تسقط ؟ وهو يرجع ذلك إلى عدة أسباب .

والنسخة التى قرأتها من مخطوط ابن الرفعة : الرتبة فى الحسبة «كتبت سنة ٩٨٧ هـ بمكتبة لاله لى الملحقة بالمكتبة السليمانية باستانبول برقم ١٦٠٧ . ويوجد نسخة منه «ميكروفيلم» فى معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية برقم ٢٥ سياسة واجتماع ، ١٥٣ ق (حجم متوسط)[٨] .

---

(٦) السيوطى : حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة جـ ١ ص ١٣٠ .

(٧) اليافعى اليمنى (الامام أبو محمود عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان عفيف + ٧٦٨هـ : «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» ، جـ ٤ ، ص ٢٤٩ ط . أولى : حيدر أباد سنة ١٣٣٩ الدكن .

أنظر المقريزى : «السلوك لمعرفة دول الملوك . جـ ٣/١ ، ص ٩١٢ تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة .

(٨) فهرس المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٢٥ سياسة واجتماع ص ٥٥٠ - ص ٥٥١ .

ورجعت إلى كتاب «معالم القربة فى أحكام الحسبة «لابن الأخوة» وهو محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد ابن الأخوة ، المصرى[9] القرشى ضياء الدين (٦٤٨ - ٧٢٩ هـ) ١٢٥٠ - ١٣٢٨م) ، وكان شافعى المذهب ، محدثا[10] .

حقق الكتاب ونشره وعلق عليه تعليقات قيمة المستشرق الانجليزى Reuben Levi مع ترجمة انجليزية فى مجلد واحد سنة ١٩٣٨ فى مجموعة جب التذكارية[11] .

وهناك اختلافات كثيرة حول ضبط اسم «ابن الاخوة» فنجد المستشرق الإنجليزى 'Reuben Levi فى مقدمته التى عقدها فى نشرته لكتاب (معالم القربة فى أحكام الحسبة) يضبط الاسم «ابن الأخوّة»[12] وتبعه فى ذلك المستشرقان Cl . Cahen and M . Talbi[13] ولكننا نجد «بروكلمان»[14] يضبط الإسم «ابن الإخْوّة» ويأخذ عنه الزركلى فى قاموسه[15] .

ويشتمل كتابه «معالم القربة فى أحكام الحسبة» على سبعين بابا و ٢٤٧ صفحة كما يحتوى على تفصيلات أكثر من كتاب «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» للشيزرى الذى احتوى على أربعين بابا فقط ، وبلغ به مائة وثمانى عشرة صفحة .

وقد تيسر لنا الاطلاع على النسخة المخطوطة والاعتماد عليها فى بداية الأمر وهى موجودة بدار الكتب تحت رقم ى ٦٧٩٠ ، ثم تم لنا الحصول على النسخة المطبوعة وقراءتها .

واستفدنا من كتاب ابن الأخوة استفادة كبيرة خاصة بعض الأبواب التى تناولها عن تعريف الحسبة ، ومعناها ، وشروط المحتسب ، والتطبيق العملى للحسبة فى الميادين : الدينية ، والإجتماعية والاقتصادية والصحية ، فقد فصلها تفصيلا دقيقا . كما استفدنا من معالجته لموضوع الحسبة وعلاقتها بالنظم الأخرى كالقضاء والمظالم .

---

(٩) Encyclopedie de l'Islam , mouvelle edition , Tome III , 1967 , art . Hisba . P .503 .

(١٠) ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ ٤ ، ص ٨٥ ، ط المدنى بدون سنة Brock: s .2 : 101 .

(١١) Gibb Memorial New series Vol XII , Cambridge , 1938 .

(١٢) Interoduction P .Xvi : "Ibn al — Ukuwwa" .

(١٣) Ency de i'ISI : Art : Hisba P . 503 (Ibn al — Ukuwwa) .

(١٤) Brock , s .2 : 101 .

(١٥) قاموس الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب المستعربين والمستشرقين ، جـ ٧ ، ص ٢٦٣ . وهو يقول : « وقد أخذت ضبط ابن الإخْوّة عن بروكلمان » .

واعتمدت على كتاب «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة «تأليف» «ابن بسام» الذى عاش فى أوائل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وتولى حسبة مصر . ويوجد من كتابه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ٦١٤ اجتماع طلعت . وقد حقق الكتاب ونشره حسام الدين السامرائى بالعراق سنة ١٩٦٨ (١٦) وقد كان ابن بسام محتسبا فى حياته ولذلك نراه فى كتابه يطبق ما ذكره من قواعد نظرية ويدلل على صحتها بما كان يشاهده فى أيام حسبته .

وهناك أوجه شبه عديدة تجمع بينه وبين الشيزرى ، وابن الأخوة ، ولكنه اضاف على مؤلفه الكثير من التعديلات والتفصيلات حتى بلغ كتابه أربعة عشر ومائة باب على حين أن كتاب الشيزرى لا يتعدى الأربعين بابا ، وكتاب ابن الأخوة لا يتعدى السبعين بابا .

وقد حدا هذا بالأستاذ الدكتور العرينى إلى القول «بأن ابن بسام أخذ تأليف الشيزرى فنسبه إلى نفسه عنوانا ومتنا بعد أن أضاف إليه أبوابا متعددة حتى بلغ بها هذا العدد» . ويبدو أن الأستاذ الدكتور العرينى كان متأثرا فى هذا الرأى بالدكتور «فالتربرناور» فقد ظن الدكتور العرينى أنه قال «ان هذه المؤلفات الثلاث وهى :

الشيزرى : فى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة »
ابن الاخوة : « معالم القربة فى أحكام الحسبة »
ابن بسام : « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة »

« هذه المؤلفات الثلاث ليست إلا كتاباً واحدا تناوله مؤلفون مختلفون بزيادات وتعديلات بحسب البلاد والأزمنة التى عاشوا فيها . أى أن كتاب الشيزرى أصل لكتابى ابن الاخوة وابن بسام أو لأحدهما على الأقل »(١٧) . والحقيقة أن الدكتور برناور عندما أشار إلى كتاب : « معالم القربة فى أحكام الحسبة » ، تساءل فى حيرة عن مصادر هذه الكتب ولم يجب عن تساؤله هذا ، فقد قال :

«هل كانت هذه المؤلفات مؤلفا واحدا فقط مع وجود عدة نسخ لمؤلفين متنوعين تناولوا نسخهم بالتعديل والتنقيح والتهذيب والزيادة»(١٨) .

---

(١٦) ونشكر الأستاذ الدكتور حسن حبشى لأنه يسر لى الاطلاع على النسخة المطبوعة التى فى حوزته .

(١٧) ذكر هذا الأستاذ الدكتور العرينى فى مقدمة نشرته لكتاب «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» .

(١٨) ذكر هذا الدكتور فالتر برناور فى مقالته فى :
(Behauer) V : Memoire Surles Institutions de police chez les Arabes , les persans et les Turcs . المترجمة فى مجلة روضة المدارس تحت اسم "Journal Asiatique" 5me Serie , 1860 ,T . xv ,pp . &61 ,509 . Txvl, pp . 119 _ 190 .

مجلات تيمورية بدار الكتب أنظر العدد ١٥ .

نبذة فى التنظيمات السياسية المختصة بالضبطية عند العرب والفرس والترك .

أما عن المستشرق الانجليزى Reuben Levi روبن ليفى الذى تولى نشر كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة مع فهارس وتذييلات وكشافات بالانجليزية فقد صدر الكتاب بمقدمة أدلى فيها بآراء لها قيمتها فى هذا الصدد فقد قال : (انه ليس من المؤكد أن ابن الاخوة فى «معالم القربة» وابن بسام فى نهاية الرتبة ليس من المؤكد أن يكونا قد نقلا عن الشيزرى فهذه المصنفات تحوى فصولا عديدة مشتركة ، كما أننا نجد أن هذه المصنفات تتشابه إلى حد كبير إلا أن هناك أوجه اختلاف بسيطة فإن مؤلف «معالم القربة» قد أضاف شيئا من المادة الجديدة الموسعة وأثار العديد من المناقشات ومن الصعب أن نحدد بدقة إن كانت المصنفات الثلاث قد استقت من مصدر واحد أو أن (معالم القربة) قد كتب مباشرة على أساس المصنفين الآخرين فكل مؤلف قد استخدم طريقته الخاصة بازاء الكم الذى اقتبسه من القرآن والحديث)[١٩] .

ويلاحظ هنا أن المستشرق قد قصر اقتباس المؤلفين للحسبة على القرآن والحديث ولكن الحسبة كانت نظاما قائما فعلا فى ذلك الوقت مزودا بقواعد وضوابط مفصلة مدنية لم يفصلها القرآن والحديث وإن كانت الأسس التى بنى عليها هذا النظام أسساً مستلهمة من القرآن والحديث .

وصفوة القول أن ابن الأخوة وابن بسام قد يكونان قد اقتبسا بعض المواد من الشيزرى ولكنهما بالتأكيد قد أضافا إليه الكثير ، ومهما يكن من أمر هذا التشابه فيما بين هذه المؤلفات فغير ممكن القطع بأنها ذات أصل واحد .

ويجب أن ننبه هنا إلى اهتمام الأب لويس شيخو والأب بويج بنشر قطع مختارة من هذا المخطوط «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» مع حواشى قيمة فى مجلة المشرق ، مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧م ، ص ٩٦١ - ٩٦٨ ، ١٠٧٩ - ١٠٨٦ ، سنة ١٩٠٨م ، ص٥٨٠ - ٥٩٤ .

وقد قرأت ما كتبه النويرى[٢٠] الذى ولد بمصر نحو (سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٩م) وتوفى (سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٢م) - عن الحسبة وأحكامها فى مؤلفه نهاية الارب فى فنون العرب فى السفر السادس المطبوع تحت اشراف وزارة الثقافة والارشاد القومى ومما يلفت النظر أن ما جاء به عن الحسبة قد نقل من الماوردى من كتابه الأحكام السلطانية .

وقد استفدت كذلك من كتاب «المدخل إلى الأعمال بتحسين النيات» لابن الحاج[٢١] وهو أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى القيروانى التلمسانى المالكى ، المتوفى بالقاهرة (سنة

---

(١٩) انظر تصدير كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة : . Reuben Levi : Intro , P .xvi , vil

(٢٠) ابن حجر . «الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٠٩ ط دار الكتب الحديثة .

(٢١) ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ٤ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

٧٣٧ هـ/١٣٣٦م) ، تلقى تعليمه بالمغرب ثم قدم إلى القاهرة وأصبح أحد المشايخ المشهورين فى الزهد والخير والإصلاح وصف فى كتابه المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ولكنه استمد الكثير من كتاب الشيزرى فيما يتعلق بالقصارين والبزازين ومؤدبى الصبيان(٢٢) .

وقد أفادنا هذا الكتاب بما كشف فيه مؤلفه عن معايب وبدع ومنكرات يفعلها الناس ويتساهل فيها الحكام . والكتاب أربعة أجزاء مطبوع .

واعتمدت ايضا على كتابات العلامة الفيلسوف المؤرخ ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣١ - ١٤٠٥م) الذى وفد إلى مصر (سنة ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢م) ، وكان قد انتهى من تأليف كتابه العبروديوان المبتدأ والخبر فى أخبار ملوك العرب والعجم والبربر «قبل ذلك ببضع سنين بعد أن ازداد خبرة بالتجارب التى تمرس بها وأودع تلك التجارب فى كتابه الذى ساهم فى مقدمته بمادة وفيرة عن موضوعنا وقد رأى أن «الحسبة فى كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين فى الأندلس كانت داخلة فى عموم ولاية القاضى ثم صارت مستقلة(٢٣) .

كما أبدى العلامة ابن خلدون آراء ذات أصالة عن الحسبة والقضاء والشرطة والمظالم وعلاقة الحسبة بهذه الأنظمة جميعا .

وفى مقدمة الذين استعنت بكتبهم القلقشندى (+ ٨٢١ هـ/١٤١٨م) فى : «صبح الأعشى فى صناعة الانشا» حيث أمدنا بمعلومات وافية عن حسبة مصر وبلاد الشام وذلك لأن مصر والشام دولة واحدة فى عصر المماليك وجعل القلقشندى لمحتسبى مصر والقاهرة مكانا رفيعا بين أصحاب الوظائف الدينية وأمدنا بمعلومات فريدة عن الطريقة التى كان يتم بها تولية المحتسب والاحتفال الذى كان يعمل خصيصا له عند تسلمه الوظيفة ، وسجل التولية الذى كان يقرأ عليه حتى يسير على هديه .

أما تقى الدين المقريزى المتوفى (سنة٨٤٥ هـ/١٤٤١م) فقد عرض للحسبة فى كتابه الأول (المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار) واعتبرها من أهم الوظائف الدينية ، وأمدنا بمعلومات وافية عن مرتب المحتسب وواجباته . واستطعنا أن نستخلص من كتابه ملابس المحتسب وذلك من خلال حديثه عن طبقة العلماء والقضاة . كما أشار إلى طريقة تولية المحتسب أيضا وسجل توليته .

---

(٢٢) المدخل جـ ٢ ص ٣١٤ - ٣١٥ ، جـ ٤ ، ص ١٦ - ١٨ - ٢٦ - ٢٧ .

الشيزرى : نهاية الرتبة ، الباب الحادى والعشرين والرابع والعشرين والثامن والثلاثين ص ٦١ - ٦٣ - ٦٧ - ٦٨ ، ١٠٣ - ١٠٥ .

(٢٣) المقدمة جـ ٢ ، ص ٥٧٧ .

وعرض المقريزى للحسبة أيضا فى كتابه (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء[٢٤]) وقال انه بعد أن تم للفاطميين الاستيلاء على مصر عزلوا المحتسب السنى وولوا بدلا منه محتسبا شيعيا ، وكذلك فعلوا فى بعض وظائف الدولة الاخرى .

وجدير بالذكر تولى المقريزى لبعض الوظائف الحكومية الهامة ، حيث انه فى (سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٨م) اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين متتالين ومارس أعمال الحسبة واكتسب خبرة بمسؤلياتها ولذلك نجده يعطى لنا صورة لما كانت عليه أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية صادقا معبرا فى كتابيه إغاثة الأمة بكشف الغمة[٢٥] والسلوك لمعرفة دول الملوك[٢٦] وتناول علاقة الحسبه بهذه الأمور .

كما استفدنا من كتابيه «الأوزان والمكاييل الشرعية «و» شذور العقود فى ذكر النقود[٢٧] .

ولنظرة واحدة على مؤلفات المقريزى التى استعنا بها فى كتابنا هذا كفيلة بإيقافنا على المامه بالخطط والتاريخ والترجمة والسكة والأوزان والمقاييس ، وأعمال الحسبة .

وحفل عصر المقريزى ببعض المشتغلين بالقضاء ، ومن هؤلاء ابن حجر وكان مولده بمصر (سنة ٧٧٣ هـ/١٣٧١م) ووفاته (سنة ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م) ومن آثاره العلمية كتاب «انباء الغمر فى انباء العمر» وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ٢٤٧٦ تاريخ[٢٨] وقد أرخ فيها بالسنين وتعرض لحسبة ومحتسبى القاهرة ومصر والشام ، فتكلم عن سنى توليتهم وعزلهم ، وأشهر أعمالهم ، كما تعرض لعلاقة المحتسبين بالحكام ، وعلاقة الحكام بالمحتسبين ، وعن فساد الحسبة فى عصره وتلاعب الجهلة بهذا المنصب الخطير ، وانتشار الرشوة فى بعض الأحيان كما استفدنا من كتابه «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة» فى تراجم كثير من الشخصيات والمحتسبين .

---

(٢٤) سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة . جـ ١٠ ص ١٤٢ . نشر الكتاب وطبعه الأستاذ الدكتور الشيال سنة ١٩٤٨ .

(٢٥) نشره وطبعه الأستاذان الدكتور مصطفى زيادة والدكتور الشيال سنة ١٩٤٠ .

(٢٦) حققه وعلق عليه ونشره الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى جزئين فيما عدا الجزء الثالث فقد حققه وعلق عليه ونشره الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

(٢٧) طبعا فى كتاب واحد فى ألمانيا سنة ١٧٩٧ باعتناء الأستاذ D .G .Tycksen وترجم دى ساسى De Sacy رسالة النقود إلى اللغة الفرنسية وتولى طبعها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة سنة ١٩٠٥ . وتولى الأب أنستاس مارى الكرملى نشر رسالة النقود أيضاً فى كتابه «النقود العربية وعلم النميات» المطبوع فى القاهرة سنة ١٩٣٩ .

(٢٨) حقق الجزء الأول منه ونشره الأستاذ الدكتور حسن حبشى فى القاهرة سنة ١٩٦٩م .

كذلك أفدنا من كتابه «رفع الاصر عنقضاة مصر» حيث أعطانا فيه صورا واضحة للقضاء فى العصر الفاطمى وفى نهاية النسخة المخطوطة - بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٥ تاريخ نقل إلينا ابن حجر عن ابن الطوير المصرى (الذى عاش فى أوئل العصر الأيوبى) من كتابه الذى ضاع (نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين) خواص وظيفة القاضى الفاطمى .

كما حفل عصر المقريزى بالمشتغلين بالحسبة ومنهم «العينى» الذى ولد سنة ٧٦٢ هـ/١٣٦٠ م) وتوفى (سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م) حيث اختير لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى (سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٨م) عوضا عن المقريزى وشغل وظيفة الحسبة عدة مرات . وهو أول من جمع رسميا بين القضاء والحسبة ونال حظوة كبيرة عند السلاطين المماليك وخاصة السلطان الأشرف برسباى لمداومته النصح له وقراءة التاريخ(٢٩) .

ومؤلفه الذى ساعدنا كثيرا فى موضوعنا يسمى «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» وهو خمسة وعشرون جزءا يوجد منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ولم يحقق بعد .

وقد شابه العينى المقريزى وابن حجر فى التأريخ لكتبهم بالسنين وذكر حوادث كل سنة ثم ذكر وفياتها فى النهاية وعلى ذلك تعرض للحسبة من هذه الزاوية .

ومن المؤرخين المصريين الذين كتبوا عن الحسبة أبو المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى (سنة ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م) وقد تقلد بعض المناصب الرفيعة فى الدولة المملوكية على عهد السلطان برقوق وابنه فرج ودرس على المقريزى والعينى وابن حجر وأفدت من كتابه (النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة) فقد تعرض فيه للحسبة ، ولذكر بعض المحتسبين الذين تولوا مناصبهم بالرشوة حتى أهملت الوظيفة وتعطلت مصالح الناس .

ورجعت كذلك الى كتاب «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى المتوفى (٩١١ هـ - ١٥٠٥م) وأخذت منه كثيرا من تراجم بعض المحتسبين والقضاة فى مصر الاسلامية وخاصة الجزء الثانى حيث نجد فيه فصلا خاصا بقضاة مصر .

وممن استفدنا من آثارهم العلمية أيضا ابن اياس المصرى المتوفى (سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) أفاض فى مؤلفه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) المعروف (بتاريخ مصر) فى الكلام عن الأزمات الاقتصادية التى اجتاحت مصر ، وموقف المحتسبين فى هذه الأزمات وما كان يلقاه بعضهم من الأذى الشديد من طوائف الشعب بسبب هذه الأزمات من ناحية أو بسبب فرض الضرائب من ناحية أخرى ثم نراه يصور ماترتب على فرض هذه الضرائب من فساد القطاع الاقتصادى وما ترتب على الغائها من وقع حسن على الشعب بأسلوب أدبى طريف .

---

(٢٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٦٣ - ٦٤ - ٠٧٧٥

ومن المصادر الخطية التى اطلعت عليها كتاب «الجرائم فى أحكام السياسة الشرعية» «للعدوى» وهو على بن أحمد بن مكرم فقيه مالكى مصرى من (سنة١١١٢ - ١٧٠٠هـ/ ١١٨٩ هـ ١٧٧٥ م)[٣٠] عقد فى كتابه بابا كبيرا مستقلا عن الحسبة[٣١] ويبدو أنه نقل هذا الباب من كتاب الماوردى الأحكام السلطانية وليس أدل على ذلك من أنه بدأ كلامه عن الحسبة فى أول الباب بهذة العبارة :

قال قاضى القضاة الماوردى . . . ثم يستأنس فى النتائج التى وصل اليها بقوله : . . . كما قال قاضى القضاة الماوردى .

وتلك هى السمة العامة فى معالجته موضوع الحسبة فى مؤلفه وعلى ذلك كانت استفادتنا منه محدودة .

أما عن السلامى (شهاب الدين أحمد) فقد استفدنا من كتابه «مختصر التواريخ» الذى يوجد منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٤٣٥ تاريخ . فى تصويره لحالة مصر الاقتصادية وأشهر الأزمات والمجاعات التى اجتاحتها فى عصر المماليك ، وربطت ذلك بأعمال الحسبة وواجبات المحتسب .

واستفدت من كتاب «أحكام الاحتساب» للشيخ - يوسف ضياء الدين - الذى يوجد منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ٣٧ اجتماع تيمور ألفه سنة ١٢٦٧ هـ[٣٢] - استفادة محدودة لأنه نقل عن سابقه السنامى «نصاب الاحتساب» ولكن الكتاب شمل مجموعة من الآراء والفتاوى الفقهية . وقد نسب الحسبة الى الخليفة عمر بن الخطاب ، كما نجده يعرف الحسبة ويبين أحكامها ثم يرسم خطة لما يجب على المحتسب من أعمال .

ومن المصادر الخطية الهامة كتاب «التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار «للأسدى[٣٣] - (شمس الدين) ويعرض فيه لكيفية الوصول الى الوظائف ونيل المراتب فى عصر المماليك ويرى فى مصر اهمال شئون الحسبة وعجز محتسب عصره عن القيام بالأعمال الحسبية ، ثم نراه يضع بعض الاقتراحات لاصلاح الحال . وكتابه يوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٥٤٨٦ تاريخ .

ومن المفيد أن ننبه أن المقريزى والعينى وابن حجر وابن اياس وابن تغرى بردى من أوثق من كتبوا عن الحسبة فى عصر المماليك لأنهم كانوا معاصرين لمعظم الأحداث التى دونوها فى تلك الفترة وخاصة من تولى منهم أمر الحسبة بنفسه مثل المقريزى والعينى .

---

(٣٠) Brockl , 2 . P . 4115 , s .2 .P .439 . والزركلى : قاموس الأعلام ، جـ ٥ ، ص ٧

(٣١) يوجد منه نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ١٢٠ اجتماع تيمور .

(٣٢) لم نوفق فى العثور على ترجمة للمؤلف سوى أنه ألف كتابه سنة ١٢٦٧هـ .

(٣٣) راجع ابن حجر : الدرر الكامنة ، حـ١ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ . ط دار الكتب الحديثة .

الفصـــل الثـانى

مصـادر الشرق الإسـلامى

أما عن الكتب التى تناولت الحسبة فى المشرق فكانت كثيرة أيضا ومتنوعة وقد اطلعت على معظمها حتى يتيسر لى عمل المقارنات والموازنات واستخلاص أوجه الشبه والاختلاف فى تطبيقات نظام الحسبة فى البلاد المختلفة .

ومما هو جدير بالذكر أن أول تأليف للحسبة فى المشرق ظهر مبكرا عن أول تأليف للحسبة فى مصر : فعلى حين أننا وجدنا ظهـور أول مؤلف مخصص عن الحسبة فى مصـر فى القرن السادس الهجرى - الثانى عشر الميلادى - نجد أول مؤلف عن حسبة المشرق يـظهر فى النصف الأخـير من القرن الـرابع الهجـرى - العاشـر الميلادى - وهى مؤلفـات الفقيه «المـاوردى» وهو أبـو الحسن على بن محمـد بن حبيب[١]البصرى البغـدادى الشافعى ، (٣٦٤ - ٤٥٠هـ) (٩٧٥ - ١٠٥٨م)[٢] ، درس بالبصرة وبغداد[٣] واستوطن بها[٤] ، وولى القضاء ببلدان كثيرة ، وبلغ منزلة عند ملوك بنى بويه .

له تصانيف كثيرة لم يظهر منها فى حياته شىء وإنما ظهرت كلها بعد وفاته[٥] ومنها :

(١) الحاوى الكبير فى فروع الفقه الشافعى فى مجلدات كثيرة .

(٢) تفسير القرآن .

(٣) أدب الدنيا والدين .

---

(١) Brockl : I ,p .971 Ency de l'Islam . III .P .477 .

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد : جـ ١٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ /ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٥ ، ص ٥٢ /ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ ٣ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٧ .

(٣) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، جـ ٧ ، ص ١٨٩ .

(٤) سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، جـ ١٠ ، ص ١٦١١

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٤١٠ .

(٤) قوانين الوزارة[٦] .

(٥) أعلام النبوة .

(٦) والأحكام السلطانية والولايات الدينية[٧] ، وكلهـا طبعت . كما أن لـه مؤلفا خطيا يسمى ، الرتبة فى طلب الحسبة .

يعتبر ما كتبـه الماوردى عن الحسبـة فى الباب العشـرين من كتابـه «الأحكام السلطانيـة والولايات الدينية «أساسا لما كتبه من جاء بعده من المؤلفين فى هذا الموضوع وعلى ذلك يعتبر «الباب العشرون» من أهم المصادر عن الحسبة .

أما عن كتابه «الرتبة فى طلب الحسبة» الذى يوجد منه نسخة خطية واحدة فى مكتبة الفاتح باستانبول[٨] ويوجد منه «ميكروفيلم» فى معهد المخطوطات التابع لجامعة الـدول العربية[٩] - فله أهمية بالغة فى هذا الصدد .

وتدل قلة النسخ الخطية من كتاب «الرتبة فى طلب الحسبة» على عدم انتبـاه أغلب المؤلفين إلى هذه النسخة ، وانصرافهم إلى ما كتبه الماوردى فى الباب المستقل الذى عقده عن الحسبة فى الأحكام السلطانية .

وأغلب الظن أن هذا كله يرجع إلى اعتبارهم أن الماوردى نقل هذه النسخة الخطية عن كتابه الأحكام السلطانية ، وبعد اطلاعنا على النسختين ومقابلة إحداهما بالأخرى تبين أن هناك كثيراً من الاختلافات وقليلا من أوجه الشبه فيما بينهما ، وليس أدل على ما هنالك من أوجه اختلاف بين الكتابين مما أورده الماوردى : -

أولا : من تناوله لموضوع الحسبة فى «الأحكام السلطانية» ذلك بأن هذا الباب لا يعدو أن يكون باباً من الأبواب العشرين فى كتابه الذى يبلغ عدد صفحاته حوالى عشرين صفحة (من ٢٤٠ - ٢٥٩) ، بينما معالجته لموضوع الحسبة فى النسخة الخطية من كتاب «الرتبة فى طلب الحسبة» شملت الكتاب كله الذى بلغ به سبعين باباً ، وان كان فهرسه يشير إلى أنه سبعة وستون فقط ، وقد بلغ به ١٣٨ ورقة أى ٢٧٦ صفحة .

ثانياً : إن معالجة الماوردى لموضوع الحسبة فى الأحكام السلطانية كانت معالجة نظرية ، لا تتعدى تعريفها من الناحية الفقهية وبيان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم الفرق بين

---

(٦) رضا كحالة : معجم المؤلفين ، جـ ٧ ، ص ١٨٩ .

(٧) سركيس : معجم المطبوعات ، ج ١٠ ، ص ١٦١١ .

(٨) أشار إلى ذلك Brockl : vol : I .p .971 وأحال على . SuppI .p .668

(٩) فهرس المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٢٤ سياسة واجتماع ص ٥٥٠ ، ص ٥٥١ ، وأشار الفهرس إلى أنه توجد نسخة منه بمكتبة الفاتح برقم ٣٤٩٥ ، ١٣٨ق (١٦ × ٢٢ سم) .

المحتسب المولى والمحتسب المتطوع ، وعلاقة الحسبة بالقضاء والمظالم . بينما معالجته لموضوع الحسبة فى مخطوطته كان مفصلاً تفصيلاً كاملاً ، ومفسراً تفسيراً شاملاً للحسبة بمختلف معانيها ، وليس من الناحية الفقهية فحسب بل تناول الماوردى فى كتابه الحسبة من حيث تطبيقها العملى فى المجالات : الدينية والاجتماعية والاقتصادية والصحية . وعلى الحملة فالكتاب ثبت مفصل فى أبوابه المختلفة للوسائل العملية التى يستطيع بها المحتسب مباشرة وظيفته وأعماله الحسبية وتحديد مهامه الدينية والمدنية فى المدينة الإسلامية .

ومن الجدير بالذكر أنه فى زمن الماوردى ظهر كتاب آخر فى «الأحكام السلطانية» لامام الحنابلة القاضى «محمد بن الحسن بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء» الشهير (بأبى يعلى الفراء) قاضى القضاة ببغداد ولد (سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م) وتوفى (سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م)

ومن الغريب حقاً أن نجد امامين من أئمة عصرهما ، الماوردى إمام الشافعية وأبا يعلى إمام الحنابلة يختاران اسماً واحداً لكتابيهما ، ومادة متشابهة تماماً ، اللهم إلا بعض الاختلافات التى أملاها عليهما المذهب .

ومن ملاحظتنا لتاريخ مولد كل من أبى يعلى سنة ٣٨٠هـ وسنة وفاته ٤٥٨هـ والماوردى الذى سبق مولده بحوالى ست عشرة سنة ، وتوفى قبله بحوالى ثمانى سنوات ، نستطيع أن نقرر أنهما عاشا فى عصر واحد وهذا يجعلنا نتساءل :

هل هذا دليل كاف على أن أبا يعلى تأثر بكتابات الماوردى ؟ أم أن كلا منهما ألف كتابه بدون صلة بالآخر ؟

وأيا كان هذا الأمر فتناول كل من الماوردى وأبى يعلى موضوع الحسبة متشابه إلى درجة كبيرة فى الكليات والجزئيات . فنجد الماوردى يخصص الباب الأخير (الباب العشرون) من كتابه للحسبة ، ونفس الشىء بالنسبة لكتاب أبى يعلى خصص الباب الأخير فى (أحكام الحسبة) .

كما نجد أن معالجتهما لموضوع الحسبة معالجة دينية بحتة ، واتجاههما فقهى بحت . ونسوق مثالا للتوافق بينهما فقد أشار المؤلفان إلى ما يراعيه ولاة الحسبة من أهل الصنائع فى الأسواق ثلاثة أصناف :

١ - منهم من يراعى عمله فى الوفاء والتقصير .
٢ - منهم من يراعى حاله فى الأمانة والخيانة .
٣ - ومنهم من يراعى عمله فى الجودة والرداءة[١٠] .

---

(١٠) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٥٥/أبى يعلى : الأحكام السلطانية ص ٢٨٦ .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق فى المادة والمنهج فالأمر لا يخلو من الاختلاف فى ضرب الأمثلة التى أملاها عليهما المذهب، فيذكر الماوردى مذهب الشافعى ، وأحاديث الصحابة والتابعين ، ويذكر أبو يعلى فروع مذهب الإمام أحمد وراوياته ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك اختلافهم فى «صلاة العيد» فقد ذهب الماوردى[11] الشافعى أن للمحتسب أن يأمر الناس بها ، ولكن هل يكون الأمر بها من الحقوق اللازمة أو من الحقوق الجائزة ؟ على وجهين من اختلاف أصحاب الشافعى فيها : هل هى مسنونة أو من فروض الكفاية ؟ فان قيل انها مسنونة كان الأمر بها ندبا ، وان قيل انها من فروض الكفاية كان الأمر بها حتما[12] .

أما أبو يعلى[13] فيقول «إن على المحتسب أن يأمر الناس بصلاة العيد . وأمره بها من الحقوق اللازمة لأنها من فروض الكفاية[14] .

ولكن الماوردى كان يدرك أهمية وخطورة وظيفة الحسبة مما حدا به إلى الانفراد بعد ذلك بتأليف كتاب مستقل عن الحسبة ، يعتبر من أسبق المؤلفات وأحسنها وأشملها تفصيلا وأجملها ترتيبا ، وهو كتاب «الرتبة فى طلب الحسبة» كما بينا سابقا .

ولا ننسى فضل الامام الغزالى وهو «أبو حامد محمد بن محمد الغزالى ، الملقب بحجة الإسلام ، ولد بقرية غزالة من قرى طوس بخراسان ، واليها ينسب ولد سنة ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م لأب كان يتخذ دكانا لنفسه يغزل فيه الصوف ويبيعه وبها تعلم الكتابة والخط ، وتتلمذ فى نيسابور على امام الحرمين الجوينى ، ولفت الأنظار إليه بذكائه وفطنته وحاضر بديهته ، لقيه الوزير نظام الملك فأعجب به وحل من نفسه محلا عظيما ، وولاه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤هـ . طاف الغزالى بكثير من البلاد الإسلامية فحج وانصرف إلى دمشق وبقى بها مدة وألف فيها بعض كتبه ويقال ان كتابه «احياء علوم الدين» واحد منها ، وزار القدس والإسكندرية .[15] . ويعد الامام الغزالى واحدا من أكبر العقول الإسلامية عبر تاريخ الفكر الإسلامى ، ومن القلائل الذين لهم أسبقية البحث فى موضوع الحسبة فى مصنفه الكبير «احياء علوم الدين» الذى قسمه إلى كتب وكل كتاب ينقسم بدوره إلى فصول ، خص منها الحسبة كتاباً طويلاً فى حوالى ٤٣ صفحة من القطع الكبير .

---

(١١) الأحكام السلطانية ص ٢٤٤

(١٢) عبد الوهاب خلاف : الفقه على المذاهب الأربعة . انظر صلاة العيد عند الشافعية ص ١٨٤ .

(١٣) الأحكام السلطانية ص ٢٧٢ .

(١٤) خلاف : «الفقه» انظر صلاة العيد عند الحنابلة ص ١٨٤ .

(١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٤٦٣ .
طبقات الشافعية جـ ٤ ، ص ١٠١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ١٠
الزركلى : قاموس الأعلام ، جـ ٧ ص ٢٤٧ . . Brockl . I .P . 535 . 719 . s . I .p . 744

ويعد الإمام الغزالى واحدا من أكبر العقول الإسلامية عبر تاريخ الفكر الإسلامى ، ومن القلائل الذين لهم أسبقية البحث فى موضوع الحسبة فى مصنفه الكبير « إحياء علوم الدين » الذى قسمه إلى كتب وكل كتاب ينقسم بدوره إلى فصول ، خص منها الحسبة كتابا طويلا فى حوالى ٤٣ صفحة من القطع الكبير .

وحديث الغزالى عن الحسبة له طابع متميز ينفرد عمن عداه من السابقين ، فقد رأى أن الحسبة عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولها أركان أربعة هى :

المحتسب - والمحتسب عليه - والمحتسب فيه - والاحتساب .

ولكل واحدة من الأربعة أركان وشروط . وهو فى هذا التقسيم يختلف كلية عن السابقين له ، كما يبدو علاجه كذلك جديداً لركن الاحتساب إذ يجعل له درجات وآدابا أولها : التعريف ، ثم النهى ثم الوعظ والنصح ، ثم السب والتعنيف ثم التغيير باليد ، ثم التهديد بالضرب ، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شهر السلاح ، ثم الاستظهار فيه بالأعوان .

واستفدت كذلك من كتاب «الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية للإمام «ابن تيمية» وهو تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن تيمية الحنلى الدمشقى ، ولد بحران سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م) وتوفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) قرأ الفقه وبرع فى العربية والأصول وعلم التفسير والحديث ، وتأهل للفتوى والتدريس وهو دون العشرين سنة ، وصار من أكابر العلماء ، أثار عليه الحساد فتنة فنقل إلى الديار المصرية وحبس بالقلعة ثم أفرج عنه ، فرجع إلى دمشق وعاد إلى الاشتغال والتعليم[١٦] والافتاء . له مؤلفات كثيرة وما يهمنا منها كتابه المذكور .

وتلميذه ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى الحنبلى من (سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م) - (٧٥١هـ/١٣٥٠م) . لازم الشيخ ابن تيمية ، وأخذ عنه ، وهذب كتبه . ونشر علمه[١٧] ، ألف كتاب «الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية أو الفراسة المرضية فى أحكام السياسة الشرعية .

ولا ريب أن الصلة القوية التى كانت بين التلميذ وأستاذه كانت هى السبب فى التشابه الكبير الذى يلفيه القارىء فى مؤلفيهما . وقد زودنا كلا المؤلفين بمعلومات وفيرة عن الولايات الإسلامية مثل ولاية الحرب ، والقضاء ، والمال ، وولاية الحسبة ، وعن تداخل

---

(١٦) الكتبى . فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٥/سركيس : معجم المطبوعات جـ ١ ص ٥٥

(١٧) المقريزى السلوك حـ ٢/١ ، ص ٢٧٣ - ابن حجر الدرر الكامنة ، يورد الاسم «محمد بن أبى بكر» /وسركيس : معجم المطبوعات جـ ٢ ص ٢٢٢

اختصاصات هذه الولايات فى بعض العصور . «فقد يدخل فى ولاية القضاء - فى بعض الأزمنة والأمكنة - ما يدخل فى ولاية الحرب فى زمان ومكان آخر ، وبالعكس ،كذلك الحسبة وولاية المال[18]

وينقل الثانى عن الأول ما كتبه عن ولاية الحسبة والقواعد التى تقوم عليها من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وفى تفسير بعض واجبات المحتسب .

ولكننا نجد اتجاه الإمام ابن تيمية دينياً بحتاً - أو يكاد - فى حين أننا نجد بعض الاختلافات البسيطة فى اتجاه الإمام ابن القيم الجوزية ، فهو يجمع بين اتجاه ابن تيمية الدينى ، ويعقد فصلاً - كما فعل ابن تيمية - عن «العقوبات الشرعية» لبيان سلطة المحتسب التنفيذية ، والحدود التى يمكن له أن يعاقب عليها ولا يتخطاها ، ونوع العقاب الذى يوقعه على المخالفين . كما نجد الإمام ابن القيم يجمع بين اتجاه ابن تيمية ويزيد عليه عندما يتعرض لموقف المحتسب وعلاقته بالنواحى الاجتماعية أيضا ، فيذكر اشرافه على النساء ، ومنع المحتسب لهن من الخروج متجملات متبرجات ، وتحديد نوع من الثياب لهن ، ومراقبتهن فى الخروج واجتماعهن بالرجال .

واعتمدنا فى كتابنا هذا على كتاب أنساب الأشراف «للبلاذرى» - وهو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (٢٧٩هـ/٨٩٢م) أحد عظماء المؤرخين العرب فى القرن الثالث الهجرى ، وهو فى طريقته فى عرض مادته التاريخية متأثر بنظام الطبقات كطبقات ابن سعد .

وأنساب الأشراف فى الواقع كتاب طبقات مرتب على نهج طبقات ابن سعد ، بدأ فيه بسيرة الرسول وسير الصحابة ثم أورد العباسيين بعد العلويين وبنى عبد شمس بعد بنى هاشم ، وذكر الأمويين ولكنه لم يفرد لهم مكاناً خاصاً[19] ومن خلال عرضه لتاريخ الأمويين عرفنا منه أن وظيفة الحسبة كانت موجودة أيام الدولة الأموية وهو يذكر بعض محتسبى واسط فى هذا العصر .

ولم يطبع من كتاب البلاذرى إلا الجزء الأول فقط والجزء الذى اعتمدت عليه مازال مخطوطاً بدار الكتب رقم ١١٠٣ تاريخ .

وأعطتنا كتب الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى لمصر الإسلامية مثل : رحلة ناصر خسرو ، وعبد اللطيف البغدادى «الافادة والأعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» ، ورحلة ابن جبير . أعطتنا صوراً اجتماعية ، ونماذجاً رائعة لأحوال المجتمع والأحوال الاقتصادية فى بعض العصور .

---

(١٨) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، ص ٢٣٩ ، تحقيق حامد الفقى ، ط القاهرة ١٩٥٣ .

(١٩) ويلاحظ أنه خير مرجع عن الخوارج . Brockl I P . 141 , s . I , 216 .
دائرة المعارف ، مادة بلاذرى .

الفصل الثالث

مصادر المغرب الإسلامى

وكان منهجنا أيضا فى هذا الكتاب الاعتماد على كتب الحسبة التى ظهرت فى المغرب عملاً بمنهج المقارنات والموازنات ، واستخلاص أوجه التشابه والاختلاف فى تطبيقات نظام الحسبة فى كل من مصر وبلاد المشرق وبلاد المغرب .

وجدير بنا أن نذكر أن مؤلفات الحسبة فى المغرب قد ظهرت مبكراً عن مؤلفات الحسبة فى مصر وفى المشرق ، فبينما ظهرت فى مصر فى القرن (٦هـ - ١٢م) ، وفى المشرق فى النصف الأخير من القرن (٤هـ - ١٠م) كما ذكرنا نجدها فى المغرب ترجع إلى منتصف القرن (٣هـ - ٩م) .

وأقدم عمل فى الحسبة هو كتاب « أحكام السوق » « ليحيى بن عمر » وهو أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكنانى الذى ولد (سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م) وتوفى (٢٨٩هـ/٩٠١م) ، وقد نشأ فى قرطبة ودرس على فقهائها ، وتوجه إلى مصر ودرس على أكبر واضعى المذهب المالكى ، كما اتصل بالحضارة العراقية ، ورحل إلى الحجاز وعاد إلى المغرب ، واستقر فى تونس .

وقد نشر كتابه وعلق عليه الأستاذ الدكتور محمود على مكى فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد فى المجلد الرابع (سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) العدد ١ - ٢ .

واستفدنا من هذه الوثيقة الهامة فى دراسة الأنظمة الحضارية فى المغرب فقد دلت على أن نظام الحسبة قد بلغ شأواً كبيراً من الدقة فى هذا الوقت المبكر الذى ألفت فيه حتى أن الاشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً ، وأن المحتسبين «المشرفون على الأسواق» كان لهم فى أوضاع الاحتساب ما نستطيع أن نسميه قوانين يتداولونها فى جميع الباعات .

وتلا ظهور كتاب (أحكام السوق) بالمغرب كتب الحسبة الأخرى فى القرن السادس الهجرى ، مثل كتاب «أدب الحسبة» للسقطى ، وهو أبو عبد الله محمد بن أبى محمد السقطى المالقى الأندلسى ، نشر كتابه فى باريس المطبعة الأولية سنة ١٩٣١م . وقام

بتحقيقه وشروحه وطبعه المستشرقان ليفى بروفنسال وكولان مع تقديم للكتاب وفهـرس للمصطلحات والألفاظ وقد استطعت قراءة المحطوط بدار الكتب وكان بالخط المغربى ، كما وفقت فى قراءة النسخة المحققة فى مكتبة جامعة الدول العربية .

والجدير بالذكر أن السقطى مارس الحسبة [1] ولذلك فعرضه لها فى كتابه جاء عرضاً عملياً رائعاً ونصائح عملية لم يمارسها غيره من ولاة السوق . ولذلك فقد برع فى كشف الحيل وأنواع الغش فى أنواع التجارة والصناعة .

وهذا الكتاب وان كان مؤلفه مغربياً ، إلا أنه يتيح لنا عمل المقارنات والموازنات من حيث الشروط الواجب توافرها فى المحتسب ، وسلطات المحتسب التنفيذية ، وواجبات المحتسب العملية ، وبذلك نستطيع أن نقول ان الكتاب أعطانا صورة واضحة عن أن الحسبة فى بلاد العالم الإسلامى جميعها لها قواعد ثابتة متشابهة من حيث أعمالها والقائم على أمورها .

ثم تبع ذلك نشر ليفى بروفنسال لنص رسالة ابن عبدون (محمد بن أحمد بن عبدون التجيبى) عن القضاء والحسبة فى المجلة الآسيوية والتى أدلى فيها ابن عبدون برأيه فى أن المحتسب كان تابعاً للقاضى فى أول الأمر ثم استقل بوظيفته فى المدن الأندلسية ، وقد أشار المؤرخ ابن خلدون أن ذلك كان المتبع فى مصر أيضاً .

ثم اعتنى المستشرق ليفى بروفنسال بتحقيق ونشر كتاب «ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة والمحتسب» ، واهتم بدراسته اللغوية والفنية والتاريخية والاجتماعية ، وطبع الكتاب بمطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . المجد الثانى القاهرة سنة ١٩٥٥ .

وتضمن الكتاب ثلاث رسائل خطيرة عن الحسبة :

أولها : رسالة ابن عبدون : وتعتبر من أقيم الرسائل التى أعانتنا فى رسم صورة واضحة عن الحسبة والقضاء فى المغرب .

وثانيها : رسالة (ابن عبد الرؤوف) ولا تختلف رسالته كثيرا عن رسالة ابن عبدون .
والرسالة المغربية الثالثة فى الحسبة لعمر بن عثمان بن عباس الجرسيفى[2] .

وخلاصة القول ان هذه الرسائل الثلاث قد وضحت لنا أعمال الحسبة ومهمة المحتسب بطريقة لا تخالف كثيرا طريقة معالجة أرباب الاحتساب لأعمال الحسبة فى المشرق

---

(١) لقبال موسى «الحسبة فى المغرب» رسالة ماجستير .

(٢) أما عن تراجم مؤلفى هذه الرسائل الثلاث فلم نوفق فى العثور عليها ، وقد ذكر ليفى بروفنسال فى تصدير هذا الكتاب «أنه ليس بوسعه أن يتحقق من مؤلفى هذه الرسائل بدقة كافية ، وقال : انه يبدو أن المؤلف الأول (ابن عبدون) قد ولد فى الأندلس فى فترة متقدمة نسبياً . والثانى (الجرسيفى) نسبة لأجرسيف : (Agarsif) أو (Garsif) وهى اليوم : Guercif : وتقع فى مراكش الشرقية .

مما يدل على أن الحسبة وقواعدها متشابهة فى المدن الإسلامية ، مشرقها ومغربها .

ونقف هنيهة لنعرض وثيقة هامة استطعنا العثور على نسخة فريدة وحيدة منها وهى كتاب «التراتيب الادارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية فى المدينة المنورة العلية» ، ومؤلفه عبد الكبير الكتانى الادريسى الحسنى الفاسى . وقد جمع الادريسى المادة من كتاب «تخريج الدلالات السمعية» ، ومؤلفه أبو الحسن على ابن ذى الوزارتين محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود بن موسى بن أبى غفرة الخزاعى الذى ولد سنة ٧١٠ هـ وتوفى ٧٧٩ هـ .

والجديد فى الكتاب أنه تناول عصر الرسول ﷺ بأكمله وعقد أكثر فصوله عن النظم الإسلامية وصدرها بنظام الحسبة ، وعقد فصلا سماه : «فيما جاء عن رسول الله فى الحسبة» وآخر عن «فيمن ولاه رسول الله أمر السوق» ، وتكلم عن شروط المحتسب ، وما يجب عليه وأحكام الحسبة ، ومكانتها بين النظم الدينية الأخرى .

ومن المصادر المغربية الهامة أيضا كتاب «التيسير فى أحكام التسعير» للقاضى أبى سعيد أحمد بن سعيد « ١٠٩٤ هـ = ١٦٨٢م»[٣] والكتاب يدور أغلبه على فرع من فروع الحسبة وهو التسعير ، ولهذا السبب يرجع اسمه . وقد جعل أحمد بن سعيد مسائل الحسبة ، مجالا لاجتهاد الفقهاء وأولى النظر من أصحاب المدارس الفقهية المالكية . فالمقدمة خصصت للحديث عن حقيقة التسعير عند اللغويين وفقهاء المذهب المالكى ، أما الخاتمة فتضمنت مسائل نهى الشارع عنها ، كما تضمنت أيضا ارشاد المحتسبين إلى الاستعانة بأمناء ثقات يخافون الله ويلزمون حدوده .

وعلى أى حال فلا يختلف معالجته للحسبة فى أبواب كتابه عن معالجة السابقين له .

وقد قام بتحقيق الكتاب الأستاذ اقبال موسى فى رسالة ماجستير تحت عنوان (الحسبة فى المغرب) سنة ١٩٦٨ .

وكانت خطتنا أن نعتمد على المادة العلمية لهذه المصادر ، فى المقام الأول حتى نستخلص منها مواد الكتاب مباشرة بعد التحقيق والموازنة ، والوقوف على الدليل واستخلاص النتائج .

---

(٣) وجميع نسخ هذا الكتاب مخطوطة بالجزائر والمغرب ، ولا يوجد نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

Ency. de Isl . Art Abual Abbas Tom I.P.947 — Brockl. S.I.P. 575

عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

ونشكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة المشرف على تلك الرسالة لأنه يسر لى الاطلاع على النسخة التى فى حوزته : « الحسبة فى المغرب » رسالة ماجستير ص٨١ - ٨٣ . من ترجمة « لأحمد بن سعيد » . وما ذكره من مراجع مغربية .

الفصل الرابع

المراجع الحديثة

ويأتى بعد ذلك دور المؤلفات الحديثة ، وهذه المراجع التى تناولت موضوع الحسبة لا تزال تعد قليلة ، بها كثير من الثغرات والفجوات ، فالقواميس المختلفة ودوائر المعارف كانت عونا لنا فى تعريف الحسبة ، وتفسير المصطلحات المختلفة . وقد كتب الأستاذ الدكتور السيد الباز العرينى عن الحسبة فى بيزنطة ، ونقل كتاب «والى المدينة البيزنطى» . إلى العربية فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ١٩ جـ ١ مايو ١٩٥٧م ، وتوجد طبعة أخرى للكتاب ، مستقلة تحت عنوانه «الحسبة فى بيزنطة» .

ومقالة أخرى عن «الحسبة والمحتسبون فى مصر» نشرت فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية العدد ٢ مجلد ٣ لسنة ١٩٥٠ .

وقد استعنت بآراء الأستاذ الدكتور العرينى كثيرا فى كتابى .

كما قرأت بحثا عن الحسبة للأستاذ الدكتور عبد الحميد العبادى نشر فى مجلة مجمع اللغه العربية ، جـ ٨ طـ سنة ١٩٥٥ ، وآخر للأستاذ الدكتور اسحق موسى الحسينى ، فمقاله عن الحسبة فى مجلة المقتبس جـ ٩ ، المجلد ٣ لسنة ١٩٠٨ .

كما أننا استفدنا من موسوعات النقود : «كموسوعة النقود العربية وعلم النميات» وكتاب «صنج السكة فى فجر الإسلام» ، والنقود العربية ماضيها وحاضرها - للأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى - لعلاقتها بأعمال الحسبة والمحتسب .

ووجدنا كتابا مستقلا عن الحسبة بعنوان «الحسبة فى الإسلام» للشيخ المراغى وآخر بنفس العنوان لإبراهيم الشهاوى .

كذلك قرأنا للدكتور سيد دراج «الحسبة وأثرها على الناحية الاقتصادية فى دولة المماليك» نشرت فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية المجلد ١٤ لسنة ١٩٦٨ .

وقرأنا ثلاثة أبحاث أخرى عن الحسبة نشرت فى أسبوع الفقه الإسلامى ومهرجان ابن تيمية دمشق شوال سنة ١٨٣٠م .

كما أنار لى الطريق عمل المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم نذكر الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن ، فقد رجعت إلى كتابه عن الطولونيين "Les Tulunides" [١] الذى يعتبر بحق حجة فى تاريخ الدولة الطولونية ، كذلك مؤلفاته المتخصصة عن الآثار والفنون الإسلامية ، وهى وإن لم تتكلم عن الحسبة بطريق مباشر إلا أننا استطعنا استنتاج ما يمكن استنتاجه وربطه بأعمال الحسبة . كما استفدت من كتابه «الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى» فى ترجمة الرحالة الذين زاروا مصر .

واعتمدت كثيرا على مؤلفات الأستاذه الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ومنها : كتاب «مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه» ، وقد أرشدنى إلى مصادر حقب التاريخ الإسلامى المختلفة ، كما أدين له بنوع أخص بتنبيهى إلى مصدرى البردى والسكة . كما استعنت بكتبها «أحمد بن طولون» ، «ومصر فى فجر الإسلام» ، «وكتاب مصر فى عصر الاخشيديين» . ومن هذا الكتاب الأخير استفدت من عرضها للنظم الحضارية فى مصر فى هذا العصر وهى (القضاء ، والمظالم ، والحسبة) . وقرأت بحثا فى النقود العربية الذى نشر فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية .

وقد تحدث الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه «المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك» عن الحياة الاجتماعية على عصر هؤلاء السلاطين ، واستفدنا من كتاب «العصر المماليكى فى مصر والشام» و «مصر فى عصر دولة المماليك البحرية» وربطت بين هذه النواحى الاجتماعية وبين نشاط المحتسب فى هذا المجال .

كما استفدت من عمل الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد فى كتابيه «نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر» ، و «نظم دولة المماليك ورسومهم فى مصر» . ولاحظت فى كتابه الأول إشارة للوجهة المذهبية للحسبة فى عصر الفاطميين .

وفى كتابه الثانى أشار إلى انحدار الأخلاق وصعوبة مهمة المحتسب نظرا لانتشار الفساد ، وموقف بعض حكام المماليك مثل السلطان الظاهر بيبرس ، والناصر حسن من هذا الانحلال ومقاومتهم له .

ولا ننسى عمل الأب أنستاس مارى الكرملى ، وهو أحد رهبان الآباء الكرمليين فى بغداد ، صاحب مجلة لغة العرب ، وعضو فى مجلس المعارف بالعراق سنة ١٩١٨ ، وكان عضواً من أعضاء مجمع فؤاد للغة العربية بالقاهرة ، له مقالات قيمة بأكثر المجلات الشهيرة كالمقتطف والهلال والمشرق وغيرها[٢] .

---

(١) طبعة باريس ١٩٣٣ .

(٢) سركيس : المعجم ، جـ ٣ ، ص ٤٨١

ومن مؤلفاته التى أفادتنا كتابه عن «النقود العربية وعلم النميات» طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٩ المطبعة العصرية ، جمع فيه أربع رسائل ونشرها هى :-

البلاذرى : فتوح البلدان .

المقريزى : رسالة فى النقود الإسلامية .

الجزء العشرين من الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .

رسالة مخطوطة : «تحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال ، وبيان مقادير النقود المتداولة بمصر على مقتضى ما حدد بدار الضرب سنة ١٢٥٦» . تأليف مصطفى الذهبى [٣] الشافعى . وقد تولى الأب انستاس مارى الكرملى جمع هذه الرسائل الأربعة ونشرها مع تعليقات وشروح وحواشى قيمة .

وقد لفت نظرنا ما أورده فى حواشيه من آراء عن «دار العيار» تبدو غريبة ومناقضة لما ذكره المقريزى وابن مماتى [٤] ، وقد فات عليه ما ذكره المقريزى فى خططه عن دار العيار [٥] .

كما أننا وجدنا بعض المستشرقين الذين وجهوا عنايتهم لدراسة هذا الموضوع ولكنهم عنوا ببحث مسائل متفرقة منه ، وقد كان ذلك فى الأكثر - فى ثنايا عرضهم للتاريخ الإسلامى ، وسياق تناولهم أو معالجتهم لموضوعات أخرى .

ومهما يكن من أمر فقد تفاوتوا فى مقدار نزاهتهم ودرجة إنصافهم . فمنهم من مال مع الهوى فصرح قليلا أو كثيرا بالحقيقة ، ولكنهم تميزوا من ناحية أخرى بالقدرة الفائقة على عرض المعلومات بعد هضمها وتحليلها .

وجدير بالذكر منهم الأستاذ جاستون فييت فقد رجعت إلى كتابه :

Histoire de la Nation Ègyptienne, Tome lv, paris, 1937

فى تحقيقى لبعض ولاة وحكام مصر ، وأصحاب الشرطة ، وولاة الخراج ، والقضاة . وقرأت فيه ما يخص مصر فى فجر الإسلام ثم تاريخ مصر فى العصر الفاطمى ، والأيوبى ، والمملوكى .

ومن هؤلاء الأستاذ ستانلى لين بول S. Lane Poole وقد كان نصيب مصر من مؤلفاته أكثر وأوفر من نصيب الأقطار الشرقية الأخرى ، فقد ولد سنة ١٨٥٤ فى لندن ، وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث فى الآثار العربية ، ثم عين أمينا لقسم النقود الأثرية فى المتحف البريطانى بلندن ، وفى سنة ١٨٨٣ م قام برحلة علمية إلى مصر لدراسة الآثار - ثم

---

(٣) حققه ونشره الدكتور عبد الرحمن فهمى سنة ١٩٦٩ .

(٤) قوانين الدواوين ، ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤ .

(٥) جـ ١ ، ص ٤٦٣ ــ ٤٦٤ . انظر مارى الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ، ص ٤٢ حاشية (١) .

اشتغـل بين سنتى ١٨٩٥ - ١٨٩٧ م - بـدراسة آثـار القاهـرة تحت اشراف الحكـومـة المصرية[٦] . وأهم ما أفادنا من آثاره العلمية كتابه :

History of Egypt in the middle ages, London 1925.

وقد أورد فيه الصنجة المصرية للمحتسب «اسماعيل بن صالح بن على العباسى» على مصر سنة ١٦٩ هـ ، وقد أحالنا على كتابه :

Cataiogue of Arabic Glass Weights in the Britsh MUSEUM. London,1891.

للتحقق من هذه الصنجة . وقد ثبت أن نقوشها وكتاباتها تختلف تماما عن ما رآه هذا المستشرق .

وله مصادر أخرى كانت عونا لنا فى بحثنا ومنها :

The story of cairo.

وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ الـدكتور عـلى ابراهيم حسن . ونشر بالقاهرة سنة ١٩٥٠ بعنوان «سيرة القاهرة» .

History of Egypt.

ورجعت كـذلـك إلى كتـاب "Les Institutions Muslmanes" للمستشـرق Gaudefroy Demombynes وترجمة إلى العربية الأستاذان فيصل السامر وصالح الشماع بعنوان «النظم الإسلامية» .

وكتاب"Medieval Islam" Chicago 1947 للمستشرق جرونباوم Gustavvongrune Baum،ترجمة إلى العربية الأستاذ عبد العزيز جاويد بعنوان « حضارة الاسلام » وقد أخذ فيها هذان المستشرقان بنظرية الأصل البيزنطى للحسبة .

كما كان لكتاب الدكتور الطبيب الكيميائى « سامى حامرنه » بعنوان :

Origin and Eunctions of Hisbah System in Islam and its impat on the health profession أصل ومنشأ نظام الحسبة فى الاسـلام وأثرهـا على المهن الصحيـة « فضل كبير فى اجتلاء واجبات جديدة للمحتسب لم تكن معروفة قبل ذلك .

أما عن كتب الدكتور Miles" وهى :

1) Firrlyarabicglass weights and stamps

2) Contribution to arab Metrology

فقد أودع فيها آراء خطيرة عن الأوزان الزجاجية ، وأختام المكاييل ، واستطعنا ربط هذا كله بأعمال الحسبة فى فجر الاسلام .

---

(٦) د . حسن إبراهيم حسن وآخرون . مقدمة نشرتهم لترجمة كتاب سيرة القاهرة .

ويجب ألا ننسى فضل الدكتور فالتربرناور أمين المكتبة الامبراطورية بفينا "Walter Behrnauer" فهو أول من أدرك واكتشف مجموعة كبيرة من الكتب وجاء هذا الاكتشاف وليد دراسته لنظام الشرطة عند العرب والفرس والترك ، ولذلك تعرض للحسبة ولبعض مؤلفي كتب الحسبة في بحثه هذا الذي نشر بعنوان :

Behrnauer Memoire sur les institutions de police chez les Arzles persans et les Turcs Journ As 5 eme Seriee' 1866 txv 'T XVI

ويوجد ترجمة باللغة العربية : نبذة في التنظيمات السياسية المختصة بالضبطية عند العرب والفرس والترك ، نشر في سلسلة كبيرة بمجلة روضة المدارس (١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢ م) ويوجد نسخة منها بدار الكتب ، المجلد الثالث

١ - مجلات تيمورية (الأعداد ١٥ - ١٦ ١٧ - ١٨) .

وقد أعطانا الدكتور برناور صورة عن الحسبة كما تصورها وسماها «الضبطية البلدية» وقد استفدنا من بحثه عن « نظام الشرطة » في بيان ووضوح العلاقات والروابط والتشابه والاختلاف بين نظامي الشرطة والحسبة . وقد سهل لنا ذلك عقد المقارنات بين هذه الوظائف جميعها في مصر من ناحية ، وفي المغرب وبلاد الشام من ناحية اخرى [٧] .

كما يبدو من بحثه أيضا اطلاعه على كثير من المراجع ذات الشأن الكبير في الحسة ، والاستناد عليها ، وتلخيص ارائها مع ذكر التعليقات في بعض الأحيان وبذلك كان بحثه شعلة أضاءت طريقنا للرجوع إلى هذه المصادر ، والوقوف عليها والتحقق منها .

ورجعت إلى كتاب "L. Mayer : "Mamluk Costume للمستشرق الأستاذ « ماير » حيث وجدت فيه الكثير عن ملابس كافة طبقات الشعب في العصر المملوكي مع عرضه لبعض الصور الفريدة واللوحات الرائعة . وقد ترجم الكتاب إلى العربية الأستاذ صالح الشيتي بمراجعة الأستاذ الدكتور عبدالرحمن فهمي تحت عنوان «الملابس المملوكية» ولا يزال تحت الطبع .

وهناك بيان واف عن اختصاصات المحتسب في كتاب :

Reuben Leui : Sociology of Islam . Part I. PP367' 369. London 1931.

وقد رجع فيه إلى كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي ، تحقيق مرجليوث .

---

(٧) انظر امثلة في مقالته .

الباب الثانى
الحسبة وتعريفها

● الحسبة :

● معانيها ، وألقابها .
● تعريفاتها ، وأصولها .

الباب الثانى

معنى الحسبة وألقابها

الحسبة هى احدى الوظائف التى وجدت منذ أواخر العصر الأموى فى عهد الخليفة هشام بن عبدالملك [1] من عام (١٠٥ - ١٢٥ هـ/٧٢٤ - ٧٤٣ م) على وجه التحديد، وأصبحت ذات شأن كبير فى الولايات الاسلامية بعد ذلك فى مطلع القرن الرابع الهجرى [2]، وأطلقت المصادر التاريخية على القائم بشئون الحسبة اسم « المحتسب » وهذه الوظيفة تقابل فى التصنيف الحديث للوظائف الحكومية العديد من المصالح والمؤسسات. [3].

« والناظر فى أمور الحسبة فى الحكومات الاسلامية يعلم أن أجدادنا، وأولى الأمر عند المسلمين فى تلك العهود - قد هيأوا لرعيتهم، ويسروا لهم جميع ضروب الراحة والهناء، وحاولوا أن يبعدوا عنهم ما أمكن من الجور والشقاء » [4].

وفى المغرب عرفت الحسبة باسم « أحكام السوق » [5] أو « خطة الاحتساب » [6] اما

---

(١) البلاذرى : « أنساب الأشراف » مخطوط، جـ ٨ ورقة ٢٩٠.

(٢) متز : الحضارة العربية فى القرن الرابع الهجرى، الترجمة العربية جـ ٢، ص ٢٧٤. ويبدو من عبارة متز أنها تعليق مستمد من كتاب « الوزراء » للصابى وقد تصفحنا الكتاب فى طبعته القاهرية سنة ١٩٥٨، وفى طبعة لبنان ١٩٠٤ التى نشرها امدروز. Ameddroz ــ كثيرا وفى فهارسه. كما رجعنا إلى كتيب بعنوان « أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء »، لهلال الصابى جمعها الاستاذ ميخائيل عواد ونشرها فى بغداد سنة ١٩٤٨ م فى ١١٥ صفحة وللاسف لم نعثر على مايفيد استنتاج متز.

(٣) Hamarneh. S, 'origin and Fuctions of the Hisbah system in Islam and Impact on the Health professions', p.157, 1964.

(٤) كرد على : « خطط الشام »، مجلد ٥، ص ١٣٦.

(٥) يحيى بن عمر « أحكام السوق » تحقيق وتعليق الاستاذ الدكتور محمود على مكى نشر فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد، المجلد الرابع، العددان ١ ــ ٢، ص ٩٤ (لسنة ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م).

(٦) سليمان بن حسن بن جلجل «طبقات الأطباء والحكماء» مخطوط، تحقيق فؤاد السيد ص ١١٣. القاهرة سنة ١٩٥٥.

عامل الحسبة فكان اسمه والى السوق أو صاحب السوق » (٧) .

وهناك اشارات ساقها بعض المؤرخين عن « دار المحاسبة والمواريث أو الموق » تدل على أن الحسبة كانت اسما لدار التسجيل التى تسجل فيها المواليد والوفيات ، وتدار فيها تركات اليتامى وأموالهم . ونحن نجد لفظ الحسبة أيضا مستعملا للدلالة على « دار الموازين والمكاييل (٨) وتعرف بدار العيار » (٩) . وكذلك ديوان المحاسبة الأعلى واخيرا للدلالة على «ديوان الجيش وذخيرته» (١٠) وكل ما يختص بالحروب (١١) .

● الحسبة فى اللغة :

ويعرفها صاحب لسان العرب لغة بأنها « اسم من الاحتساب » ويقال : فلان حسن الحسبة فى الأمر ، أى حسن التدبير والنظر فيه (١٢) ويقسم « عمر بن عوض السنامى » الاحتساب لغويا إلى معنيين :

أولهما : هو طلب الأجر والثواب عند الله ، بالقيام بأنواع البر والخير ، ابتغاء الأجر المرجو منها ، كما يقال ان كلمة « حسبة » تعنى الأجر أيضا .

وثانيهما : يعنى الانكار ، كما لو قلنا : احتسب فلان على فلان ، أنكر عليه قبيح عمله واسم الفاعل « المحتسب » أى طالب الأجر . (١٣) .

---

(٧) يحيى بن عمر «أحكام السوق» ص ٩٤ .

(يطلق على صاحب الحسبة فى أسبانيا الإسلامية أيضاً اسم «صاحب الأحباس» ثم عرف « بالمحتسب » منذ القرن التاسع الميلادى (٩م) أنظر . Islamic Cultive , Vol XXXvII . wol p . 25 , 1963

(٨) فيليب حتى «تاريخ العرب» جـ ٣ ص ٦٢٧ .

(٩) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ / ابن مماتى : - «قوانين الدواوين» ص ٣٣ ، ٣٣٤

(١٠) ورد هذا فى كل من : .Ency of Isla , Art "Hisba" vol,II : p. 317 , Leyden,1927 E.K

.William. E.L. "Arabic English Lexicon , vol.I , part. 2. p.566. Newyork 1955

لويس شيخو «نهاية الرتبة» مجلة المشرق ، العدد ١٠ ، لسنة ١٩٠٧ ، ص ٦٦٢ .

(١١) Dozy : Supplement aux Dicitionnaires Arabs, Ier p. 285. paris, 1927.

(١٢) ابن منظور : «لسان العرب» مادة «حسب» قاموس المحيط جـ ١ ص ٦٤ الوسيط جـ١ ، ص ١٧١ .

(١٣) « نصاب الاحتساب » مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٨٩ اجتماع تيمور ، ص ١/والزبيدى « قاموس تاج العروس » مادة « حسب » وقد أورد الحديث التالى لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : «أيها الناس احتسبوا أعمالكم ، فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته / والتهانوى : «كشاف اصطلاحات الفنون» ، مادة حسبه .

ويشرح حاجى خليفة « علم الاحتساب » ويعرفه بأنه : علم باحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملاتهم التى لا يتم التمدن بدونها . (١٤) .

الحسبة فى الشـرع :

والمصادر التى تتحدث عن الحسبة شرعا تذكر دون استثناء تقريبا أنها وظيفة دينية أساسها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١٥) . والمقصود بالمعروف هنا هو كل قول وفعل وقصد حسنه الشارع وأمر به ، والمنكر هو : كل قول وفعل وقصد قبحه الشارع ونهى عنه .

وقد حبب الله إلينا الخير ، وأمرنا أن ندعو إليه ، وكره الينا المنكر ونهانا عنه ، وأمرنا بمنع غيرنا منه . ونحن نجد فى نصوص القرآن الكريم وفى الآيات البينات خير أدلة على ذلك ، فقد صدر الأمر بها صراحة فى قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون) (١٦) كذلك امتدحها فى قوله : (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) (١٧) وكذلك جعلها من صفات الايمان وقرنها باقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة وطاعة الله مع تقديمها فى الذكر فى قوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) . (١٨) كما قرنها بكثير من صفات المؤمنين فى قوله (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) (١٩) وجعل تركها والعمل بخلافها من صفات المنافقين فى قوله (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف (٢٠)) . وذم من تركها وجعل تركها سببا للعنة فى قوله (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر

---

(١٤) « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » ، المجلد الأول ص ١٥ أنظر علم الاحتساب» .

(١٥) الماوردى : «الأحكام السلطانية» . الباب العشرون ، باب الحسبة ، ص ٢٤٠ ، أبى يعلى الفراء «الأحكام السلطانية ، ص ٢٦٨ ، الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ٢٤٢ ، المقريزى : الخطط مجلد ٢ ص ٢٤٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ ٥ ، ص ٤٥١ ، ص ٤٥٢ ، ابن بسام «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٦١٤ اجتماع طلعت ، ورقة ٥ ، ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ، ص ٦ ، ابن خلدون : المقدمة جـ ٢ ص ٥٧٦ وغير ذلك من المراجع القديمة والحديثة .

(١٦) قرآن كريم : سورة آل عمران ، آية ١٠٤

(١٧) قرآن كريم : سورة النساء ، آية ١١٤ .

(١٨) قرآن كريم : سورة التوبة ، آية ٧١ .

(١٩) قرآن كريم : سورة التوبة ، آية ١١٢ .

(٢٠) قرآن كريم : سورة التوبة ، آية ٦٧ .

فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) [٢١] . وجعل تركها من خطوات الشيطان وشيعته فى قوله : (يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) . وفضل من يقوم بها من الأمم على غيرها فى قوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) [٢٢] .

وامتدح من يقوم بها فى قوله : (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) [٢٣] . وجعل القيام بها سبباً للنجاة فى قوله : (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) [٢٤] .

وإذا كان هذا هو شأن الحسبة وما احتلته من مكانة فى القرآن ، فليس شأنها فى السنة بأقل من ذلك شأوا . فقد قال رسول الله ﷺ : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان» [٢٥]

ومنذ أن صارت الحسبة وظيفة فى الدول الاسلامية نراها تتصل بالناحية الدينية وخاصة العدل والحساب والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن ثم فقد عدها بعض المؤلفين كالماوردى [٢٦] المتوفى (سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨م) ، والقاضى أبى يعلى الفراء [٢٧] المتوفى (سنة ٤٥٨ هـ - ١٠٦٥م) ، والغزالى [٢٨] المتوفى سنة ٥٠٥ هـ - ١١١١م) . وابن خلدون [٢٩] المتوفى سنة ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥م . والقلقشندى [٣٠] المتوفى (٨٢١هـ - ١٤١٨م) ، والمقريزى [٣١] المتوفى (سنة ٨٤٥ هـ - ١٤٤١م) وآخرون من وظائف الدولة الدينية .

---

(٢١) قرآن كريم : سورة المائدة ، آية ٧٨ - ٧٩ .

(٢٢) قرآن كريم : سورة آل عمران ، آية ١١٠ .

(٢٣) قرآن كريم : سورة آل عمران ، آية ١١٣ .

(٢٤) قرآن كريم : سورة الأعراف ، آية ١٦٥ .

(٢٥) هذه الأحاديث وغيرها وردت فى مقالة عن الحسبة للأستاذ الشيخ على الخفيف فى أسبوع الفقه الإسلامى ومهرجان ابن تيمية ، دمشق من ١٦ - ٢١ شوال سنة ١٨٣٠هـ ، ص ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٥٨ . وهى مأخوذة عن صحيح الترمذى الباب التاسع من كتاب الفتن ، ومسند ابن حنبل جـ ٥ ص ٣٨٨ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ ، وجـ ٦ ص ٤٣٢ ، وسنن أبى داود ، الباب ١٧ من كتاب الملاحق أنظر A.J. WENSINCK : Conordance et indicesde la tradition Musulmane. parte 39.

(٢٦) «الأحكام السلطانية» ص ٢٤٠

(٢٧) «الأحكام السلطانية» ص ٢٢٠

(٢٨) «إحياء علوم الدين» جـ ٢ ص ٢٤٢

(٢٩) المقدمة جـ ١ ص ١٩٥ .

(٣٠) صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

(٣١) الخطط ، مجلد ٢ ص ٢٤٢ .

ومن المؤكد أن الحسبة تعدت أصولها المثالية الدينية ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى واجبات عملية تتفق والمصالح العامة للمسلمين ، ونمت هذه الوظيفة بنمو المجتمع الاسلامى ، وتطور نظمه الاقتصادية ، وأوضاعه الاجتماعية ، واتساع رقعته حتى أصبحت من أهم دعائم النظام الاقتصادى والاجتماعى فى الدول الاسلامية كما شهد بذلك المؤرخون [٣٢] .

● الأساس الدينى للحسبة ·

وكل هذه التعريفات السابقة تدلنا على أن الحسبة تقوم على أساس دينى ، والواقع أن المسلمين حرصوا دائماً على استلهام نصوص الشريعة وروح الاسلام فيما يتخذونه من نظم إدارية ومعيشية ، ولعل أبرز الأسس التى تقوم عليها النظم الادارية الاسلامية هى أساس العدالة أو فكرة العدالة كما نص عليها الاسلام .

وتحتل فكرة العدل فى الفكر الاسلامى مكانا هاما للغاية ، وليس أدل على ذلك مما ورد فى القرآن الكريم من عديد من الآيات التى تظهرنا على هذا الشأو البعيد الذى تحتله العدالة فى الاسلام : (وأمرت لأعدل بينكم [٣٣] ، (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) [٣٤] ، (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وانزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط) [٣٥] .

ويصور لنا مبلغ ما للعدل من مكانة فى الاسلام توشك أن تكون بعد درجة التوحيد ، ما نراه فى العديد من آيات القرآن الكريم التى تأمر بالعدل وتحض عليه والتى تجعل العدل أقرب المراتب للتقوى : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) [٣٦]

على أن المجتمع الاسلامى لم يركن إلى التعاليم الدينية بحيث لا يسأل الناس عن صنيعهم إلا أمام الخالق - سبحانه وتعالى - بل انه حفاظاً منه على تماسك الجماعة الاسلامية ، وصون حقوق أفرادها بادر بتطبيق هذه التعاليمَ تطبيقا يجعل حجم الخطأ فيه ضئيلا للغاية . وقد أخذ هذا الاتجاه صورا عديدة منها : القضاء والشرطة ، والحسبة التى هى موضوع بحثنا هذا .

---

(٣٢) المقريزى «إغاثة الأمة بكشف الغمة» وقد عرض فيه لتفاصيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر الإسلامية ، ودور الحسبة فى هذين المجالين . وكذلك فعل : الشيزرى فى : «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ابن الأخوة : «معالم القربة فى أحكام الحسبة» .

(٣٣) قرآن كريم : سورة الشورى آية ١٥ .

(٣٤) قرآن كريم : سورة الشورى آية ١٧ .

(٣٥) قرآن كريم : سورة الحديد آية ٢٥ .

(٣٦) قرآن كريم : سورة المائدة آية ٨ .

● أصول الحسبة :

وعلى ذلك فليس من الغريب أن نرى بعض المؤرخين والفقهاء والمهتمين بالبحث فى موضوع الحسبة يرجعون نشأة خطتها إلى عهد الرسول ﷺ ، وعهد خلفائه الراشدين ، ومن ثم استندوا فى ذلك على بعض الآيات القرآنية (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[٣٧] كما استندوا فى ممارستها على أفعال الرسول وأقواله ، فكانت حياته ﷺ مليئة بنهيه عن المنكرات ، وبأمره بالمعروف ، وقد كان أكثر نهيه نهيا عن أمور قائمة أو أمور محظورة معتادة ، وقل أن يكون عن منكر لم يقع ، وكذلك كان الوضع فيما أمر به من معروف إذ كان يأمر بما لم يفعل من معروف ، وكان ذلك هديه ﷺ فى تشريعه لا يستبق الحوادث ولا يفترض الوقائع بل يشرع للواقع وعلى الواقع : رأى الناس يعبدون الأوثان ويشركونها مع الله سبحانه وتعالى فنهى عن عبادة الأوثان وامر بعبادة الله وحده . رأى الناس يأكلون الربا فنهاهم عنه وحرمه عليهم ، ورآهم يتبايعون فى المعدوم[٣٨] وفيما هو غرره فنهاهم عن بيع المعدوم ، وبيع الملامسة[٣٩] والمنابذة[٤٠] ، وأن يبيع حاضر لباد ، وعن تلقى الركبان[٤١] وعن النجش[٤٢] وعن أن يباع الطعام قبل قبضه[٤٣] وعن بيع فضل الماء وغير ذلك مما رآه فى زمنه من منكرات المعاملة .

---

(٣٧) قرآن كريم : سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .

(٣٨) يتبايعون فى المعدوم : أى بيع الشىء قبل أن يكون أمامك .

(٣٩) بيع الملامسة : وهو أن يقول البائع للمشترى «إذا لمست الثوب بيدك ولم تشتره لزمك البيع» الشيزرى : «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» ص ٦٢ .

(٤٠) بيع المنابذة : وهو أن يقول البائع للمشترى «بعتك هذا الثوب الذى معى بالثوب الذى معك (الشيزرى) نفس المرجع والصفحة .»

(٤١) ويقصد بذلك تلقى السلع قبل أن تجىء إلى الأسواق لما فيه من تغرير بالبائع فإنه لا يعرف السعر فيشترى منه المشترى بدون القيمة . صحيح البخارى باب البيوع جـ ٣ ص ٥٢ - ٨٤ ابن تيمية الحسبة فى الإسلام ص ١٢ - ١٣

(٤٢) النجش : وهو أن يزيد الرجل فى ثمن السلعة ولا يريد الشراء ، ليغر غيره الشيزرى : نفس المرجع ص ٦١ .

(٤٣) قبل قبضه : أى قبل نضجه .

وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : «يا صاحب الطعام ما هذا ؟ فقال : «أصابته السماء يا رسول الله : «قال الرسول : «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم : «من غشنا فليس منا ، وأن الغاش ليس بمؤمن» .

فهذا - ولاشك - نهى منه - ﷺ - عن منكر هو غش الناس فى طعامهم ، وهو احتساب ظاهر ، ومراقبة منه لما يقع فى الأسواق من غش وتغرير

وقال عليه السلام : «اياكم والجلوس على الطرقات ، قالوا : مالنا بد وانما هى مجالسنا نتحدث فيها قال : فإن أبيتم إلا ذاك فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : «غض البصر ورد السلام وأمر بمعروف ونهى عن منكر» .

وهذا أيضاً - ولاشك - نهى منه ﷺ - عن منكر وهو ما يحدث فى الطريق .

كذلك نهى القرآن الكريم عن التطفيف والنقص فى الموازين والمكاييل ، ونهى الرسول ﷺ عن العقود المحرمة مثل عقود الربا والميسر ، كما نهى عن الاحتكار والتسعير .(٤٤)

كذلك يرى البعض أن الرسول إلى جانب أنه تولى القيام بأعمال الحسبة بنفسه قلدها غيره(٤٥) أيضاً : فاستعمل ابن شاهين على سوق مكة قبل الفتح بقليل ، ثم ولى سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية بعد الفتح على سوق مكة أيضاً .

ومن الطريف أن نذكر هنا أن بعض النساء قد شاركن فى القيام بهذا العمل وهو فى البداية على حاله من البساطة ، فقد كانت «سمراء بنت نهيك الأسدية» التى أدركت النبى ﷺ ، وعمرت ، تمر فى الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتنهى الناس عن ذلك بسوط معها(٤٦) .

---

(٤٤) انظر صحيح البخارى «باب البيوع» جـ ٣ ص ٥٢ - ٨٤ فقد أورد فى هذه الصفحات جميع المنكرات السابقة الذكر وغيرها .

انظر عن الحسبة فى عهد الرسول خطبته صلى الله عليه وسلم التى أوردها ابن عساكر فى كتابه «تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الامام أبى موسى الأشعرى» .

تحقيق ونشر القدسى ، دمشق ١٣٤٧ هـ ص ٧٠ - ٧١ ، ابن القيم الجوزية فى السياسة الشرعية ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٤٥) الكتانى : التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تاسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية . جـ ١ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ فهو يفرد فصلا خاصاً مستقلاً تحت عنوان «فيمن ولاه رسول الله أمر السوق من ص ٢٨٥ - ٢٨٧ .

(٤٦) الكتانى : التراتيب الإدارية جـ ١ ، ص ٢٨٦ .

ومما يذكر أيضاً أن : «الخليفة عمر بن الخطاب «أثناء خلافته ولى الحسبة على سوق من أسواق المدينة لامرأة تسمى أم الشفاء (بنت عبد الله) . وهى أم «سليمان بن أبى خيثمة الأنصارية» (٤٧) .

ويزيد صاحب التراتيب الإدارية (٤٨) على ذلك فيذكر أن : «صاحب السيرة الحلبية قد ذكر أن هذه الولاية ظهرت أيام الرسول (ﷺ) ويضيف إلى ذلك «أنها كانت تعرف بالحسبة ، ومولیها بالمحتسب» (٤٩)

وهناك فريق آخر من المؤرخين يرجعون نشأة خطة الحسبة إلى عهد الخلفاء الراشدين ويخصون بالذكر الخليفة عمر بن الخطاب . فالقلقشندى ومعه آخرون يظنون أن : «الخليفة عمر بن الخطاب كان أول محتسب فى الخلافة الإسلامية» (٥٠) ويستندون فى ذلك على صرامته المعروفة فقد رأى جمالا يقسو على جمله فقال له : حملت جملك مالا يطيق . ويوافق الكثيرون على ذلك وسندهم ثلاثة أمور هى : - عدل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأمره للناس بالمعروف ونهيه لهم عن المنكر ، ثم صرامته وشدته . (٥١) .

ويؤكد حاجى خليفة أن عمر بن الخطاب أثناء خلافته (٦٣٤ - ٦٤٤هـ) - ١٢٣٦م - ١٢٤٦م) كان أول من تفهم هذا النظام الدينى «الضبطى» الذى كان تحت اشرافه فى

---

(٤٧) وهى أم سليمان ، الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدوية القرشية ، أنظر الطبرى جـ ٣ ص ٢٨٠ ، الطرق الحكمية ص ١٦٠ . صحابية من فضليات النساء كانت تكتب فى الجاهلية ، وأسلمت قبل الهجرة ، وكان النبى يزورها ، وأقطعها داراً بالمدينة ، وكان عمر يقدمها فى الرأى ويرعاها ويفضلها ولذا ولاها شيئاً من أمر السوق . وقد روت ١٢ حديثاً . وقيل اسمها ليلى والشفاء لقب لها . ابن حجر : الإصابة فى معرفة الصحابة جـ ٤ ص ٣٤١ - الزركلى : قاموس الأعلام جـ ٢ ص ٤١٣ . وقد ذكر صاحب التيسير فى أحكام التسعير (وهو القاضى أحمد بن سعيد بن أبى العباس) أن ولايتها للسوق كان فى أمر خاص يتعلق بأمور النسوة ولكنه لم يذكر هذا الأمر . التحقيق ص ٦ .

(٤٨) الكتانى : نفس المرجع جـ ١ ص ٢٨٥ - ٢٨٧ .

(٤٩) وقد رجعنا إلى المرجع الذى ذكره ، ولم نوفق فى العثور على النص المذكور ، والطبعات التى تيسرت لنا كانت كلها جزءين فحسب - ولكنه أشار إلى أن الطبعة ثلاثة أجزاء وعلى كل فلم نوفق فى العثور على النص المقتبس فى الطبعات ذات الجزئين .

(٥٠) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٥٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥١ - ٤٥٢ ، ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ص ٩ ، ٤٣ . ومن المراجع الحديثة حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٢٣ ، النظم الإسلامية ص ٣٥٥ - صبحى الصالح : النظم الإسلامية ص ٣٢٩ .

(٥١) عمر بن عوض السنامى «نصاب الاحتساب» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٨٩ اجتماع تيمور ص ٨٤ ، يوسف ضياء الدين : «أحكام الاحتساب» ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٧ اجتماع تيمور ص ٣ .

حاضرة الخلافة «المدينة» . وأضفت هيبته وقوته وعظم شخصيته على هذه الوظيفة مكانة وهيبة»(٥٢) .

وهذا الفريق من المؤرخين اعتبروا القرآن والسنة من المصادر الأولى لخطة الحسبة يضاف إليهما أعمال الخلفاء الراشدين وصحابة الرسول (ﷺ) . وبذلك أرجعوا الحسبة إلى مصادر إسلامية .

والحقيقة أن هؤلاء المؤرخين الذين عرضوا للحديث عن الحسبة فى عصر الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم قد اختلط عليهم الأمر فلم يميزوا بين الحسبة «كاصطلاح» يطلق على وظيفة إدارية . وبين «الحسبة» من حيث أعمالها ومظاهرها بحيث أنهم نسبوا هذه الوظيفة إلى عهد الرسول وخلفائه الراشدين ، على حين أنه لم يكن هناك وقتذاك إلا أعمالها ومظاهرها . فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أصول الإسلام ، ولكن ليس كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصبح محتسباً ، فالحسبة وظيفة ، مكلف بها شخص معين له وظيفة معينة . ولم تعرف هذه الوظيفة الإدارية فى لقبها الاصطلاحى ولقب القائم عليها «المحتسب» . إلا فى عصر متأخر عن عصر الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين .

وإذا كان بعض المؤرخين يصل الحسبة بالأصل الإسلامى ، فهناك البعض الآخر يعود بنظام الحسبة إلى أصل بيزنطى . فنرى المستشرق ديمومبين Demombynes يقول : «انه ليس ثمة شك فى أن الحسبة اقتبست من البيزنطيين ثم صبغها المسلمون بالصبغة الإسلامية . فقد ورث المحتسب تلك الوظيفة الرسمية بصورة غير مباشرة عن نده البيزنطى

---

(٥٢) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، مجلد ١ ص ٠١٦ وكذلك رأى بعض المؤرخين المحدثين هذا الرأى فيقول الأستاذ الدكتور شلبى : إن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذى عين القضاة ورتب البريد ، وأنشأ نظام الحسبة «التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص ٢٢٧ - ٢٢٨ . وقيل أيضاً إن عمر بن الخطاب كان يقوم بوظائف المحتسب ، ويشارف السوق ويراقب المكاييل والموازين ويأمر بدفع الأذى عن الطريق ويرشد الناس إلى السلوك الحسن . أنظر شلبى : السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى ص ١٧١ ، المراغى : الحسبة فى الاسلام ص ٦ - ٧ ويقال إن عمر كان يمنع ما يضر المارة فى الطريق من : ازدحام فيه ، أو وجود أنقاض ، أو هدم يمنع من السير فيه ، أو وجود مبان متداعية . . كما يقال أيضاً إن عمر دخل السوق وهو راكب فرأى دكانا (دكة) قد أحدث فى السوق فكسره . المراغى : الحسبة فى الإسلام ص ٧ . وقيل أيضاً ان عمر بن الخطاب كان أول من ولى «عبد الله بن عقبة» على النظر فى الأسواق ، والتفتيش على المكاييل والموازين ، ومنع الغش فيما يباع ويشترى . انظر الشهاوى : الحسبة فى الإسلام ، ص١٠٤ ، المراغى : الحسبة فى الإسلام ص٦ . وقد لاحظ تيان أن الرجوع بنشأة الحسبة إلى عمر بن الخطاب لا يستند على أى دليل أنظر :

Emale Tyan : Histoire de — L ,organisation Jadiciaire en pays dl ,Islam T . 2p .

ولعله يستند فى ذلك إلى أن النظم الإدارية أخذت من الدول المفتوحة Agoranome (٥٣) وصبغت بصبغة إسلامية مثل الدواوين(٥٤) والوزارة شأنها فى ذلك شأن العمارة والفنون الإسلامية .

على أننا نرى مستشرقاً آخر هو الأستاذ جرونباوم Grunebeaum يدعو أولاً إلى عقد مقارنة بين الحسبة فى الإسلام وكتاب والى المدينة البيزنطى (٥٥) The Byzantine Book Of Prefct الذى يدعو إلى تنظيم شئون الصناع والتجار فى القسطنطينية .

ثم لا يلبث جرونباوم أن يقول «ان قضاء الحسبة محاولة لوضع نظام تنفيذى لتلك النصيحة التى أمر بها القرآن المؤمنين كافة : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (٥٦) .

ولا ندرى بأى الرأيين نأخذ ، وبأيهما ندع ، فالحق أن تناقض عبارتيه ظاهر جلى . ومهما يكن من أمر فاننا لاندرى الحافز إلى ذلك ! ! أهو أعتقاده بأن المسلمين اقتبسوا الحسبة من البيزنطيين وصبغوها بالصبغة الإسلامية ؟ أم أنه اعتمد فى ذلك على ما لمسه من وجه الشبه بين عمل المحتسب وعمل والى المدينة من ناحية أخرى ؟ .

ولعل الأستاذ الدكتور «السيد الباز العرينى» هو أشد القائلين بنظرية الأصل البيزنطى للحسبة وبصحة دعواها ، ويستند فى رأيه على : أن المسلمين قد فتحوا أقاليم الدولتين البيزنطية والفارسية ووجدوا فيها أنواعاً من المدنيات والنظم المختلفة كما وجدوا طبقة مدربة من الموظفين اعتادت العمل فى حكومة الأقاليم فاتخذوها أداة لحكمهم الجديد (٥٧) .

ولا شك أن الأستاذ الدكتور العرينى يستند فى رأيه إلى ما يثبته المؤرخون المصريون المحدثون وهو أن العرب فى مصر وفى البلاد التى فتحوها وجدوا نظماً إدارية منذ أقدم العصور فأبقوها

---

(٥٣) Gaudefroy Demombynes : Des Institutions musulmanes .

الترجمة العربية : النظم الإسلامية ص ٢١٠ .

(٥٤) د . سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص٢٠ – ٢٨ . ويعلق الأستاذ الدكتور صالح العلى على وظيفة العامل على السوق بأنها كانت تشبه الوظيفة اليونانية Agoranomos ولم يذكر الأستاذ الدكتور صالح مرجعه فى ذلك ، ولعله قد أخذ ذلك عن الأستاذ ديومبين فى كتابه المذكور .

(٥٥) نقله إلى العربية ونشره الأستاذ الدكتور السيد الباز العرينى من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ١٩ جـ١ مايو١٩٥٧ . وقد أخرج د . العرينى من هذا الكتاب طبعة مستقلة تحت عنوان «الحسبة فى بيزنطة» من ص ١٣٥ – ١٧٨ .

(٥٦) Gustav von Grunebeaum : Medieval Islam . chicogo , 1947 .p. 218 not . 127 .

والترجمة العربية «حضارة الاسلام» لعبد العزيز جاويد ص٤١٢ .

(٥٧) العرينى : كتاب والى المدينة البيزنطى نقلاً عن :

cambridge : Medeval History, V. T. p. 280.

على ما هى عليه وأدخلوا بعض التعديلات التى تثبت سيادتهم والتى تتمشى مع الدين الإسلامى ، فاكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية ، ليشرفوا على الإدارة بوجه عام ، وأهم الوظائف الرئيسية التى كانت وقفاً على الفاتحين كانت هى : وظيفة الوالى - صاحب الشرطة - والى الخراج - صاحب البريد والقاضى ، وفيما عدا ذلك أبقى الفاتحون معظم الأنظمة الموجودة كما تركوا الوظائف والأعمال فى يد أهل البلاد[٥٨] .

ومن الممكن كذلك أن ترجع الحسبة إلى الأصل اليونانى ، لاسيما وأن تعبير العامل على السوق يشبه الكلمة اليونانية((Agoranomos [٥٩] .

وان صح هذا التشابه فلا ينبغى أن يكون دليلاً على أن العرب اقتبسوا من الاغريق هذه الوظيفة ، التى بدأ أول ظهورها فى الدولة الأموية [٦٠] .

وعلى أية حال فإن الدولة العربية استمدت بعض أصول حضارتها من البلاد التى فتحوها ومن الشعوب التى اتصلوا بها عن طريق الرحلة والتجارة وبعد ذلك طورت هذه الأصول حتى أصبح لها كيانها المستقل وأصبحت الحضارة الإسلامية لها مقوماتها وميزاتها وشخصيتها التى انفردت بها .

لكننا لانلاحظ وجود وظيفة الحسبة فى مصر والشام اللتين كانتا خاضعتين للدولة البيزنطية حين فتح العرب هذه البلاد .

ولو كان العرب اقتبسوا هذه الوظيفة من الروم لأبقوها فى الشام ومصر حين الفتح كما أبقوا سائر الوظائف الإدارية التى لاتتعارض والإسلام .

ويشير الأستاذ «بتلر» فى كتابه[٦١] إلى وجود وظيفة والى المدينة البيزنطى قبل فتح العرب لمصر بقوله : وأما ما كان من أمر جورج والى المدينة [٦٢] فاما أن يكون قد وقع فى الأسر عند فتح مدينة مصر أو أنه أذعن للعرب وخضع لأمرهم» .

وليس لدينا ما يثبت أن وظيفة والى المدينة ظلت قائمة بعد فتح العرب لمصر فلم يشر إليها بتلر نفسه بعد ذلك كما لم تشر إليها المراجع التى أرخت للفتح العربى .

---

(٥٨) د . سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ راجع النظام الإدارى فى مصر فى فجر الإسلام من ص٢٠ - ٢٨ .

(٥٩) صالح العلى : مقدمة لنشرة كتاب «نهاية الرتبة» لابن بسام ص ف .

(٦٠) البلاذرى : انساب الاشراف ، مخطوط ورقة ٢٩٠ .

(٦١) Alfred J. Butler : the Arab conguest of Egypt and the Last thirty years of the Roman Dominion. p.235 — 36. Oxford 1902.

(٦٢) "George, the prefect of the provence of Misr."

وقد ترجمها الأستاذ محمد فريد أبوحديد «حاكم إقليم مصر» فى كتاب : «فتح العرب لمصر» ص ٢٠٧ . مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

«وصف المستشرق «برنارد لويس» الحسبة بأنها «الشرطة المدنية» أو بتعبير أدق الشرطة المسئولة عن الأسواق والآداب العامة» [٦٣] .

على حين أطلق عليها المستشرق الدكتور فالتر برناور اسم «الضبطية البلدية [٦٤]» .

ووردت الحسبة في دوائرالمعارف ، وفي المعاجم الافرنجية على اعتبار أنها كانت مصطلحاً من مصطلحات القانون الإداري أي بمعنى الحساب أو العد [٦٥] أو حساب الشيء وتقييمه [٦٦] ، وانتهت أخيراً بما اكتسبته من معنى خاص ، وهو الشرطة ، ولا سيما الشرطة الموكلة بالأسواق [٦٧] والآداب العامة [٦٨] .

وهناك نص كتبه صاحبا مقالة الحسبة [٦٩] في دائرة المعارف الإسلامية الجديدة [٧٠] عن الحسبة يبين عدم وجود الصلة بين اللفظ اللغوي للحسبة وبين الوظيفة وأن اللفظ غير موجود في القرآن برغم أن الوظيفة تتعلق بأحكام الدين في كثير من أمورها قالا : (الحسبة لفظ غير قرآني ، يدل استعماله من ناحية على ما يجب على كل مسلم من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، كما يدل من ناحية أخرى على الوظيفة التي تضطلع بها تلك الشخصية بكفاءة في

---

(٦٣) " The Civil police or exactly the police in charge of the markets and puplic morals.

انظر الدكتور شلبي : السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي ص ١٧٠ - ١٧١ حيث قال إنه أخذ ذلك عن محاضرة لبرنارد لويس نفسه .

(٦٤) Behnauer, V: Memoire, Sur les Institutions de police chez les Arabs, les persans et les Tures. Journal Asiatique. 5 me serie, 1860 T.xv. pp. 461,509. TXVI, pp. 119 — 190

(٦٥) Dozy : supp . I . p . 285 .

(٦٦) وهذا التعريف يتفق مع تعريف : Arabic - English lexicon p .569 : وتعريف صاحب مخطوط نصاب الاحتساب ص١ الباب الأول : إذ عرف الحسبة بأن لها معنيين : الأول : بمعنى الحساب والعد : والثاني : الإنكار .

(٦٧) Dozy : supp . T .p .285 .

(٦٨) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ١ ص ١٣٣ - ١٣٥ السقطي : وأدب الحسبة ص٣ .

(٦٩) Cl . CAHEN et M . TAlbT .

(٧٠) Encyclopedie de l 'Islam nouvelle edition Tome III 1967 art Hisba .

المدينة بازاء تطبيق هذه القاعدة على شرطة الآداب ، وبنوع أخص على شرطة السوق ، ويسمى الشخص الذى يقوم بأعمال الحسبة «المحتسب» ، ولايبدو أن هنالك نصاً يعرض صراحة لسبب اختيار هذا الاصطلاح ، ولا كيف استخلصت دلائله من فكرة «الحساب» أو «الاحتساب» التى ينطوى عليها الأصل) [٧١] .

ونحن نرى ان الحسبة إن لم ترد بلفظها الدال على معناها المعروفة به فربما تكون فكرة الحساب فى القرآن الكريم تقرب من معنى هذه الوظيفة فقد ورد فى القرآن الكريم ، (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) [٧٢] .

(والله يرزق من يشاء بغير حساب) [٧٣] , (ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب)[٧٤] (أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد)[٧٥] (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) [٧٦] .

حساباً : (فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً) [٧٧] .

حسابك (ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء)[٧٨]

حسابه : (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه) [٧٩]

---

(٧١) (Hisba , terme non Kuranique par lequel l 'usage designe d' une part le devoir de tout musulman d 'ordonner le bine et defendre le mal , d'autre part la fonction du personnage effectivement charge en ville de l'application de cette regle a la police des moeurs et plus particul - ierement a celle du marche - personage qui . assumant la hisba , s'appelle le muhtasib - il ne semble pas qu'aucun texte precise explititement ni la raison de choix de ce terme ni comment les acceptions indiquees ont ete deduites de la notion de compte ou suffisance incluse dans la racine ...) Ency de l 'Isl , art Hisbe , III , p . 503 , 1967 .

(٧٢) قرآن كريم : سورة البقرة آية ٢٠٢ .

(٧٣) قرآن كريم : سورة البقرة آية ٢١٢ .

(٧٤) قرآن كريم : سورة آل عمران آية ١٩ .

(٧٥) قرآن كريم : سورة الرعد آية ١٨ .

(٧٦) قرآن كريم : سورة إبراهيم آية ٤١ .

(٧٧) سورة الطلاق ، آية ٨ .

(٧٨) سورة الأنعام آية ٥٢ .

(٧٩) سورة المؤمنون آية ١١٧ .

انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه محمد فؤاد عبد الباقى هذه المادة ص ٢٠١

والعبارة الأخيرة التى أوردها صاحبا مقال الحسبة فى دائرة المعارف الإسلامية من نفس النص الذى اقتبسناه ، وهى : «ولا يبدو أن هناك ثمة نص يعرض صراحة لسبب اختيار هذا الاصطلاح ولا كيف استخلصت دلائله من فكرة «الحساب» أو «الاحتساب» التى ينطوى عليها الأصل . فنحن نتفق معهم فى القول بأنه لايوجد «ثمة نص يعرض صراحة لسبب اختيار هذا الاصطلاح[80] ومع ذلك فلايمكن لنا أن نوافق على الشق الثانى من النص وهو «. . . ولا كيف استخلصت دلائله من فكرة الحساب أو الاحتساب التى ينطوى عليها الأصل» .

فالنظرة السريعة لما سبق أن أوردناه من تعريفات لغوية للحسبة ، تربط بين هذه الوظيفة وبين الأصل اللغوى للحسبة . فالحسبة فى اللغة تعنى : حسن التدبير . والاحتساب يعنى : انكار العمل القبيح . وقد تكون الحسبة من الحساب بمعنى محاسبة النفس أو محاسبة الغير أو محاسبة الله تعالى للناس .

---

(٨٠) « والذى يفهم من هذا النص أن المستشرقين أرادوا نصا صريحا لسبب اختيار اصطلاح الحسبة مثل النصوص العديدة التى أشارت إلى سبب اختيار اسم القاهرة لمدينة القاهرة عندما أنشأها الفاطميون مثلاً .

الباب الثالث

نشأة الحسبة وتطورها فى مصر الإسلامية

وينقسم إلى ثلاثة فصول هى :

- **الفصل الأول** : نشأة الحسبة فى مصر منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى .
- **الفصل الثانى** : الحسبة فى العصر الأيوبى .
- **الفصل الثالث** : الحسبة فى العصر المملوكى .

الفصـــــل الأول

نشـــأة الحســـــبة فى مصر

فى عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمى

الحقيقة أن مصادر مصر فى فجر الاسلام (٢١-٢٥٤هـ/٦٤١-٨٦٨م) لم تذكر شيئا عن الحسبة والمحتسب ومع ما حفلت به أوراق البردى التى بين أيـدينا لتلك الفتـرة من نصوص تتعلق بالمعاملات بين الناس فمن العجيب ألا نجد ثمة نص فى ورقة بردية واحدة ولا صنجة من صنج المكاييل والموازين يوضح لنا بصورة قاطعة وجود هذه الوظيفة[1] .

على أننا نجد الأستاذ لين بول يشير الى صنجة محفوظة الآن بالمتحف البريطانى تذكر اسم «اسماعيل بن صالح بن على العباسى» وقت أن كان محتسبا على مصر فى خلافة الخليفة

---

(١) وأمامنا كثير من الدلائل والاشارات التى تعد فى حد ذاتها قرائن تشير إلى وجود أعمال هذا النظام . فقارىء البرديات العربية يطالعه ألفاظ مثل «دينار» أو نصف دينر « أو ربع دينر » . « عيناً » ذهباً جياداً «مثاقيل طرية» وازنة بالجديد . «دنانير معسولة» انظر :

Grohman . A : Arabic papyri in the Egyptian library , vol I . pp . 108 , 109 , 118 , 119 , 120 , 159 , 161 , 162 . Vol II p . 182

والمقصود بذلك أن يكون النقد تام الثقل لانقص فيه ولا زيف .

انظر الكرملى : النقود العربية ص١٦٢ . والدنانير جديدة أو حديثة الضرب غير متآكلة أنظر جرومان : أوراق البردى العربية جـ ١ ص ٧١ - ٧٦ .

ذلك وكثير غير ذلك من الألفاظ ، تعنى ضرورة التحقق من وثاقة الدنانير التى يتعامل بها - وهذا لايتأتى الا عن طريق الاشراف على الأسواق - ومراقبة عمليات البيع والشراء ، واختبار وزن الدنانير ، واتباع كـل الطرق التى تحول دون العبث بالعملة والزيف فيها ، وهذه الأمور كلها من صميم أعمال المحتسب انظر الماوردى الأحكام السلطانية ص٢٤٠ .

المهدى فى (سنة ١٦٩هـ)[٢] فى ولاية الفضل بن صالح بن على العباسى[٣] على مصر وقد أحالنا على مؤلفه ثبت الصنج الزجاجية العربية الموجودة بالمتحف البريطانى[٤] حيث أورد لوحة مصورة لهذه الصنجة[٥] .

وعند تحقيقنا لنقوش هذه الصنجة[٦] لم نجد النص السابق الذى أورده الأستاذ لين بول وإنما وجدنا النص التالى :

بسم الله
على يدى
الأمير اسماعيل[٧]

واسماعيل هذا هو : اسماعيل بن صالح بن على العباسى الذى تولى امرة مصر (سنة ١٨١هـ/٧٩٧م)[٨] .

ومهما يكن من أمر فإن نص الصنجة يشير إلى اسماعيل باعتباره أميرا وليس محتسبا ولاندرى ماهو المصدر الذى حدا بالاستاذ لين بول أن يتجه هذا الاتجاه فى تفسير نقش الصنجة .

---

(٢) Isma il b. salih b. Ali el — A bb&si .
A weight of Isma — il is in M.(cat.23), but of the time when he was mohtesi f of Egypt under the Caliph el Mahdi .
Lane U poole : Stanley : A History of Egypt in the middle ages. London 1925 p. 53vol. VI.

(٣) هو الفضل بن صالح بن على بن عبد الله العباسى الأمير أبو العباسى الهاشمى العباسى ، ولاه الخليفة المهدى إمرة مصر وقبل خروجه مات المهدى فأقر الهادى الفضل على عمل مصر . . . وكان عزل الفضل عن مصر أواخر سنة تسع وستين ومائة سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م فكانت ولايته على مصر دون السنة .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة جـ ٢ ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٤) Catalogue of Arabic Glass Weights in the British Museum. London,1891.

(٥) رقم 23.

(٦) يعود الفضل فى قراءة نقش هذه الصنجة إلى الأستاذ عبد الرحمن فهمى .

(٧) Lane poole : catalogue, plate 23.
أنظر صورة هذه الصنجة فى اللوحة (١) .

(٨) ذكر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى أن الأشخاص الذين وردت أسماؤهم على صنج الموازين بعد عبارة «على يدى» هم عمال خراج أو أصحاب شرطة انظر صنج السكة فى فجر الإسلام ص ١٩ ولكننا لم نجد فى ترجمة اسماعيل بن صالح ما يشير إلى أنه تولى الشرطة إذ كان «عمارة بن مسلم» و«سليمان بن الصمة» و«يزيد بن عبد العزيز» أصحاب شرطة فى عصره والأرجح أنه تولى إمرة مصر وخراجها . سيدة كاشف مصر فى فجر الإسلام : جدول الولاة والقضاة وعمال الخراج وأصحاب الشرطة والبطاركة ص ٣٧٦ .



لوحة رقم ١)



وعلى كل حال فإن هذه الصنجة لاتختلف عن مثيلاتها من الصنج وأختام المكاييل التى رجعنا إليها فى عصر الولاة من حيث : النقوش التى كتبت عليها وطريقة صياغتها .

ولو درسنا بعض هذه الصنج عن قرب لوجدنا أن الكتابات الموجودة عليها لم تسجل اسم الخليفة أو الوالى أو عامل الخراج فحسب ، بل أحياناً تكتب بعض العبارات القرآنية أو الدعائية التى تصحب الاشارة إلى عيار الصنجة ، ونوع السكة التى تعير عليها ، ويعقب أمير الأمير ، أو العامل ، اللفظ الدال على الثقل أو الوزن مثل (أمر . . بمثقال) أو (أمر . . . بميزان) . وأحيانا يسبق هذين اللفظين لفظ بصنعة «او» على يدى(٩)

---

(٩) صنجة أموية . . . .

نصف دينار	One - half dinar
بسم الله	In the name Of God: C -
مر الله بالو	Ommanded Allah hones
فأوامر بصنعـ [ـه]	ty and orderd the making of
مثقال نصف د	weight of one - half d
يز القاسم بن	inaral - Qasim ibn
عبيد الله على يد [ى]	ubaydullah at the hands
مسلم بن العر	Muslim ibn al - Arr
[أ] ف سنة [	(a) f, year [

انظر صنجة ١ ، ٢ . . . .

صنجة عباسـية

	دينار	Dinar	
وجه :	مما أمر به	of what order ed	Obv :
	عبد الله عبد	the servant of god: abd	
	10الله أمير المو	wlah, Commander of the Be	
	منين مثقال دينر	lievres Weight of dinar	
	واف	ful weight	
ظهر :	(داخل دائرة)	(Center Within Circle)	Rev :
	صنعـه	made it	
	كيـل	Kayl	
هامش :		Margin	
	مما أمر الأمير	of what order ed the Amir	
	صالح بن على	Salih ibn Ali	
	أصلحه الله	May god keep him straight.	

صنجـة ٣

هذه الصنج منشورة فى كتاب : « صنج السكة فى فجر الإسلام » . للدكتور عبد الرحمن فهمى لوحة ٤ صنجة ٤٨ ولوحة ٥ صنجة ٥٠ ولوحة ١٠ صنجة ٩٩ .



لوحة رقم (٢)

وعلى ذلك يمكن لنا القول بأن أعمال الحسبة فى مصر فى عصر الولاة حتى العصر الطولونى كانت موجودة ولكن كان يقوم بأعمالها الولاة أو أصحاب الشرطة ، أو عمال الخراج ، والقضاة(١٠) . .

= أختام مكاييل عباسية

بسم الله .... In the name of Allah:
على يدى محمد .... at the name of Muhammad
بن شرحبيل نصف .... b. shurahbil one - half.
قسط واف .... gist, full measure.
نشرت مجموعة كبيرة من هذه الأختام فى كتابى الدكتور
Miles "Early arabes glass weight and stamps" & Contributions to arab · Metrology part I.P. 38

وهناك كثير من هذه الصنج وأختام المكاييل عليها أسماء عمال خراج وأصحاب شرطة . أنظر عبد الرحمن فهمى : صنج السكة فى الإسلام ص ٩٦ - ٩٧ .

صورة ٣ لوحة ٢

(١٠) راجع سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام وما ذكرته فى هذا الصدد من مراجع أصيلة وأوراق بردية .

ويرى المؤرخون المحدثون والمستشرقون أن لفظ «المحتسب» لم يظهر فى الخلافة إلا فى العصر العباسى[11] وفى عهد الخليفة المهدى بالذات[12] من (١٥٨ - ١٦٩هـ)/(٧٧٤ - ٧٨٥م) .

ويرى البعض أن هذا الخليفة كان أول من أنشأ هذا المنصب وظل باقيا على عهد خلفائه[13] .

ويرى المستشرق «ديمومبين» أن هذا المنصب يظهر لأول مرة فى القرن (٢هـ = ٨م) بسلطات واسعة جدا[14] . كما ذكر المستشرق آدم متز أن «المحتسب حوالى عام ٣٠٠هـ كان موظفا معينا ، له منصب ثابت»[15] .

ويستند البعض فى أرائهم على ذلك بوجود لفظ المحتسب مرتبطا بمظاهره الوظيفية فى عصر الخليفة المهدى ثم الهادى فى ثلاثة مواضع من المصادر العربية القديمة :

الأول : فى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ - ١٦٩هـ/٧٧٤ - ٧٨٥م) اذ أمر هذا الخليفة عبد الجبار « المحتسب » فى سنة ٦٣هـ وكان يلقب (بصاحب الزنادقة) بالقبض على كل الزنادقة الموجودين فى داخل البلاد والتنكيل بهم[16] .

الثانى : فى عهد الخليفة المهدى أيضا ورد اسم اسماعيل بن صالح بن على العباسى على صنجة ترجع إلى عهد الخليفة فى سنة ١٦٩هـ ، ومقترنا اسمه بلفظ محتسب[17] .

الثالث : فى عهد الخليفة الهادى (١٦٩ - ١٧٠هـ/٧٨٥ - ٧٨٦م)وهو خاص مترجمة نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم[18] أحد القراء السبعة وامام أهل المدينة فى القراءة ، وأنه كان محتسبا وتوفى سنة ١٦٩هـ[19] .

---

(١١) شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جـ ٥ ، ص ٥٥ .

(١٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ ١ ص ٤٨٩ .
تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٢٣ /عبد الرحمن فهمى /صبح السكة ص ١٩ /العرينى .
مقالة الحسبة والمحتسبون ص ١٥٩ .

(١٣) الحسينى : الإدارة العربية ، ص ٣٤٢ .

(١٤) النظم الإسلامية ، الترجمة ، ص ٢١٠ /روبن ليو . مقدمة نشرته لكتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الأخوة .

(١٥) الحضارة ، الترجمة جـ ٢ ، ص ٢٧٤ وما ذكره من مراجع .

(١٦) الأصفهانى : الأغانى جـ ٣ ص ٦٩ .

(١٧) Lane poole : Hist of Egypt, vol.vI.p. 53.

(١٨) يقال عنه إنه كان محتسباً ذا دعابة - أسود شديد السواد .

(١٩) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٢
EmulcTyan : Histoire de l órganistion judiciaire in pays d I Islam T.S p.444.

ولكننا أثبتنا عدم صحة ما ذكره لين بول من وجود اسم المحتسب على الصنجة التى ورد عليها اسم اسماعيل بن صالح بن على .

ثم إننا من ناحية أخرى وجدنا بعد إطلاعنا على بعض المصادر المخطوطة والمطبوعة أن هذه الوظيفة ظهرت قبل ذلك منذ العصر الأموى وفى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بالذات (١٠٥ - ١٢٥هـ/٧٢٤ - ٧٤٣م) . فقد تولى مهدى بن عبدالرحمن ثم اياس بن معاوية حسبة السوق فى واسط[٢٠] .

وليس لدينا ما يثبت أن هذه الوظيفة امتدت إلى مصر فى ذلك الوقت . ومع ذلك فإن العباسيين الأوائل استمدوا كثيراً من النظم الادارية من فجر العصر الأموى ثم طوروها .

وأول المؤلفات التى تحدثت عن الحسبة فى بغداد ظهرت فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وهو مؤلف الفقيه «أبو الحسن الماوردى» «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» .

وفى المغرب كانت الحسبة منذ البداية لا تتمتع بكيان إدارى مستقل شأنها فى ذلك شأن مصر والخلافة ، وإنما كانت تسند إلى الأمراء والولاة أو من يولونه من القضاة[٢١] إلى أن ولى «محمد بن الأغلب» سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م» سحنوناً[٢٢] ولاية القضاء فى القيروان ، ثم أصبح سحنون أول محتسب فقد باشر مهمة القضاء والحسبة ، ولكنه احتفظ فى النهاية بمنصب القضاء ، وعين للحسبة أمناء أو محتسبين وبذلك فصل الحسبة عن القضاء وأفردها بعمال مستقلين[٢٣] .

أما الحسبة فى الأندلس فقد كانت نوعاً من أنواع القضاء[٢٤] الذى يتميز بسرعة البت[٢٥] ويطلق عليها الأندلسيون كذلك «ولاية السوق»[٢٦] نظراً لأن أكثر نشاط

---

(٢٠) البلاذرى : أنساب الأشراف ، مخطوط ، ورقة ٢٩٠ .
ابن سعد : الطبقات ، جـ ٧ قسم ٢ ص ٢٦٥ .

(٢١) ابن خلدون : المقدمة جـ ٢ ص ٥٧٧/أبو بكر المالكى : رياض النفوس جـ ١ ص ١١٠ نشر وتحقيق حسين مؤنس .

(٢٢) هو أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخى ، ولد بالقيروان سنة ١٦٠هـ ، أتى إلى الشرق لطلب العلم ، وتأثر بمذهب مالك حتى أصبح رأس المدرسة الفقهية المالكية بأفريقيا . أشتهر بالصرامة فى الحق ، وكراهة السلطة ، والزهد فى الدنيا وفى مباهجها كما اشتهر بالورع .
الدباغ : « معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان » جـ ٢ ص ٤٩ - ٥٣ .
ابن فرحون : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢٣) الدباغ : نفس المصدر والجزء ص ٥٥ .

(٢٤) ابن خلدون : المقدمة جـ ٢ ص ٥٧٧ .

(٢٥) حسين مؤنس : فجر الإسلام ص ٦٣٩ .

(٢٦) يحيى بن عمر : أحكام السوق ص ٩٤ .

المحتسب ينحصر فى الأسواق . وترجع نشأتها فى الأندلس إلى عصر الأمير «هشام بن عبد الرحمن» (١٧٧هـ/٧٩٣م) فقد عين هذا الأمير على رأس هذه الولاية فطيشا بن سليمان ، وإن كان بعض المستشرقين يرجعون نشأتها إلى ما قبل هذا العصر ، أى قبل سنة ١٧٧ هـ[٢٧] .

ومن العجيب أن تكون مصنفات الحسبة فى المغرب قد ظهرت فى وقت مبكر عنها فى بغداد ومصر ، فقد ظهر أول مؤلف للحسبة فى المغرب العربى قبل سنة (٢٨٩هـ/٩٠١م) أى فى حوالى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى . وهوكتاب : «أحكام السوق» ليحى بن عمر .

وعلى أية حال فقد تكون وظيفة الحسبة قد تحددت معالمها منذ عصر المهدى العباسى فى مقر الخلافة . ذلك لأنه بعد عصر هشام بن عبد الملك بدأت الدولة الأموية تحتضر ثم قامت الدولة العباسية لتثبت وجودها ولتحارب الخارجين عليها حتى جاء عصر المهدى الذى استقرت فيه الدولة وبدأت تعنى بالنظم والحضارة وتركن جانب الحرب وقمع الثورات والعنف الذى صحب زوال الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية .

ونلاحظ أيضاً أن ظهور وظيفة الحسبة فى الأندلس الإسلامى بدأ بعد أن تقررت هذه الوظيفة فى مقر الخلافة العباسية ومنذ عصر المهدى العباسى .

---

(٢٧) Tyan : Hist .... T.2.p.445.

الحسبة فى العصر الطولونى
من (٢٥٤ - ٢٩٢هـ/٨٦٨ - ٩٠٥م)

كانت الفترة الممتدة من القرن الثالث حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ، من أهم الفترات فى تاريخ العالم الإسلامى عامة وفى تاريخ مصر الإسلامية خاصة ، فقد حفلت بتطورات بعيدة الأثر فى الحياة الإسلامية ، فقد وضح ضعف الخلافة العباسية وشهدت الأمصار الإسلامية عمالاً يظفرون باستقلال محلى للبلاد التى يظهرون فيها[٢٨] .

وقد ساعدتنا أوضاع مصر السياسية وتطور أحوالها الإقتصادية فى العصر الطولونى على تصور وضع الحسبة ومكانتها فى هذا العصر . فقد شهد المصريون إبتداء من عام ٢٥٤ إلى ٢٩٢هـ/٨٦٨ - ٩٠٥م) استقلال مصر على يد الطولونيين ومعاصرتهم لنهضة تجارية عالمية ، واستفادتهم استفادة كبيرة من هذه النهضة العالمية فى خلق نهضة تجارية محلية - كما شهد بذلك الرحالة والجغرافيون المعاصرون[٢٩] - مستغلين ما تتمتع به بلادهم من موقع حصين فريد ، وبنائهم لمدينة القطائع عاصمة لهم ، وعدم إرسال الأموال إلى الخليفة ، وما تجمع لهم من ثروة اقتصادية ، فضلاً عن اتباعهم سياسة اقتصادية ماهرة لإدارة البلاد ، ومن ثم كان شعور المصريين ، على اختلاف مذاهبهم الدينية ، هو الاطمئنان للحكم الطولونى[٣٠] .

وليس أدل على صحة ما نذهب إليه من آراء من ذلك الوصف الذى أورده البلوى لتجارة مصر الداخلية ورواجها وازدهارها فى عهد الطولونيين بفضل عنايتهم وحسن سياستهم الاقتصادية ، وذلك يتجلى فيما أقاموه من أسواق القطائع المتخصصة فى كل لون من ألوان التجارة ، وازدحامها بالباعة والمشترين ، ونشاطها الاقتصادى العظيم إذ يقول : «ثم بنيت القطائع وعمرت عمارة حسنة ، تفرقت فيها السكك والأزقة وبنيت فيها المساجد

---

(٢٨) سيدة كاشف : أحمد بن طولون ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢٩) ابن حوقل : فى أواخر القرن ٤هـ/أواخر ١٠م (المسالك والممالك) .

المقدسى : النصف الثانى من القرن ٤هـ/النصف الأخير من القرن ١٠م (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .

الإدريسى : « صفة المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس » مأخوذة عن نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق .

المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٥

Zaky Mohamed Hassan : Ies . Tulunides. p. 238.

(٣٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥٠/أدم متز : الحضارة جـ ٢ ص ٢٧٧ وما بعدها .

الحسال ، والطواحين ، والحمامات ، والأفران ، وسميت أسواقها ، فسمى منها سوق العيارين[٣١] ، يجمع فيه البزازين والعطارين . وسوق الفاميين[٣٢] ويجمع فيه الجزارين والبقالين والشوائيق ، وكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن . وسوق الطباخين يجمع فيه الصيارفة والخبازين وأصحاب الحلواء ، ثم لكل صنف من جميع الصنائع أفرد له سوقاً حسناً عامراً نبيلاً صيناً[٣٣] .

ويعتبر هذا النص على جانب كبير من الأهمية ، فإن وصف البلوى للنشاط التجارى الداخلى لمدينة القطائع وللأسواق الزاخرة بالسلع وانفراد كل لون من ألوان النشاط بسوق معين - هذا الوصف إنما يصور لنا دقائق دقيقة عن نظم وأحوال الأسواق فى هذا العصر - ويعبر النص عن نهضة اقتصادية متطورة تأخذ الأبصار ، وتخلب الألباب ، وتستحق الإعجاب . ولكن البلوى - وغيره ممن وصفوا هذا التطور فى نظم السوق[٣٤] أغفلوا ذكر من يقوم بالإشراف على هذه الأسواق ، فهل يمكن لهذا التقدم فى نظم السوق أن يستقيم ويستمر بدون إشراف ؟ وهل كان المشرف هو القاضى ؟ أم المحتسب ؟ أم قيم آخر غير هذا ولا وذاك ؟ .

وترجح النصوص التى عثرنا عليها قيام القاضى فى هذا العصر بوظيفة الحسبة إلى جانب قيامه بمهمة القضاء فيذكر كل من : الكندى[٣٥] ، والعينى[٣٦] «تفويض أبى الجيش خمارويه النظر فى المظالم والأحباس والحسبة إلى القاضى محمد بن عبده بن حرب سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م» .

ومن الصعب أن يؤخذ هذا النص على علاته دون الإحاطة بظروف تعيين القضاة فى العصر الطولونى ، وما كانوا يتمتعون به من صلاحيات واختصاصات تتفاوت بتفاوت مكانة القاضى لدى الحاكم الموجود ، فتذكر لنا المصادر أن القضاة كانوا يقومون بدور هام فى

---

(٣١) العيار : الكثير المجيء والذهاب ، ولعله يقصد الكثير من المساومة فى البيع والشراء .

(٣٢) الفاميين : جمع فامى ، وهو بائع الفوم أى الثوم والحنطة والحمص والخبز وسائر الحبوب

(٣٣) البلوى : أحمد بن طولون ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣٤) انظر نص ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ط دى غوية بخصوص الأسواق والتجارة المحلية والخارجية .

(٣٥) الولاة والقضاة ص ٤٨٠ .

(٣٦) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان مخطط جـ ١٤/ ٣ ورقة ٤٦٢ - ٤٦٣ .

ذكر العينى أنه « أبا عبد الله محمد بن حرب البصرى » ولاه خمارويه المظالم بمصر فنظر بين الناس إلى آخر عام ٢٧٩ ثم ولاه القضاء وكان أبو الجيشى يعظمه ويجله وولاه القضاء والمظالم والمواريث والأحباس والحسبة ورقة ٤٧٦ .

الولايات الإسلامية خاصة قضاة العاصمة(٣٧) . فالى جانب اختصاصاتهم العادية مثل محاكمة المجرمين ، أو فرض قوانين العقوبات ، والإشراف على المؤسسات الدينية ، فقد كان لهم إلى جانب أعمالهم وسلطانهم تأثير عظيم على الناس ، وكان القضاة ينتخبون عادة من بين الفقهاء المشهورين والعلماء الأتقياء المعروفين بالورع .

وكان للقضاة اختصاصات عديدة ولكنها لم تكن محددة بدقة ، ففى عهد حكومة قوية مستتبة وأمير نشيط ، يفقد القاضى كثيراً من مكانته . وقد تولى أحمد بن طولون بنفسه إقرار العدل والنظر فى المظالم بحيث لم يصبح فى حاجة إلى القاضى بكار بن قتيبة(٣٨) .

وعلى ذلك يمكن أن نستنتج أن أحمد بن طولون عندما قام باختصاصات القاضى ، قام بأعمال الحسبة أيضاً ومعنى ذلك أن الحسبة كان يتولاها الأمير نفسه فى بعض الأحيان .

ويعلق الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن(٣٩) على ذلك بقوله : « بأن هذا الموقف من أحمد بن طولون كان نتيجة سوء تفاهم بينه وبين القاضى الكبير ، « وعلى ذلك استمرت البلاد بدون قاض حوالى سبع سنوات(٤٠) . وخلال هذه المدة كان يعهد بهذه الاختصاصات إلى موظف آخر هو صاحب المظالم(٤١)

وقد يكون من اختصاصات صاحب المظالم الحسبة أيضاً .

ولم يسمح خمارويه بعودة وظيفة القاضى إلا بعد أن وجد قاضياً يطمئن إليه ، فعين القاضى محمد بن عبده بن حرب ، وكان يتمتع بمكانة كبيرة حتى إنه قدر له ثلاثة آلاف دينار(٤٢) .

وعلى أى حال فإن اختصاصات القاضى ابن حرب كانت عديدة ، فالى جانب أعماله كقاض تولى أعمال الشرطة وعلاوة على ذلك كان يقوم بالمواريث والأحباس والحسبة(٤٣) .

---

(٣٧) وما ذكره من مراجع Zaky Hassan : Ies Tulunides p.223.

(٣٨) ذيل الكندى ص ٥١٢/العينى : عقد الجمان ، مخطوط ورقة ٤٦٢ - ٤٦٣ .
Zaky Hasssan : Ies tulunides p. 225.

(٣٩) Ies Tulunides p.223.

(٤٠) ذكر العينى أن البلاد استمرت بدون قاض ثلاث سنوات والراجح أنها سبع سنوات فوفاة القاضى بكار كان سنة ٢٧٠هـ وتولية القاضى ابن حرب كانت سنة ٢٧٧ - ٢٧٩ هـ .

(٤١) zaky Hassan. op: cit: p. 224.

(٤٢) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ص ١١٧/ذيل الكندى ص ٥١٥ .
العينى : عقد الجمان جـ ١٤/٣ ورقة ٤٧٦ «مخطوط» .

(٤٣) الكندى ص ٤٨٠/العينى : عقد الجمان/مخطوط ، جـ ١٤/٣ ورقة ٤٦٢ .
zaky Hassan : op:.cit p.226.

فالمحتسب لم يكن موجوداً ولم تكن الحسبة وظيفة مستقلة فى عصر الطولونيين وإنما كان يقوم بأعمال الحسبة فى هذا العصر القاضى أحياناً ، والوالى أحياناً ، وصاحب المظالم أحياناً أخرى . ومن هنا فإن نص الكندى والعينى ، الذى أوردناه سابقاً ، لا ينطبق إلا على القاضى فقط .

وعلى كل حال فإن هذه الإشارات لم ترد إلا فى كتابى الكندى والعينى على حين عدمتها بقية المصادر التى أرخت للعصر الطولونى كابن الداية(٤٤) والبلوى واليعقوبى(٤٥) ، والمقريزى ، والنويرى ، والذهبى(٤٦) وابن خلدون .

الحسبة ما بين عصرين
بين الطولونيين والاخشيديين
(٢٩٢ - ٣٢٣هـ)/(٩٠٥/٩٣٤م)

اجتمعت عدة عوامل داخلية وخارجية أدت إلى سقوط الدولة الطولونية (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م)(٤٧) - وانهار ملك بنى طولون على أثر سقوط دولتهم على يد قائد الجيش العباسى «محمد بن سليمان الكاتب» . وعادت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية مباشرة (٢٩٢هـ/٩٠٥م) فى عهد الخليفة العباسى المكتفى .

وقد أمر قائد الجيش العباسى بإحراق القطائع عاصمة الطولونيين ، والتنكيل بجميع من بقى من أتباع الطولونيين بأساليب قاسية(٤٨) .

---

(٤٤) « سيرة أحمد بن طولون » نقله ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » وكان قوام الكتاب الذى عقده ابن سعيد للكلام على الدولة الطولونية وسماه كتاب الدر المكنون فى حلى دولة بنى طولون من ص ٧٣ - ١٣٤ نشر وتحقيق دكتور زكى محمد حسن والدكتورة سيدة كاشف القاهرة ١٩٥٣ .

(٤٥) تاريخ اليعقوبى حتى سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) فقط .

(٤٦) تاريخ الإسلام مخطوط فى ٣٥ جزء بدار الكتب تحت رقم ٤٢ تاريخ ، جـ ١٥ قرأت من سنة ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ .

(٤٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥١٨ - ٥١٩ . /الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٨ ص ١٧٤ وما بعدها/أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٨ وما بعدها .

(٤٨) أبو المحاسن : النجوم جـ ٣ ، ص ١٣٧ - ١٣٩/ابن سعيد/المغرب ص ١٥١ د سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ص ١٧ - ١٨ - ١٩ .

واستمرت مصر تابعة للخلافة العباسية حتى قيام الدولة الأخشيدية التى استمرت من (٣٢٣ إلى ٣٥٨هـ/٩٦٨ - ٩٦٩م) ولا نستطيع أن نترك هذه الفترة دون دراسة .

وقد شهدت هذه الفترة محاولة لإرجاع الحكم الطولونى إلى مصر ، كما كان دعاة الفاطميين يعملون فى مصر بعد سقوط الدولة الطولونية ، فلم يكتفوا باستيلائهم على المغرب بل أرادوا مد سلطانهم إلى مصر والمشرق ، وكانوا لا يعترفون للعباسيين بالخلافة ، وقد توفى الخليفة المكتفى فى (سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م) ، وبويع من بعده المقتدر بالله ، فأرسل هذا الخليفة جيشاً إلى مصر نجح فى صد خطر الفاطميين ، بقيادة «مؤنس الخادم» أحد أعلام القواد العباسيين والأتراك ، وقد أصبح مؤنس الخادم هذا من أخص المقربين إلى الخليفة المقتدر بالله ، وكان أثناء إقامته فى مصر مطلق التصرف فى أمورها ، وكان يلقب بالأستاذ ، بل كان يدعى له على المنابر بعد الخليفة على نحو ما كان يحدث لبعض كبار الأمراء الذين يقطعون مصر منذ بداية العصر العباسى الثانى»[٤٩] .

وحسبنا دليلاً على ذلك أنه كان فى مدة إقامته فى مصر ، يتولى تعيين بعض الموظفين الكبار فى مصر . فقد ولى محمداً بن جعفر القرطى على الحسبة ثم على الخراج فى مصر[٥٠] . سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م .

وتعتبر هذه أول إشارة إلى تنصيب محتسب مستقل بوظيفة الحسبة ، فى مصر الإسلامية ، أى إنه بمجىء مؤنس الخادم ، وهو مبعوث رسمى من الخلافة العباسية لصد الفاطميين وتثبيت سلطان العباسيين فى مصر ، فإنا نراه يهتم بنقل النظم الإدارية التى كانت تطبق فى عاصمة الخلافة آنئذ (بغداد) إلى مصر ، ومن هذه النظم وظيفة الحسبة لا سيما وأن المحتسب فى تلك الفترة من الخلافة العباسية كان يتمتع بمكانة مرموقة ومرتبة عالية . وليس أدل على ذلك مما أورده السبكى من أنه : فى حوالى عام ٣٢٠ هـ استفتى الخليفة القاهر أبا سعيد الأصطخرى محتسب بغداد فى الصابئين ، فأفتاه بقتلهم ، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى ويعبدون الكواكب ، فعزم الخليفة على ذلك حتى جمعوا من بينهم مالا كثيراً فكف عنهم .[٥١]

---

(٤٩) د. سيدة كاشف : مصر فى العصر الإخشيدى ص ٣٠/مصر فى فجر الإسلام ص ٣٥ عن الكندى ص ١٩٤/جرومان : المحاضرة الثالثة عن أوراق البردى ص ١٢ .

(٥٠) ابن سعيد : المغرب ص ١٥٤/د. سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ص ٢٢٩ .

(٥١) السبكى : طبقات السبكى جـ٢ ، ص١٩٣ .

أشار الكندى إلى وجود محتسب لمصر فى حوالى سنة ٣١٧ يسمى « أبو مقاتل صالح بن محمد ، » الملحق ص ٥٣٩ .

الحسبة فى مصر فى العصر الإخشيدى

(٣٢٣ -٣٥٨هـ ٩٣٥ - ٩٦٩م)

امتد حكم الدولة الإخشيدية على مصر زهاء أربع وثلاثين سنة أى بين عامى (٣٢٣ و٣٥٨هـ/ ٩٣٥ - ٩٦٩م) . ومعظم معلوماتنا عن الحسبة فى مصر فى هذا العصر استقيناها من كتاب المؤرخ ابن زولاق الذى اهتم بتاريخ مصر كأستاذيه ابن عبد الحكم والكندى والأول صاحب كتاب «فتوح مصر» ، والثانى صاحب كتاب «ولاة مصر وقضاتها» ، وكتاب «فضائل مصر» .

ونعتقد أن ابن زولاق خير مرجع ثقة لهذا العصر ، لأنه عاصر الإخشيديين وعنى بتاريخهم عناية خاصة . وقد كتب مؤلفه «أخبار سيبويه المصرى» سنة ٣٧٠ - ٣٨٠هـ/ ٩٨٠م . ٩٩٠م) ، وتوفى(٣٧٨-٣٨١هـ[٥٢]/ ٩٨٨ - ٩٩١م) وقد كان زميلا له فى الدرس - فاهتم بجمع أخباره فى هذا الكتاب .

وقد رجعنا إلى كثير من مصادر هذا العصر ككتاب ، ابن عبد الحكم «فتوح مصر ، » والكندى «الولاة والقضاة» «والمقريزى فى «الخطط» ، وأبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ، والسيوطى : «حسن المحاضرة» ، وكتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء لهلال الصابى وكتاب مصر فى عصر الأخشيديين للدكتورة سيدة كاشف وكتاب الحضارة العربية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز .

ولكننا لم نظفر إلا بنصين من النصوص الطريفة لابن زولاق فى كتابه عن «سيبوبه المصرى» أحد الأدباء فى عصر محمد الأخشيد[٥٣] ، وقد ساعدنا هذان النصان على فهم الحسبة فى هذا العصر وتصويرها فى شىء من الوضوح ، ويعطى ابن زولاق صورة قائمة عن حسبة هذا العصر ومحتسبيه فيذكر أن «محمد بن جعفر بن السلام كان من المحتسبين الذين تولوا حسبة مصر فى العصر الأخشيدى ، ويروى أن بعض جيران «سيبويه المصرى» ساءه

---

(٥٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٨ - أنظر مقدمة كتاب مصر فى عصر الإخشيديين فيما يتعلق ببحث المصادر لهذا العصر ، ونشر كتاب زولاق فى كتاب المغرب لابن سعيد « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طفح » من ص ١٤٨ إلى ١٩٩ د. سيدة كاشف .

(٥٣) وعلى الرغم من أن سيبويه المصرى هذا كان يعد من عقلاء المجانين إلا أنه جالس عليه القوم ، وتناولهم بالنقد اللاذع والتهكم المر . وكان معظمهم يخشونه ويتقون شره ، وعلى ذلك يمكن لنا أن نعتبره مصلحاً إجتماعياً فى عصره لأن أقواله كشفت عن الكثير من جوانب الحياة العملية فى عصره . أنظر سيدة كاشف « مصر فى عصر الإخشيديين » « فصل الأدباء » . الطبعة الأولى .

ولاية «ابن سلام» على الحسبة ، فشكاه إلى «سيبويه» فركب معه إلى الوزير أبي الفضل جعفر ابن الفضل فقال له : «أباالفضل ! حفظك الله ورعاك وصانك وأبقاك ! وليت علينا محتسباً قليل الوفا ، كثير الجفا ، طويل القفا . فاما أن كفيناه أوبدلته لنا بسواه . . . »(٥٤) .

ويلاحظ من النص أنه كان للوزير فى هذا العصر سلطة تولية المحتسب وعزله ، كما يمكن استنتاج الفساد الذى بدأ يمتد إلى هذه الوظيفة الهامة والى متوليها الذى كان بعيداً عن الصفات التى يجب أن تكون متوفرة فى المحتسب من حيث العفة ، والوقار ، والورع ، والتقوى ، والبعد عن الارتشاء ، والتعفف عن أموال الناس . . .

ونلحق بهذا النص نصاً آخر أشار إليه ابن زولاق فى موضوع من كتابه حيث قال : «ان سيبويه المصرى كان راكباً على حماره ولقى المحتسب والحراس بين يديه فقال : «ما هذه الأحراس يا أنجاس ، والله ما ثم حق أقمتموه ، ولا سعراً أصلحتموه ، ولا جان أديتموه ، ولا ذو حسب وقرثموه ، وماهى إلا أحراس تسمع لباطل يوضع ، وأقفاه تصفع ، وبراطيل تقطع ! لا حفظ الله من جعلك محتسباً ، ولا رحم لك ولا له أبا . . . »(٥٥) .

والنص السابق يعطى صورة عما كانت عليه هذه الوظيفة فى مصر فى ذلك الحين من حيث : استخدام الأعوان والمساعدين ، والحرس ، والإهمال فى أداء الحقوق وعدم مراقبة الأسعار والتلاعب بها ، وانتشار الفساد والبراطيل وان كان النص لا يوضح شيئاً كثيراً عن مهام أو أعمال المحتسب فى ذلك العصر .

والحقيقة أن الحسبة لم تكن هى الوظيفة الوحيدة التى امتد إليها الفساد فى هذا العصر ، بل اننا نرى ذلك الفساد يتطرق أيضاً إلى الوظائف الأخرى : كالقضاء فكان العلماء والفقهاء يتهافتون على ولاية القضاء فى هذا العصر حتى أنهم كانوا يعمدون فى سبيل الوصول إلى هذا المنصب إلى رشوة الأمراء الاخشيدين وذوى النفوذ فى الدولة الاخشيدية ، وإلى رشوة أولى الأمر فى الخلافة ولاسيما قاضى قضاة بغداد(٥٦) .

وتعلق الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف على ذلك بقولها :

«ان هذه ظاهرة لم نعرفها قبل العصر الاخشيدى ولا نستطيع تعليلها تعليلاً واضحاً ، ولعلها ترجع إلى أن منصب القضاء كان من المناصب الخطيرة فى الدولة فضلاً عن أن

---

(٥٤) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٩ -/د. سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٥٥) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى : التحقيق ص ٢٩ .

ود. سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ص ٢٣٠ الطبعة الأولى .

(٥٦) أنظر أمثلة فى الكندى : ص ٥٦٤ وما بعدها .

القاضى كان يستطيع أن يستغل منصبه فى جمع الثروة وذلك بقبول الرشوة أو بوضع يده على ما يريد من أموال الأحباس» .(٥٧)

ويرجع هذا الفساد أيضاً إلى ما عانته الدولة من مواجهة بعض الأزمات الاقتصادية والمجاعات(٥٨) ، وإلى اضطراب البلاد بعد وفاة كافور(٥٩) ، وتعدد الفتن وكثرة الحروب الداخلية مما أدى إلى نهب الأسواق وارتفاع الأسعار ، وانتشار الفساد . كما تعرضت مصر لأخطار القرامطة والفاطميين من الشرق والغرب(٦٠) كما وفقنا للعثور من ثنايا بعض سطور كتاب صاحب النجوم الزاهرة فى وفيات سنة ٣٥٧ هـ (٦١) - وهى السنة الثالثة من ولاية كافور الإخشيدى على مصر - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن مُحْرِم المحتسب وذكر أنه نقل ذلك عن الذهبى .

الحسبة فى العصر الفاطمى
(من ٣٥٨ إلى ٥٦٧هـ/٩٦٩ - ١١٧١م)

قامت الخلافة الفاطمية فى مصر فى (سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩م) بعد قيامها فى شمال افريقيا (٢٩٦ - ٢٩٧ هـ/٩٠٨ - ٩٠٩م) ، وأنهم كانوا يدعون نسبتهم إلى فاطمة ، على أن مسألة النسب هذه كانت ولاتزال موضوعا كثرت فيه آراء جمهور الكتاب والمؤرخين الأقدمين والمحدثين(٦٢) .

وكان الشيعة الفاطميون فى المغرب يوجهون المناصب الدينية ، كالقضاء والحسبة وجهة خاصة تخدم المذهب الاسماعيلى وتحارب المذاهب الأخرى(٦٣) . كذلك خصص الفاطميون فى مصر أحسن المناصب فى القضاء والإفتاء والحسبة للشيعة وحدهم(٦٤) .

---

(٥٧) مصر فى عصر الإخشيديين أنظر أمثلة لهذا الفساد من ص ٢١٠ إلى ٢١٨ .

(٥٨) المقريزى : إغاثة الأمة ص ١٢ .

(٥٩) المقريزى : الخطط جـ ١/٢ ص ١٧٧ ط لبنان .

(٦٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٨ ص ٢٢٦ وما بعدها .
Wiet : Pre cis de lhistoire d Egypte. II.p. 175.

(٦١) ابن تغرى بردى جـ ٤ ص ٢٠ . ومما هو جدير بالذكر أن المقريزى فى اتعاظ الحنفا ص ٢٧ قد ذكر أن أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا (محتسباً بسوق الغزل) ويعرف بالمعلم .

(٦٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٧ وما ذكره من مراجع . وراجع برنارد لويس : أصول الإسماعيلية .

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٦٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٨ - متز : الحضارة جـ ١ ص ١١٣ .

وكان على موظفى الدولة فى ذلك الوقت تطبيق مبادىء المذهب الشيعى كل فى دائرة اختصاصه . ولذا كان على المحتسب أن يأمر بما دعا إليه المذهب الشيعى وأن ينهى عن كل ما نهى عنه هذا المذهب ، ومن هنا نجد قائد جيوش الفاطميين «جوهر الصقلى» يبادر بعزل المحتسب السنى ، وتولية محتسب شيعى يسمى «أبو جعفر الخراسانى»[٦٥] ، ثم عين المحتسب «سليمان بن عزة»[٦٦] .

وعلى ذلك أصبح عمل المحتسب الفاطمى ذا طابع خاص يختلف تمام الاختلاف عن عمل أى محتسب آخر ، فعمل المحتسب فى العصر الفاطمى كان لتحقيق أغراض مذهبية بحتة ، فالحسبة وظيفة ولكن هذا الموظف كان لا يحكم إلا وفق المذهب الشيعى حتى ولو كان سنيا ، وذلك بجعل المبادىء الشيعية جزءاً من قواعد الحسبة وكان ذلك يتجلى فى تطبيق المحتسب للأوامر والقوانين والمراسيم الشيعية فى مختلف المجالات التى تقع تحت اختصاصه .

ومهما يكن من أمر فقد ظهر أثر المذهب الشيعى فى مجالات الحسبة المختلفة وأفاض المقريزى فى تفصيلها وأعطانا صورة تفصيلية دقيقة ، للمرة الأولى عن تطور هذه الوظيفة فى مصر فى عصور : الفاطميين ، والأيوبيين ، والفترة التى عاشها فى العصر المملوكى . إلا أنه لم يفرد للحسبة مؤلفات خاصة ، وانما تحدث عنها فى «خططه» فى سياق حديثه عن طبقة العلماء والقضاة ، أوْ جاء الحديث فيها عرضاً من خلال تأريخه للحوادث بالسنين فى كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» ، أو من خلال عرضه للأزمات الاقتصادية وطرق علاجها فى كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» ، أو أثناء تأريخه للفاطميين الشيعيين فى كتابه «اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا» .

وكان محتسبو العصر الفاطمى يشتركون فى المواكب والاحتفالات الدينية[٦٧] ، ففى عيد الفطر تولى المحتسب ، بمساعدة صاحب الشرطة ، حمل السماط ، الخاص بالحلوى .

وقد ذكر المقريزى فى خططه أن «عليا بن سعد» المحتسب حمل القصور وتماثيل السكر واشترك مع باشس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى فى حمل الحلوى وذلك فى شهر رمضان سنة ٣٨٠ هـ» .

---

(٦٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٧ .

(٦٦) المقريزى : نفس المرجع ص ٧٨ انظر الملحق الخامس من ملاحق البحث الذى يوضح أسماء المحتسبين وسنوات توليتهم . والحكام الذين تولوا فى عهودهم .

(٦٧) وفى المجال الدينى نرى جوهر الصقلى فى (٨ جمادى الأول ٣٥٩ هـ/ ٢٠ مارس ٩٧٠م) يفرض على الناس استعمال صيغة الأذان الفاطمية ، وهى تستعمل «حى على خير العمل» ، انظر ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد» التحقيق ص ٤١ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧٠ ص ٣٤٠ . كانت صيغة الأذان «بحى على خير العمل» على عهد النبى ﷺ ، ولكن عمر أمر بقطع هذه الصيغة من الآذان ، وذلك لأنه رأى أن الناس إذا سمعوا أن الصلاة خير من العمل تهاونوا بالجهاد وتخلفوا عنه انظر : النعمان : «دعائم الإسلام فى

وقد جرت عادة الفاطميين ، منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (ابتداء من آخر جمادى الآخرة إلى نهاية شهر رمضان من كل سنة) بإغلاق قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر ، وأن ينادى بأن من يتعرض لبيع شيء من المسكرات أو لشرائها سراً أو جهراً فقد عرض نفسه لهلاكها .(٦٨)

وقد أصاب المصريين السنيين كثير من الضر والأذى بسبب إرغام الفاطميين لهم على مشاركتهم فى إظهار شعائرهم ، فيحكى المقريزى أنه فى «العاشر من محرم سنة ٣٦٣ هـ ، «سار جماعة من المصريين الشيعيين والمغاربة فى موكبهم ينوحون ويبكون على الحسين ، وصاروا يعتدون على كل من لم يشاركهم فى مظاهر الأسى والحزن مما أدى إلى تعطيل حركة الأسواق ، وقيام القلاقل(٦٩) ، «وبقدر ما كانت هذه الاحتفالات والاعتداءات تنشط كان مبلغ ما يقابله المحتسب من صعوبات ، فقد كانت مهمة المحتسب مراقبة الطرق العامة والأسواق(٧٠) ومنع حدوث مثل هذه الاضطرابات التى من شأنها تعطيل الأسواق .

وقد ازداد هذا الأمر شدة لما أمر الفاطميون فى (سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) بسب السلف (الصحابة الأولين) ، وهم عائشة زوج النبى ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، والخليفة معاوية ، وعمرو بن العاص . . وكان هذا السب عبارة عن : (لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة فدكا ، ومن منع الحسن أن يدفن عند قبر جده . . .(٧١) وكان هذا السب يقرأ فى الجوامع والبيوت والحيطان والدروب ، وعلى المقابر وحتى الصحراوات كما يقول المقريزى(٧٢) . وكان ذلك يعظم على أهل السنة(٧٣) ، فيقدمون على الحرب مع الشيعة وكانت صيحتهم المشهورة فى ذلك «معاوية خال على بن أبى طالب» ، حتى أن اليهود الصيارفة أرادوا إثارة الشغب والاضطرابات

الحلال والحرام ، جـ ١ ص ١٧٢/ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ص ١٦٦ حاشية (١) . كما أمر جوهر الصقلى أن يجهر فى صلاة الجمعة «بالبسملة» (بسم الله الرحمن الرحيم) وأن تزاد صيغة «القنوت» (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧٠ ، ٣٤٠) فى الركعة الثانية وهى «اللهم نحن إليك قانتون» .

وفى (٣٧٢هـ/٩٨٢م) أمر الخليفة العزيز بقطع صلاة التراويح التى تتكون من عشرين ركعة وعشر تحيات . وفى سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م) أبطل الخليفة الحاكم صلاة الضحى لأن الشيعة لا يقومون بها (المقريزى : الخطط - ٢ ص ٣٤١/ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٥٢ .

(٦٨) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٨٧ .

(٦٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٩٨/حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ص ١٨٧ .

(٧٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٨٦ .

(٧١) أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٤٧٨ عام ٣٥١هـ .

(٧٢) الخطط : جـ ٢ ص ٤٣٢ .

(٧٣) يحيى بن سعيد ص ١١٦ . وفى هذه السنة نفسها وصلت قافلة الحج - فأراد العامة حملهم على سب السلف فأبوا ، فحل بهم مكروه شديد : المقريزى الخطط ، جـ ٢ ص ٣٤٢ .

للتلاعب بالنقد فصاحوا : «معاوية خال على» ، فعزرهم المحتسب ، وهم جوهر أن يحرق أمكنتهم[٧٤] .

وامتد التأثير المذهبى للفاطميين إلى المجال الاجتماعى فقد أصدر الخليفة الحاكم بأمر الله - الذى يقوم بأعمال الحسبة بنفسه[٧٥] - أمرا بمنع الناس من بيع بعض المأكولات المحببة إلى أعداء الفاطميين ، «كالملوخيا» التى كان معاوية يحبها كثيراً ، و«الجرجير» المنسوب ادخاله فى الطعام لعائشة ، و«المتوكلية» وهى نبات يدخل فى عمل الحساء ، وينسب إلى الخليفة العباسى المتوكل .[٧٦]

وحدا كثرة وجود المنكرات فى الدولة الفاطمية ، بالخليفة الحاكم بأمر الله أن يكثر من أوامره الرادعة . فنراه عندما قلد «غبنا الصقلبى» شئون الشرطة فى مصر والقاهرة ، والحسبة بالقاهرة ومصر والجيزة[٧٧] يوصيه بالتشديد فى مراقبة النبيذ ومنع شرابه أو صنعه ، وتقييد بيع العسل ، فلا يتجاوز أكثر من ثلاثة أرطال للشخص خوفاً من اتخاذ المسكر منه[٧٨] وأوصاه بالتشديد أيضاً فى منع صنع أى نوع من المسكرات وتتبع السكارى ، فمصر فى ذلك الوقت اشتهرت بصناعة الفقاع والمزر[٧٩] . كما أصدر الحاكم عدة أوامر بمنع النساء من السير خلف الجنازات (سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٤م) وخروجهن إلى الأسواق والحمامات فى (سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م) ، كما حظر عليهن التطلع من نوافذ البيوت والوقوف فوق أسطح المنازل ، وبلغ الأمر أنه منع صانعى الأحذية من صنع الأخفاف للنساء حتى يتعذر عليهن الخروج من بيوتهن . كذلك حرم الاجتماعات للهو على شواطىء الخليج المصرى بالقاهرة ، فأمر بسد أبواب الدور التى تقع على الخليج والطاقات المطلة عليه .[٨٠]

---

(٧٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٧ .

(٧٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٥٢ - ٥٣ . يوسف المقدسى الحنبلى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١٧٠٦م ص ٣٩ - ٤٠

(٧٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٧ ، ٣٤١ ، ابن إياس : جـ ٢ ص ٥٢ .

(٧٧) يلاحظ إضافة منطقة الجيزة إلى اختصاص المحتسب فى عهد الفاطميين .
المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١٦٠ .
ويصف ابن جبير مدينة الجيزة بأنها قرية تقع فى غرب النيل ، وأن لها كل يوم أحد سوقاً من الأسواق العظيمة . رحلة ابن جبير ، ص ٥٤ .

(٧٨) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٨٧ - ٨٨ .

(٧٩) المزر والفقاع هو : شراب شعبى منذ أقدم العصور حتى يومنا مثل البيرة انظر : Wist:op.Cit p.201.

(٨٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٨٧ .
انظر التفصيل فى وظيفة المحتسب وعلاقتها بالمجال الاجتماعى من ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

ومهما يكن من أمر فلنا أن نؤكد أن نشاط المحتسب كان يقوى ويضعف حسب تحمس الخلفاء ، أو تعصبهم للمذهب الشيعى ، كما أن التطرف البالغ لم يبلغ أشده إلا فى عهد خليفة واحد ، هو «الحاكم» الذى اعتنق العقيدة الشيعية المتطرفة وارتكب كثيراً من المبالغات كما سبق أن ذكرنا .

وكان لمحتسب العصر الفاطمى نشاط كبير فى الأسواق ، وقد ذكر المقريزى أن شخصاً يدعى «الحسين بن عبد العزيز» كان حوالى عام (٣٦٧ هـ/٩٧٧م) محتسباً قديراً ،وموضع ثقة بحيث عهد إليه الإشراف على أسواق مدينة القاهرة .(٨١)

وقد كان للحسبة والمحتسب دار خاصة بها ، أنشئت على عهد الفاطميين تسمى «دار العيار» ، أفاض المقريزى فى شرحها ووضوح وظيفتها بقوله : وقد أنشأ على عهد الفاطميين داراً تسمى دار العيار تعير فيه الموازين بأسرها وجميع الصنج وكان ينفق على هذه الدار من الديوان السلطانى فيما يحتاج إليه من الأصناف كالنحاس ، والحديد ، والخشب ، والزجاج ، وغير ذلك من الآلات ، وأجر الصناع والمشارفين(٨٢) ونحوهم . ويحضر المحتسب أو نائبه إلى هذه الدار ليعير المعمول فيها بحضوره فإن صح ذلك أمضاه ، وإلا أمر بإعادة عمله حتى يصح . وكان بهذه الدار أمثلة يصحح بها العيار فلا تباع الصنج والموازين والأكيال إلا بهذه الدار .

ويحضر جميع الباعة إلى هذه الدار باستدعاء المحتسب لهم ، ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، فتعير فى كل قليل ، فان وجد فيها الناقص أستهلك وأخذ من صاحبه لهذه الدار ، وألزم بشراء نظيره مما هو محرر بهذه الدار والقيام بثمنه .

ثم سومح الناس ، وصار يلزم من ظهر فى ميزانه أو صنجه خلل - يلزم باصلاح ما فيها من فساد - والقيام بأجرته فقط . . . وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الفاطميين . . . .(٨٣) .

وقد دعا هذا التطور فى نظم السوق ، وهذا التعدد فى اختصاصات المحتسب وتضخم مسئولياته بحيث أصبح من الصعب عليه القيام بأعباء وظيفته بمفرده إلى الاكثار من اتخاذ أعوان ومساعدين .

ويذكر المقريزى : «أن المحتسب رتب عريفا على كل صنعة ، وفى كل سوق ، يقبل قوله فى كل شىء ، وله أعوان ينفذون أوامره وأحكامه(٨٤) .

---

(٨١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٨٦ .

(٨٢) المشارفة : وظيفة يتولاها الموظفون الذين يشرفون على الأمور المالية وبخاصة فى الأوقاف . ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٢ .

(٨٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

(٨٤) إغاثة الأمة ص ١٨ - ١٩ .

ونستنتج من نص المقريزى أن أعوان المحتسب فى مصر فى العصر الفاطمى كانوا فريقين يقومان بنوعين من الواجبات :

الفريق الأول : يقوم بالطواف والتفتيش على أرباب الحرف والمعايش ، ويستخدمون كعيون يوصلون إلى المحتسب أخبار السوق ومما ذكر أن : «عريفا حنق على خباز ، فسعى لدى المحتسب حتى غرم عشرة دراهم ظلما ، فلما مر قاضى القضاة استغاث الخباز به ، فأحضر المحتسب ، وأنكر عليه ما فعل بهذا الخباز ، فذكر له أن العادة جرت باستخدام عرفاء فى الأسواق على أرباب البضائع ، وأن يقبل قولهم فيما يذكرونه فصرف هذا العريف عن العرافة بعد أن عوض المجنى عليه نقودا[٨٥] .

والفريق الثانى من الأعوان : كانوا يساعدون المحتسب فى تنفيذ الأحكام . وقد استخدم بعض أعوان المحتسب السياط فى عهد «الحاكم بأمر الله» الخليفة الفاطمى فى مصر ، فى ضرب جماعة من الطحانين والخبازين ،[٨٦] ولعل هذه هى المرةالأولى التى تتحدث فيها المصادر القديمة بهذا التفصيل عن أعوان المحتسب .

ويدعونا هذا الأمر إلى عقد مقارنة بين العصر الاخشيدى والعصر الفاطمى من حيث أستخدام الأعوان المساعدين . فمحتسب العصر الاخشيدى كان يتخذ من الأعوان والحراس وسيلة للظهور والتباهى فحسب دون أن يؤدوا ما عليهم من واجبات بحيث انهم أثاروا حفيظة رجل من كبار رجالات المجتمع فى ذلك الوقت ، وهو «سيبويه المصرى» ، مما دعاه إلى مهاجمتهم وتوجيه اللوم لهم[٨٧] .

على حين أن أعوان محتسبى الفاطميين كانوا على العكس من ذلك ، يؤدون أعمالهم على أحسن وجه ، وإذا قصر أحدهم استحق العزل ، وليس أدل على ذلك من أنه عندما أخطأ أحد العرفاء عزل فورا عن العرافة ، وعوض المجنى عليه كما سبق أن ذكرنا .

والظاهر من النصوص أيضا أن قاضى القضاة فى مصر الفاطمية كان له سلطة على المحتسب ، فقد أنكر فعله ، فى حادثة عريف الخباز ، وقام بعزل العريف عن العرافة ، [٨٨] على حين أن هذه السلطة العليا فى تولية المحتسب وعزله فى مصر فى العصر الاخشيدى كانت فى يد الوزير[٨٩] .

ويذكر أحد المؤرخين المحدثين وهو الأستاذ الدكتور «عبد المنعم ماجد» أنه من العجب أن نقرر بأنه على الرغم من مذهبية الدولة وتعصبها ، فانها تركت للمصريين حرية شرب

---

(٨٥) المقريزى : إغاثة الأمة ص ١٨ - ١٩ .

(٨٦) نفس المصدر ص ١٦ .

(٨٧) انظر نص سيبويه المصرى فى فصل العصر الإخشيدى .

(٨٨) المقريزى : إغاثة الأمة ص ١٨ - ١٩ .

(٨٩) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ، التحقيق ص ٢٩

الخمر والمجون دون قيد ، فترتب على ذلك المبالغة فى الفساد والانغماس فى الاباحية مما كان له أثره فى الخلفاء أنفسهم ، وأثار الانكار والانتقاد من أعدائهم ، ولكن الحسبة كانت بالنسبة لهم وسيلة لزيادة تقربهم من المصريين[٩٠] .

ونحن نوافق الأستاذ الدكتور ماجد على أن الدولة الفاطمية قد تركت الحرية للمصريين فى شرب الخمر والمجون حتى أثار الانكار والانتقاد ، وقد شهد بذلك مؤرخنا المقريزى[٩١] عندما تحدث عن النوروز القبطى[٩٢] وما يحدث فيه . . ويستطرد فيذكر . . «وقال القاضى الفاضل فى «تعليق المتجددات «سنة ٥٨٤» وقد كان بمصر فى الأيام الماضية والدولة الخالية ، يعنى دولة الخلفاء الفاطميين ، من مواسم بطالاتهم ، ومواقيت ضلالاتهم ، فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة فى يومه (يقصد يوم النوروز) .

ولكننا لا نرى أن : الحسبة كانت بالنسبة للفاطميين وسيلة لزيادة تقربهم من المصريين «وذلك لأن زيادة التقرب أو البعد هنا تكون نتيجة لوظيفة المحتسب وعمله ، إذا كان فيه راحة للشعب من حيث مراقبة الأسواق أو الأخلاق فهى وسيلة للتقرب وإذا كان العكس فهى وسيلة للبعد والتباعد ، أو أنها مريحة ومتعبة فى نفس الوقت .

وتفيض مراجع الحسبة فى الحديث عن محتسب الخلافة فى عصر العباسيين الذى أصبح من جملة أصحاب المخاطبات المعروفة ، ويجرى مجرى الطبقة الأولى من العمال [٩٣] وقد بلغ من خطورة مركز محتسب بغداد فى ذلك الوقت أنه كان له الحق فى مؤاخذة القاضى على أفعاله إذا أخطأ ، والتدخل فى العلاقة بينه وبين الخصوم الذى يفصل بينهم ، والانكار عليه إذا كان ذلك سيضر الناس [٩٤] .

وتعددت اختصاصات محتسب بغداد فى هذا العصر حيث أصبحت تشمل - كما صورها الماوردى - الذى كان معاصرا للفاطميين فى مصر - الاشراف على أداء الصلوات فى الجمعة والأعياد ، وأداء الديون إلى أصحابها ، ومنع النبيذ والألعاب المحرمة ، والنهى عن التجسس ، ومنع الغش فى الأسواق ، والتطفيف فى الميزان والمكيال ، وطريقة معاملة أهل الذمة ، والعبيد ، والجوارى ، والدواب[٩٥] . كما كانت تشمل الاشراف على سوق الرقيق ، ودار الضرب ، واثبات اسم الخليفة على ما يضرب ذهبا وفضة ونقشه أيضا على ما يعمل من النياشين والفرش والأعلام[٩٦] .

---

(٩٠) نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ص ٦٧ .

(٩١) الخطط جـ ١ ص ٤٩٣ .

(٩٢) النوروز القبطى : هو أحد أعياد القبط كما أشار إلى ذلك المقريزى فى الخطط جـ ١ ص ٤٩٣ .

(٩٣) متز : الحضارة العربية ، الترجمة جـ ٢ ص ٢٧٤ وما ذكره من مراجع .

(٩٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٥٧ .

(٩٥) نفسه : نفس المصدر ص ٢٤٣ - ٢٢٦ ، ٢٥١ - ٢٥٤ ، ٢٥٧ .

(٩٦) متز : الحضارة جـ ٢ ص ٢٧٤ .

الفصل الثانى

الحسبة فى مصر فى عصر الدولة الأيوبية

(٥٦٧ - ٦٤٨هـ - ١١٧١ - ١٢٥٠م)

امتد حكم الأيوبيين لمصر واحدا وثمانين عاما هجرية من عام (٥٦٧ إلى ٦٤٨هـ) وتسعة وسبعين عاما ميلادية من عام (١١٧١ - ١٢٥٠م) بعد سقوط الدولة الفاطمية ، ودخلت مصر فى عهد جديد يختلف تماما عن العهد السابق سياسيا ودينيا ، فأصبحت مصر مقرا للدولة الأيوبية السنية ، وزعيمة العالم الإسلامى فى الجهاد ضد الصليبيين .

وأصبحت وظيفة المحتسب على جانب كبير من الأهمية نظرا لما جد فيها من تطور كبير يستحق الدراسة المستفيضة . ويذكر المقريزى :[1] «أنه لما استولى صلاح الدين الأيوبى على السلطنة أقر دار العيار السابق الحديث عنها ، وجعلها وقفا على سور القاهرة مع ما كان جاريا فى أوقاف السور من الرباع ،[2] والنواحى الجارية فى ديوان الأسوار .

وظل من واجبات المحتسب فى مصر فى العصر الأيوبى الاشراف على «دار العيار» ويتحدث «ابن مماتى» المؤرخ المعاصر للأيوبيين عن وظيفة «دار العيار» فى ذلك الوقت بقوله : هذه الدار يحتاط فيها للرعية فى موازينهم وسنجهم ومكاييلهم ، وعادة الديوان أن ينفق فيها ما يحتاج إليه من ثمن الأصناف كالنحاس والحديد والخشب ، ويحترس المستخدمون والمحتسب على التغيير فيها بما يصح ويحقق عندهم ، ومن حضر إليهم ، ورغب فى ابتياع شيء منهم أباعوه (كذا) وحصل من فضل الثمن ما يرد الدار ارتفاعا ، وكانت العادة جارية بأن يعاير على أرباب الموازين ، فمن وجدوا سنجه زايدة أو ناقصة استهلكوها وباعوا عليه غيرها ، فبطل ذلك وصار من احتاج إلى إصلاح سنجة له أحضرها

---

(١) الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

(٢) الرباع : جمع ربع : وهو عدة مساكن علوية تحتها حوانيت ووكائل للتجارة ، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل وجهة البناء المشرفة على الطريق العام وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع المخصصة لسكنى العامة بأجور شهرية زهيدة . زيادة السلوك ، جـ ١/٣ ص ١٠٠٠/أبو المحاسن : النجوم جـ ١٠ ، ص ٢٠٣ حاشية ٣/عاشور : العصر المماليكى ص ٤١٨ .

وحررها . . وغيرها وزاد فيها ما يحتاجه وجدد ختمها من غير غرامة عليها سوى الأجرة لا غير . . وكانوا لا يمكنون أحدا أن يزن بزلط ولا حجارة . . .[٣]

والملاحظ من النص أن وظيفة دار العيار فى مصر فى العصر الأيوبى ودور المحتسب فيها ، ظلا كما هما عليه فى مصر فى العصر الفاطمى .

ولأول مرة فى تاريخ مصر الإسلامية تظهر مؤلفات مستقلة للحسبة ، وكان كتاب «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة» أهم ثمرات هذه المؤلفات ، وهو من تأليف القاضى عبد الرحمن بن عبد الله الشيزرى[٤] الذى لمع نجمه ابان حكم صلاح الدين الأيوبى (٥٦٤ - ٥٨٩هـ/١١٦٩ - ١١٩٣م) .

وقد سجل هذا المصنف بوضوح وظيفة الحسبة والمحتسب فى ذلك الوقت ، كما أحدث تأليفه صدى فى العصور التالية حيث تأثر به مؤلفو الحسبة فى العهود التالية فى مصر [٥] وفى المغرب [٦] أيضا .

ومهما يكن من أمر هذا المصنف ، فقد حوى أربعين بابا مفصلة تفصيلا دقيقا شملت نواحى عديدة دينية ، وثقافية ، وإجتماعية ، واقتصادية .

ووضحت اختصاصات المحتسب من حيث النظر فى مصالح الرعية ، وكشف أحوال السوقة ، ومنع تسعير البضائع ، وعدم الزام الباعة بيع بضائعهم بسعر معلوم لأن السعر غلا ، فقد قيل لرسول الله ﷺ يارسول الله : «سعر لنا» فقال الرسول (ﷺ) ان الله هو المسعر ، وإنى لارجو أن ألقى الله وليس أحد يطالبنى بمظلمة فى نفس ولا مال[٧] . وإذا رأى المحتسب أحدا قد احتكر الطعام من سائر الأقوات ، وهو أن يشترى ذلك فى وقت الرخاء ويتربص به الغلاء ، فيزداد ثمنه ألزمه بيعه اجبارا لأن الاحتكار حرام ، والمنع من فعل الحرام واجب .

ولا يجوز «تلقى الركبان» وهو أن تقدم قافلة فيلاقيهم إنسان خارج البلد فيخبرهم

---

(٣) ابن مماتى : «قوانين الدواوين» ص ٣٣٣ ، ص ٣٣٤ أنظر حاشية ٢ ، تحقيق الأستاذ عزيز سوريال عطية .

(٤) أطلق عليه أيضاً «العدوى» و«التبريزى» و«التبراوى» حاجى خليفة كشف الظنون جـ ٢ . يضع مؤلفات الشيزرى تحت العنوانين التاليين «نهاية الرتبة الظريفة فى طلب الحسبة الشريفة» ، «ونهاية الرغبة فى طلب الحسبة» وهناك أشار لكتاب بعنوان «عالى الرتبة فى أحكام الحسبة» .

(٥) انظر ما أوردناه عن الشيزرى وابن بسام وابن الأخوة فى فصل المراجع .

(٦) تأثر به السقطى المالقى فى كتابه «آداب الحسبة» فى الأندلس ، والمقرى فى نفح الطيب مجلد ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ القاهرة ١٩٤٩ .

(٧) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٢/ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ص ٢٨ .

بكساد ما معهم ليبتاع منهم رخيصا ، وإذا عثر المحتسب على من يقصد ذلك عاقبه بعقاب يستحقه[8] .

ويلاحظ أنه فى العصر الأيوبى منع التجار من بيع البضاعة بسعر محدد ومنع تسعير البضائع ، فى حين أن الرحالة الفارسي ناصر خسرو عندما زار مصر فى العصر الفاطمى بين سنتى (١٠٤٧ - ١٠٤٨م) ، لاحظ أن التجار المصريين كانوا يبيعون بضائعهم بسعر محدد معلوم ومن خالف ذلك عوقب عقابا شديدا [9] .

ووضحت اختصاصات محتسب هذا العصر من حيث التنبيه على غش أرباب الصناعات وغش المكاييل والموازين . ويفيض الشيزرى ، ومن تابعه عن الحسبة فى العصر الأيوبى ، فى الحديث عن الموازين والمكاييل وعيار الأرطال والمثاقيل التى تستخدم فى بلاد الشام خاصة ، ونحن إذ نراه يفصل ما يستخدم منها فى مصر تفصيلا كبيرا ، نراه أيضا يقارن بينها وبين نظائرها التى تستخدم فى أقاليم بلاد الشام [10] : شيزر[11] ، وحلب ، ودمشق . .

وقد كان هذا ، التفصيل والتفسير ، فى استخدام المكاييل والموازين فى بلاد الشام ، أمرا طبيعيا لارتباط مصر بالولايات الشامية وبالامارات الصليبية[12] ، وبالدول الأوربية فى ذلك الوقت . وقد أصبح من واجبات المحتسب ألا يجهل ذلك حتى يعلم تفاوت الأسعار . كما كان عليه أيضا معرفة أنواع النقود المتداولة وقيمتها ، وضرورة التعامل بالنقود التى أمر بضربها صلاح الدين فى ذلك الوقت[13] .

ولما كان المسئولون مهتمين دائما بتوفير الخبز فى الأسواق ، فقد كلف المحتسب بمعرفة الطحانين والخبازين ومعرفة مواضع حوانيتهم ، وذلك عن طريق تقييد أسمائهم فى دفتره الخاص الذى يسمى «دفتر المحتسب» الذى لم نسمع عنه قبل ذلك العصر ، كذلك كلف

---

(٨) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٢ - ١٣ .

(٩) سفر نامة : ص ٦١ وما بعدها .

(١٠) الشيزرى : نهاية الرتبة من ص ١٥ - ١٧ .

(١١) «شيزر بلدة بشمال الشام ، وقد فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح سنة ١٧هـ صلحا ، واقترن اسمها بأسرة بنى منقد من بنى كنانة منذ القرن الخامس الهجرى سنة ١٠٢٥م ، فإذ تولولها خالفاً عن سالف ، وصدوا عنها إغارات القبائل المجاورة وهجمات الصليبيين والبيزنطيين ، ثم استولى عليها نور الدين محمود بن زنكى وقد أصبحت من ممتلكات الأيوبيين (سنة ٧٠٠هـ ١١٧٤م) راجع ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٥٣ .

Ency Ist Art Shaizar

(١٢) وكان من نتيجة هذا الارتباط أيضاً أنه لوحظ تطور فى بناء الأسوار والاستحكامات والقلاع بتأثير ما عرفه المسلمون عند الصليبيين . انظر زكى حسن «فنون الإسلام» ص ٦٩ .

(١٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٥ .

المحتسب بالرقابة عليهم ، وتحديد كمية معينة من الدقيق لهم كل يوم لئلا يختل اقتصاد البلد عند قلة الخبز ، وكان يلزمهم بذلك إذا امتنعوا[١٤] .

كذلك كان لمحتسب ذلك العصر السلطة فى ترتيب الصناعات المختلفة فى الأسواق الخاصة بها ، وابعاد حوانيت الصناعات التى تحتاج إلى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد عن حوانيت العطارين والقطانين والحريريين وذلك لعدم تجانسها واحتمال حصول الضرر من مجاورتها[١٥] .

وكان من أهم واجبات المحتسب فى هذا العصر الاشراف على الآداب العامة ومنع اختلاط الرجال بالنساء ، فى الصلوات ، وفى النزهات والطرقات [١٦] كذلك تعيين المحتسب قومة (خدام) للمساجد لصيانتها وانارة قناديلها وتنظيفها وعدم اتخاذها أمكنة لصناعة السلع أو عرضها أو بيعها[١٧] .

وقد كلف محتسب العصر الأيوبى بالاشراف على أهل الذمة ، وضرورة أخذهم بالقيود الشرعية التى تتضح من العهد الذى كتبه القاضى الفاضل لأحد ولاة الحسبة وقد جاء فيه « . . . ويحذ النصارى واليهود والمخالفين بلبس الغيار ، وشد الزنار ففى ذلك اظهار لما فى الإسلام من المعزة ، وفى المخالفة من الذلة ، وابانة الشكر للتاهب للسير إلى النار ، وتفريق بين المؤمنين والكفار»[١٨] .

والراجح أن الحكام المسلمين فى هذه الفترات بالذات لم يطبقوا العهود الخاصة بمعاملة أهل الذمة فى بعض الأحيان ، ولاسيما ان بعض سلاطين هذا العصر شاركوا المسيحيين فى الاحتفالات بأعيادهم ، وأقروهم على ما كانوا يفعلونه من شرب الخمر وارتكاب المنكرات[١٩] ، كما تولى بعض المسيحيين وظائف هامة فى الدولة كالأسعد بن مماتى «الذى تولى رياسة ديوان الجيش وديوان المال ثم الوزارة أيضاً[٢٠] .

وكان محتسب هذا العصر لا يهاب الولاة والأمراء ، فكان له الحق أن يقصد مجالسهم ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويعظهم ويذكرهم ويأمرهم بالشفقة على الرعية

---

(١٤) نفسه : ص ٢١ - ٢٣ .

(١٥) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١١ - ١٢ .

(١٦) نفسه : ص ١٠٩ .

(١٧) نفسه ، ص ١١٠ - ١١١ .

(١٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ، ص ٤٦١ .

(١٩) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢ .

(٢٠) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، التحقيق ، المقدمة ص ١٣ أنظر علاقة المحتسب بأهل الذمة ص ١٩٠ من البحث .

والاحسان إليهم «وليكن في وعظه وقوله في ردعهم عن الظلم لطيفاً ظريفاً ، لين القول بشوشا ، غير جبار ولا عبوس »[21] .

ونتيجة لتضخم واجبات المحتسب في هذا العصر ، وكثرة الحرف وتعددها ، لم يصبح بوسع المحتسب الاشراف عليها بمفرده ، ولذلك اتخذ له «العرفاء» كأعوان يساعدونه وقد أشار الشيزرى[22] إلى ذلك بقوله ولما لم تدخل الاحاطة بأفعال السوقة تحت وسع المحتسب ، جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفاً من صالح أهلها خبيراً بصناعتهم ، بصيراً بغشوشهم وتدليساتهم ، مشهوراً بالثقة والأمانة ، يكون مشرفا على أحوالهم ، ويطالعه بأخبارهم ، وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع ، وما تستقر عليه الأسعار وغير ذلك من الأسباب التي يلزم المحتسب معرفتها .

ويلاحظ أنه لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية تتحدث المصادر عن أعوان المحتسب ومساعديه بهذا التفصيل الرائع الدقيق ، وتتعرض للشروط الواجبة في اختيارهم من حيث الثقة والأمانة ، والخبرة والأعمال التي يقومون بها بالتفصيل من حيث الاشراف على أرباب الصناعات ، وتوصيل أخبارهم إلى المحتسب ، ثم مساعدة المحتسب في تطبيق سلطاته التنفيذية[23] .

ومما هو جدير بالذكر أن مؤلفات الحسبة في هذا العصر قد اصطبغت بالصبغة الشرعية السنية طبقاً لما كانت تسير عليه الدولة من ضرورة تطبيق القوانين الشرعية السنية في جميع مظاهر الحياة[24] وأصبح يشترط فيمن يتولى وظيفة الحسبة شروطا خاصة ترتبط أغلبها بضرورة معرفة أحكام الشريعة والقوانين السنية . وقد أشار الشيزرى إلى أنه ينبغى على المحتسب أن يكون « مواظبا على سنن رسول الله من قص الشارب ، ونتف الابط ، وحلق العانة ، وتقليم الأظافر ، ونظافة الثياب وتقصيرها ، والتعطر بالمسك ونحوه ، وجميع سنن الشرع ومستحباته هذا مع القيام على الفرائض[25] .

كما أصبح من اختصاصات المحتسب في هذا العصر أيضاً الاهتمام بالمساجد ومنع القضاة من الجلوس فيها للفصل في قضايا الناس حتى لا تتعرض لنجاسات المتقاضيين[26] . هذا على الرغم من أن المساجد كانت مكانا للقضاء منذ فجر الإسلام .

---

(21) الشيزرى : نفس المرجع ص 115 .

(22) الشيزرى : نفس المرجع ص 12 .

(23) الشيزرى : نفس المرجع ص 12 .

(24) كما حرص الأيوبيون السنيون على بناء المدارس التى شيدوها لنشر المذهب السنى ومحاربة المذهب الشيعى أنظر زكى حسن : «فنون الإسلام ، ص 68 - 69 .

(25) الشيزرى : نهاية الرتبة التحقيق ص 8 .

(26) نفسه : نفس المصدر ص 113 - 114 .

ويؤيد هذا الاتجاه أن أهل السنه حوالى - منتصف القرن الثالث الهجرى - رأوا أن جلوس القاضى فى المسجد ينافى ما يجب لبيوت الله من الحرمة ، فأمر الخليفة المعتضد سنه ٢٧٩هـ «ألا يقعد القضاة فى المسجد»(٢٧) وكان هذا الأمر يراعى تطبيقه على قدر الامكان ، فقد كان قاضى قضاة بغداد حوالى (٣٢٠هـ - ٩٣٢م) يجلس للقضاء فى داره(٢٨) أما فى مصر فكان القاضى يجلس للقضاء فى داره أحياناً ، وفى الجامع أحيانا أخرى(٢٩) .

أما فى عصر الفاطميين الشيعة فكان قاضى القضاة بالقاهرة يجلس فى الجامع(٣٠)وكان من واجبات محتسب مصر فى العصر الأيوبى الاشراف على مؤدب الصبيان الذى كان من واجبه أن يمنعهم من حفظ شعر «ابن الحجاج»(٣١) ، لأنه كان من كبار الشيعة ، وقد اشتهر شعره بالخلاعة والمجون ، وقد تولى حسبة بغداد ، وأقام بها مدة فى عهد عز الدولة بنى بويه ، ومات فى (سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م)(٣٢) .

وهذا كله يبين لنا أن محتسب مصر فى العصر الأيوبى يتمتع بسلطات كبيرة ، وكان موضع احترام وتبجيل من الحكام والولاة ، بحيث انهم كانوا يستمعون إلى نصحه وارشاده ، وأنه تمتع بسلطات لم يسبق له التمتع بها .

ولم نوفق فى العثور على أسماء بعض المحتسبين فى هذا العصر لكى نعرف بعض مواقفهم ، رغم اطلاعنا على معظم الكتب التى أرخت للعصر الأيوبى ومن أهمها :

«لُمَع القوانين المُضِّيه فى دواوين الديار المصرية مما خدم بتأليفه الخزاين الشريفة السلطانية»(٣٣) كما اطلعت على كتاب «تحرير الدرهم والمثقال والرطل والميكال وبيان مقادير النقود المتداولة بمصر على مقتضى ما حدد بدار الضرب سنة ١٢٥٦»(٣٤) وكتاب «مفرج

---

(٢٧) أبو المحاسن : النجوم جـ ٢ ص ٨٧ .

(٢٨) السبكى : جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٢٩) نفس المصدر جـ ٢ ص ١١٤ .

(٣٠) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠٣/متز : الحضارة جـ ١ ص ٣٩٦ .

(٣١) هو الشاعر «أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج» .

(٣٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩٤/أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٦٠٤ ٦٠٦/لابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٠٤/ابن بسام نهاية الرتبة ، التحقيق ص ١٦٢ .

(٣٣) ابراهيم النابلسى . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢٢ تاريخ فى ٤٨ صفحة كتبه المؤلف فى عهد الملك الكامل ناصر الدين محمد بن السلطان العادل سيف الدين . بعد أن تمرس وازداد خبرة بتوليه دواوين الدولة فى ذلك الوقت .

(٣٤) مصطفى الذهبى الشافعى وهو مخطوط بدار الكتب حققه ونشره د . عبد الرحمن فهمى سنة ١٩٦٩ .

الكروب فى أخبار بنى أيوب»[٣٥] هذا عدا كتاب ابن الاثير ، وابن مماتى ، النويرى ، أبى شامة ، وأبى الفدا ، والقلقشندى ، والمقريزى .

وقد أعجب الصليبيون بالمحتسب الأيوبى . بحيث انهم نقلوا هذه الوظيفة إلى ولاياتهم فى القرن (٦هـ - ١٢م) ، وكانوا يطلقون على القائم بها لقب : Mothassep[٣٦] .

«وكان هذا المحتسب يمر كل صباح يوم بدكاكين الجزارة ، والخبز والنبيذ وغيرها من حوانيت الطعام والشراب لمنع غش الباعة ، ومراقبة وزن الخبز واستمرار وجوده فى الأسواق . كما كان عليه مراقبة السلع المعروضة للبيع ، ومراعاة الأثمان المحددة .

ولزيادة أعباء المحتسب كان له الحق فى اتخاذ الأعوان الذين يكشفون ما خفى من أنواع الغشوش ثم يشاركونه فى صنعها . وقد كان لهذا المحتسب أيضاً سلطة تنفيذية فكان يعاقب المخالفين كلاً على قدر مخالفته أو جنايته .

كما انتقلت هذه الوظيفة مع الصليبيين إلى جزيرة قبرص فى القرن ١٢م أيضاً واستمر مدة طويلة[٣٧] .

---

(٣٥) وجدنا فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٦٠ وصية لمحتسب هذا العصر دون ذكر أسماء .

كما وجدنا فى كتاب ابن واصل ، تحقيق ، جـ ٣ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ «صورة العهد الصادر عن ديوان الإنشاء ببغداد بتولية صلاح الدين ملك مصر وأعمالها والصعيد الأعلى ، والأسكندرية ، وما يفتحه من بلاد المغرب والساحل وبلاد اليمن وما يفتحه فيها ، وما يستخلصه بعد من ولايتها . وقد أورد فيه نقلا عن القلقشندى . صبح : جـ ١٠ ص ٤٥ - ٥٢ الأمر إلى صلاح الدين بأن يراعى شروطاً معينة فيمن يتولى أمر الحسبة ، ثم عليه أن يوضح للمحتسب أهم واجباته وكل ذلك دون ذكر أو تحديد أسماء معينة .

(٣٦) Heyd: Histoire du commerce duLevantI P333 note I

(٣٧) العرينى : انظر تحقيقه لكتاب الشيزرى : «نهاية الرتبة» الملحق (٣) ، ص ١٢٥ ــ ١٢٩ .

الفصل الثالث

الحسبة فى العصر المملوكى

من ٦٤٨ إلى ٩٢٣ هـ/(١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

لم يكن الانتقال من الدولة الأيوبية إلى الدولة المملوكية انتقالا يقوم على العنف واراقة الدماء ، بل تولى الأمر مماليك الأيوبيين (الملك الصالح أيوب) الذين تخلصوا من «توران شاه» ابن الملك الصالح ، وأخر الملوك الأيوبيين ، بعد أن حقد عليهم واحتقرهم ، وسخرمنهم ، وأبعدهم عن الحكم على الرغم من أنهم أحرزوا النصر له فى معركة المنصورة ضد الصليبيين ، وكان تخلص المماليك من توران شاه بمساعدة شجرةالدر - زوجة الملك الصالح - التى تزوجت من أحد هؤلاء المماليك . وبذلك كانت نهاية حكم الأسرة الأيوبية نهاية سهلة هينة لم تشبها اضطرابات خطيرة .

ويقول المقريزى فى هذا الشأن «فلما انقرضوا وقامت دولة الأتراك من بعدهم أبقوا سائر شعائرهم ، واقتدوا بهم فى جميع أحوالهم . وكانوا يفتخرون بالأنتماء إليهم[1] .

ولقد استمرت الدولة المملوكية فى حكم مصر فترة تقرب من ثلاثة قرون ، ابتداء من سقوط الدولة الأيوبية إلى قدوم العثمانيين إلى مصر أى من (سنة ٦٤٨ إلى ٩٢٣هـ (١٢٥٠ - ١٧٥٠م) وقسمها المؤرخون إلى قسمين : دولة المماليك البحرية من (٦٤٨ - ٧٨٤هـ)/(١٢٥٠ - ١٣٨٢م) وهم الملوك الأتراك من مماليك الملك الصالح الأيوبى ، أسكنهم قلعة الروضة ، وسماهم البحرية ، وكانوا دون الألف مملوك ، قيل ثمانمائة وقيل سبعمائة وخمسون وكلهم أتراك . دولة المماليك الجراكسة من (٧٨٥ - ٩٢٣هـ/١٣٨٣ - ١٥١٧م) - وقد أكثر من شرائهم السلطان المملوكى المنصور قلاوون ، وأسكنهم أبراج القلعة ، وسماهم البرجية ، فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة[2] .

---

(١) المقريزى : النقود . نشر الأب أنستاس الكرملى ص ٦٠ - أشار إلى ذلك القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٣ - العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٣٦ - ٢٣٨ ط بولاق .

وعلى ذلك فقد كانت هذه الفترة الزمنية فترة طويلة ، وهى وان كانت قريبة من الخلافة الفاطمية ، إلا انه لم يسبق لدولة حاكمة فى مصر الإسلامية أن بقيت فيها مثل هذه الفترة .

وإلى جانب هذه السمة الزمنية التى اتسم بها العصر المملوكى ، وقعت أحداث كبرى فى هذا العصر ، كان لها آثار خطيرة على المجتمع المصرى وعلى نظمه الحضارية بوجه عام ونظام الحسبة بوجه خاص : فقد اتسعت ممتلكات مصر ، ومن ثم كان لها ارتباط مع دول أخرى وعلاقات سياسية وتجارية[3] كذلك انتقال الخلافة العباسية إلى مصر ، ومبادرة المماليك إلى الافادة من هذا الحدث فى تدعيم مركز مصر الدينى داخل البلاد وخارجها .

ومن الأحداث الكبرى كذلك تعرض مصر للخطر المغولى ، هذا إلى جانب ما كان يحدث من كوارث اقتصادية ومجاعات نتيجة لانخفاض ماء النيل فى بعض السنين ، وان كانت مثل هذه المجاعات قد حدثت فى زمن الفاطميين أيضاً وفى أزمنة أخرى وكان لها نتائج خطيرة أيضاً ، الا أن حدوثها فى العصر المملوكى أدى إلى اضطراب النقد ، وانتشار الفساد ، وتفشى الرشوة ، واحتكار الحكومة للأقوات فى بعض الأحيان ، وتدخل كبار الأمراء واصحاب السلطنة والنفوذ فى الدولة فى تولية اعوانهم فى الوظائف الكبرى فى الدولة ومنها وظيفة الحسبة ، خدمة لمصالحهم ، وبيع الوظائف[4] ومنع الناس من الوصول اليها الا عن طريق «البذل» أو بمبلغ ما يدفع من أموال ، ومن ثم ، تدهورت الحسبة والمحتسبون أنفسهم ، وأثر ذلك على سير الأمور ومجريات الحوادث فى الدولة المملوكية .

ولقد ألفينا كذلك ، فى أثناء دراستنا لنظام الحسبة فى مصر المملوكية تعبيرات اصطلاحية جديدة تختلف كل الاختلاف عما عهدناه فى الحسبة فى العصور السابقة : بعضها خاص بالضرائب التى كان لها علاقة بأعمال المحتسب «كالمشاهرة والمجامعة» وبعضها خاص بطريقة تولية المحتسب فى بعض الأحيان «كالبذل» و «الالتزام» وبعضها خاص بالمهن الخسيسة الحقيرة التى كان يعمل بها بعض المحتسبين قبل توليهم وظيفة الحسبة مثل حرد «فشوشيا» ، «بلان» وبعضها خاص بملابس محتسبى هذا العصر . . وغير ذلك من المصطلحات التى سنعرض لها بالتفصيل فى موضعها ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

ويذكر المؤرخ السيوطى : «أن السلطان بيبرس – عندما تولى – أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيز خان ملك التتار وأموره ، ففعل ما أمكنه ، ورتب فى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر ، مثل ضرب البوقات وتجديد الوظائف»[5] . .

---

(٣) أنظر تفصيل الازدهار التجارى وتوسع العلاقات ص ١٧٣ وما بعدها من البحث .

(٤) المقريزى : إغاثة الأمة ٤٣ ./

Wiet: Precis d Egypt. II. P. 263.

(٥) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٣ – ١٣٤ .

هذا ورغم أن مهمة الباحث فى دراسة نظام الحسبة فى مصر فى العصر المماليكى ليست مهمة سهلة هينة ، إلا أننا استطعنا من خلال هذه الدراسة أن نرسم لوحة مميزة عن الحسبة فى هذا العصر ، والفضل فى ذلك إنما يرجع إلى عدة عوامل منها عاملان على جانب كبير من الأهمية : -

فقد كانت ثروة المخطوطات من الكتب والموسوعات المعاصرة للمماليك - خاصة مؤلفات الحسبة - عونا لنا فى هذا المجال . كما كان العمل الضخم الذى قام به المستشرق الهولندى دوزىDozy وهو معجم أسماء الملابس عند العرب الذى نشره فى مجلدين ضخمين بعنوان : Dictionnaire Des Noms Des. Vetements chez les Arabes كان كشافاً لنا .

هذا خلاف كتب التاريخ العديدة التى تحدثت عن الحسبة من خلال عرضها للنظم المختلفة ، وكلها تعرض لجوانب عديدة عن حسبة ومحتسبى العصر المماليكى ومن خلال . دراستنا لها تبين لنا أن واجبات محتسب هذا العصر فى مصر قد ازدادت عما كانت عليه فى العصور السابقة ، وتعددت جوانبها ، وليس ادل على ذلك مما اضافه مؤلفو مراجع هذا العصر ، المتخصصة فى الحسبة ، كابن بسام ، وابن الأخوة من أبواب وفصول جديدة عن كتاب الشيزرى فى العصر الأيوبى ، ومما درسناه فى مؤلفيهما من اختصاصات جديدة للمحتسب فى المجالات المختلفة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والصحية بتفصيل كبير لم يتعرض الشيزرى له(٦) .

وقد تطلب هذاالأمر توزيع اختصاصات الوظيفة بين عدد من المحتسبين ، وعلى الرغم من أن اعمال الحسبة كانت تقصرها الدولة على موظف واحد - قبل العصر المملوكى - وكان لهذاالموظف الحق فى استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع اعمال البلاد(٧) إلا أننا نسمع عن وجود أكثر من محتسب فى هذا العصر ، فقد وجد محتسب فى القاهرة يتصرف فى أمور الحسبة بها ، وله نواب فى الوجه البحرى ، ووجد آخر فى مصر (الفسطاط) وكان له أن ينيب عنه فى الوجه القبلى(٨) ، ولما أصبحت الأسكندرية ولاية خاصة فى عهد الأشرف شعبان (سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م) ، أنشئت بها وظيفة للمحتسب ، ولا يتعدى اختصاصه المدينة وظواهرها(٩) .

---

(٦) ومن أمثلة ذلك انظر إشراف المحتسب على الوعاظ والمؤذنين وقومة المساجد ثم إشرافه على أهل الجنائز فى ابن بسام تحقيق ص ١٧٨ - ١٧٩ وابن الأخوة تحقيق ص ٤٦ - ٤٩ ، ١٧٢ وقارن ذلك بما عرضه الشيزرى فى هذه الفصول ص ١١٧ .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٧ .

(٨) نفسه : نفس المصدر جـ ٤ ص ٤٧ وقد أورد القلقشندى فى نفس المصدر أنه يوجد بالديار المصرية حسبتان : حسبة القاهرة وحسبة الفسطاط

(٩) القلقشندى : صبح جـ ١١ ص ٤١٤

انظر تاريخ ابن الجزيرى مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢١٥٩ تاريخ تيمور حوادث سنة ٦٨٩ - ٦٩٩

ولقد ذكر أسماء محتسبين لبعض المدن المصرية ، وبعض احياء القاهرة ، فقد كان هناك محتسب البهنسا[10] بالوجه القبلى ، وذكر ابن حجر[11] أن «أبا المعالى الدلامى تولى حسبة الحسينية خارج القاهرة ، وظل على ولايتها حتى وفاته سنة ٧١٧هـ . وذكر أيضاً ان : «تاج الدين بن السكرى تولى حسبة القلعة سنة ٧٤٠هـ[12] ، فضلا عن وجود محتسبين فى كل نيابات الشام[13]

والغالب أن محتسبى مصر والقاهرة كان لهم نواب يرسلون للاشراف على أمور الحسبة فى الأماكن الأخرى .

فيذكر المقريزى[14] أنه فى جمادى الأول من (سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) : «استدعى الضياء بن خطيب بيت الآبار محتسب مصر ، وخلع عليه واستقر فى حسبة القاهرة ، مضافاً لما بيده من نظر الاوقاف ونظر المارستان ، عوضا عن نجم الدين محمد بن حسين بن على[15] الاسعردى . وكان الشهاب أحمد بن الحاج على الطباخ قد سعى فى حسبة القاهرة ، وقام معه الأمير بشتاك والأمير قوصون والأمير آقبغا عبد الواحد فلما ولى السلطان الضياء رسم ان يستقر «ابن الطباخ فى حسبة الدخان[16] . على الطباخين والحلاويين ونحوهم ، وخلع عليه ، وجلس فى دكة الحسبة ، وعرض أرباب الدخان . وألزم «الضياء» الحلاويين والفكاهين ألا يشعلوا سرجهم فى الليل بالزيت الحار ، والزم حراس الحمامات بعمل فوط سابغة طويلة ، ورتب القبانيين فى جهات معينة ، يجلس كل قبانى فى موضع من البلد»[17] .

---

(١٠) كانت مدينة البهنسا قاعدة لكورة البهنسا فى أيام العرب ، ثم أصبحت قاعدة للأعمال البهنساوية فى عهد المماليك ، ثم لولاية البهنسا فى العهد العثمانى وقد اختفى اسمها من الأقسام الإدارية بمصر ، وأصبحت قرية من قرى مصر مركز بنى مزار ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية جـ٣/٢ ص ٢١١ - ٢١٢ .

(١١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ٤ ص ٤٩١ .

(١٢) ابن حجر : نفس المرجع جـ٤ ص ٦٨ .

(١٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ١٩٣ .

(١٤) السلوك جـ٢/٢ ص٤١٤ .

(١٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٧٧ .

(١٦) يبدو أن «حسبة الدخان» هذه كانت جزءًا من وظيفة الحسبة العامة ، و أن متوليها كان مختصا بشؤ ون أصحاب الحرف التى تحتاج الى الوقود ، كالطباخين والحلاويين وغيرهم من «ارباب الدخان» ويظهر أن هؤلاء - ولاسيما الطباخين - كانوا يحدثون من الدخان كميات كثيفة توجب الأذى والمضايقة ويستلزم الضبط والمراقبة ، فقد ذكر المقريزى (فى المواعظ والاعتبار) جـ٢ ص ١٠٢ بصدد سوق الصنادقيين ، أنه كان بذلك السوق عدة طباخين لايزال دخان كوانينهم منعقدا فى الجو لكثرته وأن شخصا من معاصريه قد سمى هذا السوق لذلك السبب باسم (قطب دائرة الدخان) انظر المقريزى السلوك ٢/٢ ص ٤١٤ حاشية (٦) .

(١٧) المقريزى : السلوك جـ٢/٢ ص ٤١٥ .

ويبدو من النص أن وظيفة ابن الدباغ كانت مقصورة على مراقبة أصحاب الحرف من حيث الدخان الذى ينبعث من وقودهم فقط ، وأما عدا ذلك من الشؤون فكان أمره للمحتسب العام بدليل ما أصدره المحتسب هنا من الأوامر للحلاويين وهم من أرباب الدخان بخصوص سرجهم فى الليل .

كما يذكر ابن حجر[18] أيضاً : أن «الشيخ على بن حسن المرواني تولى حسبة الخبز أيام الغلاء فى أواخر عهد السلطان الناصر» .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان محتسب القاهرة أعظم هؤلاء قدراً ، وأرفعهم شأناً ، ومما يدل على عظم مكانة هذا المحتسب ، أنه كان له وحده حق الجلوس بدار العدل - مع قضاة مصر الأربعة ، وقضاة العسكر ، ومفتى دار العدل - دون بقية المحتسبين كما كان يشترك فى المسائل المتعلقة بتولية نواب الوجه البحرى وعزلهم[19] .

وعلى كل حال فقد كانت سياسة تعدد المحتسبين فى العصر المملوكى تتمشى مع التطور الذى حدث فى تعدد الولاة والنواب[20] والقضاة[21] أيضاً .

وكانت حسبة القاهرة تضم احياناً الى أعمال والى القاهرة ، كما تسند حسبة الفسطاط أيضاً إلى واليها[22] ، كما كان يحدث ، احياناً ، أن يساعد الوالى المحتسب على تسهيل مهماته ، ثم ينفرد المحتسب بتنفيذ هذه المهمات . فيذكر ابن حجر[23] أنه «فى سنة ٨٢٢هـ ، ركب المحتسب والوالى ، وطافا على أماكن الفساد بالقاهرة وأراقا من الخمور شيئا كثيراً . ثم منع المحتسب النساء من النياحة على الأموات فى الأسواق ، وعزر طائفة منهم ، وألزم اليهود والنصارى بتضييق الأكمام وتصغير العمائم .

والراجح أن أهل الذمة فى العصر المملوكى كانوا يتباهون بلبس العمائم الكبيرة التى اصبحت - على حد قول البعض - تبدو «كبرج صغير» Small Tower[24] وذلك اقتداء بالمسلمين ، وخاصة بعض العلماء والقضاة الذين كانوا يلبسون العمامات الكبيرة بدرجة غير عادية[25] .

---

(١٨) الدرر الكامنة جـ٣ ص ٤٠ - ٤١ .

(١٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٣٧ ، جـ ١١ ص ٢٠٩ .

(٢٠) نفسه ، نفس المصدر : جـ٣ ص ٣٩٢ - ٣٩٨ ، جـ٤ ، ص ٢٦ - ٢٧ ، جـ٥ ، ص ٢٢ - ٢٣ ، ، جـ١١ ، ص ٤٣ - ٤٥ .

(٢١) المقريزى : السلوك جـ١/٣ ص ٧٠٦ .

(٢٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١١ ص ٢١٠ .

(٢٣) أنباء الغمر ، مخطوط جـ٢ ورقة ١٤٢ .

(٢٤) L.A. Mayer: Mamluk costume P. 49 Geneve 1952

(٢٥) التبر المسبوك ص ٣٧٤ وفيات الوفيات ، جـ١ ، ص ١٨٠ .
Mayer: op. cit. p.p. 49 , 50.

واستمر كثير من الجوانب التي كان للمحتسب الاشراف عليها فى عصر المماليك، على ما كانت عليه فى العصور السابقة . فاستمر محتسب العصر المماليكي يشرف على أهل الذمة ، ويأخذهم بالقيود الشرعية - كلما دعت الحاجة إلى ذلك - لأن كثيرا منهم دخلوا وظائف الحكومة ، ووصلوا بكفاءاتهم إلى المراكز الرئيسية فازداد ترفهم ولبسوا ثيابا غالية ، وداخلهم الغرور ، حتى انهم احتقروا اصحاب الحاجات كما حدث فى عهد الناصر محمد بن قلاوون (سنة ٧٠٠هـ[٢٦]/ ١٣٠٠م) وعندما بلغ السلطان المؤيد شيخ «ماحل بالمسلمين فى الحبشة من الذل ، استدعى بطرك النصارى (سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م) وأنكر عليه اضطهاد المسلمين وأهان المحتسب لتهاونه فى أخذ النصارى بالقيود الشرعية فى ملبسهم رهيئتهم ، فنفذ المحتسب أمر السلطان[٢٧] وقد حدث مثل ذلك فى سنتى (٧٢١هـ/١٣٢١م) و (٧٥٥هـ/١٣٥٤م) حين هدم كثير من الكنائس لارتفاعها عن مبانى المسلمين .[٢٨] .

وقد استمر محتسب العصر المماليكى - كسابقيه - فى مراقبة الآداب العامة وظهور الناس بمظهر لائق فى المجتمع ومنع شرب الخمر . فيذكر المقريزى فى حوادث سنة تسع وسبعمائة ٧٠٩هـ : «عزم السلطان على أن يبطل الخمر بديار مصر ، وأمر القائمين على هذا الأمر ألا يدعوابيتا من بيوت أعلى الناس وأدناهم يبلغه أن فيه خمرا الا وسكبوه ويكسر مافيه . وضرب جماعة بالمقارع حتى يدلوا على من عصر العنب أو من عنده خمر فكتب أسماءهم فكان فيهم عدة من الأمراء والكتاب والأجناد والتجار ، واذا ظفر بأوانى الخمر كسرت ، فنزل بالناس من ذلك بلاء شديد ، وافتضح كثير من المستورين ، ونهب من بيوتهم أشياء . . . وكبست أيضاً دور اليهود والنصارى وأريق مافيها من الخمور وتعدى الأمر دور الأمراء فكبست دور من عرف بشرب الخمر منهم ومنها دار الأمير «علاء الدين مغلطاى المسعودى » أحد أمراء الألوف من البرجية فازال الله بذلك فساد كبيرا . . .[٢٩] .

ورغبة فى المحافظة على الآداب العامة كانت قد صدرت مجموعة من الأوامر والمراسيم فى (سنة ٧٨٧ هـ/١٣٨٥م) اصدرها السلطان «برقوق» وأمر المحتسب بابطال ما يحدث فى عيد النيروز من القبائح واللهو والفجور ، وما يترتب على ذلك من كثرة المشاحنات والمشاجرات وتعطيل الأسواق[٣٠] .

ومن الأمثلة الواضحة لتكليف المحتسب بالمحافظة على الآداب العامة فى هذا العصر ، تكليفه بمراقبة النساء فى لباسهن وظهورهن بالمظهر اللائق فى المجتمع ومنعهن من التبرج والزينة .

---

(٢٦) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٩٠٩ ، ٩١٢ .

(٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، حـ٦ ، ص ٣٩٨ - ٤٠٠ .

(٢٨) المقريزى . الخطط جـ٤ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢٩) السلوك : جـ٢ القسم (١) ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣٠) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

ففى سنة ٧٥١ هـ/١٣٥١م أسرف النساء فى عمل القمصان الجرارة ذات الاكمام الواسعة وبلغت نفقات القميص ألف درهم . فعهد السلطان «حسن» الى الأمير «منجك» بمكافحة اندفاعهن وراء هذه الأزياء فأمر بقطع أكمام النساء ونودى فى القاهرة بتحريم هذه الملابس والقبض على من تخالف ذلك وامعانا فى ارهابهن وضع على سور القاهرة تماثيل لنساء عليهن تلك القمصان وقد قتلن عقوبة لهن على لبسها .

على أن هذا المنع لم يمكث طويلا اذ انتهزت النساء الفرصة فى (سنة ٧٩٣ هـ/١٣٩٠م) وعدن الى لبس القمصان ذات الأكمام الواسعة فصدرت الأوامر بمنعها وبتحديد سعتها ونودى بذلك . وفى يوم الاثنين (سنة ٧٩٣ هـ سنة ١٣٩٠م) ، أرسل الأمير الكبير (كمشغبا) طائفة من أعوانه للمرور فى أسواق القاهرة وقياسرها ، فقطعوا أكمام النساء فامتنعن عن لبسها[٣١] .

ويظهر أن سير الحسبة فى هذه السنوات كان سيرا حسنا ، وأن بعض محتسبى هذه الفترة قد تمتعوا بسمعة طيبة فى مصر وخارجها ، فتذكر لنا المراجع : أنه فى سنة ست وتسعين وسبعمائة توفى تاج الدين محمد بن محمد المليحى المعروف بصائم الدهر . ولى نظر الأحباس والجوالى والجيش ، وخطب بمدرسة السلطان حسن بالقاهرة وكان ساكنا قليل الكلام ، جميل السيرة[٣٢] .

كذلك فى سنة تسع وتسعين وسبعمائة . . . توفى جمال الدين محمود بن على القيصرى الرومى الحنفى المعروف بالعجمى . قدم القاهرة قديما واشتغل بالفنون ومهر ، وولى الحسبة مرارا ، ثم نظر الأوقاف ودرس التفسير ، وولى مشيخة الشيخونية وقضاء الحنفية ونظر الجيش . . وكان عنده دهاء مع حشمة زائدة أو سخاء وكان فصيحا بالعربية والتركية والفارسية ، كثير التأنق فى ملبسه ومأكله[٣٣] .

أما خارج مصر فقد تمتع بعض محتسبى اليمن بسمعة طيبة لأنه قام لوظيفته خير قيام فيذكر «الخزرجى» مثلا لذلك بقوله : «واستمر الجمال المصرى الملكى محتسبا فى مدينة زبيد فى شهر رمضان (سنة ٧٩٣ هـ/ ١٩٠) فقام بالوظيفة قياما مرضيا ، وأمعن النظر فى مصالح المسلمين[٣٤] .

ومن الأمثلة الواضحة للمحافظة على الآداب العامة أيضا فى هذا العصر ، ما حدث فى خلافة الملك المؤيد ، «شيخ المحمودى» حوالى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥م فقد كان محتسب

---

(٣١) الشهاوى : الحسبة فى الإسلام ص ١١٨ - ١١٩ .

(٣٢) ابن العماد الحنلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ٦ ، ص ٣٤٧ .

(٣٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ٦ ص ٣٦٢ .

(٣٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية جـ٢ ص ٢٢٣ .

القاهرة هو الأمير «منكلى بغا الظاهرى» وشدد على النساء ، ومنعهن من التبرج حتى قيل :
لاتمسك طرفى ، منكلى خلفى علقتو مائتين قبل ما يعفى . وفى رمضان (٨٤١ هـ/١٤٣٧م) أوصى السلطان «برسباى» المحتسب باتباع الشدة والعنف ، «والقضاء على ما أظهره النساء فى ذلك العهد من الخروج على حدود الشريعة ، فمنع النساء من الخروج الى الأسواق مطلقا . . . وكانت الغاسلة اذا خرجت الى ميتة لتغسلها تأخذ من المحتسب ورقة وتغرزها فى ازارها حتى يعلم أنها غاسلة ، ولما مات برسباى أعيد كل شىء على ما كان عليه[٣٥] .

ثم صدر أمر من السلطان «قايتباى» فى (سنة ٨٧٦ هـ/١٤٧١م)بتحريم النساء من لبس العصابة المقنزعة[٣٦] ، وأن تلبس النساء العصابة التى يبلغ طولها ثلث ذراع فقط ، وأن تكون عصابة مختومة بخاتم السلطان من الجانبين وأخذت التعهدات بذلك على من يبيع العصائب وعهد الى المحتسب «يشبك الجمالى» - الذى تولى الحسبة ابتداء من (سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨م) عوضا عن «قانصوة الخفيف[٣٧] وعهد اليه بمراقبة تنفيذ هذه التعهدات والأوامر وأخذ اعوانه يطوفون فى الأسواق حتى اذا ماعثروا على من خالفت الأوامر عوقبت[٣٨] وفى هذا يقول ابن اياس «فجاء يشبك الجمالى على الأوضاع وصار له حرمة وافرة[٣٩] .

ويبدو من هذا أن الحسبة فى عصر السلطان «قايتباى» والمحتسب «يشبك الجمالى» كانت حسبة نموذجية بحيث ان عهد هذا السلطان والقائم بأمر الحسبة فى دولته ، كانا يذكران كنموذجا يحتذى حذوه . فيذكر ابن اياس[٤٠] أنه فى خلافة السلطان «طومان باى (سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦م) ، حلف الشيخ الأمراء ان لايعودوا إلى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا[٤١] وأن لايشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ولايجددوا مظلمة ، وأن يبطلوا جميع ما احدثه الغورى من المظالم[٤٢] وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الاشرف قايتباى ويمشوا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى لما كان محتسبا .

---

(٣٥) المقريزى · الخطط جـ٣ ص ٣٠١ .

(٣٦) المائلة على الجبين .

(٣٧) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٤٦ .

(٣٨) نفسه : نفس المرجع جـ٢ ص ٨ ، ٢٢ ، ١٣٢ ، جـ٣ ص ٦٤
Mayer: op cit p. p. 71. 72.

(٣٩) ابن إياس نفس المرجع جـ١ ص ٤٦ (٤٠) نفسه : نفس المرجع جـ٣ ص ٥٧

(٤١) لجأ السلطان طومان باى إلى اتخاذ هذا الأسلوب بتحليف الأمراء عن طريق الشيخ لأن هؤلاء كانوا يتدخلون لتولية أعوانهم فى الوظائف عن طريق الرشوة ، وقد أحدث هذا فسادا كبيرا وتسبب عنه ظلم الرعايا

(٤٢) يقصد بهذه المظالم أن السلطان الغورى فرض ضرائب جديدة على التجار .

وتذكرنا بعض مواقف الحسبة في العصر المملوكي ، مما كان يحدث أيام الدولة الفاطمية فبعض السلاطين المماليك احتذوا حذو الخلفاء الفاطميين في اصدار مجموعة من المراسيم والأوامر والتعليمات المتعلقة بأمور الحسبة ، وانتهجوا نفس النهج عندما كلفوا المحتسب بتنفيذ هذه الأوامر واللوائح وساروا على خطة مشابهة عندما فرضوا بأنفسهم العقوبات المناسبة التي وقعوها على المخالفين لهذه الأوامر .

ولو بحثنا عن الدافع الحقيقي الذي دفع بعض الخلفاء الفاطميين وبعض سلاطين المماليك ، الذين صدرت على يديهم هذه المراسيم ، لاصدار هذه الأوامر وجدناها لاتخرج عن المحافظة على كيان المجتمع والحيلولة دون انحدار الناس في الرذائل الاجتماعية ، واستئصال عناصر الفساد والاطاحة بها ، فقد اهتم كل من الفاطميين والمماليك باصدار الأوامر التي تمنع ما يصحب عيد النيروز من اللهو والقبائح ، وبمراقبة النساء في عاداتهن ولباسهن وخروجهن في الطرقات وذهابهن الى الحمامات ، والنزهات وظهورهن بالمظهر اللائق في المجتمع وبالجملة نرى في هذه العهود اهتماما بالمحافظة على الأداب العامة .

ولقد جرت عادة المحتسب في أواخر عهد المماليك أن يحضر مع القضاة ونواب القضاة لرؤية شهر رمضان ويسير المحتسب في موكب حافل وأمامه الفوانيس والمشاعل[43] .

كما جرت عادة المحتسب في أواخر هذا العصر أيضا أن يحمل الى السلطان في أول كل شهر رمضان من كل سنة جملة من الهدايا ، فيصطحب معه الحمالين وعلى رؤوسهم الخبز والسكر والدقيق فضلا عن عدد من الأغنام والأبقار الى حيث يجلس السلطان بميدان القلعة ، فيعرض ما حمله في احتفال يحضره الوزير ورجال الدولة[44] .

وفي آخر عصر سلاطين المماليك أيضا ، تولى المحتسب اقامة سوق عند الريدانية في ذي الحجة (سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦م) ، وطلب الى الباعة من الزياتين والخبازين والجزارين بأن يحولوا بضائعهم الى هذه الجهة وأن يبيعوا العسكر ما يطلبونه[45] .

ولكن هذه الصورة التي رسمناها وأمدتنا المراجع بها عن العصر المملوكي لاتعبر الا عن جانب واحد لهذه الصورة أما الجانب الأخر فهو على النقيض من ذلك ونستطيع أن نميز فيه ثلاثة مظاهر للحسبة :

المظهر الأول هو : التنافس على الوظيفة عن طريق الرشوة والبذل[46] .

---

(٤٣) ابن إياس : بدائع ، جـ ٣ ، ص ٣٠٧ .

(٤٤) ابن إياس : بدائع ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤ .

(٤٥) ابن إياس : نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ٩٣ .

(٤٦) أي شراء الوظيفة بمبلغ من المال يدفع مقدماً ، مع تعهد من يحصل عليها بأن يدفع للسلطان مبلغاً من المال مشاهرة .

المظهر الثانى هو : الالتزام والمزايدة فيه .

والمظهر الثالث هو : الصراع الطبقى بين الأمراء الأتراك والفقهاء المتعممين وصلته بالحسبة . وسنتحدث بالتفصيل عن كل مظهر من هذه المظاهر .

تفيض كتب مؤرخى هذا العصر فى الحديث عما آل اليه أمر المحتسبين فى هذه الفترة من فسادهم وقصر فترة توليتهم ، وسرعة تغيرهم - شأنها فى ذلك شأن الوظائف الأخرى من هذا العصر - على أن المقريزى[٤٧] يرجع أسباب هذا الفساد الى سوء تدبير الحكام وفساد سياستهم وأدى تدخل كبار الأمراء وأصحاب السلطة والنفوذ فى الدولة لتولية أعوانهم فى وظيفة الحسبة فكانوا يولون من يشاءون ويعزلوا من يشاءون بوساطة أكثر الأمراء سلطة .

وقد أدى هذا الأمر الى التنافس على تولى وظائف الدولة بوجه عام ، ووظيفة الحسبة بوجه خاص . فتذكر لنا المصادر التاريخية فى هذا الوقت تنافس المؤرخين الثلاثة المقريزى ، العينى ، وابن حجر فقد تنافس الأول والثانى على تولى وظيفة الحسبة وتنافس الثانى والثالث فى طلب الحظوة لدى السلطان[٤٨] . وكان المقريزى محتسبا (سنة ٨٠١هـ-١٣٩٨) ولكنه عزل عن حسبة القاهرة فى نفس العام وتولى العينى فى ٧ ذى الحجة من نفس العام فى وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى بدلا من المقريزى ويعلق المقريزى على ذلك بقوله : «أن العينى» تردد الى الأمراء فسعى له بعضهم وهو الأمير جكم فلم تتم معه سوى بقية الشهر[٤٩] وفى ٢ محرم سنة ٨٠٢ صرف العينى عن الحسبة واستقر فيها «جمال الدين محمد بن عمر الطنبدى» وكان القائم فى ذلك دويدار[٥٠] الأمير ايتمش القائم بأمر الناصر فرج[٥١] . وفى ١٤ ربيع الآخر ، من نفس العام ، أعيد العينى الى وظيفة الحسبة وفى ١٦ جمادى الأولى أعيد المقريزى الى وظيفة الحسبة وصرف منها العينى ، ويحكى العينى أسباب بعده عن هذه الوظيفة فى هذه المرة فيقول : فى يوم الخميس ١٦ منه (جمادى الأولى) عزل صاحب التاريخ نفسه عن حسبة القاهرة وذلك أن سودون الدوادار لما استقر فى الدوادارية ، احتاط على موجودا يتمش الذى كان قائما بأمر الناصر فرج ثم قتل ومن جملة ما وجد له فى شونته ستة الاف أردب قمحا ، وألفا أردب حمصا ، وألف أردب فول . وكان أردب القمح

---

(٤٧) إغاثة الأمة ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٤٨) زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ص ١٩ - ٢١ .

(٤٩) المقريزى : السلوك : حوادث سنة ٨٠١ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٨٠١ ، ابن حجر : انباء ، حوادث سنة ٨٠١ .

(٥٠) الدوادار : أى ممسك الدواة ، والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم الشكاوى إليه . العمرى التعريف ، ص ٢٥٠ ، عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤١٦ .

(٥١) المقريزى : نفس المرجع ، حوادث سنة ٨٠٢/العينى : نفسه ، حوادث سنة ٨٠٢/ابن حجر : نفسه حوادث سنة ٨٠٢ .

اذ ذاك يساوى خمسة وثلاثين درهما ، فطلبنى المذكور وقال لى : بع هـذا القمح الأردب بستين درهما ، فقلت له : العادة فى هذا أن يباع بقطع السعر من أرباب الجيزة فلما سمع منى هذا الكلام اختبط خبط اللئام وركبه ظلام الظلم والعسف . . . ولم يختر الاترويج أمره الفاسد . فلما رأيت امعانه على ذلك خرجت من عنده وفى خاطره أن أمره قد نفذ وتم ، وجئت الى الأمير جكم ، فانه كان من أعز أصحابى وحكيت له ماجرى من الأمر العظيم ، وأشهدته عليا بأنى عزلت نفسى من الوظيفة حتى لا أباشر الأمور السخيفة فلما بلغ المذكور الخبر بذلك أخذه الحنق على ذلك وطلب من يوليه لأهل هذا الشأن فلم يجد أحدا يقبل هذا الظلم والخسران غير تقى الدين المقريزى الذى كان قد تولى الحسبة قبل ذلك فخلع عليه بذلك فى يوم الجمعة ١٧ من الشهر المذكور(٥٢) .

على أن المقريزى لم يستمر طويلا فى وظيفة الحسبة ففى ١٠ شعبان من (سنة ٨٠٢ هـ/١٣٩٩م) أى نفس العام صرف عنها وتولى بدلا منه جمال الدين الطنبوى بسفارة الأمير سودون من زاده(٥٣) . ثم عزل الطنبوى فى ١٤ شوال من نفس العام ، واستقر فى وظيفة الحسبة «شمس الدين محمد البجاسى» ، وكان قد تولاها من قبل(٥٤) .

وأعيد العينى محتسبا للقاهرة فى ١٤ ربيع الأول (سنة ٨٠٣ هـ/١٤٠٠م) بسفارة الأمير «جكم» وعزل البجاسى . ثم عاد البجاسى ثانية الى وظيفة الحسبة وصرف منها العينى فى ٧ جمادى الآخر من نفس العام . وكان ذلك بسفارة يلبغا السالمى(٥٥) . وفى شوال (سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤م) أعيد المقريزى الى حسبة القاهرة مكرها(٥٦) ولكنه فوجىء بقرار العزل بعد أيام من توليته لها فى ٢١ ذى القعدة(٥٧) .

هذه بعض أمثلة أمدتنا بها المصادر المعاصرة عن كيفية تولية بعض المحتسبين فى العصر المملوكى .

---

(٥٢) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، حوادث سنة ٨٠٢هـ

(٥٣) أى بمال وعد به .

(٥٤) المقريزى : السلوك ، حوادث سنة ٨٠٢هـ ، العينى : عقد الجمان مخطوط ، حوادث سنة ٨٠٢هـ .

(٥٥) وقد أفاضت المصادر المعاصرة فى ذكر ما لجأ إليه يلبغا السالمى هذا من وسائل عنيفة ومصادرات من أجل جمع المال .

المقريزى : السلوك ، حوادث سنة ٨٠٣ ، العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٠٣ ابن حجر : أنباء ، حوادث ٨٠٣ : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ص ٤٧ ، ٦٩ ، ٧٢/
Wiet: Histoire de L Egypt. p.p 526 — 532.

(٥٦) المقريزى : السلوك : حوادث سنة ٨٠٧ .

(٥٧) العينى : الجمان ، حوادث سنة ٨٠٧ . كانت هذه هى المرة الأخيرة التى تولى فيها المقريزى الحسبة ، وقد زهد بعد ذلك فى تولى الوظائف فى الدولة لأنه تولى على هذا النحو الذى رأيناه ثم فوجىء بقرار العزل .

ولم يقتصر التنافس بين المحتسبين على استغلال صلاتهم بالأمراء وأصحاب النفوذ ، بل ازدار الأمر بهم بحيث لجأوا الى دفع الرشاوى والى بذل الأموال لمن بيدهم سلطة تعيينهم أملا فى تعويض مادفعوه أضعافا مضاعفة عند قبضهم على ناصية المنصب ، وذلك بالطبع ينتهى فى نهاية الأمر ، الى الاجحاف بحقوق الناس الذين يصرخون من وطأة الظلم والغش والتدليس فى الصناعة والتجارة ، بقدر ماهو اهمال لما يقوم به أرباب التجارات من مظالم ليتمكنوا من الاستجابة لمطالب المحتسب المالية ونهمه المادى .

وأصبحت الرشاوى والمبذولات هى القاعدة المتبعة فى تولى وظيفة الحسبة بحيث أصبحت فى نهاية الأمر . التزاما «مفروضا يدفع عند التولية وحتى ذلك الالتزام امتدت اليه حمى المزايدة ويصبح من يستطيع دفع مبلغ اكبر من منافسه يتولى الوظيفة فى الحال كما حدث فى خلال حكم السلطان «فرج بن برقوق» وأصبح من الممكن أن نجد ثلاثة أو أربعة تعيينات فى شهر واحد ، وفى هذا يقول ابن حجر ، فى حوادث (سنة ٨٠٩ هـ/١٤٠٦م)[٥٨] : «ووقع فى هذه السنة والتى بعدها والتى قبلها من تلاعب الجهلة بمنصب الحسبة ما يتعجب من سماعه حتى أنه فى الشهر الواحد تولى ثلاثة أو أربعة وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالا مقررا فكان من قام بدفع هذا المبلغ تولى ويعزل الذى قبله» .

وكان هذا المنصب يباع فى حكم «المؤيد» بثمن معروف ففى (سنة ٨١٥ هـ/١٤١٢م) عزل «صدر الدين أحمد بن العجمى «وولى» ابن شعبان» ، وقد وعد بدفع ألف دينار سلم نصفه مقدما والنصف الآخر على أن يدفع قسط شهرى مبلغ مائة دينار ، غير أنه لم يستطع الوفاء بما التزم به ففى المحرم من السنة التالية اشتد الأمر عليه فباع موجوده وكل ممتلكاته بغية أن يسدد على الفور ثمن شراء المنصب[٥٩] .

ولقد تطورت هذه الصورة قليلا بحيث كان المحتسب المعين يضع فى اعتباره منافسه ويحاول أن يسترضيه ، فقد اقترنت تولية «العينى» - للحسبة فى عهد سلطنة الاشراف - ببذل من جانبه لسلفه ابن العجمى كنوع من الترضية له وحتى لايتطلع الى الحسبة بعد ذلك ، فيذكر ابن حجر أن المحتسب كان يتقاضى دينارين فى اليوم من مال الجوالى نظير القيام بمهام وظيفته فنزل العينى عن دينار منهما لابن العجمى واكتفى هو بالدينار الثانى[٦٠] .

---

(٥٨) أنباء : مخطوط سنة ٨٠٩هـ ،
Darrag: I Egypte sous Ie regne de Barsbary, p.77.

(٥٩) المقريزى : السلوك : حوادث سنة ٨١٥/
Darrg: op.cit, p. 77.

(٦٠) ابن حجر : انباء جـ٢ ، ورقة ١٢٠ ، مخطوط .

وظلت وظيفة الحسبة تولى عن طريق البذل طوال الفترة المتبقية من عصر المماليك ، وتشير المراجع أن هذا قد تكرر حدوثه فى سنة ٨٥٢ فى سلطنة الظاهر حقمق[٦١] ثم فى أوائل سلطنة الأشرف «أينال» سنة ٨٥٧ هـ ، ففى ٦ ذى القعدة من نفس السنة خلع على «الشيخ على الخراسانى» المحتسب خلعة الاستمرار ، وسبب ذلك أن شخصا من الأوباش سعى فى الحسبة بثلاثة آلاف دينار ومال السلطان لتوليته ، فتكلم معه بعض أرباب الدولة باستمرار الشيخ على الخراسانى على بذل ألفين . والراجح أنه لكى يستمر المحتسب فى عمله كان لابد له أن يدفع الأموال لمن بيدهم هذا الأمر فيحكى ابن تغرى بردى أن المحتسب على الخراسانى لم يستمر فى عمله سوى ثلاثة أسابيع حتى قبض عليه بسبب مال طلبه السلطان منه . وبعد يومين عزل الشيخ على واستقر مكانه آخر ببذل نحو ثلاثة آلاف دينار[٦٢]فالمال اذن لم يكن يعطى عند التولية فقط وانما كان يعطى فى فترات أخرى كذلك .

ويبدو أن الشيخ على الخراسانى نجح فى أن يعود الى وظيفة الحسبة بعد أن بذل مبلغا من المال يفوق ما بذله سلفه ، ففى ٥ جمادى الآخرة (سنة ٨٥٩ هـ/١٤٥٤م) تعود المراجع الى الحديث عن عزله منها مرة أخرى وتولية عبد العزيز محمد الصغير نقيب الجيش مضافة لنقابة الجيش بمال بذل فى ذلك[٦٣] .

وأيا كان الأمر فان هذا الشخص لم يتمتع بسمعة طيبة فقد استحدث الشيخ على الخراسانى ، مظالم كثيرة عندما تولى أمر الحسبة ، وفى ذلك يقول أبو المحاسن : «فى سنة٨٦١ توفى على بن نصر الله العجمى الخراسانى الطويل محتسب القاهرة بطالا . . . فإنه لما ولى حسبة القاهرة سار فيها أقبح سيرة وفتح له أبوب الظلم والأخذ فما عف ولا كف وجدد فى الحسبة مظالم لم تذكر به ، واثمها واثم من يعمل بها عليه الى يوم القيامة ، وصار يأخذ من هذه المظالم ويخدم الملوك بها ، فانظر الى هذا المسكين الذى ظلم نفسه وظلم الناس . . .[٦٤] .

وهكذا أصبح تحرى صفات الأهلية والصلاحية الشرعية والعلمية فى المحتسب أموراغير ذات بال ، وانما مايهم ، هو مايستطيع أن يدفعه ويبذله للمسئولين من أموال وفى ذلك يقول المقريزى : فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ مالم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة . . . ويحتاج الى أن يقرر على حواشه وأعوانه ضرائب ويتعجل منهم أموالا ، فيمدون هم أيضا أيديهم الى أموال الرعايا ويشرئبون لأخذها بحيث لايعفون ولايكفون ، ثم ينساق البائس فى جمع الأموال التى استدانها اذا أتته استدعاءات

---

(٦١) التبر المسبوك : ص ٢٢٠

(٦٢) حوادث الدهور ، ص ١٩٦ - ١٩٨/دراج : مقالة الحسبة .

(٦٣) نفسه ، ص ٢٣٠ .

(٦٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٦١٠ ، ص ٦١١ .

من الأمراء وحواشى السلطان ، ولا يشعر مع ذلك إلا وغيره قد تقلد ذلك العمل بمال التزمبه ، وقد بقيت عليه جملة من الديو ن فيحاط على ما يوجد له من أثاث وحيوان وغيره ويشخص فى أبخس حال ، وقد أحيط بماله ويعاقب العقوبات المؤلمة فلا يجد بدا من الالتزام بمال آخر ليقلد العمل الأول أو غيره من الأعمال(٦٥) هذا وقد أصبحت الحسبة التزاما فى هذا الوقت فى بلاد المغرب أيضا(٦٦) .

ومع ذلك ففى أواخر عصر المماليك ، نال بعض المحتسبين ثقة السلاطين فعهدوا اليهم بمهمات خارج القطر المصرى ، فبعث السلطان قايتباى فى (سنة ٨٧٨ هـ/١٤٧٣م) بالمحتسب «يشبك الجمالى» الى محمد الفاتح(٦٧) سلطان العثمانيين .

وأرسل الغورى محتسب القاهرة «ثانى بك الخازندار» فى سفارة الى السلطان بايزيد الثانى فى (سنة ٩٠٩ هـ ك ١٥٠٣م)(٦٨) وترجع أسباب هذه السفارات الى النزاع الذى نشب أوأصاب الصداقات المملوكية العثمانية بسبب التجاء بعض الأمراء العثمانيين إلى مصر وبسبب مجاورة ممتلكاتها(٦٩) .

وكذلك أرسل الغورى المحتسب «الزينى بركات بن موسى» فى (سنة ٩١٤ هـ/١٥٠٨م) فى سفارة الى سلطان اليمن لكى يؤ يد المصريين ويقف الى جانبهم ضد البرتغاليين فى النزاع على طريق التجارة الشرقية .

وقد بلغت ثقة الغورى فى هذا المحتسب حدا كبيرا فأطلق يده فى تصريف جميع أمور الدولة فى أثناء غيابه عن القاهرة فى الحرب ضد السلطان سليم العثمانى (سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦م)(٧٠) .

ولقد شهدت مصر صراعا طبقيا شديدا بين المماليك والفقهاء والعلماء وقد أخذ هذا الصراع مظاهرا عديدة فبدأ أولا على هيئة منافسة مستترة فكان المماليك ينافسونهم فى تولى الوظائف الدينية ولاسيما الوظائف التى تمكنهم من الثراء مثل وظيفة الحسبة ووظيفة ناظر الوقف .

وقد عبر السبكى عن هذه الحالة بقوله : من قبائح الأمراء استكثارهم الأرزاق وان قلت على العلماء واستقلالهم الأرزاق وان كثرت على أنفسهم . ورأيت كثيرا منهم يعيبون

---

(٦٥) اغاثة الأمة ، ص ٤٣ - ٤٥ .

(٦٦) لقبال موسى : الحسبة فى المغرب رسالة ماجستير عن «مجموعة أوامر تركية» لمؤلف مجهول ، ورقات ٤ - ٥ قسم المخطوطات المكتبة الوطنية بالجزائر رقم ١٣٧٨ .

(٦٧) ابن إياس : بدائع ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ .

(٦٨) نفسه : نفس المرجع ، حـ ٤ ، ص ٦٢ - ٦٣ ط أستنبول .

(٦٩) Lane Poole: Hist of Egypt pp. 348, 352.

(٧٠) ابن إياس : بدائع ، جـ ٢ ، ص ٤٤ .

على الفقهاء ركوب الخيل ولبس الثياب الفاخرة ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوحده دون رزق أقل مملوك عنده . أفما يستحى هذا الأمير المسكين من الله[71] .

وقد جرت العادة على أن يكون من يتولى الحسبة فقيها متعمما متمتعا بسمعة طيبة تقوم على أساس التقوى والاستقامة بحيث ان السلطان «المؤيد شيخ» (سنة ٨١٦ هـ/١٤١٣م) حين أراد أن يولى الأمير «منكلى بغا» بادر بمنحة لقب «فقيه» كى يكون مستوفيا لشروط الوظيفة. ولعل السلطان أراد من وراء ذلك أن يدارى على فقهاء الدين الذين أظهروا اشارات تدل على عدم جدارته للحسبة .

ومهما يكن من أمر فإن منكلى بغا هذا كان أول تركى يشغل وظيفة الحسبة[72] ، ولعل ما فعله السلطان المؤيد إنما كان شعوراً منه لما يمكن أن يثير تعيينه لمثل هذا الأمير التركى من معارضة ، فكان أن منحه لقب فقيه .

ثم أخذت هذه المنافسة تزداد حدة . ولقد تكررت ظاهرة تعيين رجل من طبقة غير طبقة الفقهاء فى وظيفة الحسبة ، فقد لجأ السلطان برسباى (سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م) إلى تولية الأمير «دولات خجا عبد الله الظاهرى» وظيفة الحسبة بعد أن عزل سابقه الذى كان من الفقهاء المتعممين ، وكان دولات خجا يعمل والياً للقاهرة من قبل[73] .

ويلاحظ هنا أن السلطان لم يخلع عليه لقب فقيه كما فعل سلفه السلطان المؤيد ، وهذا يوضح لنا أن الصراع بين المماليك والفقهاء أصبح صراعاً سافراً . وبالإضافة إلى هذا فإن الفقه ليس لقباً وإنما يؤخذ من واقع التعمق فى الأصول الدينية أو غيرها .

ويعلق القلقشندى[74] على ذلك بقوله «ولم تزل الحسبة تولى للمتعممين وأرباب الاقلام إلى الدولة المؤيدية شيخ ، فولاها للأمير سيف الدين منكلى بغا الفقيه . . . » .

وفى الفترة الأخيرة من عصر المماليك دخل الصراع الطبقى بين المماليك والفقهاء مرحلته النهائية ، وكانت الغلبة فيه للمماليك . فيذكر أبو المحاسن «أنه فى (سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م)قام المماليك بمنع المتعممين من ركوب الخيل وركوب البغال والحمير ، ما عدا كاتب السر ونائبه وناظر الجيش وناظر الخاص ، وناظر الاصطبل والوزير ، والأستادار ، وكاتب المماليك»[75] .

---

(٧١) معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٦٨ - ٦٩ ط ليون ١٩٠٨ .

(٧٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٢١٠/ابن حجر : أنباء ، مخطوط ، جـ ٢ ، ورقة ٥٨ .

(٧٣) ابن حجر : أنباء ، المخطوط ، جـ ٢ ، ورقة ٥٨ .

(٧٤) صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٢١٠ .

(٧٥) النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٩٨ .

والحقيقة أن نص أبي المحاسن الذى قضى بحرمان المتعممين من ركوب الخيل وركوب البغال والحمير ، يجلعنا نتساءل ماذا يركبون اذن ؟ والراجح أنهم منعوا من ركوب الخيل وأذن لهم فى ركوب البغال كما ذكر ابن حجر أنه «منع من يلبس العمامة من ركوب الخيل إلا الوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاص ، وأذن لهم فى ركوب البغال»[٧٦] .

واستمر حدوث مثل هذه الاضطرابات ففى (سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م) «ثار المماليك على الفقهاء والمتعممين فضربوا منهم خلائق وأخذوا خيولهم ، وبذلك أشاعوا جوا من الارهاب ضدهم فلم يبق فى القاهرة متعمم إلا وتحاشى ركوب الخيل»[٧٧] ، وما حدث فى هذه السنة تكرر حدوثه فى (سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م)[٧٨] وقد وصل الأمر أثناء هذه الاضطرابات (سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م) إلى أن المماليك كانوا يخطفون عمائم الفقهاء[٧٩] .

وحين خلص الأمر نهائياً للأمراء المماليك نلاحظ أنه انطبق عليهم ما كان ينطبق من قبل على المتعممين ممن كانوا يتولون وظيفة الحسبة ، إذ جاء الوقت الذى كان الأمير فيه لايتولى الحسبة إلا بالبذل . فيذكر ابن تغرى بردى : «أنه فى (سنة ٨٦٥هـ/١٤٦٠م) تولى وظيفة الحسبة أول تركى عن طريق البذل وهو الأمير تنم بن بخشايش الظاهرى»[٨٠] .

والحقيقة أن الحسبة لم تكن هى الوظيفة الوحيدة التى تولى صاحبها عن طريق الوساطة ، والرشوة ، والبذل ، بل اننا نجد أن هذه العدوى قد سرت سريعاً بين متولى وظائف الدولة الأخرى فى مصر فى عصر المماليك .

ويذكر ابن حجر[٨١] فى هذا المجال أنه فى (سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م) «سعى كمال الدين فى الوزارة . . فتكلم مع فقيه الأمير خضر أستادار بركة فأحضره خضر عند بركة وقرر أمره ، وأن يكون كمال الدين وزيراً وزوج خالته ابن السفطى ناظراً للدولة وفقيه خضر ناظر الخاص . . . وضمن كمال الدين للأمير بركة تكفية الدولة ستة أشهر . . فأجابه إلى جميع ذلك .

وكان أصحاب الوظائف الذين يعدون بدفع الرشاوى والمبذولات لمن بيدهم أمر تعيينهم يتعرضون للأذى والضرب إذا خالفوا وعودهم لعدم استطاعتهم الدفع .

---

(٧٦) أنباء : التحقيق ، جـ١ ، ص ٤٠٢ .

(٧٧) حوادث الدهور ، ص ٢٠٥ .

(٧٨) نفس المرجع ، ص ٢٧٨ ، دراج : مقالة الحسبة .

(٧٩) نفس المرجع ، حوادث ١٣ ربيع الأول سنة ٨٧٠هـ ، ص ٥١٠/
Mayer: op cit. p. 50.

(٨٠) النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٣٥٢ .

(٨١) أنباء ، التحقيق ، جـ١ ، ص ١٩٥ .

ومن قسوة ما ذكر فى هذا المجال ما حكاه ابن حجر[82] فى حوادث (سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م) أنه «أمر بالترسيم على شهاب الدين أحمد بن نجم الدين بن شهاب الدين بن فضل الله ليورد ما التزم به على كتابة السر ، وكان باشره مدة يسيرة منها بنفسه شهرين فقط ، فأقام . . . مدة ثم عجز عن التكملة ، فأمر بأن يضرب ليستخلص منه المال فضرب ضرباً عنيفاً بالعصى بعد أن كان أمر بضربه بالمقارع ، فشفع فيه ثم أمر أن ينادى عليه فى البلد : «هذا جزاء من يسعى فى الوظائف الكبار بما لايقدر عليه» .

وتولى بعض قضاة مصر فى ذلك العصر وظائفهم عن طريق بذل الأموال الكثيرة ففى (سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م) عزل القاضى الشافعى عن وظيفته وسعى آخر لتولى الوظيفة ، فشرط عليه الأمراء - الذين يقومون بدور الوساطة عند السلطان لتعيينه بذل مال كثير حددوه له بستمائة ألف[83] .

---

(٨٢) أنباء ، التحقيق ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

(٨٣) ابن حجر : أنباء ، التحقيق ، جـ ١ ، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

الباب الرابع
حقوق محتسب مصر وواجباته

وينقسم إلى ثلاثة فصول :

- **الفصل الأول** : من هو المحتسب ؟ الشروط التى يجب توافرها فى اختياره ، وما يتحلى به من آداب وخلال .
- **الفصل الثانى** : ملابسه ، ومرتباته .
- **الفصل الثالث** : أعوانه ، وسلطاته التنفيذية .

والمتأمل فى الحسبة من حيث هى مظاهر وأساليب يجدها تتميز وتفترق فيما تأخذه من مظاهر ، وما تنهجه من أساليب - وذلك يتفاوت بتفاوت البلدان الإسلامية المختلفة . والمصادر العديدة التى تناولت الحسبة ، من هذه الزواية ، تبين لنا العديد من الأمثلة التى تكشف عن مظاهر الحسبة ، وما تأخذه من أشكال ، فقد يكون أمر ما ، حكمه اللزوم والوجوب بين شعب ما ، وقد يكون الأمر عينه ذا حكم مختلف لدى شعب آخر .

على أن الحسبة فى جوهرها وأساسها الذى قامت عليه ، وهو : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - لا اختلاف فيه ولا تباين . والحق أن ما كان هنالك من اختلاف وتباين فى ذلك النظام فى البلاد الإسلامية إنما هو اختلاف فى الأساليب والمناهج والمظاهر لا فى الجوهر والموضوع ، وذلك يرجع إلى اختلاف الثقافة ما بين أمة وأخرى وشعب وآخر ، كما يرجع إلى سطوة الولاة ومقدرتهم الشخصية .

وليس أدل على ما سقناه من حديث من قول ابن القيم الجوزية فى «الطرق الحكمية» بعد أن تكلم على الولايات فى الإسلام ، وعلى اختصاص كل منها قال : «إذا عرف هذا فعموم الولايات وخصوصها ، وما يستفيده المتولى من الولاية : يتلقى من الألفاظ ، والأحوال ، والعرف ، وليس لذلك حد فى الشرع فقد يدخل فى ولاية القضاء - فى بعض الأزمنة والأمكنة - ما يدخل فى ولاية الحرب فى زمان ومكان آخر وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال . . »[1] .

وإذا كان الأمر كذلك فمن هو والى الحسبة ، وكيف يكون ؟ وما هى الشروط التى يجب توفرها فيه ؟ وبماذا يتحلى من آداب وخلال ؟ .

(١) «الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية أو الفراسة المرضية فى أحكام السياسة الشرعية» ص ٢٣٩ . تحقيق حامد الفقى ، ط القاهرة ١٩٥٣ .

الفصـــل الأول

من هو والى الحســبة ؟ الشروط الواجبة فى إختياره والآداب والخلال التى يتحلى بها

● والى الحسبة :

هو الناظر فى شئون الحسبة فى الدولة الإسلامية[1] ، موظف يعينه الخليفة أو الوزير أو القاضى[2] ، للنظر فى شئون الرعية ، يأمرهم بما يوافق الشرع ، وينهاهم عما يخالفه فى أعمالهم الدينية والدنيوية مما ليس من اختصاص القضاة والولاة والجباة[3] . وهو داخل فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[4] ، فله النظر فى كل ما يهم المسلمين فى أسواقهم ومجتمعاتهم ، ومعاملاتهم بعضهم مع بعض ، ويعين من يراه أهـلا لذلـك من الأعوان والأنصار[5] .

وهو يبحث عن المنكرات التى يفعلها الناس ، ويعاقب عليها بحسب أهميتها ومقدارها كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد .

● الشروط الواجبة لاختيار المحتسب :

وإذا كنا نجد الأنظار تتطلع إلى من يتولى هذه الوظيفة وعظيم الاهتمام الذى اختصت به هذه الشخصية ، فإننا نلتقى على هذا الجانب بمجموعة من الشروط والآداب يجب أن تتـوفر فيهـا . وعلى الـرغم من أنها لازمة للمحتسب - فى كـل العصور - بـل ومكملة لشخصيته أيضا - إلا أنها كانت محل اتفاق واختلاف بين الفقهاء المسلمين ، وبين المؤرخين ومؤلفى كتب الحسبة ، ولتكن بدايتنا دائماً بما كان محل اتفاق .

---

(١) المعجم الوسيط ، جـ ١/ص ١٧٢/ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٤ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، جـ ١ ، ص ١٨٧ .
انظر المحتسب الذى عينه الوزير فى العصر الإخشيدى ص ؟ من البحث
انظر المحتسب الذى عينه مؤنس الخادم ص ١٢٥ - ١٢٦ من البحث .

(٣) جمع جاب : وهو من يجبى أو يحصل الخراج أو الزكاة أو الضرائب عادة .

(٤) ابن الرفعة : «الرتبة فى طلب الحسبة» مخطوط ، ورقة ٣ .

(٥) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق ، ص ١٠/ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، مخطوط ، الفصل ٦٥ .

وأول هذه الشروط «الإيمان» فلابد أن يكون والى الحسبة مؤمنا . ويرى الإمام الغزالى أنه لابد أن يتوفر الإيمان فيمن يقوم بأمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، فالحسبة نصرة للدين ، والكافر ليس له هذا الحق ، فما هو إلا عدو للدين ، وجاحد بأصوله فكيف يعمل على نصرته ؟ .

لابد أن يكون المحتسب مكلفاً من أولى الأمر[٦] ، حتى يشعر أنه يؤدى واجباً فيؤديه على أتم وجه ويحاسب إذا قصر فيه ، أما إذا كان غير مكلف فهو لا يلزم بالقيام بالأمر والنهى ، ولا يحاسب إذا قصر عن القيام به .

وثمة شرط ثالث : أن يكون المحتسب قادراً على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٧] ، وذلك حتى يجوز له أن يؤدى هذا العمل ، فالعاجز لاتجب عليه الحسبة .

هناك شرط أخير اتفقت على ذكره مصادر الحسبة ، فقد حرصت هذه المصادر على أن يكون المحتسب ذا رأى وصرامة ، وأن يأمر عن علم ومعرفة وفقه بالدين وبأحكام الشريعة ، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه[٨] . ورب جاهل يستحسن بعقله ما قبحه الشرع ويرتكب الخطأ وهو غير عارف به ، فيصبح ما يفسده أكثر مما يعلمه ، ومن ثم يصبح العمل جهلا وضلالا واتباعاً للهوى . فكما يقال «العلم امام العمل ، والعمل تابعه»[٩] والعلم فريضة على كل مسلم[١٠] .

ويحرص الإمام الغزالى على إبراز أهمية العلم كشرط من الشروط الواجبة للمحتسب بقوله : «لكى يعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقتصر على حد الشرع فيه»[١١] .

أما ما كان محل اختلاف فى بعض الشروط الواجب توافرها فى المحتسب فهى : «العدالة» ، كما اشترط البعض أيضاً أن والى الحسبة لابد وأن يكون مأذونا من أولى الأمر ، فلا تجب الحسبة بدون الاذن والتفويض من الوالى[١٢] .

وخلاصة الأمر أن هذه الشروط ، وان كانت شروطا ضرورية ، إلا أنها نظرية ،

---

(٦) يوسف ضياء الدين : أحكام الاحتساب ، مخطوط ، ص ٧/الماوردى : الرتبة فى طلب الحسبة ، مخطوط ورقة ٢ وما بعدها .

(٧) الماوردى : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٣ وما بعدها .

(٨) ابن الرفعة : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٣ :/أبو يعلى الفراء : الأحكام السلطانية ص ٢٦٩./ابن عبدون : ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة والمحتسب ، ص ٢٠ .

(٩) المراغى : الحسبة فى الإسلام ، ص ١٢ .

(١٠) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ٢٠ .

(١١) «إحياء علوم الدين» ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

(١٢) يوسف ضياء الدين : أحكام الاحتساب مخطوط ، ص ٧ .

ووضعت فى وقت معين ، ولكنا نجد الحياة الإسلامية تتطور وترتقى وتتسع وتتفتح آفاق جديدة للمسلمين لم يكن لهم بها عهد من قبل وتزداد معها أعباء الحياة العملية فتظهر شروط جديدة لم تكن فى الحسبان ، عندما تتضخم مهمة المحتسب ، وتمس المجتمع واقتصاديات الدولة .

وإلى جانب ما سبق من شروط نجد أن المحتسب لابد وأن يكون عارفاً بأصناف المعايش والمهن والحرف بأنواعها المختلفة ، وله خبرة فى الموازين والمكاييل حتى يتوصل إلى حيل الباعة فى الغش والتدليس ، وحتى يميز بين الصحيح وغير الصحيح ولايتحقق ذلك إلا إذا كان المحتسب فطناً ، يقظاً متصفاً بالعفاف والثقة[١٣] .

وتؤول بنا هذه الكلمات الأخيرة إلى ذكر مجموعة من الآداب لابد للمحتسب أن يتحلى بها حتى تصبح حسبته أو دعوته ، مقبولة ، مثمرة ، هادفة ، موصلة إلى الأغراض المرجوة منها .

فلابد أن يكون والى الحسبة عفيفاً عن أموال الناس ، ممتنعاً عن قبول الهدية[١٤] من أرباب الحرف والصناعات[١٥] ، لأن ذلك يعتبر رشوة . وقال الرسول : «لعن الله الراشى والمرتشى» ، وامتناعه عن قبول الرشوة أصون لعرضه وأقوم لهيبته[١٦] .

وكان على والى الحسبة أن يعمل بما ينصح ، ولا يكون قوله مخالفاً لفعله[١٧] حتى لا يتعرض لسخرية الناس واستهزائهم به من ناحية ، وحتى تكون دعوته مقبولة من ناحية أخرى . وقال تعالى - مخبراً عن شعيب - عليه السلام - حين دعا قومه لعبادة الله تعالى ، ونهاهم عن نقص المكاييل والموازين وعن البخس ، وعن الفساد فى الأرض ، قال تعالى : **(يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت[١٨] . . . .) .**

فالمحتسب إذن لابد وأن يكون قدوة حسنة ويعلم ويعمل ، فكيف يدعو إلى شىء يفتقده ، ففاقد الشى لا يعطيه ، ولعل أبلغ ما يذكر فى هذا المجال ما ورد فى الاحياء :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وأتى مثله فإنما يزرى على عقله[١٩]

---

(١٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٠٢١ التحقيق/الجرسيفى : ثلاث رسائل ، ص ١٠

(١٤) ابن الرفعة : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٧ .

(١٥) الشيزرى : نهاية الرتبة ، تحقيق ، ص ١٠ .

(١٦) ابن الأخوة : معالم القربة ، التحقيق ، ص ٧ ، ابن عبدون : ثلاث رسائل ، ص ٢٠ .

(١٧) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ورقة ٥ .

(١٨) قرآن كريم : «سورة هود» الآية ٨٨ .

(١٩) الغزالى : إحياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ .

كما كان على والى الحسبة أيضا أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وطلب مرضاته خالص النية[٢٠] .

ومن هذه الآداب التى يتحلى بها المحتسب أن يكون شيمته الرفق . ولين القول ، وطلاقة الوجه ، وحسن الخلق عند أمره للناس ونهيه لهم ، فإن ذلك أبلغ فى استمالة القلوب[٢١] . وكما قال الله تعالى لنبيه **«ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»**[٢٢] .

وليكن والى الحسبة متأنياً غير مبادر إلى العقوبة ، ولا يؤاخذ أحداً بأول ذنب يصدر[٢٣] منه . ولا يعاقب بأول زلة تبدو لأن العصمة فى الخلق مفقودة فيما سوى الأنبياء[٢٤] .

ولابد أن يكون والى الحسبة متحلياً بالحلم والصبر على ما يصيبه من الأذى ، فإن ذلك يتوقف عليه نجاح دعوته وحسبته ، فإن لم يصبر أصبح ما يفسد أكثر مما يصلح[٢٥] لأنه إذا أصيب فى عرضه أو ماله أو نفسه بضرب أو بشتم ، نسى الحسبة وغفل عن دين الله[٢٦] قال تعالى على لسان لقمان لابنه : **«يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور»**[٢٧] .

---

(٢٠) «فقد ذكر أن أحد السلاطين بمدينة دمشق طلب محتسباً ، فاختاروا له رجلاً من أهل العلم فأمر بإحضاره ، فلما حضر بين يديه قال له : «إنى وليتك الحسبة على الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «فقال : » إن كان الأمر كذلك فقم عن هذه الطراحة (جمع طراريح ، وهى حاشية يفرشها السلطان إذا جلس انظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٩ حاشية٣ . تحقيق د. زيادة ود. الشيال) . وارفع هذا المسند فإنهما حرير ، واخلع هذا الخاتم فإنه ذهب ، وقد قال رسول الله (صلعم) : «هذا حرام على ذكور أمتى حل لإناثها» فنهض السلطان عن طراحته ، وأمر برفع المسند ، وخلع الخاتم من أصبعه ، وقال : ضممت إليك النظر فى أمور الشرطة فما رأى الناس محتسباً أهيب منك» . وهذه الرواية ذكرها الماوردى فى مخطوط الرتبة ورقة ٧ ،٨ . ثم نقلها عنه معظم مؤلفى الحسبة .

(٢١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، تحقيق ، ص ٩ .

(٢٢) قرآن كريم : سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

(٢٣) النبراوى : نهاية الرغبة فى طلب الحسبة ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥ معارف عامة حليم ، ورقة ٢٠ /ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٤ .

(٢٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ٩ .
ومن نوادر المحتسبين أن رجلاً دخل على الخليفة العباسى المأمون : وأمره بمعروف ونهاه عن منكر ، وأغلظ له فى القول فقال له المأمون : «يا هذا إن الله أرسل من هو خير منك لمن هو شر منى فقال لموسى وهارون فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى» ثم أعرض عنه ونأى عن جانبه .
المراغى : الحسبة فى الإسلام ، ص ٥ .

(٢٥) ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ، ص ٦١ .

(٢٦) الغزالى : إحياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٢٧) قرآن كريم : سورة لقمان ، الآية ١٧ .

ويجوز لوالى الحسبة أن يلجأ إلى الضرب والقتل إذا كان لحسبته تأثير فى رفع المنكر والقضاء على الفسق ، وتقوية قلوب أهل النصح والارشاد . أما ان رأى أنه ليس من وراء حسبته إلا هلاك نفسه مع ضآلة الفائدة المرجوة ككسر اناء الخمر مثلا دون انتهاء عن شربها ، أو تلحق الأضرار بأهله وذويه من جرائها ، فليس للحسبة عند ذلك محل لما فى ذلك من تعرض نفسه للهلاك دون أن يكون من وراء ذلك فائدة تربو على هذا الضرر . وكذلك الأمر بالنسبة للمحتسب الذى يترتب على احتسابه ارتكاب منكر أعظم جسامة ، وأشد نكرا مثلما يأتى رجل إلى سلطان جائر ، فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر فيقتله ، فلا شك أن هذه حسبة أدت إلى ارتكاب ضرر عظيم ولم تأت بنتيجة . والواقع أن هذه المسائل تختلف فيها الأنظار وتتشعب الآراء فليتبع والى الحسبة فى ذلك ما يؤدى إليه اجتهاده ، وتطمئن إليه نفسه فعليه أن يرجح كفة المصلحة دائماً[٢٨] .

وأخيراً وليس آخراً . أن يكون والى الحسبة مواظباً على سنن الرسول ﷺ من حيث الطهارة والنظافة فى آداء الفرائض والواجبات ، فإن ذلك أزيد فى توقيره ، وأبقى للطعن فى دينه[٢٩] .

ونستنتج من ذلك أنه يلزم لوالى الحسبة شروط لا يمكنه أن يعمل بدونها ، وجملة آداب يجب أن يتحلى بها .

والواضح من المراجع المختلفة أن هذه الشروط وتلك الآداب لابد من توافرها فى المحتسب ، فى كل مكان : محتسب مصر ، ومحتسب المشرق ، ومحتسب المغرب ، وقد ذهب أشهر مؤلفى الحسبة فى المشرق : الماوردى ، وأبى يعلى ، والغزالى . . . وفى المغرب أيضا : السقطى ، ابن عبدون ، ابن عبد الرءوف ، والجرسيفى - إلى اشتراطها .

ومن يستجمع هذه الشروط وتلك الآداب هو بلا شك شخصية تنال مكانتها الرفيعة فى المجتمع ، وتصبح جديرة بالتبجيل والتعظيم ، خليقة بأن توقر وتحترم وترهب ويخشى جانبها .

وهذه الصفات والشروط ، وتلك الفروض هى ، فى عمومها ، جماع ما نص عليه الفقهاء فى مصنفاتهم ، وأورده مؤرخو الحسبة فى أسفارهم . وهى ، من ثم ، لها من الأصالة الشأو البعيد ، بحيث لا يخلو كتاب من هذه الكتب الفقهية والحسبية منها . ولكن هل جرى الولاة على تحرى هذه الشروط فيمن يختارونه لهذه الوظيفة على مر العصور ؟ .

---

(٢٨) على الخفيف : الحسبة ص ٥٦١ - ٥٦٢ .

(٢٩) الشيزرى : نهاية الرتبة ٨٠ وما بعدها/الماوردى/الرتبة ورقة ٨ .
وقد حكى أن رجلاً حضر عند أحد السلاطين يطلب الحسبة بمدينة غزنة ، فنظر السلطان إليه فرأى شاربه قد غطى فاه من طوله ، وأذ ياله تسحب على الأرض فقال له : «يا شيخ أذهب فاحتسب على نفسك ثم عد واطلب الحسبة على الناس» الشيزرى نهاية الرتبة التحقيق ص ٨ ، ٩ .

الحق أن هذا الأمر كان يتحقق نسبياً بحيث أن قدر ما يتوفر من هذه الشروط فى المحتسب المنصوب إنما تكون بقدر ما بلغته رتبة الوالى فى التدين والتقى والتمسك بأهداب الدين ، وسيتبين لنا ذلك على نحو أكثر تفصيلاً فيما يقبل من فصول .

● حقوق المحتسب فى مصر الإسلامية :

وإذا ما توفرت مجموعة الشروط والخلال والآداب السابقة فى الشخصية المراد تعيينها والياً للحسبة ، نجد أن الدولة لا تبخل بمنحه حقوقه التى تبدأ بالمكانة العريقة التى كان يتمتع بها ، وألقابه التى كانت تمنح له .

● مكانة المحتسب وألقابه :

اهتمت كثير من المراجع بإبراز هذه الشخصية فكان محتسب الدولة الفاطمية من أعيان المسلمين(٣٠) . وقد اعتبر ابن خلدون(٣١) الحسبة من أهم الوظائف الدينية وجعل ترتيبها الخامسة بين هذه الوظائف بعد «الصلاة ، والفتيا ، والقضاء ، والجهاد ، أما القلقشندى(٣٢) فقد رتبها فى المرتبة الثالثة من الوظائف الدينية بعد قضاء العسكر وافتاء دار العدل» .

كما اعتبر محتسب بغداد من أصحاب المخاطبات المعروفة وله أن يجرى مجرى الطبقة الأولى من العمال(٣٣) . وليس أدل على أهمية مكانة المحتسب المصرى - فى بعض العصور - من الطريقة التى كان يتولى بها وظيفته ، ومظاهر الاحتفال التى كانت تصحب التولية ، ثم كتاب التولية نفسه أو الوصية التى تكتب له .

● مراسم تولية المحتسب وسجلات التولية :

تبدأ الدولة فى اعداد مظاهر الاحتفال بتولية المحتسب ، وكان الظاهر فى البداية أن المحتسب يعينه الخليفة فى هذه الوظيفة على أنه فيما بعد كان المرشح يتم اختياره غالباً عن

---

(٣٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ .

(٣١) المقدمة : جـ ١ ، ص ١٩٥

(٣٢) صبح الأعشى : حـ ١١ ، ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٧ ، ص ٢٠٩ .

(٣٣) وكان ذلك حوالى سنة ٣٠٠هـ ، أنظر آدم ميتز : الحضارة العربية ، الترجمة جـ ٢ ، ص ٢٧٤ عن كتاب الورراء ، ص ١٥٨ .

وربما كان المقصود بذلك أنه أصبح يتمتع بمكانة مرموقة حتى أصبح من الذين ترفع إليهم الالتماسات والعرائظ .

طريق القاضى[٣٤] ، ويوافق حاكم الدولة على هذا الاختيار[٣٥] وفى العصر المملوكى فى مصر كان للأمير سلطة تعيين والى الحسبة ، كما كان له سلطة عزله أيضا[٣٦] .

ويبدو أن تولية هذا الوالى كانت بسيطة فى أول الأمر ، ولكننا نجدها بعد ذلك تصحب برسوم فخمة تشبه ما كان لأرباب الوظائف الكبيرة فى الدولة . فكان الخليفة يستدعيه إلى القصر ليمنحه بنفسه «كتاب التولية» ، وكان يخرج من القصر إلى الجامعين[٣٧] - أى جامع عمرو بن العاص ، وجامع الأزهر - فى موكب ضخم ، ليطوف خلال الحارات ، وبين يديه خلع الخليفة[٣٨] .

ويلاحظ أن هذه الرسوم بدأت منذ العصر الفاطمى[٣٩] فى مصر وليس لدينا ما يثبت أنها كانت متبعة قبل ذلك . وكان والى الحسبة يعين «بسجل»[٤٠] استناداً إلى أن سلطته مستمدة من سلطة الخليفة ، وقد حدث هذا فى الدولة الفاطمية[٤١] ولكن لم يصلنا بعد ذلك أن الخليفة العباسى فى مصر كان يوقع هذا السجل .

ولم تكن هذه الاحتفالات واضفاء مظاهر العظمة والهيبة على والى الحسبة تؤدى إلى إرضائه واشباع طموحه فحسب ، وإنما كذلك لاظهار مرتبة صاحب هذه الوظيفة كما كان يحدث فى المناصب الهامة الأخرى . وكانت نظرة أولى الأمر فى ذلك نظرة بعيدة تبتغى من ورائها مصلحة المسلمين ، ولذلك حرصوا على صبغ هذا الاحتفال بالصبغة الرسمية ، وقد جرت العادة - كما سبق الذكر - أن يقرأ سجل التولية فى جامعى القاهرة ومصر (أى الأزهر وجامع عمرو) . ولم يكن هذا السجل - فى الواقع - إلا قانوناً أو دستوراً لعمل والى الحسبة[٤٢] .

---

(٣٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ .

(٣٥) Ency Isl, Vol 2, P. 702, 1933

(٣٦) العينى : عقد الجمان ، مخطوط جـ ٢/٢٥ ورقة ١١٠ حوادث ٨٠٤هـ ، وورقة ٣٢٥ حوادث سنة ٨١٣هـ .

(٣٧) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٣٨) ابن تغرى بردى : منتخبات الحوادث ص ٣٠ - ٣٨ ط ١٩٦٠ .

(٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٨٧ .

(٤٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٤١) ابن ميسر : أخبار مصر : حيث ذكر أنه فى حوادث سنة ٣٦٣ «أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قلد الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشاب والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين وما ينضاف إلى ذلك فى مصر وسائر الأعمال أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس وعسلوج بن الحسن وكتب لهما سجلاً بذلك» .

(٤٢) إقرأ سجل تولية محتسب القاهرة الملحق الأول من ملاحق البحث .
وسجل تولية محتسب الفسطاط الملحق الثانى من ملاحق البحث .
وسجل تولية محتسب الإسكندرية الملحق الثالث من ملاحق البحث .

وإذا كان المحتسب مكلفاً من الدولة ، مولى من الخليفة أو السلطان أو القاضى لا تسقط توليته إلا إذا رفع أمره إلى أولى الأمر منهم .

وقد أجمعت بعض المراجع على ذكر عزل والى الحسبة فى حالات معينة ، وأولها حين يهمل النظر فى الشكاوى التى تصل إليه ويتركها تماماً بحيث يتكرر منه ذلك فحينئذ تسقط توليته شرعاً[٤٣] ، ويخرج عن أهلية الحسبة ، ثم يرفع أمره إلى السلطان الذى يرى بدوره أنه لا يصلح لأن يكون محتسباً .

وثانى الحالات ، حين يخل المحتسب بوقار منصبه ، ويشطط فى القول أو فى العمل ، فقد ذكر ابن حجر العسقلانى فى حوادث سنة ٧٨٣هـ أن السلطان برقوق غضب على أحد المحتسبين ويقال له «جمال الدين العجمى» ، محتسب مصر فعزله وأمر بنفيه فخرج ، ثم شفع فيه ، وأعيد إلى بيته ، وكان السبب فى ذلك ما قاله من كلام فى حق القضاء : «ما هم مسلمين»[٤٤] .

ويذكر العينى فى حوادث سنة ٨١٦ «أن السلطان المؤيد ضرب محمد بن شعبان المحتسب فى مصر أكثر من ثلثمائة عصى بسبب أخذه أموال الناس ، وأشهر عليه أنه لا يسعى فى الحسبة ، وولاها لغيره»[٤٥] .

والذى نفهمه من هذا النص أن السلطان هو الذى عزل المحتسب ، وكان سبب العزل هو جشع والى الحسبة وأخذه أموال الناس .

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول ان المحتسب لا يتولى منصبه إلا بأمر أولى الأمر وهو كذلك لا يعزل إلا بأمرهم فى مصر الإسلامية .

---

(٤٣) ابن الرفعة : «الرتبة» ، مخطوط ، ورقة ١١٧/ابن الأخوة : معالم القربة مخطوط ، ورقة ١٤٠ .

(٤٤) أنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ التحقيق .

(٤٥) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، حوادث سنة ٨١٦ .

الفصل الثاني

ملابسه ومرتباته

زى المحتسب وركوبه :

اتضح لنا بعد دراستنا لملابس المصريين ، في بعض العصور على بعض الأطباق الخزفية ذى البريق المعدنى بدار الآثار العربية[1] ومن دراساتنا كذلك لبعض مؤلفات الملابس المصرية في عصور أخرى مثل كتاب « ماير » L. A. Mager 'Mamluk Costume'. [2] ثم دراسات مصطلحات الملابس وتفسيرها من قاموس الأستاذ «دوزى» Dozy: 'Supplement Des Dictionnaires Arabs' اتضح لنا أن ملابس المصريين كانت تختلف باختلاف مهنهم ، وثرائهم ، ودرجاتهم الاجتماعية ، وأعمالهم الحكومية . [3]

وسنتحدث عن هذه الملابس مبتدئين بلباس الرأس ، ثم لباس البدن ، ثم الأحذية .

لباس الرأس :

اختلف لباس الرأس باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ولكن الغالبية العظمى من المصريين ، في العصور الاسلامية ، وضعت على رأسها العمامة ، وكانت تختلف في شكلها وحجمها تبعاً للسن والمركز الاجتماعى والديانة . [4]

والحقيقة أنه لا يوجد لدينا وصف لملابس المحتسب في مصر الاسلامية ، إلا أن المؤرخين قد اعتبروه من طبقة العلماء وكبار فقهاء الدين[5] ، فيكون له الحق في أن يلبس

---

(١) وقد تفضل الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى مشكوراً بمعاونتى في وصف نقوش ورسوم هذه الصحون الخزفية .

(٢) Geneve, 1952.

(٣) Mayer: Mamluk Costume, P. 49.

(٤) Mayer: Op. Cit, P. 50.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ، جـ ١ ، ص ١٩٥ ، القلقشندى/ صبح الأعشى ، جـ ١١ ص ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، السيوطى .

زيهم . وحسبنا دليلاً على ذلك ما ذكره السيوطى[٦] عندما أفرد بابا مستقلاً لذكر أرباب الوظائف وتحدث فيه عن ذوى العلم فقال انهم : «القضاة ، الخطباء ، ووكالة بيت المال ، الحسبة» .

ويبدو أن المحتسب لم يكن له الحق فى ارتداء زى العلماء والقضاة وكبار فقهاء الدين إلا بعد تعيينه وخلع الحسبة عليه ويذكر أبو المحاسن «ولذا عين أحد الأمراء محتسباً خرج عن زى الأجناد إلى زى العلماء .[٧]

وقد أفرد القلقشندى[٨] بابا مستقلاً فيه زى أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء ، على أن القلقشندى قد اعتبر الحسبة فى المرتبة الثالثة من الوظائف الدينية بعد قضاء العسكر ، وافتاء دار العدل[٩] .

ويرى الأستاذ «ماير» أن اللباس الشائع – للرأس – لفقهاء الدين والعلم والطوائف الغير عسكرية ، كان هو القلنسوة[١٠] وذلك حتى القرن السابع الهجرى ، وبعد القرن السابع أصبحت العمامة جزءا أساسياً من ملبس القاضى ، ووفقاً لذلك كان يطلق عليهم «أرباب العمائم «أو «المتعممون»[١١] .

ومما هو جدير بالذكر أن المحتسب فى مصر حتى عهد دولة السلطان المملوكى «المؤيد شيخ» كان يختار من بين المتعممين ثم أصبح يتولاها المماليك[١٢] .

وكان العلماء يلبسون تحت العمامة غطاء رأس صغير اسمه «القباء»[١٣] أما الطبقات الفقيرة فكانت تلبس العمامة بدون أى غطاء رأسى .[١٤]

---

(٦) حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ١٣٠ .

(٧) النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٧٥٢ .

(٨) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ٤١ ، ص ٤٢ .

(٩) نفس المرجع ، جـ ١١ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

(١٠) القلنسوة هى طاقية مرتفعة على شكل قمع السكر . كان يلبسها الخلفاء العباسيون ووزراؤ هم والقضاة أنظر : Dozy. Suppl. Dict. Ar II. P. 401 OP. cit, P. 49.

(١١) وهو نفس لبس العلماء والقضاة انظر أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٤ ، ص ٢٨٨ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٢٥ .

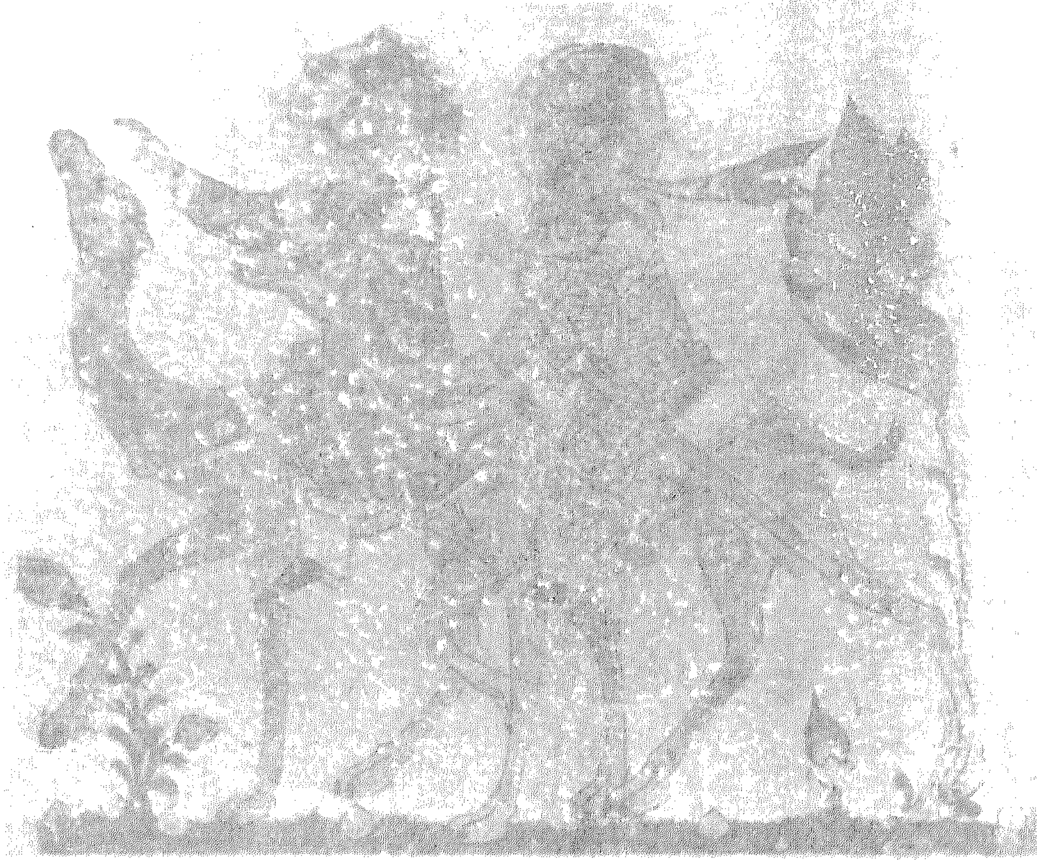
(١٢) القلقشندى ، جـ ١١ ، ص ٢١٠ . راجع ص ١٠١ ، ١٠٢ من البحث .

(١٣) القباء – قبة جمع قباب : جبة . كذلك كبة : وهو الجزء من الثوب الذى يكون حول العنق ، ياقة ، رقبة ، طوق الثوب . Dozy: Suppl Dict. Ar. II P. 297.

ويورد ابن الأثير فى الكامل نصاً خاصاً بأمير عند أمره بالحداد العام فى ذكرى وفاة الحسين ، فقد «أمر أن يظهروا النياحة ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح» جـ ٨ ، ص ٤٠٧ .

(١٤) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٨٨ .

Mayer: Op Cit P. 49. Dozy: Vetements P. 345.



لوحة رقم (٣)

وقد أوضح المقريزى فى خططه(١٥) لباس الرأس للعلماء وفقهاء الدين فى الدولة الفاطمية بأنه عبارة عن طيلسان(١٦) وعمامة ذات ذؤابة مرخاة يطلق عليها «العذبة» .

---

(١٥) جـ ٢ ، ص ٣٠٤ ، ص ٣٠٥ .

(١٦) وهو الطرحة التى توضع على الرأس والكتفين وأحياناً على الكتفين فقط :

Dozy: Dict Vets. pp. 278, 279/ Dozy Supple II P. 8I

وغالباً كانت هذه الطرحة تشبه المنديل الكبير الذى يتدلى على الكتفين ليقى الرقبة من حرارة الشمس .

أما فى العصر المماليكى فقد امتازت بالعمامة المصنوعة من الشاشات[١٧] الكبار[١٨] ، والبعض لهم ذؤابة معلقة فى العمامة وترسل بين الكتفين حتى تصل إلى قربوس[١٩] سرجه إذا ركب ، ومنهم من يستعيض عن اللذؤابة بطيلسان فائق . ويورد الأستاذ «ماير» فى كتابه[٢٠] لوحة بها شخصان يمتطيان جملا ، واللذؤابة تتدلى من أحدهم حتى قربوس سرجه ، وذؤابة الآخر تطير وراء ظهره .[٢١]

لباس البدن :

يلبس العلماء فوق ثيابهم دلقا[٢٢] متسع الأكمام طويلها مفتوحاً فوق كتفيهم بدون تفريج[٢٣] سابلة[٢٤] على قدميه ، وليس فيهم من يلبس الحرير ولا ما غلب فيه الحرير ،

---

(١٧) الشاشات مفردها شاش : وهو القطعة الطويلة من الشاش أو الحرير التى تلف حول العمامة ، وهو نوع من أغطية الرأس اخترعته نساء مصر حوالى سنة ٧٨٠هـ وهو يبدأ من جبهة المرأة وينتهى عند ظهرها ، وبعض الأغطية كان طولها حوالى ذراع ، وارتفاعها اقل من ربع ذراع وتزين هذه الأغطية بالذهب واللؤلؤ ، وكان ينفق لهذا الغرض مبالغ طائلة لألوان الخلاعة المسرفة انظر : Dozzy. Supp, Dict., Ar. II P. 802.

(١٨) فكان بعض القضاة والعلماء يلبسون عمامات كبيرة بدرجة غيرعادية مثل قباء الشيخ «شمس الدين الرومى» (+ ٨٥٥هـ) كان يزن عشرة أرطال مصرية وعمامة تزيد عن ثوب بعلبك حفظا لدماغه وعينيه أنظر : Mayer: Op. Cit. P. 50. نقلا عن التبر المسبوك ، ص ٣٧٤ .

(١٩) قربوس : هى الخشبة الصغيرة القائمة فى مقدم السرج

Dozy: Suppl. Dict. Ar. II, P. 324

(٢٠) Op. Cit Plate XIX P. III

(٢١) انظر عمامة الوزير فى ابن إياس : بدائع ، جـ ٤ (ملحق) ، ص ١٠٤/سيدة كاشف : مصر فى العصر الإخشيدى ، ص ١٥٥ .

انظر اللباس الرأسى للطبقات الدنيا من رجال الدين فى القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٤٢ /Mayer: Op. Cit P. 50

انظر خوذ الجند التى كانوا يضعونها على رؤوسهم فى ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ص ٩١ .

انظر اللباس الرأسى لأهل الترف واللهو والمنادمة والموسيقيين فى الأطباق الخزفية الموجودة بمتحف الفن الإسلامى بأرقام : ١٤٩٢٣ ، ١٤٩٣٥ ، ١٣٤٧٧ ، ١٣٤٧٨ دليل دار الآثار العربية د . زكى حسن .

أنظر عمائم أهل الذمة فى : Meyer: opcit p. 50.

(٢٢) الدلق : فراء أو جلد كالسمور فى جميع حالاته . وهى نوع من الملابس الدينية : Dozy Supp. Dict Ar. I p. 458.

وعلامة رضى السلطان على المحتسب أن يخلع عليه كامبلة خضراء . عقلب - سمور ابن تغرى بردى : منتخبات الحوادث ، ص ٣٠ - ٣٨ .

(٢٣) تفريج : فتحة الثوب : Dozy: Supp. Dict. Ar. II. P. 284.

(٢٤) سابلة : يترك متدلياً : Dozy I. P. 629.

وإن كان شتاءً كان الفوقانى[٢٥] من ملبوسهم من الصوف الأبيض ، ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم[٢٦] ، أو أثناء سفرهم[٢٧] .

وقد اتضح لنا مدى صحة ما ذكرته هذه المراجع جميعها عندما اطلعنا على الصورة التى صدر بها المستشرق الأستاذ نيكلسون «الطبعة الثانية لكتابه : تاريخ العرب الأدبى»[٢٨] ، والصورة لمتقاضين أمام قاض من مخطوط عربى فى المتحف البريطانى القسم الشرقى[٢٩] ، والمخطوط مؤرخ (سنة ٦٥٤هـ) ، وهو يشتمل على مقامات الحريرى - وموضح بإحدى وثمانين صورة صغيرة ، والصورة المدرجة فى الصفحة التالية تمثل منظراً من المقامة الثامنة ، ويرى فيها أبو زيد السروجىّ وولده أمام القاضى (معرة النعمان) فى سوريا .

والشكل الموجود إلى اليسار هو صورة «الحارث بن همام» ، وهو الذى يروى مغامرات أبى زيد السروجى .

ونلاحظ من الصورة أن القاضى يضع على رأسه عمامة كبيرة ، ويلبس الفوقانى من الصوف الأبيض والتحتانى من الثياب السوداء .

لباس القدم :

ويرجح أن محتسبى مصر - مثل طبقة العلماء والقضاة يلبسون فى أقدامهم الخفاف (الأحذية) من الأديم الطائى بغير مهاميز .[٣٠]

---

(٢٥) الفوقانى : فوقانية : هو ثوب أورداء من الجوخ يلبسه الرجال فوق الجبة ، وقد يما كان هذا الزى يقتصر لبسه على القضاة : Dozy: Supp., II. P. 290.

(٢٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٤٢ .

(٢٧) Mayer: Op. Cit. P. 50.

انظر لبس الكاتب فى مصر فى العصر الإخشيدى للأستاذة الدكتورة سيدة كاشف ، ص ١٦٥ .

انظر لباس الفارس من الصحن الخزفى برقم ١٣٤٧٧ بدار الآثار العربية .

انظر زى الجند فى ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٩١ .

أنظر ملابس الجسد لأهل الترف واللهو والمنادمة فى الأطباق الخزفية بدار الآثار العربية والمشار إلى أرقامها سابقاً .

(٢٨) Nichelson. R: Litrary history of the Arabes. Cambridg 1930

(٢٩) ١٢٠٠ رقم ١٠٠٧ فى ملحق فهرست ريو .Rieu

(٣٠) مهاميز : جمع مهماز : منخاس لنخس الثيران Dozy: Supp. Dict. Ar. I P. 69

هى قطعة من الحديد تلبس فى مؤخر الحذاء خلف الكعب ومازال يستعملها بعض معتادى ركوب الخيول إلى عصرنا هذا .



لوحة رقم (٤)

ركوبهم :

أما ركوبهم فكانوا يركبون البغال النفيسة المساوية فى الأثمان لمسومات الخيول بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشىء من الفضة ، ويجعلون حول السرج قرقشينا(٣١) من جوخ ، ويجعلون بدل العبى الكنابيش(٣٢) من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغلة(٣٣) .

ويظهر أن المحتسبين كانوا يركبون الخيول فى نهاية العصر المملوكى(٣٤)

---

(٣١) وهو أشبه بثوب السرج مختصر عنه . القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٤٢ .

(٣٢) الكنابيش : مفردها كنبوش : وهو ما يستر به مؤخر ظهر البغل أو الحصان ، وهو إما من الذهب المزركش أو الفضة الملبسة بالذهب : Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٤٢ .

(٣٤) Behrnawer: Op. Cit. Vol, III. P. 8.

ابن حجر : انباء الغمر بانباء العمر ، التحقيق جـ ١ ، ص ٤٠٢ .

مرتبات المحتسب وأعطياته :

لم تشر كتب الحسبة المتقدمة إلى قدر مرتب المحتسب ، واقتصرت على القول بأن له مرتباً من بيت المال(٣٥) ولم يصلنا تحديد لمرتب محتسب مصر قبل العصر الفاطمى وفى هذا العصر أورد المقريزى(٣٦) كشفاً لمرتبات أهل الدولة فقسمهم إلى ثمانى فئات هى :

الفئة الأولى

«رواتب الوزير : فى الشهر خمسة آلاف دينار(٣٧) ، وهو مثل مرتب صاحبه ببغداد(٣٨) ، ومن يليه من ولد وأخ من ثلثمائة دينار إلى مائتى دينار ، ولم يقرر لولد وزير خمسمائة دينار سوى «شجاع بن شارو المنعوت بالكامل» . ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من خمسمائة إلى أربعمائة إلى ثلثمائة خارجاً عن الاقطاعات .

الفئة الثانية :

حواشى الخليفة وأولهم الأستاذون(٣٩) المحنكون على رتبهم وجوارى خدمهم التى لا

---

(٣٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٣١ .

(٣٦) الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ /راجع ياقوت : الإرشاد ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ /متز : الحضارة ، جـ ١ ، ص ١٤١ .

(٣٧) ذكرت الأستاذة الدكتورة : سيدة كاشف فى بحثها عن «النقود الإسلامية» آراء بعض الأساتذة والباحثين المحدثين فى تقويم قيمة الدينار الشرعى فحدده مؤلفو كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» ب٥٧,٨ قرشاً : قسم العبارات ، ص ٤٨١ كذلك ذكر الأستاذ الخضرى أن وزن الدينار يساوى نصف الجنيه الإنجليزى .

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، المجلد الأول جـ ٢ ، ص ٢٢٢ . كذلك نقل الدكتور حسن ابراهيم حسن عن «ستانلى لين بول» أنه قدر الدينار بمقدار ١٥,١٥ قرشا النظم الإسلامية ، ص ٣٠٠ ، وقدر جورجى زيدان الدينار بنحو نصف جنيه ، تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٢ ص ٣٣ و٦٧ و ٦٨ . ويقدر الأمير عمر طوسون الدينار بنحو ستين قرشا . مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن . وعلقت سيادتها بعد ذلك على هذه الآراء بقولها «أن هؤلاء الباحثين اجتهدوا فى تقويم الدينار بالعملة المصرية على أساس الجنيه المصرى الذهبى أو الجنيه الإنجليزى الذهبى . والمعروف أن الجنيه المصرى الذهبى ضعف الدينار تقريبا . ولكن يجدر ملاحظة الفرق الآن بين الجنيه المصرى وثمنه ١٠٠ قرش ، وبين الجنيه المصرى الذهبى الذى اصبح سلعة وليس نقدا متداولا ويقدر ثمنه بنحو سته جنيهات مصرية .

وإذا حسبنا ثمن الدينار وثمن الجنيه المصرى الذهبى بالعملة المصرية الآن يكون ثمن الدينار حوالى ٣٠٠ قرش !

(انظر د . سيده اسماعيل كاشف : دراسات فى النقود الإسلامية مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الثانى عشر ٦٤ - ١٩٦٥ ، ص ٨١ - ٨٢ وما ذكرته من مراجع .

(٣٨) متز : الحضارة : جـ ١ ، ص ١٤١ .

(٣٩) الأستاذون : جمع أستاذ : معلم ، وأطلقت فى المصطلح المملوكى على السيد الذى اشترى المملوك بالمال وتعهده بالتربية حتى كبر وأعتقه . وكانت رابطة الأستاذية - التى تربط المملوك بأستاذه - من أقوى

يباشره سواهم ، فزمام القصر[٤٠] وصاحب بيت المال[٤١] ، وحامل الرسالة ، وصاحب الدفتر ، ومشاد التاج[٤٢] ، وزمام الأشراف الأقارب وصاحب المجلس[٤٣] لكل واحد منهم مائة دينار في كل شهر ، ومن دونهم ينقص عشرة دنانير حتى يكون آخرهم من له فى كل شهر عشرة دنانير وتزيد عدتهم على ألف نفس ، ولطبيبى الخاص لكل واحد خمسون دينارا ، ولمن دونهما من الأطباء برسم المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير .

الفئة الثالثة :

تتضمن أرباب الرتب بحضرة الخليفة فأوله : كاتب الدست[٤٤] الشريف وجاريه مائة وخمسون ديناراً ، ولكل واحد من كتابه ثلاثون دينارا ، ثم صاحب الباب وجاريه مائة وعشرون دينارا ، ثم حامل السيف وحامل الرمح[٤٥] ولكل منهما سبعون دينارا ، وبقية الأزمة على العساكر والسودان من خمسين إلى أربعين دينارا إلى ثلاثين دينارا .

الفئة الرابعة :

وتشتمل على المستقر لقاضى القضاة ومن يلى قاضى القضاة مائة دينار ، وداعى الدعاة مائة دينار ، ولكل من قراء الحضرة عشرون دينارا إلى خمسة عشر إلى عشرة ، وللخطباء الجوامع من عشرين دينارا إلى عشرة ، وللشعراء من عشرين دينارا إلى عشرة دنانير .

= الروابط فى نظام المماليك ، حتى أن كثيرا منهم نسبوا إلى أساتذتهم فيقال مثلا بيبرس البندقدارى نسبة إلى استاذه الأمير علاء الدين البندقدراى .

عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨٩ .

(٤٠) هو (الموكل بحفظ الحريم ، أى الذى - يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان) . القلقشندى : صبح ، جـ ٥ ، ص ٤٥٩/عاشور : العصر المماليكى ص ٤٢٣ .

(٤١) يقول السيوطى : (أما نظر بيت المال فوظيفة جليلة موضوعها حمل حمول المملكة إلى بيت المال ، والتصرف فيه تارة بالميزان وتارة بالتسبب بالأقلام ، ولا يلى هذه الوظيفة إلا من هو من ذوى العدالة المبرزة) ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ١٣٢ .

(٤٢) شاد (أومشد) : مفتش : فيقال شاد الدواوين : أى الذى يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها . . وتسمى العملية شد ، فيقال شاد الدواوين أى التفتيش عليها . زيادة السلوك ، جـ١ ، ص ١٠٥ حاشية ، عاشور : العصر المماليكى ص ٤٢٧ .

(٤٣) صاحب المجلس : «يحرس مجلس السلطان وفرشه ، ويتحدث على الأطباء والكحالين ونحوهم ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ١٣٢ .

(٤٤) كاتب الدست أو كتاب الدست : سموا كذلك إضافة إلى دست السلطان ، وهو مرتبة جلوسه لجلوسهم للكتابة بين يديه ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ص ١٣٧ .

انظر نص تقليد بكتابة الدست فى القلقشندى : صبح ، جـ ١١ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٤٥) صاحبه هو المتولى بحمل سيف السلطان أو المتولى بحمل رمح السلطان .

السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ١٣١ .

الفئة الخامسة :

تشتمل على أرباب الدواوين ومن يجرى مجراهم ، وأولهم من يتولى ديوان النظر[٤٦] وجاريه سبعون دينارا ، وديوان التحقيق جاريه خمسون دينارا ، وديوان المجلس أربعون دينارا ، وصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون دينارا ، وكاتبه خمسة دنانير ، وديوان الجيش وجاريه أربعون دينارا ، والموقع بالقلم الجليل ثلاثون دينارا ، ولجميع أصحاب الدواوين الجارى فيها المعاملات لكل واحد عشرون دينارا ، ولكل معين من عشرة دنانير إلى سبعة إلى خمسة دنانير .

الفئة السادسة :

تشتمل على المستخدمين بالقاهرة ومصر ولكل واحد من المستخدمين فى ولاية القاهرة وولاية مصر فى الشهر خمسون دينارا ، والحماة بالاهراء[٤٧] والمناخات[٤٨] والجوالى[٤٩] والبساتين والأملاك وغيرها لكل منهم من عشرين دينارا إلى خمسة عشر إلى عشرة إلى خمسة دنانير .

الفئة السابعة :

الفراشون بالقصور برسم خدمها وتنظيفها خارجا وداخلا ، ونصب الستائر المحتاج إليها ، وخدمة المناظر الخارجة عن القصر فمنهم خاص برسم خدمة الخليفة وعدتهم خمسة عشر رجلا ، منهم صاحب المائدة وحامى المطبخ من ثلاثين دينارا إلى ما حولها ولهم رسوم

---

(٤٦) ديوان النظر هو أهم دواوين الحكومة فى ذلك الوقت ويشبه وزارة المالية اليوم ، له الإشراف على حسابات الدولة وعلى مرتبات الموظفين ، وترجع إليه سائر الدواوين فى كل ما يتعلق بالمسائل الخاصة بالتحصيل والمنصرف من أموال الدولة : على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٣٠ - ص ٣٣١ .

(٤٧) الأهراء السلطانية : المخازن والشون التى تخزن فيها الغلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح إلا فى حالات الشدة والمجاعات خليل بن شاهين . زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، عاشور : العصر المماليكى ص ٣٩٣ .

ناظر الأهراء : يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على شون الغلال السلطانية وما يصل إليها من غلال وما يصرف منها . القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٣٣ عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٥٨ .

(٤٨) مناخات : المفرد مناخ : وهى الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية - كاصطبلات لأنواع الخيل وجميعها كانت تابعة لإدارة الاصطبلات السلطانية . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٢ ، عاشور نفسه ، ص ٤٥٥ .

(٤٩) الجوالى : مفرد الجالية ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم كل سنة ، القلقشندى : صبح ، جـ ٣ ، ص ٤٦٢ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٣٦ ، عاشور : نفسه ص ٤٠٣ .

متميزة ويقربون من الخليفة فى الأسمطة(٥٠) التى يجلس عليها ويليهم الرشاشون داخل القصر وخارجه ولهم عرفاء ويتولى أمرهم أستاذ من خواص الخليفة وعدتهم نحو الثلثمائة رجل وجاريهم من عشرة دنانير إلى خمسة دنانير .

الفئة الثامنة والأخيرة :

وتشتمل على صبيان المراكب وعدتهم تزيد على ألفى رجل ومقدموهم أصحاب ركاب الخليفة وعدتهم اثنا عشر مقدما منهم مقدم المقدمين وهو صاحب الركاب اليمين(٥١) ولكل من هؤلاء المقدمين كل شهر خمسون دينارا(٥٢) .

ولم يورد المقريزى أى ذكر لمرتب المحتسب ضمن هذا التفصيل الرائع الذى ذكره عن رواتب وأعطيات هؤلاء العاملين بالدولة ، ونجده يورد فى صفحات سابقة ، أول ذكر لمحتسب الدولة الفاطمية ويحدده بثلاثين دينارا فى كل شهر .(٥٣)

ويبدو أن هذا المبلغ الذى ذكره المقريزى لم يكن هو كل ما يقبضه المحتسب من مرتب وإنما كان له إلى جانب ذلك مخصصات ومكافآت عينية أخرى فيذكر المقريزى فى موضع آخر من خططه(٥٤) أن بعض الخلفاء الفاطميين كان يشعر محتسبيهم بالعطف ويبعدونهم عن الرشوة ، فقد أمر الخليفة «الحاكم بأمر الله» ، بإعطاء محتسبه المدعو «غبنا الصقلبى» فى (سنة ٤٠٢هـ سنة ١٠١١ م) خمسة آلاف دينار ذهبا ، وخمسة وعشرين فرسا بسروجها ولجمها .

ونستنتج من ذلك أن هذه كانت مكافأة أعطيت للمحتسب زيادة على ما حدد له من مرتبه الأصلى حتى يحول بينه وبين الارتشاء من الناس وأخذ الأموال بغير حق .

ويبدو أن الخليفة الفاطمى «الحاكم بأمر الله» قد أراد أن تكون هذه هى القاعدة بالنسبة

---

(٥٠) الأسمطة : جمع سماط : المائدة ، ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين عاشور : العصر المماليكى ص ٤٢٦ .

(٥١) مقدم الدولة : «هو الذى يتحدث عن الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير» القلقشندى صبح ، جـ ٥ ، ص ٤٦٨ . وكان لمقدم المماليك مثلاً أن يتحدث فى شأنهم ويحكم فيهم ، كما كان يحضر تفرقة الرواتب المربوطة لشهر أو أكثر (أى الجامكية) .

زيادة : السلوك ، جـ ١ ص ٧٨٠ حاشية ٣/ابن إياس : بدائع جـ ٣ ، ص ١٥٥ ، جـ ٤ ، ص ٢٩١ ، عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٥٢

(٥٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ .

(٥٣) نفسه : نفس المراجع ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

(٥٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ .

لبعض الوظائف الأخرى أيضا ، كالقضاء مثلا ، ويؤيد وجهة نظرنا هذه ما قيل بأن : الخليفة الحاكم بأمر الله ، أراد أن يحول بين القضاء وبين أخذ الأموال بغير حق «فأمر بأن يضعف للحسين بن علي بن النعمان رزقه وصلاته واقطاعاته وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه»(٥٥) .

ولم يصلنا كذلك مبلغ ما كان يتقاضاه المحتسب فى مصر فى عصر الأيوبيين ، ونحن نعرف أن وظيفة المحتسب انتقلت إلى الامارات الصليبية فى عهد الأيوبيين . وتقاضى محتسب هذه الامارات - مرتب الفارس وقدره اثنى عشر بيزانتا "Besans" - وهى تقابل الدينار عند المسلمين(٥٦) - فى كل شهر من شهور السنة من دخل والى المدينة . مضافاً ما يناله من المنح والعطايا(٥٧) .

أما مرتب محتسب العصر المماليكى فقد زاد زيادة كبيرة عن مرتبه أيام الفاطميين . وقد ذكر أنه بلغ ما كان يتقاضاه محتسب القاهرة «صدر الدين أحمد بن العجمى» فى سنة ٨٢٤هـ ثمانين دينارا فى كل شهر غير ما رتب له من ديوان الجوالى وهو دينار كل يوم (٥٨) .

وكان محتسب العصر المماليكى ، فى بعض الأحيان ، يجمع بين وظيفة الحسبة وبعض الوظائف الأخرى ، كالاشراف على وكالة بيت المال ، وكتابة السر الشريف(٥٩) ، والإشراف على دار الضرب والأوقاف(٦٠) .

---

(٥٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥٩٧ .

(٥٦) البيزنتا 'Besant' عملة ذهبية منسوبة إلى بيزنطة ، وهى الاسم القديم لقسطنطينية ، وقد ضربها الأباطرة المسيحيون الأوائل ، وظلت معمولاً بها ببلاد الدولة البيزنطية طوال العصور الوسطى ، ولذا تداولها الصليبيون . الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق . أورد هذا الأستاذ الدكتور العرينى فى الملحق الثالث من تحقيقه لكتاب الشيزرى ص ١٢٩ حاشية (١) مأخوذاً عن :

Larousse; Grand Dictionnaire Universel.

(٥٧) انظر تحقيق كتاب نهاية الرتبة ، الملحق (٣) ، ص ١٢٥ - ١٢٩ .

(٥٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤٨٢ .

(٥٩) تلقب صاحبها بذلك لأنه كان يكتم سر السلطان ، وكان صاحبها يلقب باسم «الجناب الكريم» أنظر :

Van Berchem. Corps Egypt. I. P. 507.

وكان كاتب السر الشريف يشرف على كتاب الدواوين الذين يستنيرون بارائه ويأنسون لمشورته .

عن وظيفة كاتب السر أنظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، السيوطى ، جـ ٢ ، ص ١٣١

(٦٠) أبو المحاسن : جـ ٦ ، ص ٧٥٢ .

وفى بعض الأحيان ، كان يجمع بين الحسبة وإفتاء دار العدل ، وقضاء العسكر[٦١] ، ويقال أنه كان يتناول رواتب على ما يباشره من هذه الوظائف المتعددة[٦٢] (وهذا لا يحدث في عصرنا الحاضر فلا يسمح لأى شخص فى مصر بالجمع بين عدة وظائف مختلفة وذلك أخذاً بمبدأ تكافؤ الفرص وإفساح المجالات المختلفة أمام الراغبين فى شغل الوظائف) وقد أدى تعدد الرواتب التى كان يتقاضاها المحتسبين إلى تمتع بعضهم بثروة طائلة مما أدى بالتالى إلى امتداد يد الرشوة والفساد إلى المجتمع بحيث اننا نجد نصا طريفا يورده لنا ابن إياس[٦٣] يصور فيه محتسبا يلجأ إلى ترشية الآخرين كى يحقق بغيته ، يقول : «فقد حبس السلطان الغورى أحد المحتسبين لأنه أهمل فى تقديم حساب له لمدة أربع سنوات . وقد بلغت ثروة هذا المحتسب إلى حد أنه كان يدفع لأحد الأمراء كل يوم مائة دينار لكى يتوسط له فى إطلاق سراحه» .

---

(٦١) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢٥/٢ ورقة ٢٩٧ حوادث سنة ٨١٢هـ ، ورقة ١٦١ حوادث سنة ٨٠٣هـ .

(٦٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

(٦٣) جـ ٤ ، ص ٢٧٤ ط استانبول .

الفصـــل الثـــالث

أعوانه وســلطاته التنفيــذية

أعوان المحتسب :

ونظرا لتضخم واجبات المحتسب الدينية والاقتصادية والاجتماعية والصحية ، كان له الحق فى أن يتخذ مساعدين له من بين من تتوفر فيهم الخبرة فى الصناعة أو التجارة ، ويقال لهم «غلمانا» ، أو «أعوانا» ، أو «عرفاء»[1] أو «نـواب»[2] ، وفى المغرب العـربى أطلق عليهم «أمناء» أو «نواب»[3] . كما كان له الحق فى أن يتخذ عيونا فى الأسواق يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوق والتجار والصناع .

ولاتذكر لنا المصادر شيئا عن أعوان المحتسب قبل العصر الاخشيدى ، وحتى ما وصلنا عن هذا العصر يعطى صورة سيئة عن فساد المحتسب وأعوانه . وقد ذكر ابن زولاق[4] : أن سيبويه المصرى كان راكبا على حماره ولقى المحتسب والحراس بين يديه فقال : «ما هذه الأحراس يا أنجاس ! والله ما ثم حق أقمتموه ، ولا سعر أصلحتموه ، ولا جان أديتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه ، وما هى إلا أحراس تسمع لباطل يوضع ، وأقفاه تصفع ، وبراطيل تقطع ! لاحفظ الله من جعلك محتسبا ، ولا رحم لك ولا له أبا . . . » .

---

(١) يذكر De Sacy أن : العريف معناها كاتب وهى المقابلة للكلمة اليونانية جرافى أى كاتب .
Sur Ia Nature et Ies Revolutions du droit de propriete P. 179.

ويفسر الأستاذ الدكتور عاشور «العريف» بأنه هو مساعد المؤدب فى الإشراف على الأيتـام المسجلين بالمكتب ، ويكون بالمكتب عادة عدة عرفاء يختص كل منهم بالإشراف على بضعة صبيان» : العصر المماليكي فى مصر والشام ، ص ٤٣٥ .

ونعتقد أن أشمل هذه التعريفات ما ذكرته الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف وهو أن العريف معناها : «العالم بالشىء ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء» . مصر فى فجر الإسلام ص ٣٧ حاشية (٣) .

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٠ ، ٣٦/ابن الأخوة : معالم القربة المخطوط ، الفصل ٦٥/ابن بسام : نهاية الرتبة ، المخطوط ، ورقة ٥ .

(٣) السقطى : أدب الحسبة ، التحقيق ، ص ٩ .

(٤) أخبار سيبويه المصرى : التحقيق ، ص ٢٩ .

ولم تصلنا نصوص تفصل عمل أعوان المحتسب في هذا العصر ربما لأن الوظيفة كانت لم تتطور بعد ككل الوظائف ، وكل وظيفة نشأت بسيطة ثم تعقدت وتطورت .

وفي العصر الفاطمي برز عمل أعوان المحتسب ، فقد ذكر المقريزي في إغاثة الأمة[٥] : «أن المحتسب رتب عريفا على كل صنعة وفي كل سوق يقبل قوله في كل شيء ، وله أعوان ينفذون أوامره وأحكامه» .

وعلى ذلك أصبحنا نميز بين فريقين من هؤلاء الأعوان .-

الفريق الأول : ويقوم بأعمال الضبطية وأعمال الإشراف والتفتيش وهو قسمان :

قسم متنقل بين أطراف المدينة وأسواقها .. الخ . والقسم الآخر مقيم في الأسواق بحيث ان كل حرفة ينتخب من بين أربابها من يستأنس فيه الخبرة والدراية بأمور مهنته مع توفر الصلاح والتقوى فيه ، وكان هؤلاء جميعا يستخدمون كمخبرين يوصلون للمحتسب الأخبار وأحوال السوق ، وكانت أقوالهم تقبل فيما يذكرونه .

ويروي المقريزي : «أنه كان في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم ، وكان لعريف الخبازين دكان يبيع الخبز بها ويحاذيها دكان آخر لصعلوك يبيع الخبز بها أيضا . والأخباز بمصر في أزمنة المساغب (العطلم) متى بردت[٦] لم يرجع منها إلى شيء لكثرة الغش ، وكان العريف يبيع الخبز ، وسعره يومئذ أربعة أرطال بدرهم وثمن ، فرأى الصعلوك أن خبزه قد كاد يبرد فاشفق من كساده فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغب الناس فيه . فانثال الناس عليه حتى بيع كله لتسامحه ، وبقي خبز العريف كاسدا ، فحنق العريف لذلك ووكل به عونين في الحسبة أغرماه عشرة دراهم ، فلما مر قاضي القضاة «أبو محمد البازوري» إلى الجامع استغاث به فأحضر المحتسب وأنكر عليه ما فعل بالرجل . فذكر المحتسب أن العادة جارية باستخدام عرفاء في الأسواق على أرباب البضائع ويقبل قولهم فيما يذكرونه . فحضر عريف الخبازين بسوق كذا واستدعى عونين من الحسبة (فوقع أنه أنكر شيئا اقتضى ذلك) فأحضر الوزير الخباز وأنكر عليه ما فعله وأمر بصرفه عن العرافة ، ودفع إلى الصعلوك ثلاثين رباعيا[٧] من الذهب، فكاد عقله يختلط من الفرح ثم عاد الصعلوك إلى حانوته فإذا عجينته قد خبزت فنادى عليها خمسة أرطال بدرهم فمال الزبون إليه ، وخاف من سواه من الخبازين برد أخبازهم فباعوا كبيعه ، فنادى

---

(٥) اغاثة الأمة : ص ١٨ - ١٩ .

(٦) بردت : كسدت كما هو واضح من النص بعد ذلك .

(٧) أشار المقريزي في شذور العقود ص ٢٤ إلى هذا النوع من النقد وعلق الأب أنستاس الكرملي في نفس الصفحة حاشية ١ أن الخليفة المأمون العباسي هو الذي استحدثه وسماه بذلك الاسم وأنه ضرب منه دراهم ودنانير .

ستة أرطال بدرهم ، فأدتهم الضرورة إلى اتباعه ، فلما رأى اتباعهم له قصد نكاية العريف الأول وغيظه بما يرخص من سعر الخبز فأقبل يزيد رطلا رطلا والخبازون يتبعونه فى بيعه خوفا من البوار ، وتسامع الناس به فتسارعوا إليه فلم يخرج قاضى القضاة من الجامع إلا والخبز فى جميع البلد عشرة أرطال بدرهم[٨] .

وهذا النص الذى أورده المقريزى ، ووافقه عليه المستشرق الفرنسى كاترمير Quatremere[٩] يوضح لنا عدة أمور :-

أولها : أن العريف لابد وأن يكون من أرباب الصناعات الذين يزاولون فعلا صناعتهم حتى بعد أن يختاروا للعرافة .

ثانيها : أن العريف أو المفتش من أرباب التجارة الذين لهم محل لتجارتهم فى السوق .

ثالثها : أن إشرافه على أرباب الصناعة ، وقيامه بعمله الحسبى إنما يتأثر إلى حد بعيد بمصالحه التجارية أولا وأخيرا .

أما الفريق الثانى من أعوان محتسب مصر فى العصر الفاطمى فقد كان يقوم بأعمال السلطة التنفيذية التى تقوم بتنفيذ الجزاءات التى يوقعها المحتسب . وقد استخدم بعض أعوان المحتسب «السياط» فى عهد «الحاكم بأمر الله» الخليفة الفاطمى فى مصر ، فى ضرب جماعة من الطحانين والخبازين[١٠] .

ويبدو أن أعوان المحتسب قد زادت أهميتهم فى العصر الأيوبى بحيث ان الشيزرى - مؤرخ الأيوبيين - خصص لهم فصلا مستقلا فى الحديث عن الشروط الواجبة فى اختيارهم وأهم واجباتهم بتفصيل كبير وذلك حين يقول : «ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوقة[١١] تحت وسع المحتسب، جازله أن يجعل لأهل كل صنعة عريفا من صالح أهلها، خبيرا بصناعتهم ، بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم ، مشهورا بالثقة والأمانة ، يكون مشرفا على أحوالهم ، ويطالعه بأخبارهم وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع ، وما تستقر عليه من أسعار ، وغير ذلك من الأسباب التى يلزم المحتسب معرفتها ، فقد روى أن النبى ﷺ قال : «واستعينوا على كل صنعة بصالح أهلها . . . (وعلى المحتسب أن يلزم غلمانه وأعوانه بما التزم من شروط[١٢] - فان أكثر ما تتطرق إليه التهمة من غلمانه وأعوانه فإن

---

(٨) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ١٦ - ١٨ - ١٩ .

(٩) Memoire Geographiques et Historiques Tome II, P.P. 344, 345.

(١٠) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ١٦ .

(١١) السوقة : لغة فى الأسواق ، والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان الذكر والأنثى فى ذلك سواء . المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٩ .

(١٢) النزاهة ، والعفة ، والبعد عن الارتشاء . . إلخ انظر الشروط التى يجب توافرها فى المحتسب ص ١٠٧ - ١٠٩ . من الكتاب .

علم أن أحدا منهم أخذ رشوة أو قبل هدية صرفِ عنه ، لتنتفى عنه الظنون وتتخلى عنه الشبهات[١٣] .)

والظاهر أن تخويل أعوان المحتسب سلطات كاملة وصلاحيات تامة قد أدى ببعضهم إلى الفساد وإلى سوء استغلال هذه السلطات بحيث نرى الشيزرى ينبه بضرورة مداومة اشراف المحتسب بنفسه على سير الأمور وذلك حين يقول : «انه ينبغى للمحتسب أن يكون ملازما للأسواق ، يركب فى كل وقت ويدور على السوقة والبياعين ، ويكشف الدكاكين والطرقات ، ويتفقد الموازين والأرطال ويتفقد معايش التجار وأطعمتهم وما يغشونه ، ولابد له أن يفعل ذلك بالنهار والليل فى أوقات مختلفة ، ويتفقدهم على غفلة منهم . . . وإذا دار المحتسب فليكن معه أمين عارف ثقة يعتمد على قوله ومع ذلك فلا يعتمد فى الكشف إلا على ما يظهر له ويباشره بنفسه»[١٤]

وقد ذهب أصحاب مؤلفات الحسبة فى العصر المملوكى إلى ما ذهب إليه الشيزرى فيما يختص بالشروط الواجبة فى اختيار أعوان المحتسب وواجباتهم .

كما أشارت كتب التاريخ إلى بعض هؤلاء النواب : فيذكر المقريزى فى حوادث (سنة ٦٩٩ هـ/١٢٩٩ م) «استدعى مجد الدين عيسى بن الخشاب نائب الحسبة ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الرعية للنفقة على العساكر»[١٥] .

ويذكر ابن حجر أنه فى شوال من (سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) توفى «نائب الحسبة يوسف الحاضرى الحنفى»[١٦] ، كما يذكر فى سنة ٧٧٨ هـ/١٣٧٦م وفى ربيع الآخر منها توفى محمد بن على بن أبى رقيبة المصرى المجود ، الذى ناب فى الحسبة ، وأدب الملك الكامل شعبان بن الناصر ثم ولى حسبة مصر وقرب من قلب الأشرف شعبان جدا[١٧] . ثم يذكر أيضا فى حوادث سنة ٧٨٩ هـ/١٣٨٧م وفى شعبان مات «محمد بن على بن عمر بن خالد بن الخشاب المصرى» الذى ولى نيابة الحسبة[١٨] .

ويبدو أن مسألة اختيار هؤلاء الأعوان كانت ترجع أولا وأخيرا إلى المحتسب نفسه . فيذكر ابن الأخوة[١٩] عندما يتحدث عن كل حرفة أنه ينبغى أن يعين عليهم المحتسب

---

(١٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(١٤) نهاية الرتبة ، التحقيق ، أنظر ص ١٠ ، ٣٦ .

(١٥) السلوك جـ ١/٣ ص ٨٩٧ - ٨٩٨ .

(١٦) أنباء الغمر ، التحقيق ، جـ ١ ، ص ١٠٢

(١٧) نفسه ، ص ١٤٥ .

(١٨) نفسه ، ص ٣٤٤ .

(١٩) معالم القربة : المخطوط ، الفصل ٦٥ .

رجلا ثقة من أهل صناعتهم ، بصيرا بغشوشهم . ثم يذكر ابن بسام[٢٠] : «أن المحتسب يجب أن يختار كل عريف مشهورا بالثقة والأمانة والعفة والصيانة والتقوى والصلاح . «ولا يعين أحداً منهم لغرض معين[٢١] .

ويعرف المحتسب أعوانه كيف يتصرفون ، وكيف يعملون ، وإذا أرادوا طلب أحد التجار يجب عليهم ألا يرسلوا فى استدعائه إلا بعد مشاورة المحتسب[٢٢] ، وإذا أرسلهم المحتسب فى طلب أحد التجار إلى مقره فعليهم ألا يخبروهم لماذا طلبوا لئلا يفكر التجار فى حجة يتخلصون بها[٢٣] وكان محتسب مصر يقيم النواب عنه بالقاهرة وسائر الأقاليم[٢٤] .

وكما أنه كان يجب على المحتسب تعليم نوابه ومساعدتهم وانارة الطريق أمامهم ، فله أيضا حق محاسبتهم ان أخطأوا[٢٥] . وكان لهم أن يرتزقوا من بيت المال نظير أعمالهم[٢٦] .

وقد تضاربت الآراء حول مقر تفتيش المحتسب ، هل يذهب المحتسب ليطوف هو ونوابه فى الأسواق والحارات ليباشر الحسبة بنفسه فى أوقات الغفلة[٢٧] ؟ وهل هذا أجدى ؟ أم أن يدعو أهل السوق إلى بيته أو إلى دار العيار ليتفحص أمور التجار وأرباب المهن ؟[٢٨] أم أنه كان يجلس فى أحد الجامعين الكبيرين فى القاهرة ومصر يوما بعد يوم[٢٩] ، كما كان محتسب المغرب يمارس نشاطه فى المسجد[٣٠] .

ونحن نرى أنه إلى جانب ضرورة طواف المحتسب فى الأسواق بصحبة نوابه وتفتيشه على التجار وأصحاب السلع والبضائع حتى يتسنى له أن يباشر الحسبة فى مكانها ، ويلمس

---

(٢٠) نهاية الرتبة ، المخطوط ، ورقة ٥ .

(٢١) النبرواى : نهاية الرغبة ، المخطوط ، ورقة ٣ .

(٢٢) ابن الرفعة : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ١١٦ .

(٢٣) السقطى : أدب الحسبة ، ص ٩ . التحقيق .

(٢٤) القلقشندى : صبح ، جـ ٣ ، ص ٤٨٧ /المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٦٣ ، ٤

(٢٥) السنامى : نصاب الاحتساب ، مخطوط ، ص ٨٤ . ٢اكتفى هذا المرجع بذكر أحقية الأعوان فى الارتزاق من بيت المال دون تحديد مبلغ معين .

(٢٦) نفسه : نفس المرجع ، ص ٨٥ .

(٢٧) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ٣٦ ، ١٠٨ .

(٢٨) السنامى : نفس المرجع ، ص ٠٧٨ /يوسف ضياء الدين : أحكام الاحتساب ، مخطوط ، ص ١٠

(٢٩) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٨٧ /المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ٤٦٣ . أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى مصر ص ٥١ .

(٣٠) عبد الرحمن الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان جـ ٢ ، ص ٥٥ - ٥٩ .عن لقبال موسى /الحسبة فى المغرب .

ما يحدث فى الأسواق ، ويحس بطرق الباعة فى الغش والخطأ معتمدا فى ذلك على ما يظهر له ويباشره بنفسه ، فالشيزرى[٣١] يؤكد ضرورة اشراف المحتسب على الأسواق اشرافا عمليا بنفسه . وابن الاخوة[٣٢] يقول : «ان الحسبة لا تحتمل الحجبة فطف الأسواق تجل لك الأرزاق ، والله ان لزمت دارك نهارا لا ضر منها عليك نارا» . وإلى جانب هذا فلابد أن يكون للمحتسب مقر يعرفه أولو الأمر والتجار للالتجاء إليه وكذلك قد يرى استدعاء من يرى فى بعض الحالات .

وقد مر بنا أن دار العيار كانت مقرا لمحتسب مصر فى العصر الفاطمى ثم العصر الأيوبى ، يأتيه فى هذه الدار للتفتيش على مكاييلهم وموازينهم وصنجهم وغرابيلهم وقففهم وختمها بخاتمه المعروف[٣٣] .

● سلطات المحتسب التنفيذية :

تبين المراجع أن القائم بالحسبة كانت له سلطات تنفيذية تطورت بتطور العصور - وذلك لأن مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يصبح عديم الجدوى إذا لم يسانده بعض القوة والزجر . وكانت العقوبات التى يفرضها المحتسب - على المنكرات - تختلف وتتدرج فى الشدة والضعف وفقا لأحوال الناس ، وعلى قدر الجناية .

وشرط المنكر[٣٤] الذى يحاسب المحتسب عليه - أن يفعل علانية على مرأى ومسمع من الناس ، فمن ارتكب معصية خفية فى داره فلا يجوز للمحتسب أن يتجسس عليه[٣٥] ، فلا يجوز له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجرى فى داره[٣٦] ، لا يجوز له ذلك إلا إذا كانت هناك جريمة خلقية مثلا فله فى هذه الحالة أن يتجسس ويبحث خوفا من حدوث نتائج سيئة لا يمكن استدراكها وإصلاحها بعد ذلك[٣٧] .

---

(٣١) نهاية الرتبة ، ص ١٠ - ٣٦ .

(٣٢) معالم القربة ، التحقيق ، ص ٢١٩ .

(٣٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ - ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٣ ٣٣٤ حاشية (٢) التحقيق .

(٣٤) المنكر «هو ما حرمه الشارع أو ما يكرهه ، أو ما استقبحه المسلمون فكرهوه ونفرت منه طباعهم ، وإن لم يأت بتحريمه أو بكراهيته نص خاص ، وعلى ذلك لا يشترط فيه أن يكون معصية لان المعاصى ما جاء دليل بحرمتها» . على الخفيف : مقال عن الحسبة فى أسبوع الفقه الإسلامى ص ٥٨٣ ٥٨٤ .

(٣٥) السنامى : نصاب الاحتساب ، مخطوط ، ص ٨٠ .

(٣٦) الغزالى : إحياء ، جـ ، ص ٢٨٩ .

(٣٧) ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ص ٤٥ .

وبقدر ما تعددت الزوايا التى كان المحتسب يشرف عليها ، فقد تعددت كذلك درجات اصطناعه ، وآداته التنفيذية لألوان ما يراه علاجا وما يقتضيه موقف كل زاوية من زوايا الحياة .

فنراه أولا : بازاء فاعل للمنكر عن جهل - كالمصلى الذى لا يحسن الركوع والسجود مثلا - يأخذه ببيان حكم الله لمن اقترف هذا المنكر ، وأسلوبه فى ذلك التلطف فى القول من غير عنف ، بحيث يستشعر مرتكب المنكر خطأه فلا يعود إلى ارتكابه مرة أخرى .

ثانيا : وإذا كان مقترف المنكر على علم به - كالذى يواظب على شرب الخمر أو على الظلم أو اغتياب المسلمين - [٣٨] فاننا نرى المحتسب يسلك طريق العظة والنصح والتخويف من الله تعالى ، وتكون النصيحة فى السر ، وان لم تجد فتكون فى العلانية[٣٩] ، ونراه عندما يعظه ويخوفه بالله تعالى ، يورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد فى ذلك ، ويحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين وكل ذلك ، ويواجه المحتسب ذلك برحمة ورفق من غير غضب وكأن المعصية معصية الاثنين ، الناصح والمنصوح حتى لا يرى الثانى فى الأول أنه يغتر بعلمه ويريد إذلاله . فانه ان فعل ذلك يكون مثله كمن يخلص غيره من النار باحراق نفسه[٤٠] .

ثالثا : ثم نراه بعد ذلك يسلك طريق التقريع والتعنيف حين لا يجدى اللطف بالقول والعظة الحسنة بازاء المصر المكابر ، فيخاطب مقترف المنكر بهذه الكلمات يا فاسق ، يا أحمق ، يا جاهل ألا تخاف الله .

رابعا : التغيير باليد : ككسر الملاهى ، واراقة الخمر ، ونزع الذهب من أصابع المتحلى به ، وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ، واخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب[٤١] .

خامسا : التهديد والانذار بالعقوبة[٤٢] ، كأن يقول لمن اقترف المنكر : لأفعلن بك كذا وكذا ان لم تنته ، ولكن على المحتسب ألا يسرف فى التهديد حتى لا يكون موضع استخفاف واستهزاء ، ينبغى عليه أيضا ألا يهدد فاعل المنكر بوعيد لايجوز له تحقيقه شرعا كقوله : «لأنهبن دارك ، أو لأسبين زوجتك» ، إذ انه فى سبيل منع المنكر لا يجوز له أن يتوعد بمنكر[٤٣] .

---

(٣٨) الغزالى : إحياء علوم الدين ، ص ٢٨٩ .

(٣٩) السنامى : نصاب الاحتساب ، مخطوط ، ص ٧٥ .

(٤٠) الغزالى : الإحياء جـ٢ ص ٢٨٩ .

(٤١) نفسه ، جـ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٤٢) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢/٢٥ ورقة ٢٢

(٤٣) الغزالى : الإحياء ، جـ٢ ، ص ٢٩١ .

سادسا : وإذا لم يجد فعل اللسان فى تغيير ما كان ، بادر المحتسب بالتغيير باليد - أى بالتعزير[٤٤] ، وأنواع التعزير كثيرة ، وقد أشتهر منها :

التوبيخ ، والحبس ، والنفى ، والضرب ، والقتل ، والغرامة المالية[٤٥] باتلاف المغشوشات[٤٦] . ويقسم الفقهاء[٤٧] العقوبات الشرعية إلى نوعين : -

أولاهما : عقوبات مقدرة وهى العقوبات المنصوص عليها فى القرآن والسنة كقطع اليد فى السرقة وحد السكر ، فاذا عثر المحتسب بشارب الخمر جلده بالسوط أربعين جلدة ، فاذا رأى المصلحة فى جلده الثمانين جلده ، لأن عمر رضى الله عنه جلد شارب الخمر ثمانين جلدة[٤٨] .

ثانيهما : عقوبات غير مقدرة وتسمى التعزير ولا حد لها ، بل تختلف مقاديرها كما تختلف صفاتها بحسب الذنوب ، كبيرا وصغيرا ، ويحسب حال الذنب ، قلة وكثرة ، والغاية منه التأديب واستصلاح حال الناس فمراتب الاحتساب إذن أو ما تتم به الحسبة ، ليست جميعها لكل محتسب ، ولى الحسبة أو لم يولها ، وهى كما قال الامام الغزالى ، وابن تيمية «على درجات ومراتب»[٤٩] لكل مرتبة حال تناسبها ، فلا يجوز لوالى الحسبة أن يلجأ إلى مرتبة غيرها أدنى منها إلا إذا لم تغنه المرتبة التى قبلها شيئا ، وعلم أنها لا تحمل على فعل ما ترك من معروف ، ولا تمنع من منكر ظاهر لأن الغرض من الحسبة ، هو اقامة المعروف فى الناس ، فاذا أمكن أن يقوم بوسيلة كان تجاوزها إلى ماهو أشد منها غير جائز من المحتسب .

ويراعى المحتسب التدرج فى العقوبة ولكنه لو احتاج فى رفع المنكر إلى شهر السلاح والجرح فلا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها[٥٠] . فله ذلك مالم تثر فتنة كما لو قبض فاسق مثلا على امرأة أو كان يضرب بمزمار معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له : خل عنها أو لأرمينك ، فان لم يخل عنها فله أن يرمى وينبغى ألا يقصد المقتل بل الساق والفخذ . وليس للمحتسب استخدام الأعوان وشهر السلاح إذا وجد أن

---

(٤٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ٩/ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٢

(٤٥) الشهاوى : الحسبة فى الإسلام ، ص ١٢٨ .

(٤٦) الغزالى : الإحياء ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠/الجرسيفى : ثلاث رسائل فى الحسبة والمحتسب ، ص ١٢٥ .

(٤٧) الغزالى ، الإحياء ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣/ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ، ص ٣٨ .
انظر العقوبات التى أوردها ابن تيمية بالتفصيل من ص ٤٤ - ٤٨ .

(٤٨) انظر كيفية تطبيق المحتسب الجلد بالتفصيل فى نهاية الرتبة ، ابن بسام ، التحقيق ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٤٩) الإحياء : جـ ٢ ، ص ٢٩٢/الحسبة فى الإسلام ، ص ٣٨ .

(٥٠) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ .

الفاسق سيستخدم أعوانه وسلاحه مما يترتب عليه حدوث مقابلة بين الطرفين واثارة الفتن[٥١] .

وجاء فى القرطبى[٥٢] أن المنكر إذا أمكن إزالته باللسان لم يتجاوز ذلك إلى اليد أو العقوبة ، فان لم يمكن إلا العقوبة أو القتل جاز ذلك إذا كانت طبيعة المنكر المراد منعه تتكافأ مع هذه العقوبة .

ولا شىء أبلغ من عبارة الإمام الغزالى[٥٣] التى قال فيها ان المحتسب «له أن يدفع المنكر بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه .»

وهنا يجب أن نؤكد أن هذه الآراء النظرية كانت تطبق عمليا ، أو كان يطبق معظمها على الأقل ، كما علمنا من واقع المصادر التاريخية .

وللمحتسب الحق وهو يطبق عقوباته أن يتخذ آلات وأدوات ينفذ بها هذه العقوبات . ومن الأدوات الشائعة الاستعمال منذ الوقت المبكر - والتى أشار إلى وجودها الفقهاء المسلمون الذين كتبوا عن الحسبة هى السوط والدرة[٥٤] ، بحيث لا يكون السوط غليظا ولا رقيقا لينا ، بل يكون وسطا حتى لا يؤلم الإنسان ألما كبيرا . ويقال ان «الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه» كان أول من حمل الدرة ، وكان يضرب المستحق بها فى مدة قيامه بأعمال الحسبة وقيل : «وكان عمر كثيرا ما يؤدب الناس بالسوط المشهور بالدرة[٥٥] . ويقول المقريزى :[٥٦] «فى شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة أخذ رجل يعرف بأبى الليث الملطى ينسب إلى التشيع فضرب مائتى سوط ودرة ، ثم ضرب فى شوال خمسمائة سوط ودرة وجعل فى عنقه غل وحبس» .

وأجمع مؤلفو كتب الحسبة على ضرورة تعليق السوط والدرة على دكة المحتسب[٥٧] امعانا فى تأديب أهل الغش والتدليس من ناحية لأنهم عندما يرونها معلقة هكذا ترعب

---

(٥١) الغزالى : الإحياء ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٥٢) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٤ ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ .

(٥٣) الغزالى : نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٥٤) الدرة : بكسر الدال : ويبدو أنها كانت فى أول الأمر بسيطة تتخذ من الجلد المركب بعضه على بعض . الماوردى : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ١٠٤ ، ١٠٦ . ولكن يبدو أنه قد أدخل على صناعتها بعض الإضافات بعد ذلك حتى أصبحت تتكون من جلد البقر أو الحمل وتحشى بنوى التمر . الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٠ .

(٥٥) الكتانى : التراتيب الإدارية ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

(٥٦) الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٤٢ .

(٥٧) يقول المقريزى فى الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ : «وكانت دكة المحتسب بجوار حبس المعونة ومكانها اليوم يعرف بالأبازرة ومكسر الحطب بجوار سوق القصارين والفحامين» .

قلوبهم[٥٨] ، ويزداد خوفهم[٥٩] ، كما تعتبر تقويما للعامة من الاعوجاج[٦٠] من ناحية أخرى .

ونستنتج مما سبق أن عقوبة المحتسب على المخالفين كانت مادية أو غير مادية ، مادية بتوقيع الغرامات فقد كان للمحتسب مصادرة واعدام الأشياء الفاسدة والمحرمة ، وغلق الحانوت ، كما كان له أن يريق اللبن المغشوش ، وأن يحرق الطعام المحتكر بالنار ، وأن يكسر أوانى الخمر ، وأن يرمى الطعام الفاسد على المزابل خارج البلد أو يعدمه[٦١] . أما العقوبات الغير مادية فقد كانت بالنهى أو الوعظ أو الانذار أو الردع أو الزجر أى بالتعزير والتأديب وغيرها من أنواع العقوبات . كما كان له أن يوقع العقوبتين معا .

هذه هى العقوبات الشرعية التى وردت فى كتب الفقه وكتب الحسبة ، وهى مقننات نظرية فى نفس الوقت ، فهل كانت هذه القواعد الشرعية والمقننات النظرية تتفق ومقتضيات الحياة العملية الواقعية ؟ كيف طبقت فى مصر الإسلامية ؟ وما علاقتها بتطور المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ؟

وقد ظهر هذا التطور فى سلطة المحتسب التنفيذية واضحا جليا فى عهود الفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك فى مصر ، وكان التطور يشمل طريقة العقاب نفسها والأداة التى يستعملها المحتسب لتنفيذ هذه الطريقة .

فمن ناحية الطريقة : عاقب محتسبو العصر الفاطمى المخالفين بالتشهير وقد وصف الرحالة الفارسى ناصر خسرو التشهير عند الفاطميين فى هذه السطور : «عندما ظلم تاجر أحد المشترين ، فقد أمر المحتسب بوضعه على جمل ليشهر به فى المدينة ، وقد أعطى للتاجر جرسا بيده ليدقها وهو لايفتأ عن الصياح بصوت عال : غششت وهاأنذا ألقى جزاء كذبى فليقع نفس العقاب على الكذابين»[٦٢] . وقد يأمر المحتسب شاهد الزور بركوب دابة وهو مقلوب أو مسود الوجه[٦٣] .

كما استخدم محتسب الفاطميين أيضا الآلات السابق ذكرها وأهمها «السياط» ، فقد استخدم أعوان المحتسب السياط لضرب جماعة من الطحانين والخبازين فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله[٦٤] .

---

(٥٨) ابن بسام : نهاية الرتبة ، المخطوط ، ورقة ٧٠ .

(٥٩) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٠ .

(٦٠) السنامى : نصاب الاحتساب ، مخطوط ، ص ٩٧ .

(٦١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٥٩ .

(٦٢) سفر نامه : Sefer Nemeh, P. 153.

(٦٣) ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ، ص ٤٨ .

(٦٤) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ١٦ .

وفى صفر سنة أربعمائة شهر جماعة بعد ما ضربوا بسبب بيع الفقاع والملوخيا والترمس . وضرب فى جمادى من هذه السنة جماعة وشهروا بسبب بيع الملوخيا والسمك الذى لا قشر له وشرب المسكرات[٦٥] . (لأن الحاكم قد حرمها) .

أما طريقة الأيوبيين فى العقاب فلم يجد فيها جديدا ، وإنما الجديد فى الأداة ، فكان الشيزرى هو أول من أشار إلى استعمال «الطرطور» فى العقاب بشكل واضح ، وأحقية المحتسب فى استخدامه .

ومن الطريف أن نذكر أنه كان عبارة عن غطاء للرأس طويل ودقيق من أعلى ، وكان يصنع من اللبد وينقش بالخرق الملونة ، ويكلل بالخرز والودع والأجراس وأذناب الثعالب والسنانير[٦٦] ، ويضعه المحتسب على رأس المذنب لتشهيره وتجريسه ، ويظهر أن طريقة استخدامه هذه كانت تسبب خوفا ورعبا شديدين للعامة أيضا ، وكان الطرطور يعلق على دكة المحتسب مع الدرة والسوط .

وقد استحدث فى العصر المماليكى من طرق العقاب التى استخدمها محتسبو هذا العصر ، هذا إلى جانب استخدام العقوبات السالفة ، وادخال بعض التعلايلات على بعض الطرق التى اتبعت قبل ذلك امعانا فى زيادة تحقير المخالفين .

أما التعديلات التى أدخلت فى هذا العصر فى طرق العقاب التى أوقعها المحتسب فهى تعديلات أدخلت على طريقة التشهير والتجريس كما وجدت عقوبتا التسمير والتوسيط التى أصبحت شديدة القسوة ، مع استخدام آلات الضرب المشهورة فى ذلك العصر والتى حدثتنا عنها المصادر وهى المقارع[٦٧] . والجريد ، والنعال[٦٨] إلى جانب استعمال الأدوات السابق ذكرها وهى : السوط والدرة والطرطور .

وعقوبة التشهير : هى عقوبة تقضى بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به فى المدينة ليشهر ، وقد تزفه المغانى وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس حوله ، وفى نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس[٦٩] . ومن أمثلة العقاب الطريفة فى العصر المملوكى

---

(٦٥) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٤٢ .

(٦٦) السنور (الهر) : والأنثى سنورة . مادة سنر . أحمد بن محمد بن على .
المقرىء الفيومى : مصباح المنير فى غريب الشرح الكبير ، جـ ١ ، ص ٤٤٤ ط . المطبعة الأميرية سنة ١٩١٠ .

(٦٧) المقارع : جمع مقرعة ، وهى عبارة عن قطعة غليظة من فرع شجرة ، وكان يصحب الضرب بها ألم شديد ، ولذلك كان بعض السلاطين المماليك يصدرون المراسيم لعدم استعمالها فى الضرب . ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ١٢٩ .

(٦٨) يوسف ضياء الدين : أحكام الاحتساب ، مخطوط ، ص ٥٥ .

(٦٩) عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٤٠١ .

أنه قبض على شخص أعجمى أدخل لحم الكلاب فى صناعة بعض الأطعمة فأحضر بين يدى المحتسب وأمر بضربه واشهاره فى القاهرة والكلب معلق فى رقبته(٧٠) . وقد ذكر أن محتسب القاهرة « شمس الدين البجاسى » قتل جماعة من السوقة تحت الضرب لرفع الأسعار (٧١)وكان محتسب العصر المملوكى يعاقب الأمراء الذين يرفضون بيع الغلة بثمنها المحدد ويتغالون فى الأسعار بالضرب بالمقارع ، وكان يهددهم بأن من عنده غلة ولم يبعها نهبت(٧٢) ، أو تعرض لمصادرة أمواله(٧٣) .

ويحكى ابن حجر أنه فى سنة ٧٧٥ «لازم شخص من العوام الصياح تحت القلعة :» اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم « فأخذ وضرب بالمقارع وشهر .»(٧٤) .

أما عقوبة التسمير : فهى عقوبة تقضى بتعرية المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ، وتدق أعضاؤه فى الخشب بواسطة مسامير غلاظ(٧٥) .

وكذلك التوسيط : عقوبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف ، على أن تكون الضربة قوية تحت السرة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتنهار أمعاء المحكوم عليه إلى الأرض(٧٦) .

ويبدو أن هاتين العقوبتين الأخرتين لم يمارسهما المحتسب ولم تدخلا فى اختصاص سلطاته بل كانتا من اختصاص السلطان أو الوالى وكانتا توقع على من اقترف ذنبا كبيرا . فيحكى ابن حجر أنه فى حوادث سنة ٧٨٥(٧٧) « قام جماعة على السلطان برقوق أرادوا نزعه

---

(٧٠) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٨١ .

(٧١) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢٥ ، ورقة ٢٠٨/المقريزى : السلوك جـ ٣ مجلد ١ مخطوط لوحة ٤٤ .

(٧٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

ويبدو أن الضرب بالمقارع كان عقاباً شائعاً فى ذلك العصر فيحكى ابن حجر أن السلطان برقوق عندما بلغه أن شخصاً سعى للوزارة بمساعدة أحد الفقهاء المقربين لأحد الأمراء . فأمر باستدعاء هذا المذكور وضرب بحضرته بالمقارع ، وضرب معه هذا الفقيه وجرسا بطراطير ، ونودى عليهما «هذا جزاء من يتحدث فيما لا يعنيه» أنباء جـ ١ التحقيق ص ١٩٥ - ١٩٦ حوادث سنة ٧٨١ . ويورد ابن حجر أمثلة كثيرة للضرب بالمقارع فى جـ ١ صفحات من ١٧٥ - ١٩٤ .

(٧٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٤٠٩ .

(٧٤) ابن حجر : أنباء ، جـ ١ ، ص ٦١ التحقيق .

(٧٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٤/عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٠١ .

(٧٦) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٤ . وهى وسيلة القطع نصفين أو التوسط بالسيف نصفين :/عاشور - العصر المماليكى ، ص ٤٠٢ .

(٧٧) ابن حجر ، أنباء ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ ، ٤٧١ التحقيق .

من الملك ، فأمر السلطان بتسميرهم وطاف بهم والى القاهرة فى مصر والقاهرة ، ثم أمر بتوسيطهما » .

« وفى سنة ٧٩٨ ثمان وتسعين وسبعمائة ازداد الغلاء إلى أن سمر الوالى جماعة من الطحانين وضرب المحتسب أربعة منهم بالسياط وشهرهم[٧٨] .

ولم تحدد المراجع مكانا معينا يمارس فيه محتسب مصر سلطاته التنفيذية ، والراجح أن العقوبات كانت تنفذ فى المكان نفسه الذى يحدث فيه الغش سواء فى الأسواق أوعلى أبواب الحوانيت .

وتذكر المراجع أن محتسب المغرب كان ينفذ عقوباته فى المسجد ، فالتأديب الخفيف كان يقوم به المحتسب فى المسجد ، أما إذا أراد اقامة حد من الحدود فى المخالفات الكبيرة خرج من المسجد تنزيها له[٧٩] .

● مدى توفيق المحتسب فى اجراء هذه العقوبات :

والآن نتساءل عن مدى توفيق المحتسب فى اجراء هذه العقوبات ، هل كانت عقوبات رادعة بحيث كانت تقضى - أو تقلل - على الغش أو الخطأ أو الكذب ؟ أم أن هذا وذاك كان يتكرر حتى بعد تطبيق أشد العقوبات ؟

والراجح أن هذه العقوبات لم تكن رادعة ، ولم تضع حدا للغش والكذب والخطأ ، والا فما الداعى لاستحداث عقوبات أشد منها ، الا أنها كانت تترك تأثيرا وقتيا فقط على الرغم من قسوتها وشدتها ، وعلى الرغم مما كانت تسببه فى بعض الأحيان من فضائح للتجار ، الا أن هؤلاء التجار كانوا يكررون الأخطاء بصورة أخرى ، بل ويتفننون أحيانا فى استحداث أنواع الغش الجديدة ، أو أحيانا باتباع حيل جديدة للخروج من المآزق .

ويبرز المستشرق الدكتور فالتربر ناور هذا الرأى فى مقالته التى كتبها عن الشرطة والحسبة فى العصر المملوكى[٨٠] بقوله :

« ان الوالى يقوم بملاحظة الموازين والمكاييل والمقاييس ، وأن تكون شدة بطشه وبأسه ونفوذه واقتداره فى هذا المعنى مطلقة لاحد لها بحيث إذا حصل خسران قليل فى ميزان خبز أو لحم أو غيره يجلد من ارتكب الخسران خمسمائة جلدة ، وقد يعاقب بقصاص القتل فى بعض الأحيان ، ويتكرر مثل هذه الجزاءات المرة بعد المرة بالمدن الكبيرة الشهيرة ، ومع ذلك

---

(٧٨) ابن حجر : أنباء ، جـ ١ ، التحقيق ، ص ٥٠٧ .

(٧٩) الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، جـ ٢ ، ص ٥٥ - ٥٩ .

(٨٠) نشرت هذه المقالة بمجلة روضة المدارس العدد ١٨ مجلد ٣ ص ٧ - ٨ .

فكان لا يخلو البيع بالنقص والزائد فى أى بلدة كانت . وكان يتخلص أهل السوق من هذا القصاص بحيلة وهى أنهم يعملون اتفاقا ومشارطة مع الخدمة الذين يمشون أمام الوالى والمحتسب ، ويجعلون لهم جعلا لتطمئن به قلوبهم من الجزاء .

ونستنتج من النص السابق أن المحتسب كان يساعد الوالى أو العكس فى بعض الأحيان فى الحاق العقوبات بالمخالفين ، كما نستنتج أن هذه العقوبات قد تصل إلى درجة بعيدة المدى كما هو موضح .

كما نلاحظ من النص أيضا تكرر هذه العقوبات دائما ، وذلك دليل على تكرر الغش ، وأنه رغم وجود مثل هذه الجزاءات البالغة نجد التجار يبذلون قصارى جهودهم للتخلص من الجزاءات والفرار من يد العدالة بطرق وحيل جديدة ، هى دفع رشوة للخدم ، مما يؤدى إلى زيادة الغش والخداع .

أما عن سلطة المحتسب القضائية فهناك تفصيلها فى الفصل الخاص بالحسبة والقضاء .

الباب الخامس

وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجالات المختلفة

وينقسم إلى ثلاثة فصول :

- **الفصل الأول :** وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الدينى
- **الفصل الثانى :** وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الإقتصادى والاجتماعى
- **الفصل الثالث :** وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الصحى .

الفصـــل الأول

وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الدينى

أوضحنا فى مستهل بحثنا الأساس الدينى للحسبة ، وما تقوم عليه من فكرة العدالة فى الإسلام ، ومكانة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى القرآن الكريم ثم فى السنة الشريفة [1] وأن المجتمع الاسلامى لم يركن إلى التعاليم الدينية - كما ذكرنا - بل بادر بتطبيقها عمليا .

وأول المصادر التى كتبت عن الحسبة - فى العالم الاسلامى - كانت لفقهاء مثل الماوردى ، وأبى يعلى ، والغزالى . فمعظم المصادر التى تحدثت عن الحسبة - دون استثناء تقريبا - اعتبرتها وظيفة دينية أساسها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . [2] وقد رتبها بعض المؤرخين المتأخرين ضمن وظائف الدولة الدينية ، فجعلها ابن خلدون فى المرتبة الخامسة ضمن الوظائف الدينية بعد الصلاة ، والفتيا ، والقضاء ، والجهاد[3] .

أما القلقشندى فجعلها ثالثة الوظائف الدينية بعد قضاء العسكر ، وافتاء دار العدل[4] .

وأول مادة تصادفنا فى المراجع التاريخية عن نشاط المحتسب فى المجالات الدينية فى مصر كانت لمحتسب العصر الفاطمى ، فقد كان محتسب هذا العصر مكلفا بتنفيذ النظم الدينية الفاطمية (الشيعية) كمراقبة الصلاة ، والآذان ، والاحتفالات الدينية فى شهر رمضان ، ومنع شرب الخمر والمسكرات ، ومنع النساء من السير خلف الجنازات ، والاشراف الدينى على الحمامات[5] .

---

(١) راجع الحسبة فى الشرع وأساسها الدينى ص ٣، وما بعدها من الكتاب

(٢) راجع ذلك فى تعريف الحسبة الشرعى . ص ٣٧ .

(٣) المقدمة ، جـ ١ ، ص ١٩٥ (توفى ابن خلدون سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) . .

(٤) جـ ١١ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ (توفى القلقشندى سنة ٨٢٠هـ) .

(٥) انظر الحسبة فى عهد الفاطميين ص ٧٠ وما بعدها من الكتاب .

أما محتسب العصر الأيوبي والمملوكي فقد كانا مكلفين باحياء السنة[٦] ، وكان لهما نشاط ديني واسع للغاية ، وأصبح يشترط فيمن يتولى وظيفة الحسبة شروط خاصة يرتبط أغلبها بضرورة معرفة أحكام الشريعة والقوانين السنية[٧] .

والواقع فعلا فى تاريخ مصر الاسلامية أن هذه الشروط النظرية لم تكن دائما موضع التنفيذ . فيحكى ابن حجر[٨] فى حوادث سنة ٧٨١ هـ/١٣٧٩ م أن المحتسب جمال الدين أحضر بعض المشايخ المشهورين فى عهده - إلى منزله - ليقرأ عليهم الحديث . ولكن فى سنة ٨١٠ هـ تولى « محمد بن الشاذلى » الحسبة وكان كما ذكر ابن حجر : عريا من العلم حرد فوشيا[٩] .

وكانت وظيفة الحسبة تتعلق أولا وأخيرا بأحكام الإسلام فى كثير من أمورها وبتنفيذ تعاليمه .

فكان المحتسب يقصد مجالس الولاة والأمراء يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويأمرهم بالشفقة على الرعية والإحسان اليهم . ويذكرهم بما ورد فى ذلك من الأحاديث عن النبى (صلعم) وكان فى وعظه وقوله ردع لهم عن الظلم ، وكان كلامه وقوله لهم ظريفا لينا بشوشا[١٠] .

ولم تمنع علو مرتبة القاضى من انكار المحتسب عليه ما يقصر فيه ، فكان ينكر عليه إذا كان من فئة القضاة الذين يحجبون الخصوم إذا قصدوهم ، ويمتنعون عن النظر بين المتخاصمين إذا تحاكموا حتى تقف الأحكام ويتضايق الخصوم وكان يأخذ - مع ارتفاع

---

(٦) الشيزرى : نفس المرجع ، ص ٨ ، المقريزى : السلوك جـ ٣/١ ، ص ٩٤٠ ، ٩٤١ .

(٧) الشيزرى : نفس المرجع ، ص ٨ .

(٨) جـ ١ ، ص ١٩٦ التحقيق .

كما كان يشترط أن يكون «مواظباً على سنن رسول الله ﷺ من قص الشارب ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظافر ، فإن هذا يزيد فى احترامه وتوقيره ، وأنفى للطعن فى دينه» . وقد حكى أن رجلاً حضر إلى السلطان محمود بن الغزنوى يطلب منه الحسبة فى غزنة ، فرأى شاربه قد غطى فاه من طوله ، وأذياله تسحب على الأرض ، فقال له : يا شيخ اذهب فاحتسب على نفسك ، ثم عد واطلب الحسبة على الناس . ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٣ .

(٩) حرد فوشى : حرفوش : وجمعه حرافيش أو حرافشه ، أى الرعاع والدهماء وضعاف الخلق انظر : Dozy: Supp. Dict. Ar. / عاشور : العصر المماليكى ص ٤٠٨ .

أنباء جـ ٢ ، مخطوط حوادث سنة ٨١٠هـ

(١٠) الغزالى : الإحياء ، جـ ٢ ، ص ٣٠٠/الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ص ٨٥/العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢٥ القسم ١ ورقة ٢٧ .

الأعذار - بما ندب له من النظر بين المتحاكمين وفصل القضايا بين المتشاجرين[11] .

ومتى رأى المحتسب رجلا فى مجلس الحكم لا ينطاع إلى الحاكم ولا ينقاد لحكمه عزره ، ومتى رأى القاضى قد اشتط على رجل بالغيظ وشتمه أو احتد عليه بالكلام ردعه عن ذلك ووعظه وخوفه من الله تعالى ، فإن القاضى لا يجوز له أن يحكم وهو غضبان ، ولا وهو جوعان ، ولا يقول هزلا ، ولا يكون فظا غليظا وكذلك أعوانه ونوابه[12] كذلك ينكر المحتسب على القاضى إذا قبل الرشوة والمهاداة[13] .

ولم يتخذ المحتسب هذه السلطة فى مصر الا - أحيانا - فى عصر الأيوبيين والمماليك وان أعوزتنا النصوص العملية الدالة على ذلك ، ولكن مؤرخى الحسبة فى المشرق استعانوا بأمثلة عملية لمحتسبى بغداد ، وقد نقل مؤرخو الحسبة فى مصر هذه الأمثلة بعينها .

كما كان المحتسب يطبق قوانين الشريعة الإسلامية على الأشخاص الذين يفطرون فى شهر رمضان ، وعلى النساء المطلقات اللائى لا يراعين العدة قبل زواجهن للمرة الثانية ، ويلزم هؤلاء جميعا أن يتقدموا له بتفسير لموقفهم[14] .

وقد بلغ من سلطة المحتسب الدينية فى العصر المملوكى أنه فى (سنة ٧٨٩ هـ/ ١٣٨٧ م) فى تاسع رجب منه أمر بطلب ذوى الأموال واستخراج زكاتها منهم[15]

وهنا يجدر بنا أن نتساءل هل بدأ المحتسب يأخذ بعض اختصاصات عامل الخراج ؟ وهو أن يجمع جزءا من الضرائب المفروضة على المصريين ، ومن بينها الزكاة ، التى فرضت على المسلمين بعد الفتح العربى ؟ ونحن نعرف أنه كان فى مصر منذ فجر الإسلام عامل على الخراج يجمع الأموال ويسلم الأهالى ايصالا أو براءة بعد تأدية ما يجب عليهم من زكاة

---

(١١) ومما يروى فى هذا المجال أن «ابراهيم بن بطحاء والى الحسبة ببغداد مر على دار «عمر بن حماد» وهو يومئذ قاضى القضاة ببغداد ، فرأى الخصوم جالسين على بابه ينتظرون خروجه للنظر بينهم وقد تعالى النهار وهجرت الشمس ، فوقف المحتسب واستدعى حاجبه وقال له : «عليك أن تقول لقاضى القضاة ، الخصوم جلوس على الباب وقد بلغتهم الشمس ، وتأذوا بالانتظار ، فإما جلست لهم ، أو عرفتهم عذرك فينصرفوا ويعودوا» .

الماوردى : الأحكام ، ص ٢٥٧/أبى يعلى : الأحكام : ص ٢٨٩ .

(١٢) الماوردى : الأحكام ، ص ٢٥٧/الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١٣ - ١١٥/

ابن الأخوة : معالم : المخطوط ورقة ١٣٢ : ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ورقة ٢٧ .

(١٣) العينى : عقد الجمان ، مخطوط جـ ٢٥/١ ورقة ٢٧/السنامى : نصاب الاحتساب مخطوط ، ص ٢١ .

(١٤) الماوردى : الأحكام ، ص ٢٤٧/

Ency of Isl. Art. Muhtasib.

(١٥) ابن حجر : أنباء التحقيق ، جـ ١ ، ص ٣٣٧ .

بمقتضى الشريعة الإسلامية[16] . واستمرت وظيفته قائمة فى مختلف العصور الإسلامية[17] .

حرص المحتسب على تنفيذ تعاليم الإسلام ، ومعاقبة المخالفين والمرتدين . وقد جاء في سجل تولية محتسب العصر المملوكى عن دور المحتسب فى هذا المجال : (فابدأ أولا بالنظر فى العقائد واهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية الذى هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هى السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموه ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ومن عداهم شعب دانوا أديانا ، وعبدوا من الأهواء أوثانا ، واتبعوا مالم ينزل به الله سلطانا ، . . فمن انتهى من هؤلاء إلى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولا ولا تقبل منه حرفا ولله عدلا ، وليكن قتله على رؤوس الأشهاد ، ما بين حاضر وباد ، فما تكدرت الشرائع بمثل فعالته ، ولا تدنست علومها بمثل أثر جهالته . . . وما تجده من كتبها التى هى سموم . . . لا علوم ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ، ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد فى تتبع آثارها ، والكشف عن مكامن أسرارها فمن وجدت فى بيته فليؤخذ جهارا ولينكل بها اشهارا ، وليقل هذا جزاء من استكبر استكبارا ولم يرج الله وقارا . . .)[18] .

ولكن يبدو أن المحتسب لم ينفذ هذه العقوبات - التى أشارت إليها الوصية - بحذافيرها بل خفف من أمرها بعض الشىء على المرتدين . فيحكى ابن حجر[19] فى حوادث سنة ٧٨١ هـ/١٣٧٩ م جاء رجل جندى إلى الصالحية ، فنزل عن فرسه فسأل عن القاضى المالكى وقال أريد أن تطهرونى فإنى مرتد عن الإسلام فأمسك وأحضر إلى « جمال الدين » المحتسب فضربه وسجنه .

كذلك يردف ابن حجر فى السنة عينها الأمر التالى : أوائل رجب شاع بين الناس أن شخصا يتكلم من وراء الحائط فافتتن الناس به ، واستمر ذلك فى رجب وشعبان واعتقدوا أن المتكلم من الجن والملائكة ، ثم تتبع جمال الدين المحتسب[20] القصة وبحث عن

---

(١٦) لدينا إيصال يرجع إلى القرن الثانى الهجرى (سنة ١٤٨هـ) عن زكاة بعض الأشخاص .
Grohmann: Arabic Papyri Vol III.

أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ٤١ .

(١٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، التحقيق ، ص ٧٧ ، ٧٩ . /
الذهبى : تاريخ الإسلام ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٤٢ تاريخ جـ ١٠ ، ص ٢ ، من سنة ٢٥١هـ - ٣٠٠هـ .

(١٨) ابن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، جـ ٢ ، ص ٦٨٦ التحقيق ، ط القاهرة ١٩٦٠ .

(١٩) أنباء ، التحقيق ، جـ ١ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢٠) وكان إذ ذاك «محمود القيصرى العجمى» انظر ابن حجر : أنباء ، التحقيق ، جـ ١ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ حوادث سنة ٧٨١هـ .

القضية إلى أن وقف على حقيقتها فتوجه أولا إلى البيت فسمع كلاما من الجدار ، وأمر بتخريب الدار وخربت ، ثم عاد الناس فسمعوا الكلام من وراء الحائط ، فضربوا بالمقارع ، وخلع على جمال الدين بسبب ذلك ، ولكنهم عادوا إلى ذلك ، فنهاهم المحتسب ، ثم بلغه أنهم عادوا ، فلم يزل المحتسب يبحث حتى عرف باطن الأمر ، وهو أنه وجد شخصا يقال له الشيخ ركن الدين عمر مع آخر يقال له أحمد الفيش قد تواطأ على ذلك ، وصارا يلقنان زوج أحمد الفيش ما تتكلم به من وراء الحائط من قرعه ، فيصير الصوت مستغربا لا يشبه صوت الآدميين ، فأنهى الأمر إلى برقوق فسمرهم بعد ضرب الرجلين بالمقارع والمرأة تحت رجليها ، وحصل لكثير من الناس عليهم ألم عظيم ، وخلع على جمال الدين المحتسب خلعة بسبب ذلك .

وقيل ان أصل ذلك أن المرأة كانت تغار من زوجها ، فرتبت مع الشيخ عمر أن يتكلم لها من وراء الحائط من القرعة وينهاه عن أذاها ، فثقب الحائط إلى أن لم يصر منها سوى قشرة وركب القرعة وتكلم من ورائها ، فقال له فى الليل بذلك الصوت المنكر : يا أحمد اتق الله وعاشر زوجتك بالمعروف فإنها امرأة صالحة وكرر ذلك ، فارتاع الرجل وصالحها . فلما طالت المدة وتراضيا أطلعته المرأة على الحيلة ، فانفتح لهم دكان تحصيل ، فصار الناس يهرعون إلى بيت أحمد الفيشى ليسمعوا الكلام ، واستقرت المرأة هى التى تتكلم وأعان المحتسب على الاطلاع على أمرهم أن الكلام الذى كان يسمع ليس فيه اخبار عن مغيب ولا عن حادث يأتى . . .[21]

كذلك يحكى ابن حجر[22] أنه فى أوائل ذى القعدة من سنة ٧٨١ هـ/١٣٧٩ م ادعى على الشيخ زين الدين عمر بن مسلم القرشى الواعظ أنه مجسم[23] ، وشهد عليه جماعة بكلام قاله يتعلق بالصفات ، فرسم عليه جمال الدين المحتسب ، فقام القاضى برهان الدين بن جماعة فى أمره إلى أن أطلق بعد ستة أشهر .

---

(٢١) ابن حجر : أنباء جـ ١ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، حوادث سنة ٧٨١ تحقيق .

(٢٢) أنباء التحقيق ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

(٢٣) المجسمة : فرق عديدة منهم الكرامية ، وزعيمها هو «محمد بن كرام» وضلالات أتباعه متنوعة وأشهرها قبحاً أن ابن كرام دعا أتباعه إلى تجسيم معبوده ، وزعم أنه جسم له حد ونهاية من تحته والجهة التى منها يلاقى عرشه . وقد وصف ابن كرام معبوده فى بعض كتبه بأنه جوهر ، وأتباعه اليوم لا يبوحون بإطلاق لفظ الجوهر على الله تعالى عند العامة خوفاً من الشناعة عند الإشاعة . وإطلاقهم عليه اسم الجسم أشنع من اسم الجوهر . وقد ذكر ابن كرام فى كتابه أن الله تعالى مماس لعرشه وأن العرش مكان له وأبدل أصحابه . وزعم ابن كرام وأتباعه أن معبودهم محال للحوادث وزعموا أن أقواله وإراداته وإدراكاته للمرئيات وإدراكاته للمسموعات وملاقاته للصحيفة العليا من العالم أعراض حادثة فيه وهو محل لتلك الحوادث الحادثة فيه» .

البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

انظر الفصل السابع والثامن من ص ٢٠٢ إلى ٢٢٠ .

ومن أبرز أعمال المحتسب الدينية اشرافه على المساجد من حيث :

١) عمارتها . ٢) نظافتها وصيانتها . ٣) توفر شروط الصلاحية فى الأئمة ، والمؤذنين ، والوعاظ ، والقومة وقيامهم بأعمالهم على الوجه الصحيح :

● المحتسب وعمارة الأزهر :

كان للمحتسب سلطات دينية خاصة بالإشراف على بناء العمائر الدينية وتجديدها ، ففى سنة ٧٢٥ هـ جددت عمارة الجامع الأزهر على يد محتسب القاهرة محمد بن حسين الأسعردى(٢٤) .

وفى (سنة ٧٨٥ هـ/١٣٨٣ م) ، أمر السلطان برقوق جمال الدين المحتسب أن يتحدث فى الأوقاف الحكمية فتحدث فيها ، فشق ذلك على القاضى الشافعى ، فتحدث مع أوحد الدين فراجع السلطان فقال السلطان : أنا ما وليت جمال الدين وعزلت الشافعى . وإنما أمرته أن يتحدث معه فى عمارة ما تهدم ، . . . . وسأل المحتسب السلطان أن يكون الأمير « قديد » معه فى العمارة . وبالغ من بيده شئ من الأوقاف فى اصلاحه خوفا من الاهانة(٢٥) .

وفى (سنة ٧٨٠ هـ/١٣٧٨ م) تحدث بركة(٢٦) فى نظر الأوقاف وتكلم معه فيها جمال الدين المحتسب ، وانتزعوا جميع الأوقاف من الشافعى حتى جامع أحمد بن طولون وذلك فى شهر رجب(٢٧) .

● المحتسب والصلاة :

وكان المحتسب ينادي الناس للاجتماع لصلاة الجمعة ، ويراقبهم عند أوقات الآذان فى الأسواق ، «فمن شغل عن الصلاة بتمييز مكسبه ، أو لهي عنها بالاقبال على لهوه ولعبه فخذه بالآلة العمرية(٢٨) ، التى تضع من قدره وتذيقه وبال أمره»(٢٩) .

---

(٢٤) K. Vollers. Ency Isl P. 184.
عن المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧

(٢٥) ابن حجر : أنباء ، جـ ١ ، ص ٢٧٣

(٢٦) الذى كان يتولى وظيفة أمير المجلس من قبل . ويتولى صاحب هذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير ، كما كان يتحدث مع الأطباء والكحالين ومن شاكلهم .
القلقشندى : صبح ، جـ ٤ ، ص ١٨ ، جـ ٥ ، ص ٤٥٥ ، عاشور العصر المماليكى ، ص ٣٩٣ .

(٢٧) ابن حجر : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٧٣ .

(٢٨) يقصد بها الآلة التى كان يستعملها الخليفة عمر بن الخطاب فى عقاب المخالفين له أثناء قيامه بأعمال الحسبة وهى «السوط والدرة» الكتانى : التراتيب الإدراية ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

(٢٩) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٦ .

ولشدة محافظة المحتسب على الصلاة وترغيب الناس بآدائها «رتب نجم الدين الطنبدى (لدى)[٣٠] المحتسب من فقراء الفقهاء من يعلم أصحاب الدكاكين من العامة الفاتحة وفرائض الصلاة . وذلك فى سنة ٧٩٠ هـ[٣١]/١٣٨٨م»

● المحتسب وصيانة المسجد :

وكان المسجد الجامع فى مصر على عهد الطولونيين يغلق بعد صلاة العشاء ، لأن بيت المال كان فيه[٣٢] ، وفى (سنة ٢٩٤ هـ/٩٠٦ م) أمر والى مصر باغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات ، فكان يفتح فى أوقات الصلوات فقط ، فضج الناس من ذلك ، حتى فتح لهم [٣٣] .

والمساجد بحكم العادة والتقاليد يجوز أن تكون مأوى لمن لا يجد له مسكناً وللمسافرين والمتعبدين ، وكانت المساجد أشبه ما تكون بنواد يجتمع فيها الناس ، حيث كان القاضى يجلس فيه للحكم بين الناس ، وحيث كان العلماء يعقدون حلقات التدريس[٣٤] .

وقد تجاوز القوم المعقول وما يتمشى مع الدين فأساءوا استعمال المساجد ، فكانوا يأكلون أو يشربون[٣٥] أو يدخلها حواة[٣٦] ، ولذلك كان من أهم أعمال المحتسب الحفاظ على حرمة المساجد فى العصرين الأيوبى والمملوكى .

وكان المحتسب يشرف على الجوامع والمساجد ويأمر قومتها بكنسها وتنظيفها فى كل يوم من الأوساخ ونفض الحصر من الغبار ، ومسح حيطانها وغسل قناديلها واشعالها بالوقود فى كل ليلة ، ويلزم بغلق أبوابها عقب الصلوات وصيانتها من الصبيان والمجانين وممن يأكل

---

(٣٠) وضعنا هذه الكلمة بين قوسين فالراجح أنها زائدة فى النص أو موضوعة سهواً ، لأننا تحققنا أن المحتسب فى هذا الوقت كان هو نجم الدين الطنبوى نفسه ، وهو الذى رتب الفقهاء المشار إليهم فى النص . ابن حجر : أنباء ، جـ ١ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨

(٣١) ابن حجر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٥٢ .
راجع الماوردى ، الأحكام ، ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٣٢) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ١١٦ ، /ميتز الحضارة ، جـ ٢ ، ص ١١٦

(٣٣) الكندى ، الولاة ، ص ٢٦٦ .

(٣٤) ميتز : الحضارة ، جـ ٢ ، ص ١١٧ .

(٣٥) انظر : المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٥ : التنوخى : الفرج بعد الشدة ، جـ ٢ ، ص ١١٠ . راجع المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣١٩ .

(٣٦) راجع المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣١٩ .
أنظر موقف السنيين وشدتهم للحفاظ على حرمة المساجد أبى المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٨٧ ط ليدن/ميتز/الحضارة ، جـ ٢ ، ص ١١٧ حاشية (٣) .

فيها الطعام وينام أو يعمل صناعة أو يبيع فيها سلعة أو ينشد فيها ضالة أو يجلس فيها لحديث الدنيا فجميع ذلك ورد الشرع بتنزيه المساجد عنه وكراهية فعله(٣٧) .

ويلغ من شدة محافظة المحتسب على المساجد وصيانته لها أنه كان يمنع القضاة من الجلوس فيها للحكم بين الناس لأنه ربما دخل عليهم الرجل الجنب والمرأة الحائض ، والذمى ، والصبى ، والمجنون والحافى ، ومن لا يحترز من النجاسة ، وقد يؤدى ازدحام الناس إلى كثرة منازعاتهم ، وترتفع الأصوات ، وكل ذلك قد ورد فى الشرع النهى عنه . وقد حكى فى هذا المجال أن الخليفة المستظهر بالله ولى الحسبة رجلاً من أصحاب الشافعى ببغداد ، فنزل الرجل إلى جامع المنصور فوجد قاضى القضاة يحكم بين الناس فيه فقال له ! «سلام عليكم ، قال الله : الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور . وقد مكن الله تعالى خليفته المستظهر بالله فى أرضه ويسط يده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد جعلنى واياك نائبين عنه فى ذلك قائمين فى رعيته بحدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، ونحن أولى ممن يعمل بحدوده ، ولزوم ما أمر به واجتناب ما نهى عنه لتقتدى بنا العامة ، فنحن ملح البلد نصلح ما فسد من أحوال العامة ، فإذا فسد الملح فمن يصلحه ؟ ومجلسك هذا لا يصلح فى الجامع . أما سمعت قول الله تعالى «فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة» . وليس فى هذا الذى أنت فيه شىء من ذلك ، وأنه ليدخل اليك المرأة لتحتكم مع بعلها ومعها الطفل فيتبول على الحصر ، وأن الرجل ليمشى على النجاسة والقذر ويدوس الحصر بنعله ، وأن الأصوات ترتفع باللغط خارج حلقتك ، وربما دخل اليك الجنب والحايض فجميع ذلك أمرنا نبينا باجتنابه فاجلس فى وسط البلد بحيث لا يشق على الناس القصد اليك والسلام . فنهض القاضى من وقته ولم يعد يجلس فى الجامع للقضاء»(٣٨) .

● **المحتسب وامام المسجد :**

وكان المحتسب يراعى أن يكون امام المسجد ممن تتوافر فيه الشروط التالية :

(١) أن يكون رجلا عاقلا قارئا فقيها سليم اللفظ .
(٢) لا بد أن يكون حافظا للقرآن الكريم .
(٣) يلبس الامام اللباس الأبيض ، وإذا لبس الأسود فللمحتسب أن ينكر عليه لأن البياض محبب إلى الله .

---

(٣٧) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١١ - ١١٣/معالم ، ص ١٧٢ .

(٣٨) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١٣ - ١١٥/ابن الأخوة : معالم القربة ، ص ١٧٢ تحقيق/ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٧ .

ويظهر أن اللون الأبيض كان هو شعار العصر الـذى يتحدث عنـه الشيزرى وابن الأخوة .

(٤) «وكان المحتسب ينكر على أئمة المساجد والجوامع من يطيل الصلاة حتى يعجز عنها الضعيف وينقطع بها ذو الحاجات عن حاجاته»(٣٩) .

(٥) وقد أشارت بعض مراجع الحسبة إلى أنه لا يجوز للامام أخذ الأجرة على الصلوات والامامة لأنه حرام(٤٠) .

ويبدو أن هذا كان كلاماً نظرياً فقط ولا يمكن أن يحدث بالفعل فمن غير المعقول ألا يأخذ الامام أجراً على عمله الذى قام به بالفعل والا فمن أين كان يتعيش لاسيما وأنهم أجازوا للمؤذن أخذ الأجرة على الآذان(٤١) .

● المحتسب والمؤذن : -

وكان المحتسب يختار مؤذن المسجد مسلماً عاقلا ذكراً فلا يصح أذان كافر أو امرأة أو مجنون أو سكران ، ويصح أذان الصبى المميز .

ويمتحن المحتسب مؤذن المسجد فى معرفة الأوقات ، فمن لم يعرف منهم الأوقات منعه المحتسب من الآذان حتى يعرفها تماماً ، لأنه ربما أذن فى غير الوقت فأفطر الصائم ، أو جعل الناس تصلى قبل الوقت فلا تصح صلاتهم ، وبذلك يكون هو السبب فى إفساد صلاة الناس(٤٢) .

كما «يمتحن المحتسب مؤذن المسجد فى معرفته ترتيب كلمات الآذان ، ولابد أن يكون قد قرأ بـاب الأذان والاقـامـة فى كتب الفقـه(٤٣) ، ويستحب أن يكـون المؤذن حسن الصوت . وينهاه المحتسب عن التغنى فى الآذان وهو التمطيط (التطويل) والتطريب ، ويأمره عندما يصعد المنارة أن يغض بصره عن النظر إلى حريم الناس ودورهم ، ويأخذ عليه العهد بذلك . ولا يصعد إلى المنارة غير المؤذن فى أوقات الصلوات(٤٤) .

---

(٣٩) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١٣ - ١١٥/ابن الأخوة : معالم القربة ص ١٧٣ .

(٤٠) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٦/ابن الأخوة : معالم ، ص ١٧٨ .

(٤١) هذا والأحناف يسمحون بأن يأخذ الإمام أجراً على ذلك مع الكراهة . الفقه على المذاهب الأربعة ، ص ٢٢٦ .

(٤٢) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٦ .

(٤٣) انظر مبحث القيام فى الفقه على المذاهب الأربعة ص ١١٢ ، ومبحث الأذان ص ١٥٨ وما بعدها .

(٤٤) ابن الأخوة : معالم ، ص ١٧٦ .

أما فى ليالى رمضان فيلزم المحتسب المؤذن أن يزيد فى التذكار والتسبيح ، وينادى بالسحور أولا ، ثم يشرب الماء ، ثم ينادى قرب آذان الفجر ، ثم يطفىء الفانوس ، ثم يؤذن . ومن المكروه تكثير الأذان مرة بعد أخرى فى مسجد واحد فى وقت واحد .

ويراعى أن يخرج الصوت عن المسجد حتى يبلغ غير من فى المسجد(٤٥) .

«وفى سنة ٧٩١ هـ/١٣٨٩م ، فى أول شعبان منه أمر نجم الدين الطنبدى المحتسب أن يزاد بعد كل أذان : الصلاة على النبى ﷺ ، كما يصنع ذلك فى ليلة الجمعة بعد العشاء ، فصنعوا ذلك الا فى المغرب لضيق وقتها بزعمهم(٤٦)» .

● **المحتسب والوعاظ والقراء :**

ولا يمكن المحتسب لمن يعمل فى هذه الرتبة الشريفة إلا من اشتهر بين الناس بالدين والخير والفضيلة ، ومن يكون عالماً بالعلوم الشرعية ، وعلم الأدب ، حافظا لكتاب الله ولأحاديث النبى ﷺ ، وأخبار الصالحين ، وحكايات المتقدمين . وكان المحتسب يمتحن الواعظ فى هذه الأمور ، فمن أجابها أجاز له العمل ، ومن لم يجبها منع من ذلك ، وإذا نهاه المحتسب عن ذلك وعاد إلى عمله عزر(٤٧) .

وكان المحتسب يأمر أهل القرآن بقراءته مرتلا(٤٨) ، كما أمر الله سبحانه وتعالى ، وينهاهم عن تلحينه كما تلحن الأغانى والأشعار فقد نهى الشرع عن ذلك(٤٩) .

«ونهى المحتسب نجم الدين الطنبدى - فى سنة ٧٩٠ هـ قراء المواعيد والوعاظ عن التهنيك ، وأمرهم أن يبدلوه بالصلاة والسلام على النبى ﷺ(٥٠)» .

● **المحتسب وقومة المساجد :**

«وكان المحتسب يأمر القومة على المساجد ، أن يقفوا على أبواب الجامع يوم الجمعة ، ويمنعوا الصعاليك من الدخول ، ففى دخولهم ضرر على الناس ، ويمنعوهم من الاشتغال بالذكر والعبادة ، فإنهم يشوشون عليهم فى الصلاة لاسيما من يقف ويحكى أخبارا

---

(٤٥) ابن الأخوة : معالم ، ص ١٧٨ .

(٤٦) ابن حجر : أنباء ، جـ ١ ، ص ٣٧٨ .

(٤٧) ابن الأخوة : معالم ، ص ١٧٩ - ١٨٢ .

(٤٨) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٦ .

(٤٩) ابن الأخوة : معالم ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٥٠) ابن حجر : أنباء ، التحقيق ، جـ ١ ، ص ٣٥٢ .

وقصصاً . ويشغلون الناس بسماع كلامهم عما حضروا لأجله . وكان المحتسب يرسل أعوانه لمساعدة قومة المساجد فى هذه الأمور .(٥١)

● المحتسب وأهل الجنائز والمقابر :

ومن المهمات الدينية للمحتسب إشرافه على أهل الجنائز ، فكان لا يمكن من يتصدى لغسل الموتى من الرجال والنساء إلا ثقة أميناً صالحاً خبيراً ، وقد قرأ كتاب الجنائز فى الفقه(٥٢) ، وعرف واجباته وسننه ، ويسأله المحتسب عن ذلك فمن كان قيما به تركه ومن لم يعرف صرفه ليتعلم .(٥٣)

ويفيض المؤلفون لكتب الحسبة فى كيفية غسل الميت ، وكيفية الصلاة عليه وأخيراً فى كيفية دفن الميت .(٥٤)

كما يجمع مؤرخو كتب الحسبة فى العالم الإسلامى على أنه كان للمحتسب إشراف على الجنائز والمقابر ، فكان يمنع النساء من كشف وجوههن ورؤوسهن خلف الجنازة ، ويأمرهن أن يتأخرن عن الرجال ، ولا يختلطن بهم . وكان المحتسب يأتى بمناد ويأمره أن ينادى بذلك لمنع النساء من القيام بمثل هذه الأفعال .

كما كان النساء يتبعن بعض العوائد القبيحة المكروهة فى الموت مثل الندب والنياحة وزيارة القبور ، فكان المحتسب يمنعهن من فعل ذلك لأنه لا يجوز فى الاسلام(٥٥) ، ومن خالفت هذه الأوامر عوقبت . وفى (سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م) أمر السلطان الغورى بألا يعمل عزاء بنادبات . وعهد إلى المحتسب بتنفيذ ذلك فقبض على نائحة عملت عزاء بطارات ، وشهر بها على حمار والطار معلق فى عنقها ووجهها ملطخ بالسواد(٥٦) .

ولازالت بعض هذه العادات موجودة فى الريف المصرى للآن ، فلكى يتظاهر البعض بالأحزان العميقة يستأجرون الندابة لتثير عليهم شواجن الحزن .

وكان المحتسب الذى يقوم بكل هذه الأعمال لابد وأن يكون على دراية علمية واسعة بالعلوم الدينية الاسلامية بحيث يستطيع أن يصرف الأمور فى يسر وسهولة .

---

(٥١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١٧/ابن الأخوة : معالم/ص ١٧٢ .

(٥٢) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٦ .

(٥٣) ابن الأخوة : معالم ، ص ٤٦ - ٤٩ .

(٥٤) راجع ابن الأخوة ، نفسه ، ابن بسام ، التحقيق ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٥٥) يحيى بن عمر : أحكام السوق ، التحقيق ، ص ١٢٢ حاشية ٣/الماوردى/الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٠ /أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٩١./الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١٠/ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ورقة ٢٦ /ابن الحاج : المدخل ، جـ٣ ، ص ٢٤٦ .

(٥٦) الشهاوى : الحسبة فى الإسلام : ص ١١٣ .

ويحكى ابن حجر فى حوادث سنة ٧٨١هـ «وفى جمادى الآخرة منه عقد مجلس بسبب عز الدين الرازى حين ولى تدريس الحديث بالمنصورية.. فقام فى ذلك الشيخ برهان الدين الانباسى والشيخ زين الدين العراقى وغيرهما وقالوا : «ان هذا لايعرف شيئاً من الحديث ، «فلما اجتمعوا أعطى جزءاً من «صحيح البخارى «ليقرأ فيه بالحاضر فقرأ شيئاً فصحف فى مواضع واضحة فافتضح ، وانفصل الأمر على ذلك . فأراد جمال الدين المحتسب ستر القضية ، فأخذ التدريس لنفسه من الناظر وخشى الشناعة فأحضر بعض المحدثين إلى منزله وقرأ عليه الحديث ، وواظب على سماع الحديث على بعض المشايخ كالآمدى والدجوى فصاروا يحضرون إلى منزله ، واستمر تدريس الحديث بيده ثم استقر فيه ولده بعده إلى أن صار إلى كاتبه (يعنى ابن حجر نفسه(٥٧) .

ويظهر أن بعض المحتسبين كانوا موضع ثقة فى هذا الأمر بالذات ففى سنة ٧٨٨هـ أنشأ السلطان مدرسة وعين لها المدرسين ، ثم أقيمت بها خطبة فى عاشر شهر رمضان وفوض السلطان الخطابة إلى جمال الدينَ المحتسب(٥٨) .

● المحتسب ونظرته الدينية لسماسرة العبيد والجوارى :

وكان المحتسب لا يختار من يعمل فى سمسرة العبيد والجوارى الا من تثبت عنده أمانته وعفته وصيانته ، وأن يكون مشهوراً بالعدالة لأنه يتسلم جوارى الناس وغلمانهم وربما اختلى بهم فى منزله ، ويمنع المحتسب السمسار من أن يبيع لأحد جارية ولا عبداً حتى يعرف البائع أو يأتى بمن يعرفه ويثبت اسمه وصفته فى دفتره لكى لا يكون المبيع حراً أو مسروقاً . وكان المحتسب يأمر السمسار بألا يمكن من يريد شراء جارية من الخلوة بها فى منزله ، ويجيز له أن ينظر إلى وجهها وكفيها فقط ، ولا مانع من أخذ المشترى للجارية إلى منزله إذا كان عنده نساء فى المنزل فينظرون جميع بدن الجارية : أما إذا أراد شراء غلام فله أن ينظر إلى مافوق السرة ودون الركبة قبل العقد ، أما بعد العقد فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية أو الغلام ويمنع المحتسب السمسار من إتمام بيع جارية أو غلام مسلمين لأحد من أهل الذمة ، ويلزم المحتسب السمسار بأن يطلع المشترى على جميع العيوب أو الأمراض التى يعلم أنها موجودة فعلاً فى الجارية أو الغلام المراد بيعها(٥٩) .

كما كان للمحتسب سلطة على سماسرة الدواب أيضاً ، فكان يلزم هؤلاء السماسرة ألا يبيعوا دابة حتى يعرفوا البائع أو يعرفوا من يعرفه ، ويكتب المحتسب اسمه فى دفتره حتى لا تكون الدابة مسروقة ، وكان السماسرة يعينون للمشترى عيب الدابة ، وسنها ، ولا

---

(٥٧) ابن حجر : أنباء ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ،

(٥٨) نفسه ، جـ ١ ، ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٥٩) ابن الأخوة : معالم ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

ينادى السمسار عليها إلا من فم التاجر ، ويراقب الله تعالى فيما هو بصدده فى أمر الحيوان .(٦٠)

● اشراف المحتسب على أهل الذمة :

يتفق ما ذكره صاحب أقدم مؤلف وصل إلينا عن الحسبة(٦١) مع ما سجله بعض الفقهاء(٦٢) والمؤرخين(٦٣) بالنسبة لاشراف المحتسب على أهل الذمة ، وضرورة إلزامهم بتنفيذ الشروط التى ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه ألزم أهل الذمة بإتباعها . وهى تتعلق بلبس ثياب خاصة بهم كى يتميزوا عن المسلمين ، كذلك منعوا من بناء كنائس أو أديرة أو صوامع مستحدثة ومن تجديد ما خرب منها(٦٤) .

ولكننا وجدنا بعض الاختلافات فى التفاصيل من حيث : انه يجب على المحتسب أن يشرف عليهم بحيث يجعلهم لا يركبون الخيل ، ولا يحملون السلاح ، ولا يصدرون فى المجالس ولا يبدأون بالسلام ، ولا يزاحمون المسلمين فى الطرقات بل يلجأون إلى أضيق الطرق ، ويمنعون من أن يعلوا فى بنيانهم عن بنيان المسلمين ، ويمنعون من إظهار الخمر والخنازير فى أسواق المسلمين ، ويعلقون الصلبان على دورهم(٦٥) ، كما يلزمهم بعدم الاجهار بشعائرهم الدينية(٦٦) .

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل تعداه إلى إشراف المحتسب على نسائهم ولبسهن وذهابهن إلى الحمامات(٦٧) .

لكن مؤرخى مصر الاسلامية ، وإن كانوا قد ذكروا ذلك إلا أنهم لم يذكروا إلى أى حد أتبعت تلك الشروط ونفذت مع أهل الذمة والأرجح أن الخلفاء فى فجر الاسلام لم يلزموا أهل الذمة بتنفيذها لأننا رأينا أن هناك كنائس وأديرة بنيت فى مصر فى العهد الاسلامى كما

---

(٦٠) ابن الأخوة ، معالم ، ص ١٨١ .

(٦١) يحيى بن عمر : أحكام السوق ، ص ١٢٨ أنظر حاشية ٥ .

(٦٢) أبويوسف : الخراج ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٦٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ١٣٥ حاشية ٤ .

(٦٤) أنظر ما شرطه الخليفة عمر بن الخطاب فى كتاب الجزية الذى كتبه لأهل الذمة والعهد بينه وبينهم الملحق الأول ص ١٢٠ من كتابي الشيزرى : نهاية الرتبة التحقيق «نسخة إشهار على أهل الذمة» .

(٦٥) الجرسيفى : ثلاث رسائل فى الحسبة ، ص ١٢٢ .

(٦٦) الماوردى : الأحكام ، ص ٢٥٦ ، أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٨٨ .

(٦٧) الماوردى : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٤ - ٢٥ .
انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص ٦٣ .

جدد بناء كنائس أخرى(٦٨) ويظهر أن أهل الذمة فى مصر من أقباط ويهود وغيرهم ، لم يضيق عليهم فى الزى والركوب وبناء الكنائس وغير ذلك مما ينسب بدءه إلى عمر بن الخطاب إلا فى النادر(٦٩) .

وانفردت كتب الحسبة فى مصر(٧٠) بذكر قيام المحتسب بجمع الجزية من أهل الذمة «على قدر طبقاتهم - على الفقير دينارا ، وعلى المتوسط دينارين ، والغنى أربعة دنانير - عند رأس الحول» .

وفى هذا يقول «العينى»(٧١) :فى حوادث (سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م) «فى أوائل شهر رمضان من هذه السنة جمع اليهود والنصارى وحضر جماعة من أهل العلم ، وحضر صدر الدين بن العجمى المحتسب ، وكتب أسماء أهل الذمة ، وقرر عليهم الجزية على قدر أحوالهم ، الغنى أربعة دنانير ، والوسط دينارين ، والفقير دينار واحد فبلغت الجزية فى هذه السنة عشرة آلاف دينار ، وكانت فى العام الماضى ألفاً وخمسمائة دينار فقط» .

وقد أشار مؤلفو الحسبة أيضاً إلى أن المحتسب كان يتشدد كثيراً فى جمع الجزية من أهل الذمة . (٧٢)

وهذا شيء معروف فقد كان التشدد فى جمع الجزية متبعاً فى مصر منذ فجر الاسلام(٧٣) .

وهنا نستطيع أن نقرر أن محتسب مصر - فى بعض العهود - كان يأخذ بطرف من

---

(٦٨) انظر أمثلة لذلك فى كل من : ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٣٢ ، الكندى الولاة ، ص ٦٨ ، ٣٨٢ . أبو المحاسن : النجوم ، جـ ١ ، ص ٣٣٨ ./د. سيدة كاشف . مصر فى فجر الإسلام ص ٢٠٩ .

(٦٩) سيده كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ٢١٢ .
بل إن هناك كثيرا من الأمثلة التى ترينا مدى الحرية الدينية التى تمتع بها الأقباط فى ظل الحكم العربى ، وفى الاحتفال بأعيادهم الدينية ولم نعرف أن العرب فعلوا شيئا يحد من حرية الأقباط فى احتفالاتهم الدينية بتلك الأعياد راجع المقريزى الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٩ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام فصل : العرب والقبط من ص ١٨٢ - ٢١٥ .

(٧٠) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٠٧/ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٧١) عقد الجمان ، مخطوط ، جـ٢٥ القسم ٢ ورقة ٣٦٨ .

(٧٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٠٧ ابن بسام : نهاية الرتبة التحقيق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٧٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام انظر النظام المالى ص ٣٧ - ٦٥ ، القبط والنظام المالى من ٢١٥ - ٢٥٠

اختصاص الخراج كما كان صاحب الخراج من قبل يأخذ بعض اختصاصات المحتسب(٧٤) .

وحسبنا دليلاً على ذلك ما ذكره أبو المحاسن أن «المحتسب صدر الدين بن العجمى فى سنة ٨٢٤هـ رتب له من ديوان الجوالى دينار كل يوم»(٧٥)

● اشراف المحتسب الدينى على الحمامات :

كان المحتسب يأمر ضامن الحمام أن يحتفظ عنده بمياذر يكريها أو يعيرها لمن يحتاج ، فإن الغرباء والفقراء قد يحتاجون إلى ذلك حتى لا يكشفوا عوراتهم(٧٦) .

● المحتسب وإشرافه على أصحاب الحرف والمهن .

كان المحتسب كذلك يولى اهتمامه إلى أصحاب الحرف والمهن الشائعة :

إشراف المحتسب على الأطباء والكحالين(٧٧) والمجبرين(٧٨) والجرائحيين(٧٩) :

وللمحتسب الاشراف على الأطباء والجراحيين والكحالين وكان يختبر هؤلاء ، ويشترط فى المتقدم لهذه الوظائف أن يكون متمتعاً بقيم دينية واخلاقية وإنسانية ، ومن الشروط الطريفة التى كان يراعيها المحتسب أنه كان يأخذ على الأطباء عهداً ألا يعطوا لأحد دواء مضراً و يركبوا له سماً ، ولا يصنعوا التمائم عند أحد من العامة .

وكان المحتسب يأخذ على هؤلاء عهداً ألا يذكروا للنساء دواء يسقط الأجنة ، ولا يذكروا للرجال دواء يقطع النسل . ويلزم المحتسب الطبيب والكحال والجرائحى أن يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على من يلاطفونه من مريض وغير مريض(٨٠) .

ولا يفشون الأسرار ولا يهتكون الأستار ، ومن يصرفه المحتسب عن تولى هذه المهنة لأنه ليس أهلاً لها ، وعاد إلى ممارستها له أن يؤدبه على ذلك(٨١) .

---

(٧٤) أنظر أمثلة لذلك ص ٥٥ من البحث .

(٧٥) النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٤٨٢ .

(٧٦) ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ٧٠ .

(٧٧) الكحالون مفردها كحال : وهو طبيب امراض العيون . Dozy: Dict. Ar.

(٧٨) المجبرون : هم أطباء العظام فى ذلك الوقت . Dozy: Dict. Ar.

(٧٩) الجرائحيون : هم أطباء الجراحة . Dozy : Dict. Ar.

(٨٠) ابن بسام : مخطوط ، ورقة ٢٢ .

(٨١) الشيزرى ، ص ٩٨ حاشية ٢/ابن بسام ، مخطوط ، ورقة ٢٢ - ٣٧ - ٣٩ - ٤١ - ٤٣ .

المحتسب وتجار البز(٨٢) :

كان المحتسب لا يمكن من يتجر فى البز إلا من عرف احكام وعقود البيع والشراء ، وما يحل منها وما يحرم ، وإلا وقع فى الشبهات . ويقول الشيزرى فى هذا المجال : «وقد رأيت فى هذا الزمان أكثر باعة البز فى الأسواق يفعلون فى بياعاتهم مالا يحل عمله» فمن ذلك : النجش وهو أن يزيد الرجل فى ثمن السلعة ولا يريد الشراء ، ليغر غيره ، وهذا حرام لأن النبى ﷺ نهى عن بيع النجش ولا يزيد فى السلعة أكثر مما تساوى ليغر بها الناس فيكون حراماً . ومن ذلك البيع على بيع أخيه ، وهو أن يشترى الرجل سلعة بثمن معلوم بشرط الخيار(٨٣) ، فيقول له رجل آخر : «ردها وأنا أبيعك خيراً منها بهذا الثمن ، أو مثلها بدون هذا الثمن ، فهذا الفعل حرام أيضاً . ومنهم من يسوم على سوم أخيه ، وهو أن يشترى سلعة من رجل فيقول له رجل آخر : «أنا أعطيك أجود منها بهذا الثمن ، أو مثلها بدون هذا الثمن ، ثم يعرض عليه السلعة فيراها المشترى ، وهذا أيضاً حرام . ومنهم من يقول للتاجر «بعتك هذا الثوب على أن تبيعنى ثوبك ، أو بعتك هذا الثوب بعشرة دراهم نقداً أو بعشرين نسيئة» . وكان المحتسب يمنع منهم من كان يبيع السلعة إلى أجل مجهول أو يبيعها على شرط مستقبل مجهول . وهو أن يقول « بعتك هذا الثوب إلى قدوم الحاج ، أو إلى دراس الغلة ، أو على عطاء السلطان» وما أشبه ذلك . ويمنع من يشترى سلعة من تاجر مثله ثم يبيعها لرجل آخر قبل القبض ، فجميع ذلك حرام لأن النبى ﷺ نهى عنه .

وكان المحتسب يمنع بيع الملامسة ، وهو أن يقول البائع للمشترى : «إذا لمست الثوب بيدك ولم تشتره لزمك البيع . «كما كان المحتسب كذلك يمنع بيع المنابذة ، وهو أن يقول البائع للمشترى «بعتك هذا الثوب الذى معى بالثوب الذى معك» فإذا نبذ كل واحد منهما ثوبه إلى الآخر فقد وجب البيع . وكان المحتسب أيضاً يمنع بيع الحصاة ، وهو أن يقول البائع للمشترى «بعتك ما تقع عليه الحصاة من أرض أو ثوب .

الخياطون :

وكان الخياطون يسرقون أمتعة الناس ، ويحشونها رملاً عند أكتافها ، ويسرقون بقدره من الثوب إذا كان موزوناً عليهم . وكان المحتسب يمنعهم من ذلك ومن مماطلة الناس

---

(٨٢) هم بائعو الثياب : الصعيدى : الإفصاح فى فقه اللغة ص ٦٨٤/الشيزرى ، نفسه ص ٦١ (حاشية ١) .

(٨٣) الخيار اصطلاح فقهى يستعمل فى البيع وله ثلاث حالات وهى :

(أ) اتمام البيع فورا .

(ب) أو البيع خلال ثلاثة أيام تبدأ من يوم عقد الصفقة .

(جـ) أو البيع بشرط أن يلتزم البائع قبول السلعة اذا ظهر فيها عيب السرخسى المبسوط ، جـ١٣ ، ص ٣٨ الشيزرى نهاية الرتبة التحقيق ، ص ٦١ - حاشية ٣ .

بخياطة أمتعتهم ، وتضررهم بالتردد إليهم ، وحبس الأمتعة عنهم . وكان يحلف الخياطين ألا يأخذوا بطانة شخص يعملوها لآخر ، وكثير من الخياطين والحاكة والقصارين والرفائين كانوا يأخذون متاع الناس ويهربون بها ، فكان المحتسب يحلفهم بألا يفعلوا ذلك ، وكان يلزم كل منهم بإحضار ضامناً له إذا أراد الاستمرار فى المكوث فى دكانه

كما كان المحتسب يحلف الرفائين أيضاً ألا يرفوا لأحد من الدقاقين والقصارين[٨٤] ثوباً مخروقاً الا بحضرة صاحبه ، ولا ينقل المطرز أو الرقام رقم ثوب يحضره إليه القصار أو الدقاق ، فكثير منهم كانوا يفعلون ذلك . وكان المحتسب لا يمكن صناع الأقباع والطواقى الصوف وغيرها والتى كانوا يعملونها من الخرق البالية المصنوعة المقواة بالنشا من عمل ذلك وكان يأمرهم بعملها من الأقمشة الجديدة[٨٥]

الصباغون :

وكان المحتسب يلزمهم أن يكتبوا على ثياب الناس أسماءهم بالحبر لأن كثيراً من الصباغين يبدلون ثياب الناس ، كما أن منهم من يؤجر هذه الثياب لناس آخرين فى أيام المواسم والأعياد والأفراح فكان المحتسب يمنعهم من فعل ذلك . كما كان يعرض أصباغهم على عريف الصباغين لكى يمنعهم مما يفعلونه ويغشون به الصبغ[٨٦] .

الصاغة :

ويعتمد المحتسب على أمانة الصاغة وتدينهم لأن غشوشهم خفية لاتكاد تعرف ولايمنعهم من ذلك إلا هذه الأمانة والتدين ، فهم يعرفون من الأصياغ ما لايعرفه غيرهم . فمنهم من يصيغ الفضة صيغاً محكماً[٨٧] فمثلا باعة الخواتيم يعملونها باليسير من الفضة ، ويحشونها بالرصاص ، وبالزفت ، ويكذبون عند بيعها ، وبعد شرائها ، تتقشر الفضة ، وتتهشم بسرعة[٨٨] .

وفى هذا يقول الشيزرى : «وقد يعملون من الطباخات والجلاوات أشياء يطول شرحها ، ولولا أنى أخاف أن يطلع على هذا السر من لا دين له لأوضحت منه . جملا كثيرة ، لايهتدى

---

(٨٤) القصارين والمفرد قصار : هم الذين يقومون بدق القماش لتحويره وتمليه أى مهمة كوى القماش : لسان العرب . الشيزرى ص ٦٧ حاشية ٩ معالم ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٨٥) الشيزرى ص ٦٥ - ٦٨ .

(٨٦) الشيزرى : ص ٧٢ .

(٨٧) الشيزرى : ص ٧٧ .

(٨٨) ابن بسام : نهاية الرتبة . التحقيق ، ص ١٠٦

إليها كثير من الصاغة ، فيجب على كل مسلم مراقبة الله عز وجل ، وإذا عثر المحتسب على أحد منهم يفعل هذا عزره وأشهره»[٨٩] .

المحتسب واشرافه على المنادين والدلالين[٩٠] :

وكان المحتسب يختار الدلالين والمنادين من أهل الدين والأمانة والثقة وصدق القول لأنهم يتسلمون بضائع الناس ، ويقلدونهم الأمانة فى بيعها ، ولا يمكن المحتسب من يزيد منهم فى السلعة من نفسه ، أو من يكون شريكاً للبزاز ويشتريها لنفسه ، وكذلك من يقبض ثمن السلعة من غير أن يوكله صاحبها فى القبض ، أو من يعمد منهم إلى صناع البز والحاكة ويعطيهم ذهباً على سبيل القرض[٩١] .

ويلاحظ أن القرض كان موجودا فى كل أنحاء العالم الإسلامى ، إلا أن المحتسب يراعى فى هذه الحالة ألا يكون القرض ضارا وفيه شىء من الربا .

ويمنع المحتسب من هؤلاء الدلالين والمنادين من يشترى السلعة لنفسه ؛ ويوهم صاحبها أن بعض الناس اشتراها منه ، ويواطىء غيره على شرائها منه . كذلك يمنع المحتسب من ينادى منهم على السلعة ويزيد من ثمنها من عنده ، ويوهم الناس أنها سلعة التجار مع أنها سلعته هو . ويمنع المحتسب منهم من يكون بينه وبين البزاز شرط ومواطأة على شىء معلوم من الأجرة ، فإذا قدم إلى البزاز تاجر ومعه متاع ، فإن البزاز يستدعى ذلك المنادى لبيع المتاع ، فإذا فرغ البيع وأعطى الأجرة ، أعطى البزاز ما كان شرطه له وواطأه عليه ، وهذا حرام على البزاز فعله ، ويلزم المحتسب المنادى أنه إذا علم أن فى السلعة عيباً لابد وأن يخبر المشترى به ويوقفه عليه[٩٢] .

وقد نبه الشيزرى على هذه الأفعال ، وقال انها كانت كثيرة الحدوث فى عصره[٩٣] .

الجزارون[٩٤] :

فكان المحتسب يفضل أن يكون الجزار مسلماً بالغاً عاقلاً ، وكان يلزم الجزار أن يذكر

---

(٨٩) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ٧٧ .

(٩٠) الدلالين والمنادين : جمع دلال : وهو الشخص الذى يتوسط البائع والمشترى والملاحظ هنا أن المؤلف أفرد لهذه الفئة ، ومعها فئة المنادين بابا خاصاً ، مما يساعد على تصوير المعاملات التجارية بالبلاد الإسلامية فى العصور الوسطى .
الشيزرى : تحقيق ص ٦٤ حاشية ١ .

(٩١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٦٤/معالم ، ص ١٣٥ .

(٩٢) الشيزرى : ص ٦٤ ، معالم ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٩٣) الشيزرى : ص ٦١ .

(٩٤) الجزار هو الذى يذبح الماشية للبيع : الشيزرى ص ٢٧ حاشية ح .

اسم الله على الذبيحة ، وأن يستقبل القبلة ، ويذبح البقر والغنم مضطجعة على الجانب الأيسر ، فجميع ذلك وردت به السنة عن النبي ﷺ ، ولا يجر الشاه برجلها جراً عنيفاً ، ولا يذبح بسكين كالة[٩٥] - لأن ذلك تعذيب للحيوان ، وقد نهى الرسول عن تعذيب الحيوان[٩٦] .

وكان المحتسب عند الذبح يلزم الجزار بأن يقطع الودجين[٩٧] والمرىء والحلقوم ، ولا يشرع فى السلخ[٩٨] بعد الذبح حتى تبرد الشاه ويخرج منها الروح . وتجوز الزكاة بكل شىء إلا العظم والظفر فإن الرسول (ﷺ) نهى عن الزكاة بهما[٩٩] .

الاساكفة :

وحتى الاساكفة كان المحتسب يمنعهم من الغش بألا يستعملوا الورق واللبد وأشباهه فى أحذية النساء لأن ذلك يفعل صوتاً عندما تسير النساء[١٠٠] بالحذاء . وهذا يكون من مظاهر تبرج النساء[١٠١] .

والحقيقة أنه من الصعب استقصاء كل نماذج عمل المحتسب فى المجال الدينى «فالمنكرات - كما يقول الإمام الغزالى - كثيرة لايمكن حصرها فلا تخلو بقعة من منكر ، واستقصاء جميع المنكرات يستدعى استيعاب جميع تفاصيل الشرع وأصولها وفروعها[١٠٢]» .

وقد تنبه الشيزرى لسعة هذا الجانب ، فذكر معتذراً عن عدم ايراده لجميع ما ينبغى أن يفعله المحتسب بقوله : « ولو شرعت أن أذكر جميع ما ينبغى للمحتسب أن يفعله من أمور الحسبة لطال الكتاب ولم يقع عليه حصر . . ولعمرى أن الضابط فى أمور الحسبة هو الشرع المطهر ، فكل ما نهت الشريعة عنه يكون محظوراً ووجب على المحتسب ازالته والمنع من فعله ، وما أباحته الشريعة أقره على ما هو عليه»[١٠٣] .

---

(٩٥) كالة : غير قاطعة : مصباح المنير ، جـ ٢ ، ص ٨٢٠ .

(٩٦) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٢٧/ابن بسام : نهاية الرتبة التحقيق ص ٣٤ - ٣٥ .

(٩٧) الودجان : الوادج عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة ، قاموس المصباح المنير جـ ٢ ، ص ١٠١١ .

(٩٨) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٤ ، ص ١٨٢ .

(٩٩) الشيزرى : نفسه ص ٢٧ .

(١٠٠) الشيزرى : ص ٧٣ .

(١٠١) يحيى بن عمر : أحكام السوق ، ص ١٢٦ ، انظر حاشية (١) .

(١٠٢) الغزالى : الإحياء ، جـ ٢ ، ص ٢٩٩ .

(١٠٣) الشيزرى : أنظر مقدمة الناشر .

كذلك يعتذر الشيزرى عن عدم الاسهاب والاطالة فى ذكر كل أنواع الغشوش التى كانت تحدث فى عصره متعللا بخطورة ذلك على ضعفاء الدين ، واحتمال تقليدهم لهذه الغشوش بقوله :

«ولولا أنى أخاف أن أنبه من لادين له على غش (الأطعمة) (الشرابيين) (البزازين) (السمانين) (الصاغة) ، لذكرت من ذلك جملا كثيرة فى اختلاف أشياء من عناصرها . ولكنى أعرضت عن ذكرها مخافة ممن يتعلمها فيعلمها للناس»[١٠٤] .

والحق أنه طالما وجد مجتمع إنسانى فلابد من وجود ضعاف النفوس أو الانتهازيين ، وعلى آية حال فلا اختلاف بين المجتمع المصرى والشرقى والمغربى ، أى شرق العالم الإسلامى وغربه إذ يتبين أن الطبيعة البشرية واحدة ، ويتبين من كتب الحسبة فى المشرق والمغرب أن الغش كان موجوداً ، وأن الدولة كانت تكافحه ، وهذه سنة البشر فالخير يعيش إلى جانب الشر .

---

(١٠٤) الشيزرى : ص ٦٤/الأخوة : معالم ، ص ١٠٧ .

الفصـــــل الثـــانى

وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الاقتصادى

لقـد اشتملت بعض كتب الحسبة التى اطلعنـا عليهـا عـلى معلومـات جليلة تتعلق بالمجتمع الإسلامى ، وبعد دراسة هذه الوثائق اتضح لنا أهميتها البالغـة ، حيث كانت بالنسبة لدراستنا نبعاً من منابع التعريف بأحوال المجتمع المصرى الإسلامى .

ولانعجب من أهمية هذا الفصل ، فالتاريخ عند فيلسوف المؤرخين ابن خلدون هو «بحث فى أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض فيه لـلإجتماع الانسـانى من العوارض الذاتية . . .»[1] .

والتـاريخ ليس تـاريخاً سيـاسياً فقط ، وإنمـا لابد من دراسـة «التاريـخ الاقتصادى والاجتماعى فهذه النواحى تكشف لنا تطور الحضارة فى الشعوب . وهى التى تساعدنا على فهم معظم الأحداث السياسية ، وعلى فهم عوامل التقدم والتأخر ومعرفة مواطن الضعف والقوة فى الشعوب والوقوف على التيارات المختلفة التى تؤثر فى حياتها»[2] .

وقد صورت لنا هذه الوثائق الحياة اليومية فى المدن المصرية فى العصـر الإسلامى ، فوصفت الأسواق ، وحركة التعامل ، وما قد يقع من منكر يسارع المحتسب إلى ازالته ، كما وضحت حياة الأفراد والجماعات ، وشرحت لنا وسائل الكسب والمعيشة اليوميـة ، كما حملت بين ثناياها الأخبار الطريفة ، ووصفت المجتمع فى تقدمه وتأخره ، ووضحت مـا انتاب العالم الإسلامى عامة - ومصر خاصة - من أدواء وعلل ومجاعات فى بعض فترات عصورها التاريخية ، مما أدى إلى التفنن فى أساليب الغش ، والتكسب بالمهن الخسيسة ، والاحتيال للوصول إلى أرقى وظائف الدولة .

كما حوت بعض الكتب نقداً لاذعا للمجتمع المصرى الإسلامى .

---

(١) المقدمة ، ص ٢٩ ط القاهرة ١٩٣٠ .

(٢) د : سيدة كاشف : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ص ٥ .

تشيد معظم مراجع الحسبة بأهمية الدور الاقتصادى لمحتسب مصر خاصة فى العصر الفاطمى والأيوبى والمملوكى ، وجميعها تضع قوائما لأعمال المحتسب تكاد تصل كل قائمة منها إلى الأربعين مهمة(٣) ، أو تتعداها(٤) ، كما أنها تشترط ضرورة المام المحتسب بأدق دقائق زوايا الحياة العملية التى يشرف عليها من تجارة وصناعة وغيرها . . حتى تنكشف أمامه طرق الغش التى تصيب الحياة الاقتصادية . فوظيفة الحسبة تمس الاقتصاديات ، ووجودها واستقرارها دليل على احساس المجتمع بتنظيم أفراده ونقاباته ، واستقرار أسعاره ، ونشاط أسواقه وصحة موازينه وصنجه ومكاييله ، كما أن خللها يؤدى إلى تدهور اقتصاديات الدولة .

ولعل من السمات الخاصة التى تميزت بها مصر - فى بعض العصور - هو الانتعاش الاقتصادى والرخاء الذى امتازت به مدنها . وبلغ هذاالانتعاش أقصى غايته عندما اتسعت مدينتا القاهرة ومصر اتساعاً كبيراً ، ونمت المدينتان معا واصبحتا مركزين اقتصاديين لامبراطورية واسعة الأرجاء(٥) ، وشهدت بذلك كتب الرحالة والجغرافيين فقد لاحظ الرحالة ناصر خسرو «الذى زار القاهرة فى العصر الفاطمى أن التجار فى مصر كانوا يبيعون بأثمان محددة ، وإذا ثبت على أحدهم الغش فانه يعاقب بطريقة التشهير(٦) . ووصف مصر وأسواقها بأنها كثيرة يصعب حصرها أو قياسها(٧) ، وهو يبدى عجبه ، فى سياق وصفه لهذه الأسواق ، وبما يرد اليها من البضائع بهذه الكلمات : «وكان سوق القناديل لا يعرف سوقا مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف(٨) . وكانت هذه الأسواق تضاء فيها القناديل دائما(٩) ، حيث يرى الناظر المتجول فيها الدكاكين المملوءة بالبضائع ، بحيث لا يوجد متسع لمن يريد أن يجلس .

ويعطى التجار فى مصر من بقالين وعطارين وبائعى خردوات ، الأوعية اللازمة لما يبيعونه من زجاج ، أو خزف ، أو ورق ، حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء(١٠) .

ثم نراه يصف لنا وصفاً شائقا صناعات مصر الدقيقة ، ويشيد بما بلغته هذه

---

(٣) انظر الشيزرى : نهاية الرتبة . ذكر حوالى ٣٨ مهمة للمحتسب .

(٤) أورد كل من ابن بسام وابن الأخوة أكثر من أربعين مهمة يشرف عليها المحتسب .

(٥) Poole "s. L." : The story of Cairo .P. 218.

Ency: Isl: art Le Caire .11. .P. 839.

(٦) سفر نامة : ص ٠٦١ انظر تفصيل التشهير فى ص ١٤٠ من البحث .

(٧) سفر نامة : ص ٠٤٢ .

(٨) نفسه ، ص ٠٦٢ .

(٩) نفسه ، ص ٠٥٨ .

(١٠) سفر نامة : ص ٦١ - ٦٢ .

الصناعات فى ذلك الوقت من رقى . ثم يتحدث عن رخص أسعار بعض السلع . . التى لا نظير لها[١١] . وأخيراً نراه ينتقل إلى وصف القاهرة وأسواقها وشوارعها ، ومدى ما بلغته من نهضة اقتصادية .

كما أشاد ابن جبير[١٢] فى رحلته بالنشاط الاقتصادى الذى كان على أشده فى مدن مصر الأخرى ، من أقصى الصعيد إلى الوجه البحرى .

وليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية فى مصر من ظهور عبارات كثيرة تدل على رواج التجارة والصناعة ، مثل دكاكين ، حوانيت ، مخازن ، وقياسر ، وخانات ، ووكالات ، وأسواق ، وفنادق . ولا تزال بعض هذه المبانى باقية بأسمائها ، وتزينها النقوش العربية والرسوم الهندسية ، والقوالب الخشبية ، وحتى نشاطها التجارى ظل مستمراً إلى وقتنا الحاضر ، مثل «خان الخليلى» وهو سوق ظهر من أيام المماليك[١٣] .

ووصف القيسارية[١٤] والخانات[١٥] بأنها عدة صالات عليها قباب ولها أروقة ، وفيها مكان للماء . ويقول Lane poole : وكانت خانات القاهرة فى القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى تعتبر أسواق التجار المزدحمة[١٦] ، وبعضها يرجع تاريخه إلى عصر الفاطميين[١٧] فى مصر . والوكالات ، وقد ظهرت مبانيها لأول مرة فى عهد الفاطميين[١٨]أيضاً لتعنى أماكن التجار الشرقيين . وكان مماليك مصر ينافسون بعضهم بعضا فى بناء الوكالات الأنيقة التى يمكن أن تجلب كل حجرة فيها ايجاراً مرتفعاً[١٩] . وكانت الأسواق عبارة عن مجموعة من الحوانيت ، وقد احتوى احداها على اثنى عشر ألف

---

(١١) نفسه ، ص ٠٦٠ نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه د . يحيى الخشاب .

(١٢) ولد سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م ، وتوفى ٦١٤ هـ سنة ١٢١٧ . بدأ رحلته ٥٧٨ هـ سنة ١١٨٣م ، الرحلة تحقيق حسين نصار ، ص٧ .

(١٣) المقريزى الخطط ، جـ٣ ، ص١٥٢ نسبة الى الأمير «جيهاركس الخليلى أحد أمراء السلطان برقوق .

(١٤) نفسه ، جـ٣ ، ص١٤٥/.Ency Isl. :art. Kaisariiya وقد ذكر المقريزى فى خططه أسماء عديدة لقياسر عديدة .

(١٥) المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، ص ١٤٩ .

(١٦) لينبول ، الترجمة ، ص ١١٩ . .The story of cairo

(١٧) ويذكر لينبول أسماء عديدة لهذه الخانات .

(١٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٢٢ . /ماجد : نظم الفاطميين ، ص ١٧١/ماجد : دولة سلاطين المماليك ، ص ١٢٣ .

(١٩) لينبول – سيرة القاهرة . الترجمة ، ص ٢١٩ .

حانوت ، وكانت الأسواق تظلل بواسطة الحصر أو السقوف الخشبية[٢٠] . أما الفنادق[٢١] أو الوكالات فكانت عبارة عن بناء واسع من عدة طوابق ، تتكون من غرف مختلفة ومخازن ، ولها فناء داخلى يحتوى على البضائع والدواب ، وبها حمام ومخبز ومقبرة ، وتحاط بسور وحديقة ، وكان يسكنها دائما التجار الأجانب وظهرت منشآت خاصة بالتجار الأتراك واليمنيين والهنود والفرس والمغاربة وغيرهم . وجرت العادة أن التجار المسلمين الوافدين من بلد واحد كانوا ينزلون فى وكالة معينة حيث يتآلفون بعضهم بعضا[٢٢] .

وفى الوكالة يستطيع التاجر أن يضع أمواله وبضائعه فى مأمن من كل سوء . وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على حراسة الوكالات من عبث العابثين ، كما أنهم احتاطوا عليها من خطر الحرائق وغيرها[٢٣] . وكان المحتسب يقوم بالإشراف على هذه الأسواق والشوارع والطرقات من حيث ملاءمتها وارتفاعها واتساعها للمارة[٢٤] .

وفى هذاالوقت بنى المحتسب فى قيسارية فاس نموذجاً لذراع مضبوط ، ليكون أساسا لمقاييس السوق[٢٥] .

ويهمنا هنا الحديث عن النشاط التجارى والصناعى فى الداخل لاغير ، والتى تشمل حركة البيع والشراء ونشاط الأسواق ، وقد اختص كل سوق منها بنوع معين من البضائع ، فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع ، وسوق النحاسين اختص ببيع النحاس ، وسوق الغرائين اختص ببيع الغراء[٢٦] .

وقد وجد هذا النظام فى مصر منذ العصر الطولونى ، وأشار اليه البلوى فى كتابه[٢٧] ،

---

(٢٠) نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٢١) المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ ، النويرى : نهاية الارب مخطوط جـ ٣١ ورقة ٤ ، Dozy : Suppl , 2, p. 284 .

(٢٢) فوكالة «قوصون» مثلا كان ينزلها التجار الوافدون ببضائع بلاد الشام مثل الزيت والصابون والفستق واللوز والجوز وغيرها عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩٧/لينبول : سيرة القاهرة ، ص ١٢٩ .
انظر صورة لمدخل وكالة الأمير قوصون ، ومدخل وكالة قايتباى شكل ٥٥ ص ٨٣ فى فنون الإسلام . د . زكى حسن

(٢٣) عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩٧ .

(٢٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٤ .

(٢٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ٢ ، ص ٧٩ .

(٢٦) عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٩٧ .

(٢٧) أحمد بن طولون : ص ٥٣ - ٥٤ . وقد أشار الأستاذ الدكتور زكى حسن الى النشاط الاقتصادى ونظام الأسواق فى كتابه : Les Tulunides p. 238 وذكر سيادته من المراجع : المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ، ابن خرداذبة المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .

ويبدو أنه استمر بعد ذلك حتى العصر المملوكى ، فنجد الشيزرى - مؤرخ الأيوبيين - ومن تابعه من مؤرخى المماليك يقول : «وقد كانت كل طائفة من التجار أو أصحاب الحرف تتجمع فى مكان واحد تتسمى به وتعرف به صناعتهم[28] ، ولها حارتها وسوقها الذى كان فى الغالب حول المسجد[29] ، فقد كانت هذه الأماكن أو الأسواق بمثابة مراكز للنشاط الاقتصادى . كذلك وجدت فى القاهرة فى عصر المماليك أسواق قائمة بذاتها للمواد الغذائية ، منها سوق باب الفتوح ، وسوق بين القصرين ، وسوق باب الزهومة[30] ، وكلها اشتهرت فى عصر المماليك بكثرة المعروض فيها من لحوم وخضروات وزيوت وألبان . . فضلا عن اكتظاظها بجمهور المشترين . أما الفواكه فكان لها سوق خاصة بها ، وعرف هذا السوق باسم «دار التفاح» وكانت تحمل إليه ثمار البساتين المحيطة بالقاهرة بحيث يتفنن الباعة فى عرضها ، ويتأنقون فى حفها بالرياحين والأزهار[31] .

كما كان هناك كثير من الحوانيت المنفردة فى الحارات والدروب الخارجة عن الأسواق ، وكان المحتسب يشرف عليها ، ويعتبر على أصحابها بضائعهم وموازينهم فى كل أسبوع على حين غفلة منهم[32] . ويقول الأستاذ الدكتور عاشور : «انه من محاسن هذاالنظام ، أن التاجر لا يستطيع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التى يتجر فيها لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشترى ان لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فانه يستطيع أن ينتقل فى سهولة من متجر لآخر دون أن يتحصل أدنى مشقة «ولا يزال هذا النظام قائماً فى أسواق البلاد العربية مثل سورية ولبنان والعراق والكويت .

«أما عيوب هذا النظام فأهمها ، أن الفرد إذا أراد شراء عدة أصناف مختلفة متباينة من البضائع فعليه أن يقطع المدينة كلها طولاً وعرضاً حتى يقضى حاجاته لأنه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع» .

ودور المحتسب الاقتصادى يتجلى فى ذهابه إلى هذه الأسواق ، وتفتيشه على بضائع التجار من حيث الجودة والرداءة ومنعه لهم من الغش والتطفيف فى الكيل والميزان ،

---

(٢٨) ابن بسام : نهاية الرتبة ، تحقيق ، ص ١٧ .

(٢٩) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١١ /ابن الأخوة : معالم ، التحقيق ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣٠) يطلق هذا الوصف على كثير من المواضع بالقاهرة مثل خط باب الزهومة ، وسوق باب الزهومة وكان باب الزهومة نفسه أحد أبواب القصر الكبير الشرقى فى عهد الفاطميين ، وقد عرف بذلك الاسم لأن اللحوم وحوائج الطعام كانت تدخل إلى مطبخ القصر من هذا الباب فقيل له باب الزهومة يعنى باب الزفر . القلقشندى : صبح جـ ٢ ، ص ٣٥٠/المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٣٥ ، جـ ٢ ، ص ٣٥ ، ص ٩٧ ، زيادة السلوك : جـ ١/٣ ص ٩٥١ حاشية ٥ .

(٣١) عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٣٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ٥٦ - ٥٨ ، ابن الأخوة : معالم ، ص ١٣٠ .

والزامهم البيع والشراء بالسعر المحدد ، كما يتضح دور المحتسب الاقتصادى أيضاً فى دعائه للتجار للحضور إلى «دار العيار» لختم المكاييل والموازين والصنج الخاصة بهم بخاتمه الموحد . ثم تفتيشه على عيار تلك الصنج والمكاييل والموازين والتأكد من سلامتها وصلاحيتها[٣٣] خاصة وأن المكاييل والموازين فى مدن مصر الإسلامية - والعالم الإسلامى كله-[٣٤] كانت تختلف أسماؤها ومقاديرها اختلافا واضحاً ، وكانت قيمة الرطل تختلف حسب نوع السلعة المراد وزنها فهناك رطل خاص لوزن الفلفل ، وآخر لوزن الحرير ، وأن الاختلاف مرجعه رخص ثمن السلعة أو ارتفاعه أو ندرتها[٣٥] ، ولم يكن وزن الرطل واحدا فى الأقاليم كلها بل كان لكل بلد ومنطقة رطلها الخاص بها[٣٦] . وكان على المحتسب أن يعرف هذا كله ليعلم تفاوت الأسعار[٣٧] .

وكما كان على المحتسب أن يعلم هذا التفاوت والتباين فى البلاد والأمصار المختلفة[٣٨] كان لا بد له أن يعرف أن المكاييل نوعان :

(١) مكاييل الأشياء السائلة مثل العسل والدهن .

(٢) مكاييل الأشياء اليابسة كالحبوب والشعير والملح[٣٩] .

ويدخل فى اطار اختصاصات المحتسب مراقبة الموازين ذاتها ، وأصح الموازين وضعا ما استوى جانباه ، واعتدلت كفتاه ، وكان ساعده فولاذا ووحدات الوزن من الحديد لا من الحجر ، لأن الصنج إذا أخذت من الحجر تنحت إذا قرعت بعضها ببعض ، فينقص وزنها ، وإذا دعت الحاجة إلى اتخاذها من الحجارة لقصور يده عن اتخاذها من الحديد أمره المحتسب بتجليدها ، ثم يختمها المحتسب بعد العيار ، ويجدد النظر فيها بعد كل حين لئلا يتخذ التاجر مثلها من الخشب[٤٠] . ويجب أن يكون على هذه الصنج عددها الذى تمثله ، وثقب علاقة الميزان وسط العمود ، وتوجد به آلات الوزن الصغيرة ، لوزن الذهب والحلى ، كما توجد أخرى لتجار الحبوب والخشب .

---

(٣٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

(٣٤) الريس : الخراج ، ص ٢٩٠ .

(٣٥) Sauvairé "M. H" : Materiaux pour sever a L histoire, chop. IV.

(٣٦) البرادى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

(٣٧) الماوردى : الرتبة : مخطوط ورقة ٤٩ /الشيزرى : نهاية الرتبة ، تحقيق ص ١٥ ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ص ١٨٥

(٣٨) ابن الرفعة : الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان مخطوط بدار الكتب برقم ٣١٢ رياضة تيمور . ورقة ٩ .

(٣٩) إيليا مطران : مقالة فى المكاييل والموازين : مخطوط بدار الكتب رقم ٤٣١ رياضة تيمور ص ٥ .

(٤٠) الشيزرى : ص ١٩ - ٢٠ .

ويظهر أن التجار فى عهد الدولة الأيوبية والمملوكية قد تضاءلت عنايتهم بمراعاة الدقة والأمانة ، وانكشفت طرقهم السيئة ، وكثر غشهم لعملائهم فى أنواع الصناعات ، وفى كمياتها ، وفى التلاعب بالمكاييل والموازين ، بحيث اننا نجد الشيزرى ومن بعده من مؤلفى كتب الحسبة فى العصور التالية يفيضون فى ذكر هذه الحيل ، ويكثرون من التنبيه على المحتسب بضرورة كشفها ، فكان الصاغة ينفخون على كفة الميزان أو يلصقون قطعة صغيرة من الشمع تحت احدى كفتى الميزان ، أويلصقون أنواعا أخرى براقة[٤١] - يكاد لا يلحظها المشترى - لصقا لا يكاد يعرف أو يزنون بوحدات غير قانونية .

ولذلك كان المحتسب يأمر أصحاب المكاييل والموازين بمسحها من الأقذار والأدهان العالقة بها ، وأن يكون على علم تام بطريقة الوزن الصحيحة فيأمر البياعين باتباعها[٤٢] .

وكذلك يكون على علم تام بالطرق والحيل التى يتبعها الباعة للغش الخفى فى الميزان[٤٣] .

وكان المحتسب فى هذه الحالة ينهى الناس عن تطفيف (انقاص) المكيال والميزان ، ولم يقتصر الغش على انقاص الكيل والوزن فقط ، وإنما يظهر أيضاً فى اظهار العيب واخفائه ، كذلك جميع أنواع الغش والخيانة والتدليس والزيادة والنقصان فى الثمن والمثمون ، كل هذا يعتبر تطفيفا كان المحتسب يقوم بمنعه ، كما كان يراقب الموازين والمكاييل الخاصة بالتجار بين حين وآخر على الدوام ، ويطلب من الباعة استبدال التالف منها أو اصلاحها فى دار العيار المعدة لذلك[٤٤] ، وكان المحتسب يتفقد عيار هذه الصنج على حين غفلة فكان من التجار من يأخذ بعض الموازين وينقعها فى بعض الأدهان المعروفة ثم يغرس فيها رءوس الابر ، ثم يجفف فى الظل فتعود إلى حالتها الأولى ولا يظهر فيها شىء من ذلك[٤٥] .

والراجح أنه للتخفيف من وطأة الحيل ، استعملت فى مصر الأوزان الزجاجية التى لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان ، ولم تكن تستعمل لوزن السلع الثقيلة لسرعة وسهولة كسرها - فقد استعمل لهذه السلع أوزان أخرى من النحاس والمعادن الأخرى[٤٦]أو

---

(٤١) كالجبس المدبر : وهو حجر براق رخو منه أبيض وأحمر وله خاصة التجفيف ويدخل فى تركيب بعض الأدوية : ابن البيطار : المفردات لجامع الأدوية ، جـ ١ ، ص ١٥٩/الشيزرى : نهاية الرتبة التحقيق ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٤٢) النبراوى : نهاية الرغبة مخطوط ورقة ٤/ابن عبدون : ثلاث رسائل فى الحسبة ص ٥٩ .

(٤٣) النبراوى : نفسه ، ورقة ٤ .

(٤٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٤٥) الشيزرى : نفس المرجع ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٤٦) Poole "s. l." Catalogue; see introdction, p. XVI.

الحديد[٤٧] وإنما استعملت الأوزان الزجاجية لتقدير أوزان السكة[٤٨] ، وكانت هذه الأوزان الزجاجية اما قطعاً مستديرة أو اسطوانية مخروطية الشكل ، وكانت خاصة بمصر فمعظمها اكتشف فى خرائبها[٤٩] .

وبعد أن يفيض المؤرخون فى ذكر الحيل التى يلجأ اليها الباعة للغش فى الكيل والميزان ، يقترح أحد مؤلفى كتب الحسبة فى المغرب[٥٠] : «انه لكى يستطيع المحتسب أن يقيم الحجج على التجار ، لا بد أن يأمر الباعة جميعهم بأن يضع كل واحد منهم طابعا ينقش فيه اسمه ويطبع على بضاعته لتتميز عن بضاعة الآخرين ، وهو يضرب مثلا لباعة الخبز فيأمرهم المحتسب بأن يصنع كل واحد منهم لنفسه طابعا ينقش فيه اسمه ويطبع على خبز كل واحد بطابعه ، وبذلك تقوم الحجة به على صاحبه» .

والجدير بالذكر أنه لم يكن يوجد مثل هذه الأنظمة المتقدمة جداً بالغرب آنذاك حيث لم يكن هناك مثل هذه العناية بمراقبة الأسواق .

وكان المحتسب يشرف اشرافاً دقيقاً على أصحاب الحرف والمهن فيما يتعلق بالمجال الاقتصادى ، وكان له دفتر خاص به فى العصر الأيوبى يسمى «دفتر المحتسب» يسجل فيه أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم لكى يعرفهم تماماً ، وكان يخصص لكل حانوت من هذه الحوانيت كمية معينة من الدقيق كل يوم لئلا يختل اقتصاد البلد عن قلة الخبز ويلزمهم بذلك إذا امتنعوا[٥١] ، وكان المحتسب يزن الخبز ، لأن الخبز معلوم الأوزان ، محدود الأسعار ، وكان بعض الفرانين يخرج الخبز من الأفران نيئا حتى يثقل وزنه . وقد اهتم المحتسبون بتوفير الخبز فى الأسواق لأن الشعب كان فى حاجة يومية إليه ولأنه من ناحية أخرى مظنة لوقوع التلاعب فى مقاديره .

واعتاد بعض أصحاب الأفران فى المغرب ألا يتركوا الخبز ينضج ، ثم يطرحوه فى الأسواق ، وفى هذه الحالة كان صاحب السوق يمنع بيعه فى الأسواق ، ويؤدب الفران وصاحب الحانوت . ولكن كان يحدث فى بعض الأحيان أن يتغاضى المحتسب عن أصحاب الأفران لأنهم يؤدون له الرشاوى ، ومن ثم لا يستطيع تأديبهم حفظا لمصالحه الخاصة كما حدث مع بعض محتسبى تونس وتلمسان[٥٢] .

---

(٤٧) Ency .IsL: Art. Sanadjat.

(٤٨) وذلك منذ عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٩هـ) انظر عبد الرحمن فهمى : صنج السكة ، ص ١ وما بعدها .

(٤٩) البرادى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥٠) السقطى : آداب الحسبة ، التحقيق ، ص ١١ .

(٥١) الشيزرى : نفس المرجع : ص ٢١ - ٢٤ /ابن الأخوة : نفس المرجع ، ص ٦١ ، ٩٢

(٥٢) العقبانى : تحفة الناظر وغنية الذاكر فى حفظ الشعائر وتغيير المناكر . مخطوطة بتونس والجزائر والرباط 1353/2577 لقبال موسى : الحسبة فى المغرب رسالة ماجستير ، ص ٤١ وما بعدها .

أما طحانو القمح الذين كانوا مخصصين لطحن قمح المنازل ، فكان المحتسب يشترط عليهم أن كمية القمح التى تطحن لابد أن تؤخذ بالوزن وترد إلى أصحابها بالوزن من غير نقص ، كما كان يشترط عليهم أيضا كتابة اسم صاحب قفة القمح ومكانه على قطعة من القماش وتعلق فى أذن القفة حتى لا تخلط بغيرها(٥٣) .

وكان اللحم يجرى بيعه بسعر محدد مكتوب على ورقة ، والويل لمن أهمل التسعير أو تلاعب فيه بالزيادة أو النقص ، فكان المحتسب إذا استراب فى بائع اللحم ، يرسل صبيا صغيرا للشراء ، ثم يختبر الكمية فاذا وجد نقصا ترصد معاملته لأناس آخرين ، فاذا تأكد لديه عذره ، على حسب جرمه ، فاذا تاب بقى على حاله يمارس نشاطه فى السوق وإذا عاد إلى التطفيف أخرج من السوق ، وقد ينفى من البلد .

وقد لاحظ «المقرى» أن - الحسبة فى الأندلس - أصبحت بمثابة علم يحتوى على مجموعة قوانين وأحكام ، يتدارسها أهل الأندلس ، كما يتدارسون أحكام الفقه لمعرفة القضاء والافتاء بسبب أهميتها ، وتعلقها بالحياة العامة ، وتفرعها إلى عدة ميادين(٥٤) .

كما كان المحتسب فى اشرافه على شوائى اللحم يزن عليهم الحملان قبل إنزالها فى التنور ، ويكتبها فى دفتره ثم يعيدها إلى الوزن بعد اخراجها من التنور ، فان كان الشواء قد نقص منه الثلث فقد انتهى نضجه ، وان كان دون ذلك أعاده إلى التنور فانه لا يزال نيئا(٥٥) .

ولا يختلف هؤلاء عن خبازى الخبز الذين يخرجونه من التنور نيئا حتى يثقل وزنه . وكان المحتسب يباشر وزن الحملان وهى لحم ، لئلا يخفى الشواؤ ون فيها صنج الحديد وثقاقيل الرصاص(٥٦) .

وكان الهرائسيون(٥٧) يغشون عيار الهريسة ، فكان المحتسب يراجع عليهم هذا العيار ، كان يراعى أن يكون لكل صاع(٥٨) من القمح ثمان أواق من لحم الضأن ، ثم ينزل فى القدر بحضرة العريف ويختم بخاتم المحتسب ، فاذا جاء وقت السحر حضر العريف وكسر الخاتم وهرسوها بحضرة العريف(٥٩) .

---

(٥٣) ابن الأخوة : معالم ،ص ٩٠ .

(٥٤) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٥٥) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٣٠ .

(٥٦) نفسه ، معالم القربة ، ص ٩٢ .

(٥٧) الهرائسيون : الهريسة : طعام من خليط القمح واللحم . الشيزرى نفسه ص ٣٦ ، حاشية(١) .

(٥٨) الصاع : مكيال للحبوب يساوى نصف ويبة ، والويبة ثلاث كيلات زيادة : السلوك جـ ٢ ، ص ٧٧٦ حاشية ٤/عاشور : العصر المماليكى ص ٤٣٠ .

(٥٩) الشيزرى : نفس المرجع ، ص ٣٦/ابن الأخوة : معالم ص ١٠٩ - ١١٠

وكان النقانقيون[٦٠] يغشون فى خلط كميات اللحم مع البصل والأباريز والتوابل ، فكان المحتسب يمنعهم من القيام بالخلط إلا بحضرة العريف ليعلم مقدار الوزن[٦١] .

وكان السمانون[٦٢] يرشون الماء على التمر والزبيب ليزيد فى الوزن ، فكان المحتسب يمنعهم من ذلك . كما كان يعتبر عليهم وعلى الشرابيين[٦٣] مكاييلهم وموازينهم[٦٤] .

وكان يمنع أصحاب الحوانيت منهم أن يحتفظوا بدستان من الصنج ، وأن تختم بخواتم الرصاص ، ويكتب عليها المحتسب ويرسم الختم بخطه[٦٥] .

كما كان عريف الفوالين (الباقلانيين) يشرف على موازينهم ويتفقد مكاييلهم ، لأنهم كانوا يأخذون قطعة خشب يحفرونها مكيالا فيكون مثاله طول شبر والمحفور من داخلها أربعة أصابع ، فيغتر الناس بسعتها وطولها ، ولا يعلمون ما المقدار المحفور منها فكان العريف يمنعهم أن يفعلوا مثل هذه الألاعيب[٦٦] .

وكان عريف السماكين يلزمهم أن تكون أرطالهم زائدة على عيار غيرها أوقتين .

ومهما يكن من أمر فكان العريف يشترط على السماكين أيضا أن تكون أرطالهم حديدا مختومة قطعة واحدة بلا حلقة . وإن كانت حجارة فلابد أن تكون مجلدة مختومة بالرصاص[٦٧] . مكتوبا عليها بالحبر بخط المحتسب أوزانها[٦٨] .

وكان المحتسب لا يمكن من يتجر فى «البز» إلا من عرف أحكام البيع وعقود المعاملات ، ويعتبر المحتسب عليهم صدق القول فى أخبار الشراء ، ومقدار رأس المال فى بيع المرابحة[٦٩] . فان أكثرهم يفعلون ما لايجوز ، فمن ذلك : أن أحدهم يشترى سلعة

---

(٦٠) النقانقيون : جمع نقانقى وهو صانع المصارين المحشوة باللحم والتوابل والبصل كما يتضح ذلك من النص نفسه . ويقابله فى العصر الحديث (السجق) .

(٦١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٣٨ ابن الأخوة : معالم ، ص ٩٢ .

(٦٢) السمانون : مفرد سمان : بائعو السمن ، وكان السمان فى مصر فى العصور الوسطى – كالزيات فى العصور الحديثة – كان يتجر فى كثير من حاجات البيوت فضلا عن السمن وغيره من المأكولات السائلة : الشيزرى : نفسه ، ص ٥٨ حاشية ١ .

(٦٣) الشرابيون : جمع شرابى ، صانع الأشربة ، وهى الأدوية السائلة على اختلافها ويقابل الشرابى فى المصطلح الحاضر لفظ «صيدلى» Dozy : Supp, Dict . Ar / الشيزرى : نفسه ، ص ٥٦ ، حاشية[١] .

(٦٤) نفسه ، ص ٥٦ – ٥٨ / ابن الأخوة : نفس المرجع ، ص ١٣٠ .

(٦٥) ابن بسام : نهاية الرتبة ، تحقيق ، ص ٢٧ .

(٦٦) ابن بسام : نهاية الرتبة ، تحقيق ، ص ٢٧ ، ٥١ .

(٦٧) نفسه ؛ ص ٥٣ . (٦٨) نفسه ، ص ٥٩ .

(٦٩) المرابحة فى مصطلح الفقهاء : بيع السلعة بربح معروف للمشترى فيدفعه راضيا فوق الثمن الأصلى : ابن الحاج : المدخل ، جـ ٤ ، ص ٣١ والشيزرى ، نفسه ص ٦٢ حاشية .

بثمن معلوم إلى أجل معلوم ، ثم يخبر برأس المال(٧٠) فى بيع المرابحة ، وهذا لايجوز ، لأن الأجل يقابله قسط من الثمن . ومنهم من يشترى سلعة بثمن معلوم ، فاذا انعقد العقد ، وطلب البائع الثمن ، نقص المشترى منه شيئا ، وهذا لايجوز بعد تمام العقد . ومنهم من يشترى سلعة بثمن معلوم فاذا وجد بها عيبا ، ورجع بالتعويض (الذى يدفعه البائع) عن العيب الذى يوجد فى السلعة بعد بيعها ، يخبر برأس مالها الذى اشتراها به أولا من غير التعويض وكان المحتسب يهتم بكل ذلك . ويفتش على موازينهم وأذرعتهم(٧١)

ومن طريف ما يذكر فى هذا المجال أن يعمل البزازون ذراعاً من خشب ، بعرض الابهام ، طوله أربعة وعشرون أصبعا محزوزة ، وينقش على طرفه الأول اسم الامام ، وعلى الطرف الثانى اسم المحتسب (يتعيشون)(٧٢) به ، ليرتفع الشك فى طول أمتعة الناس ، وعرضها ، فى الزيادة والنقصان(٧٣) .

وكان المحتسب يأمر الحاكة(٧٤) بأنهم إذا نسجوا غزل الناس فيأخذونه بالوزن ، يردونه إلى صاحبه بالوزن بعد نسجه ، فاذا ادعى صاحب الغزل أن الحائك أبدل غزله ، عرض المحتسب هذه المشكلة على العريف(٧٥) .

كذلك الحال بالنسبة للخياطين ، فان كان الثوب المراد خياطته له قيمة كالحرير والديباج ، فلا يأخذه الخياط إلا بعد أن يزنه ، ويرده إلى صاحبه - بعد خياطته - بالوزن أيضا(٧٦) .

وكان المحتسب يمنع القطانين(٧٧) من خلط جديد القطن بقديمه ، ولا أحمره بأبيضه ، وبندف القطن ندفا مكررا حتى تطير منه القشرة السوداء والحب المكسور ، ولا يضعون القطن بعد ندفه فى الأماكن الندية ، فكل ذلك يزيد فى وزنه وذلك أفيد لهم لأن القطن إذا جف ينقص وزنه(٧٨) .

---

(٧٠) ورأس المال هنا هو الثمن الأصلى للسلعة المعروضة للبيع الشيزرى نفسه ص ٦٢ حاشية ١٠ .

(٧١) الشيزرى : نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ - ٦٤/ابن الأخوة : نفسه ، ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٧٢) كذا اوردها المحقق ونحن نرجح قراءتها (يقيسون) وفقا لسياق النص .

(٧٣) ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ٨٠ .

(٧٤) الحاكة : جمع حائك : وهو الذى ينسج الغزل قماشا : لسان العرب .

(٧٥) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٦٥/ابن الأخوة : معالم ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٧٦) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ٦٧/ابن الاخوة : معالم ص ٣٧ .

(٧٧) القطانون : جمع قطان ، وهو الذى يقوم بندف القطن ، ويقابله فى العصر الحديث المنجد ؛ الشيزرى ، نفس المرجع ، ص ٦٩ ، حاشية(١) .

(٧٨) الشيزرى : نفس المرجع ، ص ٧١ ، ابن الأخوة : نفس المرجع ، ص ١٣١ .

كما كان لا يمكن الحريريين من صباغة القز قبل تبييضه ، لئلا يثقل وزنه ، وعدم ثقل الحرير بالنشا ، أو السمن ، أو الزيت ، ويمنعهم المحتسب من أن يجعلوا فى ظهره عقدا[٧٩] .

ويختار المحتسب للصاغة عريفا عليهم . خبيرا بصناعتهم ، بصيرا بغشوشهم ، فكان يمنعهم من بيع أوانى الذهب والفضة والحلى المصنوعة إلا بغير جنسها ، ليحل فيها التفاضل ، فان باع الصائغ شيئا من الحلى المغشوشة لزمه العريف أن يعرف المشترى مقدار مافيها من الغش ليكون على بصيرة ، وإذا أراد صياغة شىء من الحلى لأحد فلا يسبكه إلا بحضرة صاحبه ، بعد تحقيق وزنه ، فإذا فرغ من سبكه أعاد الوزن وان احتاج إلى لحام فإنه يزنه قبل ادخاله فيه ولا يركب شيئا من الفصوص والجواهر على الخواتم والحلى إلا بعد وزنها بحضرة صاحبها[٨٠] .

وكان نائب المحتسب لا يمكن الصيارفة أن يبيعوا الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، إلا مثلا بمثل ، يدا بيد ، فان أخذ الصيرفى زيادة على مثل لا يجوز ذلك ، كما لا يجوز بيع الخالص بالمغشوش ، ولا بيع المغشوش بالمغشوش من الذهب ، والفضة كبيع الدنانير المصرية[٨١] بالدنانير الصورية[٨٢] أو الصورية بالصورية . . . لوجود الجهل ، بمقدارها ، وعدم التماثل بينها أو اختلاف قيمتها ، وكان المحتسب يهتم بكل ذلك كما يهتم بموازينهم ومكاييلهم أيضا[٨٣] .

ومما هو جدير بالذكر أن الشيزرى وابن الأخوة يذكران هذه الغشوش لا على أنها أمور افتراضية قد تقع أو لا تقع ، وإنما يذكرانها باعتبارها حوادث شائعة اشتهر أمرها بين أهل

---

(٧٩) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ٧١ ، ابن الأخوة : معالم ، ص ١٣١ .

(٨٠) نفسه ، ص ٧٧ ، نفسه ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٨١) الدنانير المصرية هى الدنانير القديمة التى ضربت فى عهد الفاطميين الأوائل وقد احتفظت بعيارها على مر السنين الشيزرى : نفس المرجع ، ص ٧١ حاشية ٨ عن : De Bouard : I, Evolution Monetaire de I, Egypte Medievale p. 448. والصراف : هو الذى يتولى بيع السلعة أو العملة بعضها ببعض بشروط خاصة والصرف : هو عقد لبيع السلعة أو العملة بنفس هذه الشروط . لسان العرب . Ency. Isl: Art. Sarf.

(٨٢) الدنانير الصورية : هى الدنانير التى استخدمها أهل الشام والعراق فى معاملاتهم منذ أيام الفاطميين وكان ضربها بمدينة صور بالشام ولذا نسبت إليها ثم سقطت تلك المدينة فى يد الصليبيين (سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤م) فلم يبطل ضرب الدنانير الصورية بها إلا بعد وفاة الخليفة الآمر الفاطمى على أنها ظلت متداولة بين المسلمين مدة طويلة ونقشت صور ملوكهم على وجوهها : القلقشندى : صبح جـ ٣ ، ص ٤٤١/الشيزرى نفسه : ص ٧١ حاشية ٩ .

(٨٣) الشيزرى : نفسه ، ص ٧١ - ٧٥/ابن الأخوة : نفسه ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

العصر ، وهما ينبهان على ذلك حين يقول كل منهما :

«وقد أعرضت عن أشياء كثيرة فى هذا الباب لم أذكرها لخفى غشها ، مخافة أن يتعلمها من لا دين له ، فيدلس بها على المسلمين . وإنما ذكرت فى هذا الباب وفى غيره ما قد اشتهر غشه بين الناس ، ويتعاطاه كثير منهم ، وأمسكت عن أشياء غير مشهورة»(٨٤) .

وإشراف المحتسب على هذه الفروع من الأنشطة الاقتصادية التجارية والصناعية ، إنما هو واجب دينى أولا ثم اقتصادى اجتماعى ثانيا ، فكان المسئولون يهيئون له جو هذا الإشراف ، بالمساعدة من جانبهم(٨٥) أحيانا ، وبالسماح له باختيار الأعوان والنواب والمساعدين(٨٦) أحيانا أخرى ، بحيث إنه كان لا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها(٨٧) حتى يتسنى له القيام بهذه الواجبات العديدة ، وحتى يستقيم له الإشراف على هذه الفروع المتنوعة من الحياة وهذه الجوانب الكثيرة كما شهدت بذلك مؤلفات الحسبة .

وما قلناه عن أوجه النشاط الاقتصادى التى يقوم بها المحتسب لا تعنى ضرورة توفرها على الدوام بحيث لا يخرج عن دوره فيها ولا يتعداها - فالحق أنها خطوط عامة لما يقوم به المحتسب عادة ، ومع ذلك فإنا نراه فى ظروف أخرى مثل المجاعات والأزمات الاقتصادية - نراه وقد تزود بصلاحيات جديدة لم تكن له من قبل بحيث يتمكن بها من مواجهة تلك الظروف الجديدة . وسنكتفى بذكر عدة نماذج لأبرز هذه الأزمات شدة وعنفا وسنعرض لأسباب حدوثها ، وأبرز نتائجها الاقتصادية ، المجهودات التى بذلها المحتسبون فى توفير وسائل العيش اللازمة للأفراد أثناء هذه الأزمات ، ثم المجهودات التى بذلوها لتحقيق مستوى اقتصادى أرقى للدولة بعد التخلص من هذه الأزمات .

وقد وضح شيخ المؤرخين - المقريزى - أن مهمة المحتسب لم تكن مهمة سهلة ولا هينة خاصة فى فترات الأزمات الاقتصادية العنيفة التى أصابت مصر ، فقد ساعدته تجاربه الخاصة التى اكتسبها أثناء توليته وظيفة الحسبة بالقاهرة (٨٠١ - ٨٠٢ هـ) على معالجة هذه الموضوعات فى دقة العالم بخبايا الحياة الاقتصادية . ولكتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» - وغيرها من الرسائل الصغيرة التى كتبها(٨٨) - أهمية كبيرة فقد عرض بالتفصيل لما

---

(٨٤) الشيزرى : نفسه ، ص ٤٧ - ٦١/معالم ، ص ١٠٧ .

(٨٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤/برناور : مقالة الضبطية ، العدد ٨ ، ص ١٧ .

(٨٦) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠ ، ١١ ، ١٢/المقريزى : الخطط ج١ ص٤٦٣ .

وإغاثة الأمة ، ص ١٨ - ١٩/ابن الأخوة : معالم ، مخطوط الفصل ٦٥/ابن بسام نهاية الرتبة ، تحقيق ، ص ١٨ .

(٨٧) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

(٨٨) مثل : شذور العقود فى ذكر النقود ، أو النقود الإسلامية التى حققها الأب انستاس مارى الكرملى .

اجتاح مصر من كوارث الغلاء والمجاعة منذ ما قبل الطوفان إلى عصره(٨٩) ، وهو المؤرخ العربي المصري الأول الذي تعرض بالبحث العلمي لهذه الناحية الاقتصادية بل والاجتماعية أيضا .

وقد حاول المقريزي في تصويره دقائق الحياة الاقتصادية - وما صاحبها من حدوث مجاعات وغلو في الأسعار في مصر - أن يتقصى أسباب هذه الظواهر بروح منطقية وأساليب منهجية ، بل إنه اقترح بعض الوسائل الاقتصادية السليمة لعلاجها في العهود المختلفة .

وهو يرى أن أسباب حدوث الأزمات الاقتصادية وما ساد من فساد ليس دائما هو نقص النيل فقط - كما زعم الناس - بل إن وراء ذلك ثلاثة أسباب جوهرية أخرى هي :-

أولا : «أن ولاية الوظائف السلطانية والمناصب الدينية - كالوزارة ، والقضاء ، ونيابة الأقاليم ، وولاية الحسبة ، وسائر الأعمال - كانت تتم بالرشوة ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل ، وبذلك استطاع كل جاهل ومفسد وظالم وباغ الوصول إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة ، لتوصله بأحد حواشي السلطان ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال ، فلم يكن بأسرع من تقلده ذلك العمل وتسليمه إياه» .

والسبب الثاني : غلاء إيجار الأطيان ، وزيادة نفقات الحرث والزراعة على مبلغ ما تغله الأرض من المحصول .

أما السبب الثالث : فهو رواج الفلوس النحاسية في المعاملات ، على حين ينبغي أن يكون التعامل بالذهب والفضة(٩٠) . وقد كان أساس التعامل في مصر الذهب منذ الفتح الإسلامي(٩١) ، ثم ضربت العملة النحاسية لاستخدامها في شراء الأشياء البسيطة مثل المأكولات وأجور الحمامات ، وشراء الثياب والعطر(٩٢) ، وكثرت هذه الفلوس وراجت ، وتبع ذلك إرتفاع في الأسعار ، وتأثرت الناس على اختلاف رتبهم من : موظفين وتجار وأرباب معايش وأصحاب فلاحة وفقهاء وأرباب حرف وأجراء وخدم وحاكة وبناة وغيرهم بوطأة الغلاء(٩٣) . ويتناول المقريزي هذه الحالة بقوله : « . . . ولا يعلم في خبر صحيح ،

---

(٨٩) المقريزي : اغاثة الأمة ابتداء ، من ص ٧ وما بعدها تحقيق زيادة والشيال/المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، ص ١٢ وما بعدها/عبد الرحمن فهمي : موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، فجر السكة العربية ص ١١ وما بعدها .

(٩٠) المقريزي : إغاثة الأمة ، ص ٤٣ .

(٩١) المقريزي : النقود الإسلامية ، ص ١١ ط القسطنطينية سنه ١٢٩٨ هـ .

(٩٢) نفسه ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٩٣) نفسه ، ص ٧٥ .

ولا يقم عن أمة من الأمم ، ولا طائفة من طوائف البشر ، أنهم اتخذوا أبدا فى قديم الزمان ، ولا فى حديثه نقداً غيرهما (الذهب والفضة) إلا أنه لما كانت فى المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو بجزء منه[94] .... وكانت الفلوس لا يشترى بها شىء من الأمور الجليلة إنما هى لنفقات الدور .... ثم اشتهر الضرب فى الفلوس عدة أعوام ، وراجت رواجا عظيما حتى نسب إليها سائر المبيعات[95] ....» .

ولا يخفى المقريزى تقززه من ذلك ويصفه صراحة بأنه : «شىء فى غاية القبح ، يستحى من ذكره ... ويرجو أن يزيل الله عن بلاد مصر هذا العار[96]» .

ونتج عن رواج هذه الفلوس نتائج خطيرة أدت إلى حدوث بعض الأضرار ، وإغلاق الحوانيت ، والقبض على البعض وضربهم بالمقارع ، وشنق رجل بسبب ذلك[97] .

ويبدو أن هذه الأسباب قد قاست منها معظم الأمم عامة وتعرضت لها الأمة الاسلامية – ومصر – فى تاريخها الطويل بوجه خاص ، كما أن هذه الأزمات كانت تتفاقم وتنكمش حسب العهود المختلفة التى مرت بها مصر ، وحسب شدة الأزمة نفسها ، وحدتها أو ضعفها ، وما يترتب عليها من نتائج من ناحية ، وحسب سياسة حكامها ، وأمرائها ، وموقف محتسبيها من ناحية أخرى . ويؤيد المقريزى هذا الرأى فى مواضع مختلفة من كتابه ، فنراه أولا يقول : لقد ارتكبت هذه العظائم – التى قلناها – فى جهات الأرض كلها ، عند كل أمة من الأمم : كالفرس والروم وبنى اسرائيل ويونان والقبط ، بل النبط ، والتبابعة أقيال اليمن ، والعرب العاربة ، والعرب المستعربة ، ثم فى الدولة الإسلامية من ظهورها على اختلاف دولها التى قامت بدعوتها والتزمت بشريعتها : كبنى أمية بالشام والأندلس ، وبنى العباس بالمشرق ، والعلويين بطبرستان وبلاد المغرب وديار مصر والشام وبلاد اليمن ودولة الترك وبنى سلجوق ودولة الديلم والمغل بالمشرق ودولة الأكراد بمصر

---

(94) المقريزى : النقود الإسلامية ، ص 67 نشر الكرملى .

(95) نفسه ، ص 69 .

(96) نفسه ، ص 70 – 71 ومن العادات الضارة التى أساءت إلى الحياة الاقتصادية فى بلاد المغرب تزييف العملة ويبدو أنه انتشر بشكل كبير حتى إننا لاحظنا أحد الكتاب يروى خبر انتشار التزييف والغش فى لهجة الضعيف الذى يستغيث لنجدته من داء مزمن : «وأقول ان فساد سكة المسلمين وغش دراهمهم قد عم وقوعه بهذه البلاد المغربية بأسرها ولم يقطع لمادة ذلك الحسم ، حتى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم بغلاء الأسعار فى كل شىء لطى العد فى المبيعات بالزيوف حتى الأكرية فانا لله وانا اليه راجعون .

لقبال موسى : الحسبة فى المغرب : رسالة ماجستير . عن العقبانى : تحفة الناظر وعنية الذاكر فى حفظ الشعائر ، وتغيير المناكر ورقات 328 – 329 .

(97) على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ2 ، ص 141 نشر الكرملى ، ص 71 حاشية 2 وفى المشرق أيضا : د . عبد العزيز الدورى : الحياة الاقتصادية فى العراق .

والشام ، وديار بكر ، ثم ملوك الترك بمصر . . .[98] ثم نراه فى موضع آخر من كتابه يضع جانبا من المسئولية على كاهل الحكام بسبب فساد آرائهم وسوء تدبيرهم وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد والرعية . . . [99]

ولا يعنينا هنا دراسة تطور الأزمات الاقتصادية ، وتفاصيل أسبابها وحوادثها ، ودقائق أمرها ، والنتائج المترتبة عليها ، بقدر ما يعنينا دراسة آثار هذه النتائج على الحسبة وأثر الحسبة عليها ، فقد كانت الحسبة من أعمدة الحياة الاقتصادية فى مصر الإسلامية .

والحقيقة أن هذين الجانبين يستحقان الدراسة . وقد أسعفتنا المراجع بمادة غزيرة عما يتأتى عن الأزمات من مجاعات وغلو فى الأسعار ، وما ترتب عليه من حدوث الطواعين وانتشارها ، ثم موقف الشعب نفسه وردود فعله ، ومطالبته بالخبز ، وما يقودنا إلى بيان أثر الحسبه فى تهدئة هذا الجو العصيب ، ومجهودات المسئولين وأرباب الاحتساب فى هذا الميدان فنراهم وقد تزودوا بصلاحيات جديدة لم تكن لهم من قبل بحيث يتمكنون بها من مواجهة تلك الظروف الجديدة كما سبق لنا القول . وسنكتفى بذكر عدة نماذج لاشد هذه الأزمات .

فيذكر المقريزى أن : « الأزمة التى حدثت فى عهد الخليفة الفاطمى » الحاكم بأمر الله أدت إلى تعذر وجود الخبز فى « العشايا » [100] ، فأمر أن لا يباع القمح إلا للطحانين ، وشدد فى ذلك وكبست عدة حواصل ، [101] وفرق مافيها من القمح على الطحانين بالسعر . واشتد الأمر ، وارتفع السعر ، ولحقت الناس من ذلك شدائد عظيمة وكظ الناس الجوع ، فاجتمعوا ، واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر لهم ، وسألوه ألا يهمل أمرهم . فركب حماره ، ووقف ، وقال : « أنا ماض إلى جامع راشدة[102] فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعا يطؤه حمارى مكشوفا من الغلة لأضربن رقبة كل من يقول لى إن عنده شيئا منها . فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشونها فى الطرقات ، وبلغت أجرة الحمار فى حمل النقلة الواحدة دينارا ، فامتلأت عيون الناس وشبعت نفوسهم . وخير أرباب الغلات فى أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره بما فيه من الفائدة المحتملة لهم ، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع شىء منها إلى

---

(98) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٦٠ - ٦١ .

(99) نفسه ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(100) أى بعد العشاء .

(101) بنى الخليفة الحاكم بأمر الله هذا الجامع (سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢م) بجنوبى الفسطاط حيث نزلت قبيلة راشدة أبان الفتح العربى لمصر ، وهذا أصل تسميته بهذا الاسم . القلقشندى : صبح ، جـ٣ ، ص ٣٤٥/المقريزى : المواعظ ، جـ٢ ص ٢٨٢/أبو المحاسن : النجوم جـ٤ ص ١٧٧ .

(102) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ١٦ - ١٨ .

حين دخول الغلة الجديدة ، فاستجابوا لقوله ، وأطاعوا أمره ، وانخفض السعر ، وارتفع الضرر . [١٠٣] كما أخذ الطحانين وخازنى الغلة ، بالشدة والعنف ، وقد اعتبرهم الطبقة المسئولة عن خزن الغلة وزيادة الأسعار ، لما كانوا يبغونه من الحصول على الأرباح ، و[١٠٤] جماعة من الطحانين وشهروا وأمروا بعدم التصرف فى بيع الغلة إلا بحضور المحتسب ، ولا يخرج قدح واحد من القمح إلا ويقف عليه « سليمان بن عزة المحتسب . »[١٠٥]

والحاكم إنما يعرض لهذه الحلول بصفته محتسبا ، فقد كان يتولى الحسبة بنفسه [١٠٦] أحيانا ، ويقلدها غيره [١٠٧] أحيانا أخرى .

ونتج عن هذه العوامل السابقة أن اشتط الباعة فى رفع الأسعار ولم يكترثوا بقوانين ولوائح الحكومة ، وكلما حاولت الحكومة تحديد أسعار المواد الغذائية مثل الخبز والجبن والزيت [١٠٨] كلما عمل السوقة على إخفائها[١٠٩] .

أدت هذه الأمور إلى منع المحتسب من مباشرة مهامه ، كما أدت إلى عجزه عن القيام بما يجب عليه من إصلاح الموازين واعتبارها ، والاحتياط على الصناع والتجار ومنعهم من التقصير والإهمال [١١٠] . كما أدت أيضا إلى انتشار روح التذمر والسخط بين فئات الشعب وانقسامهم ما بين راض ومعارض ، ففى كثير من الأحيان كان يصدر أمرا بالتسعير الجبرى

---

(١٠٣) المقريزى : نفس المرجع ، ص ١٣ - ١٤ .

(١٠٤) وذلك خلال الأزمة التى حدثت فى الفترة من ٣٥٩ - ٣٦١ هـ المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٨ .

(١٠٥) ابن اياس : بدائع ، جـ ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(١٠٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٨٦ ، جـ ٤ ، ص ١٦٠ عن تفاصيل هذه المجاعات أنظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٩٠٠ ط أوربا .

المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٨ .

السلوك : جـ ١ ، ص ٥٨ ، ص ١٥٦ ، جـ ٢ ، ص ٧٧٣ - ٧٧٤ وما بعدها .

إغاثة الأمة : ص ١٦ - ١٨ - ٢٦ - ٢٨ - ٢٩ .

أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٥ ، ص ٣٣٩ ، جـ ٦ ، ص ٣٩٤ ، ٧٦٠ - ٧٦١ .

ابن اياس : بدائع ، جـ ١ ، ص ٦٠ - ٦١ - ٧٦ .

البغدادى : الافادة والاعتبار من ٦٢ - ٦٨ - ٦٩ . Lane Poole : The Story of Cairo P.141 .142.

انظر زكى حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٤ - ١٦ وما ذكره من مراجع . حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ٢٥٢ .

(١٠٧) ابن اياس : بدائع ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ، جـ ٣ ، ص ٥ .

(١٠٨) نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

(١٠٩) الأسدى : التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار مخطوط، ورقة ٠٤٠ .

(١١٠) ابن اياس : بدائع ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

للبضائع من اللحم والخبز والجبن وغير ذلك بقصد علاج أزمة طارئة . فلا يرضى فريق من الناس بهذا التسعير ، وقد حدث أن ثار جماعة من المماليك نتيجة لهذا التسعير : وتوجهوا إلى بيت المحتسب «بدر الدين بن مزهر» وقصدوا حرق بيته فاختفى ، ثم توجهوا إلى الشون ونهبوا ما فيها من القمح والشعير وفعلوا ذلك بشون الأمراء والسلطان (١١١) .

ذلك وكثير غير ذلك يدلنا على أن بعض هذه الاضطرابات كانت تسبب قلقا للحكام والسلاطين أنفسهم ، فقد حدث خلال أزمة من الأزمات التى اجتاحت مصر أن لازم شخص من العوام الصياح تحت القلعة - مقر الحكم - : اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم ! فأخذ وضرب بالمقارع وشهر . (١١٢)

ولم يكن غلاء الأسعار هو الذى يؤدى إلى حدوث مثل هذه الاضطرابات دائما ، فقد كان قلة الغلال والخبز يؤديان غالبا إلى حدوث اضطرابات أشد وأقسى ، ويترتب على ذلك نهب الأفران ، وتتعطل غالب الأسواق عن البيع والشراء (١١٣) ، وينشغل الناس من ذلك إلى تحصيل القوت . وكانت الناس تموت من شدة الازدحام على الخبز ، . « فقد يمر ثلاثة أو أربعة أيام دون أن يرى رغيف خبز على وجه دكان ، أو تمر هذه المدة دون أن يذوق الشخص كسرة خبز » . (١١٤)

وقد أدى ذلك فى نهاية الأمر إلى تعرض محتسبى مصر للأذى والاضطرابات (١١٥) ، وسبب لهم مشقة وعناء كبيرين ، فقد كان الجمهور يعلل غلو الأسعار بظاهرة وجود المحتسب ويتشاءم الناس منه إذا صادف ذلك ارتفاع فى الأسعار ، ومن الأمثلة التى تدعو إلى العجب ما ذكره المقريزى أنه تصادف أن غلت الأسعار وكان على الحسبة محتسب يدعى « بهاء الدين بن البرجى » ، فتشاءم الناس به ولم يلبثوا الا يسيرا حتى وقف الناس فيه (شكوه) إلى السلطان فعاندهم وخلع عليه فرجوه (١١٦) .

وكان هذا سببا من الأسباب التى أدت إلى حدوث ظاهرة جديدة ، وهى سرعة تغيير المحتسبين بشكل لم يكن له وجود من قبل ، ومنهم من كان يعزل نفسه بسبب ما قاساه من مشقة بسبب قلة القمح وعدم وجود الخبز فى القاهرة . (١١٧) ومنهم من كان يعزله السلطان

---

(١١١) ابن حجر : انباء ، جـ ١ ، ص ٦١ حوادث سنة ٧٧٥ التحقيق/المخطوط جـ ١ ورقة ٣٨

(١١٢) نفسه ، جـ ١ ، مخطوط ، ورقة ٨٥ .

(١١٣) العينى : عقد الجمان مخطوط جـ ٢٥ القسم ٣ ورقة ٤١٤ح .

(١١٤)ابن اياس : بدائع ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(١١٥) السلوك : جـ ٣ ، المخطوط ، ص ٤١٣ ./العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢٥/١ ، مخطوط ٧ ، ١١ .

(١١٦) العينى ، نفسه ، جـ ٢٥ القسم ٣ ورقة ٤١٣ - ٤١٤ .

(١١٧) العينى عقد الجمان مخطوط ، جـ ٢٥ القسم ٣ ورقة ٤١٤ .

لأنه لم يستطع القيام بمهام عمله على أكمل وجه فى أثناء هذه الأزمات أو - على حد تعبير البعض - عجزهم عن إقامة الوظيفة . (١١٨) وكان البعض الآخر يطلب من السلطان إعفاءه عن منصبه (١١٩) .

وقد دلل « العينى » على صعوبة ممارسة المحتسب أمور حسبته - أثناء هذه الأزمات - ببضع سطور لها أهميتها فى هذا المجال ، « بقوله» . إن الحسبة فى هذه الأيام صعبة ، وأن أهل المدينة (عوامها وسوقتها) لا ينسبون أمور البضائع وأسعارها إلا إلى المحتسب خصوصا الخبز . (١٢٠)

وعلى ذلك كان المحتسب لا يستقر فى وظيفته أكثر من يومين (١٢١) فى بعض الأحيان ، حتى كره بعض المحتسبين تولية وظيفة الحسبة (١٢٢) . وكانت تظل شاغرة عدة أيام . (١٢٣) ويذكرنا هذا بما ذكره العينى من تخوفه من صعوبة مباشرة هذه الوظيفة فى أيام الأزمات وتردده فى قبولها حين عرضت عليه فى سنة ٨١٩هـ حتى فاجأه السلطان بلبس الخلعة ووعده بالمساعدة وعين له أميرا يقال له « أينال الأغر » مساعدا له وعينه السلطان من غير أن يتحدث فيما يتعلق بالوظيفة ، واستمر مع العينى حتى « انصلح الوقت وكثرت الخيرات ثم بطل الأمير الركوب معه » « وانفرد هو بالنظر فى الحسبة » . وقد دعا العينى السلطان أن يوليه منصبا آخر ويخلصه من شرور الحسبة . وبعدما عزل من منصبه صرح بأنه « قاسى مدة اقامته فى هذه الوظيفة تعبا شديدا ونصبا كثيرا فقد كان ينام فى المراكب فى البحر غالب الليالى ، ولم يكن يقطع الركوب ليلا ونهارا » (١٢٤) .

وكما سبق أن ذكر المقريزى أسباب هذه الأزمات ، فقد اقترح عدة حلول لعلاج هذه المحن جميعها ، فلابد أولا من اصلاح ما يأتى :

« استعمال النقود المعتبرة شرعا وعقلا ، وهى الذهب والفضة فقط وما عداها من النقود لا يصلح ، وإن اتبع ذلك فى ضرب الفضة المعاملة فإن الفساد يزول ، وتعود أسعار المبيعات وقيم الأعمال كما كانت عليه قبل المحن .

رجوع أحوال العامة إلى مثل ما كانت عليه من قبل هذه المحن فى أمور الأسعار وأحوال المبيعات .

---

(١١٨) نفسه .

(١١٩) نفسه ورقة ٤٢١ .

(١٢٠) المقريزى : السلوك جـ٣ المخطوط مجلد ١ لوحة ٥٨ .

(١٢١) ابن اياس : بدائع ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(١٢٢) العينى : عقد الجمان . مخطوط ، جـ ٢٥ القسم ٣ حوادث ٨١٩ .

(١٢٣) العينى : عقد الجمان ، جـ ٢٥ القسم ٣ ورقة ٤٢٢ المخطوط

(١٢٤) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٨٠ وما بعدها ، ص ٨٦ .

بقاء ما بأيدى الناس من الذهب والفلوس - اللذين هما النقد الرائج فى ذلك الوقت - على ما هما عليه من غير زيادة ولا نقص مع رد الأحوال والرفه والرخص إلى ما كانت عليه أولا قبل هذه المحن . . . ولو وفق الله من أسند إليه أمر العباد حتى رد المعاملات إلى ما كانت عليه لكان فى ذلك غياث الأمة وصلاح الأمور . . . . ولو وفق الله من أسند إليه أمور العباد إلى رد النقود إلى ما كانت عليه أولا لكان صاحب العشرة دراهم إذا قبضها فضة رآها على حكم أسعار وقتنا هذا تكفيه وتفضل عنه فإن الغذاء الذى قلنا إن قيمته الآن سبعة وثلاثون درهما من الفلوس يدفع فيه الآن ستة دراهم وسدس من الفضة المعاملة ، فإذا ليس بالناس غلاء وإنما نزل بهم سوء تدبير من الحكام . والمقريزى هنا يعرض لهذه الأمور باعتباره محتسبا . بقدر ما هو مؤرخ مصرى ضليع وعلى هذا النحو قد عقد فصلا عنونه بقوله : فصل فيما يزيل عن العباد هذا الداء ويقوم لمرض الزمان مقام الدواء .(١٢٥)

ورغم وجود هذه الاضطرابات ، وانتشار المجاعات ، ورفع الأسعار لا يخلو الأمر من بذل الكثير من الجهود للمحافظة على سمعة البلاد الاقتصادية وتوفير السلع الضرورية ، ومعالجة الأزمات . وقد قام المؤرخون بعرض لطيف للأساليب التى كان أرباب الحكم وأرباب الاحتساب يتبعونها لتخفيف آلام المجاعات وأمراضها عن الشعب المصرى : فكان المحتسب يدعو إلى الصوم ثلاثة أيام ، يخرجون بعدها إلى الصحراء ويدعون الله فى رفع الطاعون ويصلون صلاة الاستسقاء .(١٢٦)

ولا شك أن هذه المسألة مرتبطة بعقيدة الشعب وإيمانه بأن الله قادر على حل الأزمات والمشكلات فالشعب المصرى متدين منذ أقدم العصور . ولذلك كان المصريون يصلون صلاة الاستسقاء حين ينخفض النيل . «وعندما مرض أحمد بن طولون ، خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل إلى الصحراء يدعون له ولزم المسلمون المساجد يختمون الختمات ويدعون له(١٢٧)» .

وزيادة على ذلك فربما كان المسئولون يهدفون من وراء هذا العلاج - الصوم ثلاثة أيام - إلى عدة أمور :-

أولاها : المساهمة فى علاج الأزمة الاقتصادية ذاتها والتخفيف من المجاعات عن طريق تعويد الناس التقشف بالصوم ، فصومهم ثلاثة أيام سيؤدى إلى توفر الخبز فى الاسواق وعدم تهافتهم عليه طوال مده صومهم كما سيؤدى إلى التقليل من استهلاك المواد الغذائية الأخرى بقدر الإمكان .

---

(١٢٥) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة تحقيق زيادة والشيال .

(١٢٦) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢٥/٣ ورقة ٤١٣ ابن حجر : انباء مخطوط ، جـ ١ ورقة ١٤٥/أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٦ ص ٣٩٤ .

(١٢٧) العينى : عقد الجمان مخطوط جـ ١٤/٣ ورقة ٤٥٩ .

وثانيهما : العلاج الخلقى الاجتماعى ، ذلك بأن الصوم ليس صوماً عن المأكل والمشرب فقط وإنما هو كذلك صوم عن الأعمال المنكرة ، والخروج عن أصول الدين ، وكان المحتسب يكلف بمنعها .

وللتخفيف من حدة الأزمات الاقتصادية كان السلطان والأمراء - فى بعض الأحيان - يضطرون إلى فتح شونهم الخاصة وبيع ما فيها من القمح بأسعار رخيصة حتى تزول الأزمة(١٢٨) . كما كان المحتسب يجمع الباعة ويأمرهم بخفض أسعار المبيعات(١٢٩) . ويبدو أن المحتسب كان يجد - فى بعض الأحيان - إصرارا من الباعة على رفض أوامره برخص الأسعار فلم يكن منه إلا أن يتبع معهم الشدة ، ويحدثنا «العينى»(١٣٠) عن محتسب القاهرة المدعو «شمس الدين محمد بن البجاسى»(١٣١) أنه قتل جماعة من السوقة تحت الضرب .

وكما كان السلطان هو المسئول الأول والأخير عن التخفيف من حدة هذه المشكلات ، فقد كان المحتسب هو المكلف الأول والأخير أيضاً عن تنفيذ أوامر السلطان للتخفيف من حدة هذه المشكلات الاقتصادية . وإذا لم يجد السلطان نتيجة حاسمة للتدخل السريع من جانب المحتسب كان للسلطان الحق فى سحب اختصاصاته ليسندها إلى أحد رجاله المعروفين بالحكمة والشدة ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك إسناد الحسبة على الخبز فى أيام الغلاء (سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) إلى والى القاهرة «علاء الدين بن حسن المروانى(١٣٢) ، بعد سحبها من المحتسب «نجم الدين محمد بن حسين بن على الأسعردى» ، وذلك فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ قل الخبز فى الدكاكين ، واختفى القمح من الأسواق ، وتزاحم الناس على شراء الخبز مع ارتفاع أسعاره ، ولم يستطع المحتسب ، وقتذاك ، أن يعالج الموقف ، فاستدعاه السلطان وأنكر عليه ، وأسند شون الخبز إلى هذا الوالى الذى ضرب عددا من الطحانين والخبازين بالمقارع ، ورتب على كل فرن شاهداً لحصر ما يحمل إليه من الدقيق المرتب له ، وعمل معدل كفاية البلد فى كل يوم ، ووزع القمح عليهم على قدر كفايتهم ،(١٣٣) ثم رتب على كل حانوت أربعة من أعوانه ، ومعهم

---

(١٢٨) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(١٢٩) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٣/٢٥ ورقة ٤٥٧ .

(١٣٠) المقريزى : السلوك : جـ ١/٣ مخطوط لوحة ٤٤/العينى : نفس المرجع جـ ٢/٢٥ ورقة ٢٠٨ .

(١٣١) يصفه العينى : بالإقدام والجرأة كما يتهمه بالجنون إلى جانب علمه الغزير بالفقه .

(١٣٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(١٣٣) المقريزى : السلوك : جـ ٢/٢ ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٦ .

المطارق[134] لرفع الناس ومنعهم من النهب ، فثار الجمهور ، واضطر السلطان والأمراء إلى فتح شونهم وبيع القمح بأسعار رخيصة فانفرجت الأزمة[135] .

وإذا لم يجد السلطان شخصاً جديراً لعلاج الأسعار تصدى بنفسه - لهذا الأمر ، ففى (سنة٨١٨هـ/١٤١٥م) نادى السلطان «المؤيد أبو النصر» بالأمان والاطمئنان ، وأبطل أعمال المحتسب ، ونادى ألا يتكلم أحد فى سعر الغلال فإن الأسعار بيد الله ، وما ثمة محتسب إلا المقام الشريف ، وأن أحدا لا يزاحم غيره على الأفران ، ومن خالف ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، ويتصدى السلطان بنفسه للنظر فى أمر القمح وتوفيره بسرعة لبث الطمأنينة فى نفوس الناس[136] . وكان السلطان غالباً ما يحدد كميات معينة من القمح للطحانين ، وكميات أخرى من الدقيق إلى الفرانين لخبزها[137] . كما كان السلطان يخصص أموالاً كثيرة لحل هذه الأزمات .

ويبدو أنه كان هناك طبقة من تجار الغلال وسماسرتها والأمراء أيضاً ، تعتبر مسئولة إلى حد كبير عن ارتفاع الأسعار ، فقد كانوا يستغلون أموالهم فى شراء الغلال ، ويحرصون على خزنها «وتخبيتها» ويهدفون من وراء ذلك إلى زيادة الأسعار ثم الحصول على الأرباح ، أو كانوا يخلطون القمح بما يريدون من أصناف الحبوب ، وإذا طالبهم المحتسب بإخراج القمح يحلفون الأيمان أنهم لا يعرفون للحب طريقا[138] .

وهكذا نجد أن أسباب الغلاء فى هذه المرة أسباب مفتعلة من فعل طبقة معينة هم المختزنون والمحتكرون ، بل والأمراء أيضاً الذين كانوا يلجأون إلى مثل هذه الطرق للحصول على الأرباح ، ولذا لم يتوان المحتسب ضياء الدين يوسف بن أبى بكر بن محمد - الشهير بالضياء بن خطيب بيت الآبار الشامى «من أخذهم بما يستحقونه ، فنراه يلجأ فى حل غلاء الأسعار وتحكم الأمراء فى خزن القمح ، إلى ختم شونهم كلها بخاتمه بعد أن كتب ما فيها من عدد الأرادب ، ودون ما يحتاج إليه كل أمير من الجراية لمؤنته والعليق لدوابه إلى حين قدوم الغلة الجديدة ، ثم طالب بحضور السماسرة والأمناء والكيالين وألزمهم بعدم فتح أى شونة إلا بإذنه . وكان هذا المحتسب بعد ذلك يذهب فى كل يوم إلى شونة فيخرج ما فيها من القمح ، ويبدأ بتكفية الطحانين ، ويباع الأردب بسعر محدد ، ولم يجرؤ أحد على بيعه بأكثر من ذلك . وقد بلغه أن أحداً من الأمراء باع بسعر أكثر من السعر المحدد فضربه

---

(١٣٤) هى عصى من الخشب الخشن .

(١٣٥) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(١٣٦) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢٥/٣ ، ورقة ٤١٣ .

(١٣٧) العينى : نفس المرجع ، جـ ٢٥/٣ ، ورقة ٤١٤ .

(١٣٨) الأسدى : التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ، مخطوط ، ورقة ٥٢ .

المحتسب بالمقارع . وكان السلطان يساعد المحتسب فى تطبيق هذه العقوبات على المخالفين لأوامره . ولم يجرؤ أحد من الأمراء بعد ذلك على فتح شونته إلا بأمر المحتسب .

أما أوامر المحتسب بالنسبة لخازنى الغلة التى لم يظهروها طمعاً فى بيعها بثمن أكبر ، فنجد أنه كان يهددهم بأن من عنده غلة ولم يبعها نهبت(١٣٩) ، أو تعرض لمصادرة أمواله(١٤٠) .

وقد كانت السلطنة نفسها - فى بعض العهود - مسئولة عن حدوث الأزمات الاقتصادية ، فقد حدث فى عهد السلطان برسباى أن أخذت السلطنة تتجر فى بعض المواد الغذائية مثل الصابون والأخشاب والزيت وتبيعها للتجار بأسعار فاحشة . كما تدخل بعض السلاطين للحصول على بعض المكوس التى كانت تفرض على التجار .

ومن المكوس التى أبطلها السلطان الناصر ، «نصف السمرة» ، وهو أن من باع شيئاً فإن دلالته : (سمسرته) على كل مائة درهم درهمان يؤخذ منها درهم للسلطان ، والثانى للدلال (السمسار) . فصار الدلال يحسب حسابه ويخلص درهمه قبل درهم السلطان(١٤١) . ويقال إن السماسرة كانت تأخذ عن الغلال عن كل أردب درهمين(١٤٢) .

على أن الباحث فى تاريخ هذا العصر يلقى ظاهرة خاصة ، غريبة عما عهد فى أرباب الحسبة . ذلك بأننا قد درجنا دائماً على أن نشاهد محتسباً يقوم بأعمال الحسبة المؤسسة على تعاليم الشرع والعرف الاسلاميين ، بحمية دينية ، وبضمير خالص ، وبيد نقية ، أما هاهنا ، ولعلها المرة الأولى على هذا النحو المسرف الذى نتبينه ، فإنا نرى محتسباً أبعد ما يكون عن الحسبة وعما ينبغى أن يكون عليه أرباب الحسبة ، وقد كان لذلك آثاره الاقتصادية البعيدة ، إلى جانب ما كان له من آثارة خلقية ودينية سيئة .

فقد كان يدخل ضمن أعمال المحتسب فى العصر المملوكى جباية الضريبة المعروفة «بالمشاهرة والمجامعة» ، وهى ضريبة تفرض كل شهر وتجبى لصالح المحتسب ، وتفرض على بعض التجار وأصحاب الحرف والصنائع : كالخبازين والطحانين وأرباب المعايش ، والحمالين لأموات المسلمين ، وعلى سكان وقف الجوامع ، كما كانت تفرض على الأسواق

---

(١٣٩) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٦ .

(١٤٠) نفسه : نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ .

(١٤١) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم ١ ، ص ١٥٠ تحقيق .

(١٤٢) نفسه جـ ٣ القسم ١ المخطوط ورقة ١٢ .

يعلق د. طراخان على هذا الوضع بأنه ليس عجيبا فى ذلك المجتمع الإقطاعى أن يكون على هذا البند من الإيراد طائفة من المنقطعين (مصر فى عصر المماليك الجراكسة) ، جـ ٤ ص ٢٧ .

عامة[١٤٣] . وكانت هذه الضريبة غير ثابتة ، فأحياناً تفرض ، وأحياناً تلغى ، وفى حالة جبايتها يترك المحتسب البيع حراً فيتغالى التجار بحجة توفية ما عليهم من هذه الضريبة ، فهم يقولون : «علينا مال نورده للسلطان كل شهر» ، وقد بلغت هذه الضريبة ألف دينار فى الشهر زمن السلطان «قايتباى» ، ولما تظلم منها التجار ألغاها .

ويلخص المؤرخ المصرى «ابن إياس» ما سببته هذه الضريبة من فساد القطاع الاقتصادى فى ذلك الوقت بقوله : «وكان فرض هذه الضريبة من أكبر أسباب الفساد فى حق المسلمين ، لما رأيناه من أن التجار كانت تجور فى أسعار البضائع ولا يجسر أحد أن يكلمهم : «ولذلك فقد أحدث أمر إلغاء ضريبة «المشاهرة والمجامعة» صدى بالغ الأثر فى نفوس الشعب ، فيقول «ابن إياس» : «فارتفعت الأصوات بالدعاء وبالنصر وانطلقت النساء بالزغاريت التى سرت القلوب والأسماع ، وكان يوماً مشهوداً ، وقيلت هذه الأبيات :-

قد جاء سلطان الورى	بعدله فى القاهرة .
مذ رخص الأسعار مع	إبطال المشاهرة .
كم جائع من فرحة	يدعو له مجاهرة .
وكم حزين قلبه	بالكسر أضحى جايرة .
وقد عفا غلالنا	من المكوس الجائرة .[١٤٤]

على أن أمر هذه الضريبة كان غير ثابت - كما قلنا - فعلى الرغم من أن فرضها كان يهدد حياة البلاد الاقتصادية بالفشل ، إلا أنها أعيدت زمن السلطان «الغورى» وكانت أشد وأقسى حتى بلغت حصيلتها نحو ٢٧٠٠ دينار شهرياً .

وقد ارتفع المبلغ المقرر مشاهرة على من ولى وظيفة الحسبة إلى خمسة عشر ألف درهم .[١٤٥]

وفيما يختص بالاسكندرية نجد أن المبلغ المقرر على الباعة لجهة الحسبة بها ، فى كل شهر ، بلغ فى سنة ٨٣٩هـ ثلاثين ألف درهم . وكان ذلك المبلغ يحمل إلى ديوان النيابة حيث إن حسبة المدينة أضيفت إلى نائبها منذ أن تولى النيابة بها فى نفس هذا العام الأمير

---

(١٤٣) يقال إن محتسب الجزائر فى العصر التركى كان يأخذ أجرا محددا على نسبة المبيعات . الحسبة فى المغرب رسالة ماجستير لقبال موسى عن (مجموعة اوامر تركية - ورقات فى الحضارة ٤ - ٥ قسم المخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية رقم ١٣٧٨ .

(١٤٤) ابن اياس : بدائع ، جـ٣ ، ص ١٣ .

(١٤٥) نفسه ، جـ٣ ، ص ١٨ .

غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى - صاحب كتاب «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك[146]» ، وكان هذا الأمير قد تولى وظيفة النائب والحاجب والمشد[147] (سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م) بالإسكندرية ، ويرجع ذلك إلى أنه كان حما للسلطان برسباى[148] .

وعلى الرغم من أن نائب المدينة قد أمر بإبطال ذلك المقرر ، ونقش المرسوم الخاص لذلك على رخامات ثبتها على أبواب البلد ، فقد ظل الأمر معمولا به حتى السنوات الأخيرة من عصر المماليك ، ففي (سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م) أصدر السلطان «طومان باى» ، آخر سلاطين المماليك مرسوماً يقضى بإبطال مقرر الحسبة بثغر الإسكندرية ، وهو - كما جاء فى المرسوم - فى كل شهر سبعة آلاف وخمسمائة درهم[149] .

والجدير بالملاحظة أن المال المقرر مشاهرته قد تناقص من ثلاثين ألف درهم فى (سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م) إلى سبعة آلاف وخمسمائة درهم فى (سنة٩٢٢هـ/١٥١٦م) ، ويدعونا هذا التناقص إلى النظر بعين الاعتبار إلى ما سجله المؤرخ ابن إياس عن مدينة الإسكندرية بمناسبة زيارة السلطان الغورى لها فى سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) وذلك حين يقول : «لم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب .[150]»

ولم يقتصر الأمر على خراب الإسكندرية ودمارها فحسب - كما شهد مؤرخنا المصرى ابن إياس بذلك - بل أثرت نتائجه السيئة على أسواق مصر والقاهرة ، وكان من أثر هذا النظام أن تفنن الباعة وأهل الأسواق فى محاولة التوفيق بين رغباتهم ، وبين رغبات المحتسب ، والحكومة ، غير مكترثين بما يصيب الجمهور من أذى وضرر ، فأسرفوا فى التدليس والغش ، وأظهروا مهارة فى إخفاء الغشوش فى التجارة والسلع المختلفة والصناعات[151] .

---

(١٤٦) الخالدى : المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الإنشاء مخطوط ورقة ١٣٢أ/دراج : مقالة الحسبة .

(١٤٧) شاد أو (مشد) : تفتيش فيقال شاد الدواوين أى الذى يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها ، ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاة . . . وتسمى العملية شد ، فيقال شد الدواوين اى التفتيش عليها . زيادة : السلوك ، جـ١ ص١٠٥ ، حاشية ٢/عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٢٧ .

(١٤٨) زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٤٤ .

(١٤٩) انظر هذا المرسوم فى الملحق (٤) من ملاحق هذا البحث نقلا عن الأستاذ الدكتور دراج : مقالة الحسبة ، ص ١٣١ .

(١٥٠) بدائع ، جـ٤ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ ط استانبول .

(١٥١) ابن الحاج : المدخل ، جـ٤ ، ص ١١ - ١٥ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٦٢ .

والمحتسب فى كل تلك الصور التى عرضنا لها يذكرنا بمنصب «الخولى» المعروف فى أوساط الأسر الإقطاعية فى عصور الإقطاع فى مصر ، فهو يجور على الفلاحين ، ومن فوق الأرض الزراعية الخاصة بسيد «الدائرة» ، ويستنزف أقصى ما يمكن أن يستنزف منهم . إرضاء لسيده و لمطالبه ، وإرضاء لنفسه ولمطالبه ، وتلك أمور لا يقرها الشرع ، ولا تتفق مع الخلفية الدينية للحسبة .

وقد كان فى طوق المحتسب ، إن أراد ، أن يرفع صوته بالاستنكار إلى السلطان ، أو إلى من بيدهم الأمر ، على فداحة هذه الضرائب . كما كان بوسع المحتسب ألا يتجاهل مطالب الجمهور والناس وشدة وطأة ارتفاع الأسعار عليهم من ناحية ، إلى جانب ماكان ظاهراً للعيان من غش التجار وتدليسهم فى البيع والشراء من ناحية أخرى .

وأخيزاً كان عليه ، إن لم يجد شيئا من ذلك ، آن يتخفف من أعباء عمله ، ويطلب إعفاءه من أدائه ، وذلك أضعف الإيمان .

والحق أن غالبية من تولوا الحسبة فى ذلك العصر كانوا يتكالبون ويتنافسون على هذا المنصب ، باذلين كل مرتخص وغال فى سبيل الفوز بهذا المنصب ، كما سبق أن ذكرنا ، بحيث اختفت هذه الصورة القديمة الرائعة لمنصب الحسبة ، منصباً دينياً ، يتولاه ذوو العفة والاستقامة .

ويتبين مما سبق أن وظيفة المحتسب نشأت فى بداية أمرها متصلة بالمجال الدينى ثم بالمجال الاقتصادى خاصة الإشراف على المكاييل والموازين ، ثم لابد أن اختصاصات متوليها ازدادت حتى شملت المشاكل الناجمة عن الصناعات والسوق ، ولابد أن هذه الاختصاصات تعقدت بتعقد الحياة الاقتصادية ، وبازدياد الذين كان خلقهم أضعف من أن يوقف جشعهم وتحايلهم ، ونظرا لكثرة أهل السوق وأثرهم فى الحياة العامة فى توجيه الأخلاق العامة ، فإن وظيفة المحتسب أخذت تدريجياً تتعدى مسئولياتها . إلى ضبط الأخلاق العامة والإشراف عليها ، وبالنظر للصلة الوثيقة بين الأخلاق العامة والدين الإسلامى فقد اعتبر الباحثون المتأخرون هذه الوظيفة مما تجمع بين الدين والدنيا (١٥٢) .

---

(١٥٢) صالح أحمد العلى : انظر تقديمه لكتاب «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة «لابن بسام» تحقيق حسام الدين السامرائى .

● وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الاجتماعي :

ولوظيفة المحتسب أهمية خاصة فى تنظيم الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى على وجه العموم ، وفى مصر على وجه الخصوص ، فقد أشرف هذا الرجل على ما يقرب من أربعين مهمة من مهام الحياة اليومية فى المجتمع المصرى الإسلامى كما سبق أن ذكرنا(١٥٣) .

وأول اشارة صادفتنا فى المصادر التاريخية لنشاط المحتسب المصرى الاجتماعى كانت فى الدولة الفاطمية ، فالمحتسب إنما يشرف قبل كل شىء على أخلاق أفراد المجتمع ، كما يحرص على توافر الأمانة والأدب بينهم ، والمخالفات المفروض أن يمنعها هى على وجه العموم . . . خرق السلوك المستقيم(١٥٤) ، وهو المسئول عن وقاية المؤمنين من التعرض لمغريات المثل السىء : مثل شرب الخمر والمقامرة ، وقد كانت الحملة على الخمر فى تاريخ الجماعة الإسلامية(١٥٥) هى أحد الأعمال التى تجب على المصلحين الذين يتعقبون الشاربين ، وكان هذا العمل يتسمى باسم «الحسبة» (١٥٦) ، وكان عليه أن يصون الأمة من المعاملات المنطوية على التدليس(١٥٧) .

ويحدثنا المقريزى(١٥٨) أن المحتسب كان ينذر معلمى السباحة ، وقد كانوا مصدر أضرار خلقية ، ويحذرهم من التغرير بأولاد الناس ، فمن فعل ذلك لابد وأن يلقى جزاء .

وكان المحتسب يوقف مضايقة الجمهور ، ويزيل كل ما يعوق المرور ، فيمنع أهل السوق من الجلوس فى الطرقات الضيقة ، كما كان يمنع أصحاب الدكاكين من بروز مصاطب دكاكينهم(١٦٠) عن سمة أركان السقائف(١٦١) إلى الممر الأصلى ، أو إخراج

---

(١٥٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ٤ ، ٥ .

(١٥٤) ديموميين : النظم الإسلامية ، الترجمة ، ص ٢١٠ .

(١٥٥) ابن القيم الجوزية : أعلام الموقعين ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

(١٥٦) ديموميين : نفس المرجع ، ص ٢١٣ .

(١٥٧) جرونباوم : حضارة الإسلام ، الترجمة ، ص ٢١٣ .

(١٥٨) الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

(١٥٩) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٨ .

(١٦٠) المصطبة : بناء من الحجر يقام بجانب وجهة الدكان ويبلغ ارتفاعها نحو المتر ، وسطحها فى مستوى أرضية الدكان ، ويجلس عليها صاحب الدكان مع زبائنه .

الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١ حاشية ٢ .

Lane : The Manners and Customs of the modern Egyptians pp. 322, 563, note 2. ويلاحظ أنه لايزال قسم من البزازين فى العراق يستعملونها .

(١٦١) سقائف مفردها سقيفة : وهى الأسواق المظللة لحماية السابلة من الشمس .

المصاطب فى الطرق الضيقة[١٦٢] ، ويمنع غرس الأشجار فى الشوارع [١٦٣] ، ولا ندرى لماذا هذه الأوامر بالنسبة للأشجار ! هل لضيق الطرقات ؟ أم أنها تعوق المرور ؟ أم أن هذا الأمر خاص بأحياء دون أخرى ؟ وكان المحتسب يمنع ربط الدواب ، أو تجمع السقائين بقواريرهم حتى لا يعطلون سير المارة ، أو رش الماء ورمى فضلات الطعام ، كما كان يمنع احتشاد الحمالين بأثقالهم خاصة الذين يحملون الحطب والتبن حتى لا تمزق ثياب الناس[١٦٤] . وإذا حدث أن بنى قوم فى طريق يسير فيه المارة ، فكان المحتسب يأخذهم بهدم ما بنوه حتى وإن كان المبنى مسجدا لأن الطريق للعبور أو للارتياد وليس للأبنية [١٦٥] .

وكان المحتسب ينفذ لوائح المبانى[١٦٦] ، بالزام أصحاب المنازل المتداعية إلى السقوط بازالتها لما قد يقع من ضررها على المارة[١٦٧] ، كما كان المحتسب يشرف على الأسواق والشوارع والطرقات من حيث ملاءمتها وارتفاعها واتساعها للمارة[١٦٨]

كما كان المحتسب يلعب دور الحكم ، فيما يظهر من نزاع بين أهل الصناعة الواحدة ، أو الصناعات المختلفة[١٦٩] ، كما كان يفصل فى الخلاف بين المقاولين وعملائهم[١٧٠] .

ولعل نظام النقابات الذى وجد فى مصر ابتداء من العصر الفاطمى[١٧١] ، وكان نتيجة ذلك إيجاد تدرج مهنى فى الجماعة الواحدة ، كما وجدت تقاليد معينة لكل صناعة وتجارة ، وبذلك كفلت حقوق طبقة التجار التى كانت تتمتع بمكانة كبيرة فى المجتمع المصرى - فى تلك العصور - بحيث إن مرتبتهم فى رأى المقريزى ، كانت تلى مرتبة المماليك وهم الطبقة الأولى .

---

(١٦٢) Dozy: Supp. Dict. Art.

(١٦٣) ابن الأخوة : معالم : المخطوط ورقة ٥٤ .

(١٦٤) ابن بسام : نهاية الرتبة تحقيق ، ص ١٩/ابن الأخوة : معالم : مخطوطة ورقة ٥٤ باب ٨ .

(١٦٥) الماوردى : الأحكام ، ص ٢٥٨/أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٩٠

(١٦٦) جروبناوم : حضارة الإسلام ، الترجمة ، ص ٢١٣ .

(١٦٧) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٢ ، ص ٨٢ .

(١٦٨) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص ١٤ .

(١٦٩) دائرة المعارف : مجلد ٢ ، ص ٧٩ .

(١٧٠) لقبال موسى : الحسبة فى المغرب ، ص ٤٤ عن : Mazaheri : La vie Quotidienne des musulmans. Paris 1964 p. 220.

(١٧١) برنارد لويس : أصول الإسماعلية الترجمة ، ص ١٩٣ .

برنارد لويس : بحث النقابات الإسلامية فى مجلة التاريخ الاقتصادى .

وقد أفرد المقريزى فى كتابه - إغاثة الأمة - فصلا خاصا لذكر طبقات المجتمع وأقسام الناس وأصنافهم ، وبيان جمل من أحوالهم وأوصافهم ، وانتهى به الأمر إلى إعتباره طبقات المجتمع فى مصر سبعة أقسام هى :-

«أهل الدولة ، أهل اليسار من التجار ، الباعة وأصحاب البر وأرباب المعايش ، أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث ، الفقراء وطلاب العلم والكثير من الأجناد ، أرباب الصنائع والأجراء وأرباب المهن والحمالون والخدم والسواس والحاكة والبناة والفعلة ونحوهم ، وأخيرا ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم[١٧٢] .

وكان المحتسب فى العصر الأيوبى والمملوكى يتدخل فى العلاقة بين البائع والمشترى ، ويراعى حسن العلاقة بين الطرفين ويأمر البياعين بصدق القول فى جميع الأحوال[١٧٣] .

وشغلت المرأة جانبا كبيرا من اهتمام الحسبة فكان المحتسب يراقب المرأة ، وما ينبغى أن تكون عليه ، وما يحرم عليها فعله وارتداؤه ، ونحن نعرف من ذلك بعض العادات التى جرت النساء على اتباعها ، فكان المحتسب يمنعهن من الجلوس على أبواب بيوتهن فى طرقات الرجال ، أو أن يخلو رجل بامرأة[١٧٤] ، أو جلوس النساء على أبواب الحوانيت خاصة حوانيت القطانين والكتانيين[١٧٥] فينتظرن الانتهاء من ندف القطن ويتحدثن مع الرجال فى هذه المدة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى مراقبة المحتسب للنساء فى كل خطواتهن وتحركاتهن فى الأفراح[١٧٦] ، وفى العوائد القبيحة التى يتبعنها فى الجنائز والمآتم[١٧٧] ، وسلوكهن وسيرهن فى الطرقات ، والملابس التى كانت النساء ترتديها أيضا .

وكان هذا بعينه هو دور المحتسب الاجتماعى الخطير فى المغرب فكان يحافظ على الأخلاق ، وله مقاومة الخلاعة فى الملبس[١٧٨] .

---

(١٧٢) المقريزى . إغاثة الأمة ، ص ٧٢ - ٧٥ .

(١٧٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٦٣/ابن الأخوة : معالم ، التحقيق ١٣٣ .

(١٧٤) الشيزرى : نفسه ، ص ١٤ .

(١٧٥) نفسه ، ص ٦٩ - ٧٠/ابن الأخوة : نفس المرجع ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(١٧٦) السنامى : نصاب الاحتساب ، مخطوط ، ص ٩٤ .

(١٧٧) ابن الحاج : المدخل ، ح ٣ ، ص ٢٤٦ .

(١٧٨) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٣ وما بعدها ، التحقيق ./المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٣٣ - ١٣٥ .

ونظرا لازدياد الفساد والمجون فى مصر - فى بعض العهود - فقد مهد بعض الخلفاء الفاطميين لمكافحة هذه الرذائل الاجتماعية بإصدار قوانين مختلفة - قد تبدو أحيانا لقارئها أنها شديدة وعنيفة .

وقد حرص الخليفة الفاطمى « الحاكم بأمر الله » على القيام بأعمال الحسبة بنفسه(١٧٩) فى دولته ، لكنه لجأ إلى إنزال العقوبات الصارمة على من يعصى أوامره رغبة منه فى فرض هيبته على رعاياه(١٨٠) .

كما حرص هذا الخليفة على التجول ليلا فى المدينة للوقوف على أحوال الناس ، ولكى يتيسر له تحقيق هذه الغاية ، وتوطيد الأمن أمر بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت والمحال المختلفة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط(١٨١) ، وترتب على ذلك حدوث تغيير كبير فى نظام الحياة المصرية فصارت المعاملات التجارية تؤدى ليلا(١٨٢) . وقد كانت سياسة الحاكم تتصف فى بعض الأحيان بكثير من العنف مثال ذلك ، أنه لما بلغه أن بعض العناصر استغلت إضاءة الشوارع والطرقات ليلا للعبث والمجون ، فرض قوانين شديدة ، فمنع النساء من الخروج ليلا بعد العشاء ، كما نهى الرجال عن الجلوس فى الحوانيت ، ثم منع الناس كافة من التجول فى الطرقات بعد العشاء إلى مطلع الفجر ، وأتبع ذلك بإصدار قوانين تحرم على الأهلين فتح محلاتهم التجارية ليلا(١٨٣) .

ولما رأى الحاكم أن أوامره السابقة لم تضع حدا للفوضى الاجتماعية التى سادت البلاد . عاد سنة ٣٩٥ هـ إلى إصدار قوانين جديدة ، فمنع النساء من السير خلف الجنازات(١٨٤) ، ثم أصدر فى سنة ٤٠٢ أمرا بمنع خروج النساء إلى الأسواق والحمامات ، وأتبع ذلك صدور مرسوم سنة ٤٠٤ هـ بمنعهم من مغادرة دورهن ، وألا يسمح إلا لعدد نادر منهن ولظروف خاصة كغسالات الموتى ، بالخروج ، وشرط عليهن الحصول على تصاريح تعلق فى أزرارهن حتى يراها المحتسب(١٨٥) .

---

(١٧٩) ابن اياس ، جـ ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(١٨٠) انظر طرق العقاب التى أشار اليها كل من : العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، حـ ١٩/٤ ورقة ٦٨١ ، ابن اياس : بدائع ، حـ ١ ، ص ٥٣ قارن هذه الطرق بالطرق التى ذكرها . S.Lane poole: AHist.P. 125, 126. وقد ذكرت هذه المراجع أن الحاكم كان له أعوان ينفذون سلطته التنفيذية .

(١٨١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٠٥/سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٦١ وما بعدها .

(١٨٢) S.Lane poole : A History of Egypt in the Middle Ages p. 15- 176

(١٨٣) المقريزى الخطط ، حـ٢ ، ص ١٠٨ .

(١٨٤) نفسه ، حـ ٢ ، ص ٣٤٢ .

(١٨٥) ابن اياس ، حـ ٢ ، ص ٢١ - ٢٢ .

كما حظر عليهن التطلع من نوافذ البيوت والوقوف فوق أسطح المنازل . وبلغ من حرص الحاكم على تنفيذ أوامره أنه منع صانعي الأحذية من صنع الأخفاف الخاصة للنساء حتى يتعذر عليهن الخروج من المنازل . كذلك حرم الحاكم الاجتماعات للهو على شواطىء الخليج المصرى بالقاهرة ، فأمر بسد أبواب الدور التى على الخليج والطاقات المطلة عليه(١٨٦) ، كما فرض قيودا على أنواع المأكل والمشرب ، فمنع بيع الزبيب واستيراده حتى لا يصنع خمرا(١٨٧) .

والحقيقة التى يجب الإشارة إليها هنا أن الحاكم هو الخليفة الوحيد الذى أمر بمثل هذه الأوامر .

ومهما يكن من أمر فقد أتت هذه الأوامر والمراسيم بنتيجة فعالة فى زوال كثير من المنكرات التى كانت موجودة ، وانتشار الأمن والطمأنينة بعد ذلك .

وكان من أثر ذلك الإشراف الدقيق والنظام السائد أن ازدهرت الحياة الإجتماعية والاقتصادية وأصبح النشاط على أشده .

وقد صورت لنا كتب الرحالة المسلمين ذلك النشاط ، وسجلت الرحالة اعجابها بثروة البلاد ، ورخائها ، وأمنها ، والتسامح الدينى فيها ، وازدهار فنونها ، وعدالة النظم الاجتماعية فيها .

وقد استطاع الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن يدرس الحياة الاحتماعية فى مصر ، فذكر أنه لم يعرف بلدا يستمتع بمثل ما ظفرت به مصر من الأمن والهدوء ، وقد بلغ من أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم حدا بحيث إن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شىء منها ، وقد لاحظ أن الصناع والعمال فيها يمنحون أجورا مرضية فيقبلون على العمل بسرور وانشراح(١٨٨) .

---

(١٨٦) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

(١٨٧) G. weit: Histoire de la Nation Egyp tienne. Tome Iv.p.201 paris 1937
S.Lane poole: AHist .p. 126.

(١٨٨) رحلة ناصر خسرو ، الترجمة ، ص ٦٤ - ٦٥ . وقد وجدنا أن هذا النظام موجود حتى الآن فى المملكة العربية السعودية فبعض المحلات التجارية لا تغلق أبوابها فى ميعاد الصلاة بل تترك مفتوحة ويسدل عليها ستار حتى عودة أصحابها إليها ، ولم يجرؤ أحد على سرقة أى شىء منها ، كما أن الصيارفة يضعون نقودهم وأموالهم على الأرض ويذهبون للصلاة تاركين الأموال وعليها بعض الحجارة ، ثم يعودون إليها بعد الصلاة ، ولم يجرؤ أحد على سرقة أى شىء منها ومن فعل ذلك قطعت يده . وذلك بفضل وجود المطوعين وهى كلمة كانت تطلق على الرؤساء الذين حلوا محل المحتسبين وأصبحت تطلق الآن على الاعوان ، وهم بمثابة الشرطة الدينية أو الأخلاقية ، ولهم رؤساء ، ويطلقون اليوم على هذه التنظيمات اسم هيئة الأمر

وعلق الأستاذ الدكتور زكى حسن على ذلك بقوله : «والحق أن ناصر خسرو لم يكن سائحا عابرا ، بل أقام فى مصر أربع سنوات ، ودون مشاهداته بدقة وإسهاب ، واستطاع أن يدرس الحياة الاجتماعية عن كثب ، ولم يكن شديد الاهتمام بالنظم الاجتماعية فى مصر فحسب ، بل نراه يعرض لما يصادفه من هذه النظم فى سائر البلاد التى تجول فيها[(١٨٩)] .

على أن مصر لم تلبث أن تغيرت بعد زيارة ناصر خسرو إليها ، فبعد أن كانت تنعم بالرخاء ، دب فيها الضعف ، وحدثت بعض المجاعات والأزمات ولكنها كانت فترات استثنائية أيام نقص النيل .

وقد نالت دراسة هذه الفترات عناية بعض المستشرقين والرحالة الذين اهتموا بوصف ماصاحبها من أحداث مروعة[(١٩)] .

والحقيقة أن مصر ابتليت بحدوث مثل هذه المجاعات فى تاريخها الطويل ، وقد تأثرت وظائف الدولة بوجه عام ، وولاية الحسبة بوجه خاص بهذا الجو الخطير . وقد انعكس هذا فى تصوير كتب الرحالة المسلمين الذين زاروا مصر فى العصور الوسطى فنجد الرحالة ابن سعيد[(١٩١)] الذى زار مصر (سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م) ، يتألم حين يصف «الفسطاط» وأسواقها الضيقة ، والأزيال الموجودة فى الشوارع الى أن دخل إلى المسجد الجامع ، ووجد البياعين يبيعون فى الطرقات أصناف المسكرات والكعك وماسوى ذلك ، والناس يأكلون فى عدة أمكنة منه غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك ، وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل ، قد جعلوا مايحصل لهم منه رزقا ، وفضلات مأكلهم مطروحة فى صحن الجامع ، وفى زواياه العنكبوت قد عظم نسجه فى السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة .

ويتألم حين يصف أنه يسير فى طريق ضيق جدا بين الدكاكين ، ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة ، واستشهد بأمثلة كثيرة بقوله : «ولقد عاينت يوما وزير الدولة بين يديه الامراء وهو يركب فى موكب جليل وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة قد سدت جميع الطرق بين

= بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى تابعة لمنصب المفتى الأكبر للمملكة العربية السعودية د . منير العجلانى : تاريخ البلاد السعودية جـ ١ ، (انظر فصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من ص ٢٨٠ وما بعدها .

(١٨٩) زكى حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ص ٦١ - ٦٢ .

(١٩٠) انظر قائمة المراجع التى ذكرناها سابقاً ص ١٨٩ من البحث .

(١٩١) ابن سعيد : «هو على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربى» ، ولد (سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٤م) ، توفى فى الربع الأخير من القرن (٧هـ/١٣م) ، ومن طريف ما خلفه وصفه للقاهرة والفسطاط نقله المقرى فى كتابه : نفح الطيب وكتاب ابن سعيد هو : «المغرب فى حلى المغرب» . أنظر - ص٦ - ٧التحقيق . زكى حسن : الرحالة المسلمون ، ص ١٢١ .

الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان فى موضع طباخين والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك فى جملتهم[١٩٢] .

ووصف هؤلاء الرحالة والمستشرقين ، وإن امتاز بالدقة فى مختلف الشئون العمرانية والاجتماعية ، الا أن هذا الوصف لاينطبق على مصر الا فى أزمنة المجاعات والأزمات التى ، تعرضت لها فى بعض العصور ، وفيما عدا ذلك فالجميع يشيد بهدوئها ، ورخائها ، وباستقرار أنظمتها الاجتماعية .

ويظهر أن دور المحتسب الأخلاقى والاجتماعى ازداد خطورة فى عهود بعض سلاطين المماليك نظرا لانحدار الأخلاق فى عهدهم ، فقد تطورت دولة المماليك تطورا سيئا بعد عصر السلطان برقوق ، ويظهرنا على ذلك ما قام به المؤرخ الكبير المقريزى[١٩٣] . من تقسيم تاريخ دولتهم الى قسمين .

أولهما : يمتد الى نهاية حكم برقوق سنة٧٩١ هـ : وقد امتاز بحسن الأخلاق وتعظيم الاسلام وأهله ، والمهارة فى الفنون الحربية وذلك لأن المماليك كانوا يجلبون فى سن مبكرة ، فيلقنون مبادىء الفروسية والدين الاسلامى ، ويتشبعون بها .

وكان لهذا الوضع أثر كبير على الحسبة فقد دفعت المميزات التى امتاز بها أغلب سلاطين المماليك الأوائل الى التمسك الشديد للقضاء على المفاسد ، ولنضرب لذلك مثلا بالسلطان «الظاهر ببيرس البندقدارى» : فقد حكى أن تقدم له أحد الصالحين سنة٦٦٥/١٢٦٦م وقال له : «إن القمح الذى جعله الله - تعالى - قوتا للعالم يداس بالأرجل ويعمل منه المزر» [١٩٤] فأصدر أمره بإبطال المزر ، واسقاط ضريبته وكتب المراسيم بذلك وقرئت على المنابر فى مصر والشام .

وفى نفس العام أمر السلطان الظاهر ببيرس بإراقة الخمور ، ومنع البغاء فى مصر والقاهرة فأغلقت الحانات التى كانت مخصصة لذلك ، وأمر بنفى القائمين بها ، وحبست النساء حتى يتزوجن ، وكتب الى جميع البلاد بمثل ذلك . وفى ذلك الوقت حضر الى السلطان شخص يسمى « ابن الكازورنى » وهو سكران فأمر بصلبه بعد حد عظيم ، وعلقت الجرة والقدح فى عنقه ، فلما رأى المستهترون من محبى الخلاعة والمجون ، ماأصاب ابن الكازورنى امتثلوا .

---

(١٩٢) ابن سعيد : المغرب ، ص ٦ : ٧ التحقيق/زكى حسن : الرحالة المسلمون ، ص ١٥٣
Lane poole The story of cairo.p.109

(١٩٣) الخطط ، جـ٣ ، ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ . /العرينى : مقالة الحسبة ، ص ١٦٤ .

(١٩٤) وكان بيعها ممنوعاً بسبب كراهية الحاكم بهذا الشراب وقد أمر بأن تراق الخمور فى الطرقات .
Wiet: op. cit p. 201.

وفى سنة ٦٦٩هـ ١٢٧١م أريقت الخمور وصدر مرسوم بذلك قرىء على المنابر وشدد سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧١ باراقة الخمور وإزالة المنكرات ، وكان يوما مشهودا فى القاهرة [١٩٥] .

ومما يدل على أن الحسبة كان لها أثر عظيم فى دولة الظاهر بيبرس وأنها أشاعت الأمن والطمأنينة ، وحدت من انتشار المنكرات والتظاهر بها ، ما جاء فى رسالة للأديب «ابن دانيال» لما قدم القاهرة فى دولة الظاهر بيبرس ووجد سوق الفجور كاسدة : قدمت من الموصل الى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية ، جعل الله من كب الانعام عهدها وأعزب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة ، وارباب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة ، وهزم أمر السلطان جيش السلطان وتولى « الخوان » والى القاهرة إهراق الخمور وأحراق الحشيش وتبديد المزر ، واستتاب المخنثين ، واللواطى وحجر البغاة والخواطى وشاعت بذلك الأخبار ووقع الإنكار واختفى المسطول فى الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذية ،وصلب ابن الكازورنى وفى رقبته نباذية» .

وفى سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م عين الأمير سيف الدين قدادار - واليا للقاهرة وكان حازماً شديد الطبش فكافح جشع التجار ، ثم أخذ فى مكافحة الخمر ، ومنع تقطيره ، ثم تحرى عن المشتغلين بعصيره ، فأحضر رئيس الحمالين ، وألزمه باحضار من حملوا عنباً ، فلما حضروا عنده ، استملاهم أسماء من يشترى العنب ، ومواضع مساكنهم ، ثم أحضر خفراء الحارات والخطط ، وتعرف منهم على المشتغلين بعصيرها ، وقبض عليهم ، وصب الخمر فى الأقنية والأزقة ثم قام بحملة تفتيشية على الحشيش وأحرق ما وجده منه [١٩٦] .

ومن سلاطين المماليك الأوائل الذين اشتهروا بالتمسك الشديد للقضاء على المفاسد السلطان الناصر حسن فى (٧٥١ هـ/ ١٣٥٠م) فقد منع النساء من لبس القمصان التى خرجت فى كبر أكمامها عن الحد [١٩٧] .

ويصف لنا الرحالة « ابن بطوطة » السلطان الناصر حسن يقول : «انه ذو خلق نبيل ، وفضائل جمة يستمع بنفسه الى الشكاوى والقضايا ، وعاقب فى عهده شاربى الخمر والبغاء عقابا صارما [١٩٨]

والقسم الثانى : هو ماتبقى من العهد المملوكى الى الفتح العثمانى ، وهم الذين تصف المراجع العامة عهودهم وأشخاصهم بالضعف فقد كان المماليك يجلبون فى اثنائه رجالا

---

(١٩٥) الشهاوى : الحسبة فى الإسلام ، ص ١١٥ .

(١٩٦) الشهاوى : الحسبة فى الإسلام ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(١٩٧) ابن اياس : بدائع ، جـ١ ، ص١٩٣ .

(١٩٨) رحلة ابن بطوطة كتبها ٧٥٦ هـ جـ١ ، ص ٢٥ .

Lane poole: The story of cairo. p. 186.

فيهم ملاح سفينة ووقاد وخباز[199] وبلان فى حمام[200] . ونحو ذلك فسركوا من غير تربية ، وصاروا أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفسا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين[201] .

وهكذا أدت هذه العود فى نهاية الدولة الى سلسلة من الاضطرابات والفتن الداخلية ، محورها عجز أمراء الدولة عن أن يجدوا فى تكوينهم المملوكى العسكرى متسعا لقبول مبدأ التوريث فى السلطنة . ولهذا وذلك عمل كل أمير من أمراء الدولة لحسابه فى عنف وأنانية واستهتار ، وبدا المجتمع المملوكى فى مصر - والشام - كأنما لكل أمير فيه قانون خاص به يجمع الثروة والنفوذ لنفسه على مقتضاه ، ويبنى المسجد ، والمدرسة والزاوية ، والقبة ، والضريح باسمه استجابة لمظاهر الدين ، أو اشباعا للتقوى ، أو حبا للذكرى ، على أن ذلك كله لم يكن مرجعه ضعف السلاطين والانجال فحسب بل مرجعه كذلك ماطرأ على المجتمع المملوكى المصرى من تغيرات عميقة بسبب الفناء الكبير الذى سنفيض فى الكلام عنه .

وقد كان معظم المماليك قوماً مخاطرين ، لم يترددوا فى التمتع بالحياة وتعطينا كتب الحسبة فى هذا العصر أمثلة كثيرة وكان معظم السلاطين يسرفون فى شرب الخمر حتى أن أحدهم وهو « فرج بن برقوق » جعل شربها من شعائر المملكة ، وذلك منذ عام ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩م ، فكان الأمراء يجتمعون فى الميدان الذى تحت القلعة يشربون ويسكرون بحضور السلطان[202] .

كذلك ابتكر أحد أمراء المماليك واسمه « تمربغا » ابتكر نوعا من الخمور نسبة اليه وعرف « بالتمربغاوى »[203] وأن السلطان بدأ فى سنة ٧٩٧هـ بشرب هذا المسكر[204]

بل انه خصص أيام الأحد والأربعاء للشرب[205] ، كما كان السلاطين يجمعون أرباب الملاهى والمغانى ويأخذونهم معهم عند الخروج للصيد أو فى قصورهم ، ولكل سلطان جوقة منهم حتى بلغ عددها فى وقت ما خمسين جوقة[206] .

---

(١٩٩) المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢٠٠) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ١ ص ٣٨٢ .

(٢٠١) المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، ص٣٤٨ .

(٢٠٢) ابن أياس : بدائع ، جـ١ ، ص٢٦٩ .

(٢٠٣) ابن حجر : انباء : المخطوط ، جـ١ ورقة ٣٨١ .

(٢٠٤) نفسه : التحقيق ، جـ١ ، ص٤٨٧/ابن إياس : بدائع ، جـ٢ ، ص ٨ -٩ .

(٢٠٥) ابن حجر : نفس المرجع التحقيق ، جـ١ ، ص٤٨٩ .

(٢٠٦) المقريزى : السلوك : جـ٣ ، مخطوط - ٤٦ - ٤٧/ابن إياس : بدائع ، جـ١ ، ص٣٠٩- ٣١٠ .

ولتمتع السلاطين بالحياة تركوا المصريين يتمتعون بالحياة أيضا ، فتركوا لهم حرية شرب الخمر وصنعه ، فكثرت الحانات وظهرت فى مصر أنواع متعددة من الخمور[٢٠٧] ، كذلك تعاطى المصريون الحشيش الذى كان يوجد بدمياط والقاهرة وغيرهما حتى أن أحد القضاة أفتى بتحليل تعاطى الحشيش[٢٠٨] فكان له بياعون (ضمان) يدفعون للدولة رسوما[٢٠٩] عنه كما زاد عدد الغوانى[٢١٠] .

كذلك ظهرت فى عصر المماليك « دار الخيالة الساذجة » أو ما كان يسمى وقتئذ « بشخوص خيال الظل » ، أو ظل الخيال ، أو طيف الخيال ، أو مسرح الدمى[٢١١] مثل مسرح العرائس» .

= (التمر بغاوى) شراب مسكر ، يعمل لكل رطل زبيب - ويقال لكل عشرة أرطال - أربعون رطل ماء ويدفن فى ذبل الخيل إلى أن يشتد . ابن حجر : التحقيق جـ١ ص٤٨٧ . /وهو نوع من الخمور نسبة إلى الأمير تمربغا : عاشور : العصر المماليكى ص٤٠٢ .

(٢٠٧) ابن إياس : جـ١ ، ص ٢٦٩ ، ص ٣٠٩ ، ص ٣١٠ .

(٢٠٨) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٧ ، ص ٤٠ .

(٢٠٩) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر تحقيق ، ص ٢٩٩ .

(٢١٠) ويسمون أيضاً «بنات الخطا» ابن إياس ، بدائع ، جـ١ ، ص١٠٤ - ١٠٥ ، جـ٢ ، ص٤١ بنات الخطى وهن أيضاً المخاطى والخواطى والخطاه . Dozy: Supp.I,p. 581 حيث كان لهن لباس خاص يعرفن به وهو لبس الملاآت والطرح ، وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر : المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، ص١٥٦ ، ولهن مكان خاص وهو أرض الطبالة : ابن حجر : رفع الإصر تحقيق ، حـ٢ ، ص ٢٩٩/ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٢٠٣ - ٢٠٥ . التى سميت هكذا بسبب أن أحد الخلفاء الفاطميين وهو المنتصر بالله الفاطمى كان قد منح أرضا إلى امرأة تضرب الطبل عنة فى مناسبة إعلان خلافته بالعراق فعرفت الأرض من وقتئذ بأرض الطبالة ، فكانت الدولة تفرض عليهن ضريبة تشرف على جبايتها ضمان الغوانى ، ويبدو أن هؤلاء كانوا رجالاً ونساء فنسمع عن امرأة ضامنه عندها أسماء النساء البغايا التى تدفع عنهن المال : المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٤٤ ، ١٧١ - ١٧٢/ابن إياس ، بدائع ، حـ١ ، ص ١٧٥ - ١٧٦/ ماجد : دولة سلاطين المماليك ، جـ١ ، ص ١١٧ . ويعلق ابن حجر على ذلك الوضع بقوله : «وكان ضمان المغانى من القبائح الشنيعة ، ما كان أحد يقدر يعمل عرساً حتى يغرم قدر عشرين إلى ثلاثين مثقال ذهب ، وكانوا بمصر والقاهرة لا تغيب مغنية عن بيتها - ولو إلى زيارة أهلها - الا أخذ منها الضامن لها رشوة . وأما ببلاد الريف فكان للمغانى حارة مفردة يعمل فيها من الفساد جهراً ما يقبح ذكره . حـ١ ، ص١٢٧ التحقيق .

(٢١١) ابن دانيال : خيال الظل/أحمد تيمور : خيال الظل واللعب والتماثيل التصوير عند العرب ، ص ١٧ وما بعدها/رشدى صالح : مسرح خيال الظل فى العالم الإسلامى مجلد ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٩ ص ٢٥ وما بعدها/ماجد : دولة سلاطين المماليك ، ص ١١٧ .

منشأ هذه اللعبة غير واضح ، فربما يكون أصلها هندياً ، وإن كان أول من نشرها هم الفاطميون ، ومن بعدهم انتشرت انتشاراً كبيراً فى مصر على يد المماليك فيحكى ابن حجر فى حوادث سنة ٧٧٧ هـ أنه : «وصلت هدايا صاحب اصطنبول من الروم وفى جملة الهدية صندوق فيه شخوص لها حركات ، كلما مضت ساعة من الليل ضربت تلك الشخوص بأنواع الملاهى ، وكلما مضت درجة سقطت بندقة» حـ١ ، ص١٠٦

كذلك كثر أصحاب الملاهى المعروفة فى مصر زمن المماليك بشكل لم يعرف من قبل مثل المناقرين بالديوك ، والمناطحين بالكباش ، وصياح السمان ، والمصارعين والملاكمين ، والمشابكين ، والقرادة الذين يلعبون بالقرود ، والدبابة الذين يلعبون بالدبة(٢١٢) . وكانت الحسبة المثالية تمنع كثيرا من هذه الملاهى العتيقة مثل مغامرة الديوك ومناطحة الكباش وصياح السمان(٢١٣) .

ولم تكن دراستنا لهذا التطور الاجتماعى الخطير مقصودة لذاتها بالطبع وإنما لتوضيح آثاره على الحياة الاجتماعية ، وما نشأ عنه فى الأسواق والمحال العمومية والمنازل من مشاجرات أدت فى بعض الأحيان إلى إهراق الدماء والقتال فى الشوارع مما يعطل مهمة المحتسب (٢١٤) . ويصور لين بول(٢١٥) ما ترتب على ذلك من إغلاق التجار لحوانيتهم فزعين حيث كانوا يفرون إلى منازلهم ، ويوصد الناس من رعبهم الأبواب الكبيرة التى كانت تفصل بين الأحياء والأسواق المختلفة فى المدينة . ومثل هذه الاضطرابات لم تكن قليلة الحدوث ، وكانت دائما تؤثر على حياة طبقة التجار فى القاهرة ، والدليل على ذلك أن السوق العظيم - خان الخليلى - كان يغلق أحيانا لمدة أسبوع كامل ، بينما كانت المعارك تدور فى الشوارع فى الخارج ، وكان تجار القاهرة الأثرياء يقفون خلف الأبواب الضخمة وهم يرتجفون فزعا ورعبا .

وقد تأثرت الوظائف مثل الوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة - تأثرت بهذا التطور الاجتماعى الخطير ، وانحدار الأخلاق فى العصر المملوكى «فقد أصبح لا يمكن التوصل الى أحدهما إلا بالمال الجزيل أوالتقرب إلى حواشى السلطان ، وبلغ كل جاهل ومفسد وظالم وباغ مالم يستطع بلوغه من الأعمال والوظائف الجليلة (٢١٦) .

= التحقيق . وقد كان أساسها التمثيليات أو تقليد الناس ، فكانت تقص الشخوص اللازمة للتمثيليات من جلود البقر أو الجاموس أو الحمير الميتة ، ويعالجونها حتى تصبح شفافة ، ويصبغونها بالألوان ويتركون فتحات فى مفاصلها ، وكان العرض يتم فى المساء حيث يجلس الجمهور أمام الستار وقد اطفئت الأنوار ، وعندما يبدأ اللعب تضاء الأنوار الداخلية خلف الشخوص والستار وقد يعمد من يقومون بها إلى إنشاء المدائح التمهيدية ، وفى النهاية يعاد التسبيح وطلب الغفران ، ولعلهم كانوا يفعلون ذلك ليتحاشوا تزمت رجال الدين . وقد أصبح خيال الظل فى مصر أداة للسرور والبهجة ، ومقاومة السلطان الجائر ولذلك كثيراً ما قاومه سلاطين المماليك وأحرقوه : دولة سلاطين المماليك ، ص١١٩ : باول كاله «منارة الإسكندرية فى خيال الظل المصرى» .

(٢١٢) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ٣ص ٦٢٢/عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٨٨ .

(٢١٣) المقريزى : السلوك ٢/١ ، ص٤٠٦/ابن الأخوة : معالم القربة ، تحقيق ، ص ٢٣٢ .

(٢١٤) فالتر برناور : مقالة الضبطية . . . مجلة روضة المدارس عدد ٢٣ ص٧ لسنة ١٢٨٩ .

(٢١٥) سيرة القاهرة : الترجمة ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢١٦) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٤٣ .

وتدهورت وظيفة الحسبة فى العصر المملوكى ، واستطاع بعض الجهلة التلاعب بها ، فتولاها أصناف عديدة من الناس ، فاستقر فى حسبة مصر فى سنة ٨٠٨ هـ أحد باعة السكر عن طريق الرشوة (٢١٧) ، وفى سنة ٨١٠ هـ تولاها «محمد بن الشاذلى» ، وكما قال عنه ابن حجر(٢١٨) : «أنه كان عريا من العلم ، غاية فى الجهل . كان حردفوشيا ، ثم صار بلانا ثم ترقى إلى أن ولى حسبة مصر ثم القاهرة مرارا بالرشوة » وتولاها فى سنة ٨١٥ - ٨٢٤ فى عهد « المؤيد شيخ » رجل كان يعمل بلانا فى حمامات دمشق وذلك « لدعابة فيه »(٢١٩) . وكذلك سعى أحد المقربين للسلطان « جقمق » فى سنة ٨٥٢ هـ وكان من المشتغلين بتجارة العنبر حتى تولى الحسبة فى القاهرة ، وجمع أموالا كثيرة(٢٢٠) وتولى أحد العوام حسبة القاهرة نيفا وعشرين مرة بالسعى والرشوة(٢٢١) .

وتدهور محتسبو هذا العصر إلى حد أن بعضهم جعل دكته مطعمة بالفضة(٢٢٢) بدلا من أن تكون مظهرا للبساطة الإسلامية . وقد بلغ الأمر أن امتدت أيدى بعضهم إلى السرقة وجمع الأموال ، حتى غدا بعضهم سىء السيرة كالمحتسب « ابن شعبان » الذى ضرب لسوء سيرته(٢٢٣) فأهملت الوظيفة وتعطلت مصالح الناس(٢٢٤) .

ويعلق المقريزى على ذلك بأن « هذا أصبح من أشنع القبائح ، وأقبح الشناعات »(٢٢٥) وانتشار الفساد والرشوة على نطاق واسع أدى إلى اعتقاد المستشرق الدكتور فالتربرناور إلى أنه كان هناك سوق خاصة للصوص سميت « سوق اللصوص » ، حيث يذكر أن مادة السرقة ببلاد المشرق أصبحت حرفة عظيمة لأن اللصوص كانوا يدفعون مبلغا لكى يمكنهم إجراء هذه الحرفة(٢٢٦) .

وفى هذا الجو الصاخب الفاسد خشى الكثير من الفضلاء تولى وظيفة الحسبة ولم يستطع البعض الاستمرار فى هذه الوظيفة ، وعلى رأسهم المؤرخ المقريزى الذى ولى الحسبة مرارا

---

(٢١٧) المقريزى : السلوك جـ٣/١ حوادث سنة ٨٠٨ مخطوط .

(٢١٨) انباء : حوادث سنة ٨١٠ ، مخطوط ، ص ٧٦٢ .

(٢١٩) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ١ ، ص ٣٨٢ .

(٢٢٠) ابن تغرى بردى ، جـ٧ ، ص ٦٠٣ ، ٦٠٤ .

(٢٢١) نفسه : النجوم ، جـ٧ ، ص٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢٢٢) المقريزى : الخطط ، ج٣ ، ص ١٧١/ماجد : دولة سلاطين المماليك ، ص ١٣٠ .

(٢٢٣) ابن حجر : انباء ، مخطوط ، جـ٢ ، ص٦١٣ .

(٢٢٤) ابن إياس : ج٢ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢٢٥) السلوك : جـ٣/١ مخطوط حوادث سنة ٨٠٨هـ .

(٢٢٦) بحث الضبطية ، مجلة روضة المدارس مجلد٤ ، ص٧ .

ابتداء من سنة ٨٠١ هـ ، فلم يستطع أن يبقى طويلا فى وظيفته لعدم قدرته على التوفيق بين عمله وأدبه ، وبين الظروف المحيطة به .

ومما لاشك فيه أن هذا هو الذى حدا بالمؤرخ الكبير إلى التنحى بعد ذلك عن تولى وظائف الدولة الكبرى(٢٢٧) ، وانكبابه وتفرغه لتأليف الكتب القيمة التى تناولت بعضها جانبا كبيرا من أعمال الحسبة مثل كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » حيث أوضح فيه صورة لحالة مصر الاجتماعية والاقتصادية وتعرض لأخبار المجاعات وأسباب حدوثها فى مصر ، كما حوى الكتاب نقدا لاذعا موجها إلى أولى الأمر والقائمين بأمور الدولة ، ورأى الشعب ، وردود فعله وثوراته على هذه الأحوال .

وقد تزعم فريق من أهل مصر المماليك الثورات كرد فعل لهذه الأحوال ، وأرادوا الانتقام من حكامهم ومن محتسبيهم .

وهكذا نجد عموما أن أساليب الحسبة تتجدد بتجدد المنكرات ، فاذا ظهر المنكر وجد بجانبه أسلوب الحسبة يطارده حتى يقضى عليه ، فكانت المراسيم فى الحكومة المصرية تتوالى بتوالى ظهور المنكرات . ولما ظهرت زراعة الحشيش صدرت بعض المراسيم بمنع زراعته والتحذير من تناوله ، هذا عدا المراسيم التى تتضمن تحذير النساء من التبرج ، ومنع لبس ثياب خاصة ، أو لتحديد أطوال الثياب وسعتها وأشكالها ، أو لمنعهن من الخروج إلى المتنزهات ، والمقابر ، والحمامات ، والسير خلف الجنازات ، ومنع النادبات ، ومطاردة الفاسدين كما ذكرنا .

ومن الطريف أن نذكر أن تلك المراسيم كانت تصل إلى الناس بأسلوب اجتماعى مفرد - قد يساهم مساهمة فعالة فى حل مشكلات المجتمع - عن طريق اذاعتها فى المساجد ، وبالمناداة فى الطريق ، وأحيانا مع الجرس ، كما كانت تذاع بالصور المنفرة التى تمثل عقاب المخالفين .

فمثلا : عرضت صورة لامرأة تلبس الزى الممنوع المخالف وقد قتلت حتى تكون عظة وعبرة لغيرها من النساء(٢٢٨) .

ومن ذلك نتبين أهمية الحسبة كوظيفة اجتماعية ، أو كمقوم من مقومات الإصلاح الاجتماعى .

---

(٢٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ، ٢٢٦/السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، جـ٢ ، ص٢٢ - ٢٤ .

(٢٢٨) الشهاوى : الحسبة فى الإسلام ، ص١١٣ .

وإلى جانب تجدد أعباء المحتسب بتجدد المنكرات فى مصر الإسلامية ، نرى أن الحسبة أيضا تنشط بازدهار الحياة الاجتماعية نشاطا كبيرا .

ويعطينا الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فى كتابه[٢٢٩] صورة اجتماعية مشوقة عما كان يحدث فى العصر المملوكى : «فقد كانت حوانيت التجار صغيرة الحجم بحيث نجد أن متوسط مساحة الواحد منها يبلغ خمسة أقدام مربعة ، يكدس فيها التاجر بضاعته ، ويحتفظ فى مقدمة الحانوت بمكان يشبه المصطبة يجلس عليها التاجر ومن يتردد عليه من العملاء والأصدقاء للمساومة أو للحديث ، وذلك أن الحوانيت فى ذلك العصر لم تتخذ محلا للبيع والشراء فحسب بل كان يتردد فيها على التاجر معارفه وأصدقاؤه ليتناقلوا مختلف الحكايات والنوادر ، ولازال هذا الأمر يحدث فى الأحياء الشعبية . ومن المألوف فى مراجع ذلك العصر أن نقرأ عبارة : «وحدث أننى كنت جالسا ببعض الحوانيت» . أو عبارة «وحكى ذلك لأصحابه فى دكانه» . أو عبارة «وكان يوما عنده فى حانوته فحكى له» مما يجعلنا نقدر أهمية الحوانيت فى ذلك العصر بوصفها مراكز إخبارية واجتماعية . وفرضت الرقابة الشديدة على حوانيت التجار هذه ، ودأب بعض المحتسبين - ممن عرفوا بصرامة الرأى - على أن لا يمكنوا ذوى البيوع أن يغبنوا ضعفاء الرعايا» .

ونختتم حديثنا فى هذا الفصل بنص رائع أورده العلامة ابن خلدون يقيم به الدور الأخلاقى الذى يقوم به المحتسب بقوله : «يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ[٢٣٠] فى ضربهم لصبيان المتعلمين . . .»[٢٣١] .

وإذا كان هذا هو شأن الحسبة فى الميدان الاجتماعى فماذا عسى أن يكون شأنها فى الميدان الصحى ؟

---

(٢٢٩) عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٧ / العصر المماليكى ، ص٢٩٨ .

(٢٣٠) يعنى المبالغة فى الضرب والإيذاء : ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٢ ، ص ٥٧٦ حاشية ٧٠٧ التحقيق .

(٢٣١) ابن خلدون : المقدمة ، جـ٢ ، ص ٥٧٦ التحقيق .

الفصـــل الثـالث

وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الصحى

الحسبة كذلك قواعد صحية تهدف إلى المحافظة على سلامة السكان ، ونظافة المدن ، وخططها ، وشوارعها ، والقيم الجمالية فيهـا ، فكان المحتسب يـأمر بـإزالة الـطين من الأسواق والطرقات وشوارع المدينة إذا كثر ، وإذا تراكمت الازبال والأتربة ونحوها كان المحتسب يعيز من يقوم بتنظيف الشوارع وبرشها كل يوم ، وكذلك ينطبق هذا على المرضى الذين يبيعون الأطعمة فى السوق ، فهو يرى أن المحافظة على الصحة العامة تقضى منعهم من ذلك .

وأول إشارة صادفتنا فى المصادر التاريخية عن نشاط المحتسب فى المجالات الصحية فى مصر كانت فى العصر الفاطمى ، وللمحافظة على صحة الناس ، كان المحتسب ونـوابه يفتشون قدور الأطعمة ، ويباشرون محلات الجزارة والمطاعم ، ويشرفون على السقائـين لضمـان تغطيتهم القـرب وعيارهـا[(١)] ، وضمان لبسهم السـراويل القصيـرة الضابـطة لعوراتهم[(٢)]

وقد صدرت فى العصر الفاطمى - فى مصر - من القوانين الصحية ما حظر به على التجار والباعة أن يتركوا بضاعتهم ، ومأكولاتهم ومشروباتهم تعلوها القذارة أو يصيبهـا الغش ، وطوردت الكلاب لنجاستها ، أو لكثرة نباحها ليلا ، أو لغرض صحى كما نشاهد اليوم . وقد بالغ الخليفة الفاطمى الحاكم فى (٣٩٥ هـ/١٠٠٤م) فى قتل الكلاب والخنازير حتى قتلت تقريبا عن آخرها[(٣)] .

---

(١) يذكر المقريزى أن عيار هذه القرب هو أربعة وعشرون دلوا ، كل دلو أربعون رطلا : الخطط ، ج١ ، ص ٤٦٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص٤٦٤ .

(٣) الأنطاكى : «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ١١٦/مشرفة : نظم الحكم بمصر على عهد الفاطميين ، ص ٣٣٥ .
ذكرنا قبل ذلك أن الحاكم كان يتولى الحسبة بنفسه .

وتفيض كتب الحسبة للعصرين الأيوبي والمملوكي فى الحديث عن دور المحتسب ونشاطه فى المجالات الصحية ، وفى تصوير رقابته الشديدة ، بمساعدة أعوانه ، على أنواع الأطعمة التى كانت تباع بالمحلات أوفى الطرقات للتأكد من نظافتها ، وسلامتها ، وصلاحيتها حفظا على صحة الناس - كما يحدث فى زماننا هذا - وفى ترتيب المحتسب السلع المختلفة فى الأسواق كل فى المكان الذى يليق به ، فكان يبعد حوانيت الخبازين والطباخين ممن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار عن حوانيت البزازين والقطانين والعطارين لعدم التجانس بينها ، ولئلا يتطاير منها الشرر فيصيب الأشياء الأخرى وتحدث أضرارا جسيمة[٤] .

ويجدر بنا هنا المقارنة بين المجتمع المصرى والإسلامى عموما وبين أوربا فى ذلك الزمان ، إذ إن هذه الأمور تبين مدى اهتمام القوم بالنظافة فى وقت كانت أوربا فيه متأخرة فى هذا المجال .

● **المحتسب وإشرافه على الحبوبيين[٥] والدقاقين[٦] :**

كان المحتسب يعين عليهم عريفا بصناعتهم ، وكان يمنع بياعى الغلة من خلط جيدها برديئها ، ولا عتيقها بجديدها ، كما كان يأمرهم بغسل الغلة وتجفيفها قبل بيعها ، ويلزم بياعى الدقيق غربلة الغلة من التراب ، وتنقيتها من الزوان[٧] قبل طحنها ، كما كان يمنعهم من خلط دقيق القمح بدقيق الشعير المنخول ، أو بدقيق الباقلاء والحمص ونحو ذلك ، أو ماهو مطحون على رحى منقورة[٨] ، حتى لاتتفتت حجارة الرحى وتختلط بالغلة .

● **اشراف المحتسب على الخبازين[٩] والفرانين[١٠] :**

ومن أشهر وأهم الصناعات التى كان المحتسب يشرف عليها صناعة إعداد الخبز ونضجه ، فقد كانت تحتاج إلى رقابة شديدة نظرا لحاجة الناس الماسة إليها ولارتباطها بالصحة العامة ، وكان المحتسب يختار لهم عريفا بصيرا بصناعتهم ، فكان العريف يشرف على عمل الاستعدادات والتجهيزات الصحية الخاصة باعداد الأوعية والتأكد من نظافتها[١١] ، واعداد الدقيق ونخله ، وغطاء الخبز ، ثم الإشراف على طريقة العجن

---

(٤) الشيزرى : نفس المراجع ، ص ١٢/ابن بسام : نفس المرجع التحقيق ، ص ١٧ .

(٥) الحبوبيين : بياعو الحبوب كما يتضح من النص نفسه وهو يقابل «العلاف» فى العصر الحديث .

(٦) الدقاقين : بياعو الدقيق كما يتضح من النص أيضاً .

(٧) حب صغير مستطيل أحمر مثل سوس الحنطة يجعل الطعام مراً . الشيزرى ، ص٢١ حاشية١ .

(٨) نفس المرجع ، ونفس الصفحة .

(٩) الخباز هو الذى يعد الخبز .

(١٠) الفران : هو الذى يتولى نضج الخبز .

(١١) الشيزرى : ص ٢٢ - ٢٤/ابن بسام : نهاية الرتبة مخطوط ورقة٧ .

نفسها ، فلابد للخباز أن يكون مرتديا ملابس خاصة[١٢] ، وكان عريف الخبازين يأمر الخباز أن يكون ملثما أيضا لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شيء من بصاقه فى العجين ، ويشد على جبينه عصابة بيضاء ، لئلا يعرق فيقطر منه شيء فى العجين ، ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء فى العجين ، وليكن بجواره دائما شخص آخر فى يده مذبة يطرد بها الذباب ، ولابد له أن يستعمل يديه فى العجن ولا يستعمل قدميه أو ركبتيه ولا مرفقيه . ويراقب المحتسب غش الخبازين ويمنعهم من إضافة بعض المواد الغريبة إلى الخبز[١٣] كما كان يأمرهم بتزيين وجه الخبز أمام المشترين . وهذا يعكس لنا مدى دقة المحتسب وتثبته من مراعاة وسائل النظافة ، وتوفر شروطها . ولم يكتمل إشراف المحتسب على الخبازين دون إشرافه على الفرانين فكان يأمرهم بألا يخرجوا الخبز للاستعمال إلا بعد نضجه تماما فى الفرن ، لأن الخبز الغير ناضج ثقيل على المعدة ، وكان يأمرهم بإصلاح المداخن ، وتنظيف بلاط الفرن فى كل ساعة من اللباب المحترق ، والشرر المتطاير، والرماد المتناثر لئلا يلصق فى أسفل الخبز منه شيء وكان يلزم الفران بأن يضع بين يديه إناء فيه ماء وإذا فرغ من الخبز أراق مابقى فى الإناء لأنه إذا بقى فيه تغيرت رائحته ، ثم يغسله مرة ثانية ، ويتعاهد اللوح الخشبى - الذى يستعمله لرص العجين عليه - بالعناية . وإذا كثرت عند الفران ألواح العجين للناس أخرج خبز كل واحد منهم بعلامة يتميز بها على غيره لئلا يختلط الجميع فلا يعرف . وينبغى أن يكون هناك مخبزان ، أحدهما للخبز والآخر للسمك ، وأن يجعل السمك بمعزل عن الخبز ، لئلا يسيل شيء من دهنه على الخبز .

وهكذا كان المحتسب يتعهد الخبز حتى المرحلة الأخيرة وهى إكتمال نضجه[١٤] كما كان المحتسب يتعهد الخبازين والفرانين بالاشراف الدقيق .

- **المحتسب وصناع الزلابية[١٥] :**

يلزم المحتسب أن تكون مقلى الزلابية من النحاس الأحمر الجيد[١٦] ، وتقلى بالشيرج ، وإن لم يوجد فبالزيت الصافى ، ولايشرع فى قليها حتى يختمر عجينها ، وعلامة اختمارها أنها

---

(١٢) يقال لها «الملعبة» وهو ثوب من غير حكم . و «البشت» . وهو رداء من الصوف يلبسه الفلاحون والنساء العجانون . ابن سيده : المخصص ، جـ١٣ ، ص ١٦ ، الشيزرى ص ٢٢ حاشية ٥ ، ٦ .

(١٣) يلجأ الخبازون إلى إضافة بعض المواد إلى الخبز حتى يثقل وزنه وهذه المواد يقال إنها «الجلبان» وهى نوع من البقول ابن البيطار : المفردات ، جـ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ «والبيسار» وهو فول مطبوخ باللبن والسمن «والخشكار» وهو الدقيق الذى تنزع نخالته نفسه جـ٢ ص ٦١ الشيزرى ، ص ٢٤ .

(١٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٢٤ ابن الأخوة : معالم المخطوط ورقة ٦١ وما بعدها الباب ١٢ .

(١٥) صناع الزلابية : نوع من الحلوى ويدخل فى عملها العسل واللوز الشيزرى ص٢٥ حاشية ١ .

(١٦) فأول استعماله يحرق فيه النخالة ثم يدلكه بورق الصلق (السلق) اذا برد ، ثم يعاد الى النار ويجعل فيه قليلا من عسل ويوقد عليه حتى يحترق العسل ، ثم يجلى بعد ذلك بمد قوق الخزف ، ثم يغسل ويستعمل فانه ينقى من وسخه وصدأه الشيزرى : نفسه ، ص٢٥ .

تطفو على وجه الزيت ، والغير مختمر منها يرسب فى أسفل المقلى ، ولا يجعل فى عجينها ملحاً لأنها تؤكل بالعسل ، فتغثى النفس إذا كانت بالملح . وإذا حمض عجينها جعله الصانع خميرا[١٧] .

● **المحتسب والسقائين :**

كان المحتسب يختار للسقائين عريفا عليهم ، وكان هذا العريف بدوره يلزم السقائين عندما يملأون قربهم من ماء النيل أن يبعدوا عن الشطوط لأن الاقذار تتركز عليها ، وكان يأمرهم بأن يتعقموا بعيدا عن الشطوط ليحضروا ماء نقيا نظيفا ، وكان يأمرهم كذلك ألا يحضروا ماء السقاية من حمام ولا مجراه ، ويلزم من اتخذ منهم قرابة جديدة فلينقل بها الماء إلى الطين أياما لأن ماءها يكون متغير الطعم والرائحة من أثر الدباغ ، وكان المحتسب يأذن لهم ببيع الماء إذا زال هذا التغيير .

كما كان المحتسب يباشر لبسهم السراويل لستر عوراتهم ويأمرهم بنظافة قربهم والكيزان التى يسقون بها الناس ونظافة أزيارهم وتغطيتها وعدم استعمال كيزان المجذم والأبرص وأصحاب الأمراض المعدية ، وجلاء الكيزان النحاس وتطيب رائحتها بالمسك والبخور[١٨] .

● **إشراف المحتسب على الجزارين والقصابين :**

كان المحتسب يعين على الجزارين[١٩] والقصابين[٢٠] عريفا بصيرا بغشوشهم ، فكان العريف يمنع الجزارين من ذبح الحيوانات على أبواب حوانيتهم فإنهم يلوثون الطريق بالدم والروث وفى ذلك تضييق للطريق وإضرار للناس[٢١] ، ثم يتعهد عريف الجزارين الإشراف على عمليات السلخ[٢٢] فيمنعهم من نفخ لحم الحيوانات بعد السلخ لأن نكهة الآدمى تغير اللحم وتزفره .

أما إشرافه على القصابين فكان يمنعهم من إخراج اللحم على حد مصاطب حوانيتهم لئلا تلاصق ثياب الناس فيتضررون من ذلك ، وكان يراقبهم لئلا يغشوا اللحوم[٢٣] .

---

(١٧) نفسه ، ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص٤١ - ٤٢ .

(١٨) ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص٢٥ - ٢٦ .

(١٩) سبق تعريف الجزارين فى ص١٦٧ من البحث .

(٢٠) القصاب هو الذى يبيع اللحم .

(٢١) الماوردى : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٦٦ - ٦٧ .

(٢٢) ابن الحاج : المدخل ، جـ٤ ، ص١٨٢ .

(٢٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٢٩/ابن الأخوة : معالم ، مخطوط ، ورقة ١٣٧ .

وأشارت مراجع الحسبة فى المشرق[٢٤] والمغرب إشارات لطيفة عن العادات المتبعة فى بيع اللحم وخلطه بالبطن والمصران خاصة فى مدن المغرب : تونس والقيروان ، وفى مدينة تلمسان ، كان الجزار يخلط مع اللحم شيئا من الكرش ، أو المصران أو الشحم ، على قدر كثرة الثمن وقلته ، وعلى حسب حال المشترى ، فاذا كان يخشى بأسه أضيف للحم شىء قليل أو قد لا يزاد له شىء ، أما الفقير المستضعف فتزاد له مع اللحم ، مقادير كثيرة من الكرش وتعتبر فى الوزن[٢٥] .

وكان عريف القصابين فى مصر يتولى ختم اللحوم والنظر فى صلاحيتها أو عدم صلاحيتها للأكل .

كما كان يلزمهم أيضاً - إذا فرغوا من بيع اللحم وأرادوا الانصراف - أن يأخذوا ملحاً مسحوقاً وينثروه على القرمية التى يقع عليها اللحم لئلا تلحسها الكلاب[٢٦] .

● المحتسب والطباخون :

وكان المحتسب يأمر الطباخين بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب بعد غسلها بالماء الحار[٢٧] .

● المحتسب والنقانقين :

يهتم المحتسب بالنقانقين ، ويجعل مواضعهم التى يصنعون فيها النقانق بقرب دكته ، ليراعيهم بعينه ، فإن غشهم فيها كثير لايكاد يعرف ، وكان يأمرهم بتنقية اللحم وجودته ، ونعومة دقه على القرم النظيفة ، ويقف إلى جانبه حين يدق اللحم شخص بمذبة يطرد بها الذباب . وكان هؤلاء يغشون النقانق بلحوم الروس المفرومة ، أو اللحوم الواقعة الهزيلة ، ومنهم من يرش الماء على اللحم وقت دقه ، ومنهم من يغشها بالفول النابت المقشور والبصل . فإذا فتحتها وجدته عديم اللحم ، وكان المحتسب يكشف كل هذه الغشوش عندما يشق النقانق قبل قليها ، لأنها إذا وضعت فى المقلاة فلا تكاد تعرف لأنهم ينخسونها بالسفود[٢٨] إذا قاربت النضج ، فيسيل ما فيها من الغش وتنضجه النار ، فلا

---

(٢٤) الماوردى : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٦٦ - ٦٧ .

(٢٥) العقبانى : نفس المصدر ، ورقات ٣٤٠ - ٣٤١ .
لقبال موسى : الحسبة فى المغرب ، رسالة ماجستير ، ص٤١ .

(٢٦) الشيزرى : نفس المصدر ، ص٢٩/ابن الأخوة : نفس المصدر ، مخطوط ، ورقة ١٣٧ .

(٢٧) الشيزرى ، ص٣٤/ابن بسام ، التحقيق ، ص٤٤ .

(٢٨) حديدة يشوى عليها اللحم وجمعه سفافيد الشيزرى ، ص٣٩ حاشية٢ .

يعرف ويلزمهم المحتسب أن يكون الدهن الذى تقلى به طيب الطعم والرائحة غير عتيق ولا متغير ، ثم ينثرون عليها بعد قليها الأبريز الطيبة والتوابل المسحوقة الصالحة لها[٢٩] .

المحتسب وإشرافه على الهرائسيين :

كان المحتسب يأمر الهرائسيين بأن يكون دهن الهريسة طازجاً طيب الرائحة ، وقد عمل فيه عند سليه المصطكى والدار صينى[٣٠] ، ويمنع من يغش منهم الدهن من فعل ذلك ، فمنهم من كان يأخذ عظام البقر والجمال ، ثم يسلقها سلقاً جيداً ، فيخرج منها دهن كثير ، فيمزجونه بدهن الهريسة ، وكان المحتسب يكشف غشهم هذا بأنه كان يأخذ هذا الدهن ويقطر منه شيئاً على بلاطة ، فإن سال ولم يجمد ، أو كان لونه مشفاً[٣١] ، فهو مغشوش ، فكان يمنعهم من هذا ، ويأمرهم بغسل قدور الدهن وتنظيفها وتمليحها ، لئلا تتغير رائحتها وطعمها ، ويتولد فيها الدود[٣٢] .

المحتسب والشوائين :

ولكى يضمن المحتسب نضج الشواء كان يجذب الكتف بسرعة فإن جاءت فقد انتهى فى النضج ، وكان يشق الورك ، فإن ظهر فيه عروق حمر ، ونزل منه ماء اللحم ، فهو نىء ولم ينضج بعد ، وكان المحتسب يمنع الشوائين الذين يدهنون اللحم بالعسل ثم ينزلونها إلى التنور فهى تحمر فى الحال ، وإذا نظر إليها المشترى يخيل إليه أنها قد نضجت تماماً - وكان من هؤلاء الشوائين من يذبح حيوانات كثيرة ، ثم يحمل بعضها إلى المحتسب ويخفى الباقى . وكان المحتسب يمنع الشوائين من تغطية الشواء بعد إخراجه من التنور ، ولا يوضع فى أوانى الرصاص ولا النحاس وهو حار ، فقد قالت الأطباء أنه يستحيل سما ، ويأمرهم المحتسب أن يطينوا تنانيرهم بطين حر قد عجن بماء طاهر ، لأنهم يأخذون الطين من أراضى حوانيتهم ، وهو مختلط بالدم وبما يخرج من الحرش من المواد وذلك نجس ، وربما انتثر على الشواء منه شىء عند فتح التنور فينجس[٣٣] .

---

(٢٩) الشيزرى : ص٣٧ - ٣٨ - ٣٩/ابن بسام : التحقيق ، ص٤٤ - ٤٥ .

(٣٠) شجر له قشر يستعمل مسحوقه فى أخلاط التوابل والبهار . ابن البيطار/المفردات . جـ٢ ، ص٨٣ - ٨٤/الشيزرى : نهاية الرتبة ص٣٦ حاشية ٤ ويستعمل فى مصر الآن كالقرفة .

(٣١) الرقيق الذى يمكن رؤية ماوراءه لسان العرب .

(٣٢) الشيزرى : نفسه ، ص٣٦ - ٣٧ .

(٣٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٣٠/ابن بسام ، التحقيق ، ص٣٧ - ٣٨ .

● المحتسب والفوالين (الباقلائيين)

كان المحتسب يعين عليهم عريفاً ثقة عارفاً بمعيشتهم . وكان العريف يمنعهم من عمل الباقلاء المسوس ، حيداً طيباً متى من القديم ومن الحجارة والطين ، وكان يأمرهم أن ينثروا عليه الملح المطحون والكمون بعد بيعه ليدفع مضاره . وكان العريف يأمرهم أن ينقعوا الترمس فى الماء ثلاثة أيام لتزول مرارته ، ثم يسلق ، ويجاد سلقه ، ويرش عليه الكمون المدقوق بالملح ، وكذلك يفعل فى الباقلاء ليسهل هضمها[٣٤] . وهذا ما نفعله فى أيامنا هذه .

وكذلك كان العريف يأمر باعة العدس بنظافة أوعيتهم وتغطيتها ونظافة مياهها ونظافة العدس قبل طبخه . وكان هؤلاء يخلطون عليه ماء الحمص المسلوق بعد خروجه من التنور ليكثره - وذلك عند غلاء الأسعار وقلة العدس[٣٥] .

● المحتسب والرواسين :

كان المحتسب يأمر الرواسين بنظافة سمط الروس والأكارع[٣٦] بالماء الشديد الحرارة ، وجودة تنقية الشعر والصوف[٣٧] .

● قلائى السمك :

كان المحتسب يأمرهم بغسل قفافهم وأطباقهم التى يحملون فيها السمك ، وينثرون فيها الملح المسحوق كل ليلة بعد الغسل ، كذلك يفعلون بموازينهم ، ويبالغون فى غسل السمك بعد شقه وتنظيفه وتنقيته من جلده وفلوسه ، ثم ينثرون عليه الملح والدقيق[٣٨] .

● الحلوانيين :

يعتهد المحتسب فى كشف غشوش الحلوى على العريف الخبير فى ذلك فأنواعها كثيرة وأجناسها مختلفة ، ولايمكن ضبطها ولاعيار أخلاطها على قدر أنواعها ، ويأمرهم العريف

---

(٣٤) ابن بسام : التحقيق ، ص٥١ .

(٣٥) ابن بسام : ص٥٠ .

(٣٦) الأكارع لاكرع وكراع ، وهو الجزء المستدق العارى من اللحم من ساق البقر والغنم ، لسان العرب/الشيزرى ص٣٢ حاشية ٢ .

(٣٧) الشيزرى : ص٣٢/ابن الأخوة تحقيق ص١٠٥ - ١٠٦/ابن بسام تحقيق ص٤٣ .

(٣٨) نفسه ص٣٣ .

بإتمام نضج الحلوى ، وعدم إخراجها نيئة ولامحترقة ، وألا تبرح المذبة يد البائع حتى يتمكن من طرد الذباب[٣٩]

● إشراف المحتسب على السمانين :

وكان المحتسب يمنع السمانين من خلط عتيق التمر والزبيب بالجديد ، وألا يرشوا الماء على التمر والزبيب ليرطبه ويزيد فى وزنه ، وألا يدهنوا الزبيب بالزيت ليصفى لونه ويحسن منظره . ويمنع من يمزج منهم العسل القصب بالماء الحار ، ويرشه على الرطب ، ويمنع من يغش منهم الزيت بدهن القرطم[٤٠] ، وكان المحتسب يكشف غشه بأن يتركه على النار فيكون له دخان عظيم يختق كذلك كان يكشف غش السمانين حين يمزجون الزيت الذى قد ترك فيه الجبن فى الخوابى بالزيت الصافى ، فكان يضعه على اللهب فيفرقع ، ويكون زفراً أيضاً . وكان المحتسب يصب شيئا من الخل على الأرض فإذا كان مغشوشاً بالماء يسمع له صوت ، وإذا لم يكن لم يسمع له هذا الصوت . أو كان المحتسب يضع فيه حشيشة الطحلب فأنها تشرب منه دون الخل . وكذلك كان المحتسب يضع هذه الحشيشة فى اللبن فإذا فصلت بين الماء واللبن فإنه مغشوش[٤١] . وكان المحتسب كذلك يغمس شعرة فى اللبن ثم يخرجها ، فإن لم يعلق عليها شىء من اللبن كان مغشوشاً بالماء ، وان علق عليها اللبن وتكوكب كان خالصاً . وكان المحتسب يمنعهم من أن يسقوا الجبن بالزيت الطيب ولا بالشيرج ولا أن يذوقوه بأفواههم فيكون ذلك ضرراً لمن يأكله[٤٢] .

ثم يفتش على المخلل على اختلاف أجناسه ويفحصه فكلما كان مجسه يابساً قوياً أعيد إلى الخل الشديد الحموضة - وكلما وجد مجسه ليناً رمى به ، فإنه قد فسد ، ويريق المحتسب الكوامخ الحامضة عندهم خارج البلد ، لأنها لاتصلح بعد حمضها ، وكان يأمرهم بعدم بيع الجبن المكسور فى الخوابى والشحوم والأدهان الفاسدة أو المدودة لما فيه من ضرر الناس[٤٣] .

وكان المحتسب يأمر السمانين بحفظ هذه البضائع جميعها وصيانتها فى البرانى والقطارميز[٤٤] لئلا يصل إليها الذباب ، أو يقع عليها شىء من التراب والغبار ونحو

---

(٣٩) نفسه ، ص٤٠ . انظر أمثلة لعمل الحلوى وغشها فى نهاية الرتبة ، ابن بسام : التحقيق ، ص٤٧- ٤٨

(٤٠) القرطم نبات تنمو أوراقه فى طرف الساق ، وكان يسحق ويستخدم مسحوقه لمعالجة بعض الأمراض : ابن سينا : القانون ، جـ١ ، ص٤١٩/الشيزرى ، ص٥٨ حاشية ٤ .

(٤١) الشيزرى : نفسه ص٥٨ .

(٤٢) ابن بسام : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص٢٩ .

(٤٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٥٩ .

(٤٤) مفردها قطرميز : وعاء من الفخار قصير العنق واسع الفوهة الشيزرى ، ص٦٠ ، حاشية ٣٠/ Dozy : Dict . Ar

ذلك ، أو فى قفاف الخوص المغطاة بالمباذر . وكان يأمرهم بوقوف شخص بيده المذبة دائما ، يذب بها الذباب عن البضاعة ، وكان يأمرهم أيضاً بنظافة أثوابهم وغسل مغارفهم وآنيتهم ، وأيديهم ، ومسح موازينهم ومكاييلهم(٤٥) .

وكان المحتسب يأمر بياعى الخضر ببيع الخضر مغسولة منتقاه من الحشيش والأوراق الصفرة ، ويأمرهم أن يقطعوا سعد أصول الخس والفجل لايباع إلا مغسولاً وينهاهم عن غسل البصل والثوم الرطبين فإن الماء والرطوبة يزيدهما نتونة وزفرة ، ويمنعهم من بيع التين والبطيخ والقثاء الذى لايتم نضجه(٤٦) .

● الحسبة على الصيادلة :

وكان المحتسب يجعل عليهم عريفاً من بينهم خبيراً بأحوالهم ، بصيراً بغشوشهم يفتش على عقاقيرهم كل أسبوع ، ويخوفهم ويعظهم وينذرهم العقوبة والتعزير . وذلك لأن غش الصيادلة كثير ولايمكن معرفته على التمام ، وهو ضار على الخلق أكثر من أى غش فى مجال آخر . وكانت العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة والتداوى على قدر أمزجتها ، فمنها ما يصلح لمريض ومزاج ، فإذا أضيف إليها غيرها أحرفها عن مزاجها ، فأضرت بالمريض لامحالة .

ومن الغشوش التى اشتهر الصيادلة بها أنهم كانوا يغشون الأفيون(٤٧) المصرى بساف(٤٨) ماميثا(٤٩) ، وكانوا يغشونه أيضاً بعصارة الخس البرى أو الصمغ فى بعض الأحيان . وكان عريف المحتسب على بصيرة بكشف هذه الغشوش فكان يذيب ذلك الأفيون فى الماء ويلاحظ الآتى :

١ - إذا ظهرت له رائحة كرائحة الزعفران فهو مغشوش بالماميثا .

٢ - ان كانت له رائحة ضعيفة ، وكان جش فهو مغشوش بعصارة الخس .

٣ - وان كان مرا صافى اللون ، ضعيف القوة فهو مغشوش بالصمغ(٥٠) .

---

(٤٥) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٦٠ .

(٤٦) ابن بسام : تحقيق ص٣٢ - ٣٣ .

(٤٧) هو لبن الخشخاش الأسود وكانت تكثر زراعته فى صعيد مصر ، ومنها يحمل الى سائر البلدان فى العصور الوسطى . ابن البيطار : المفردات ، جـ١ ، ص٤٥ - ٤٦/الشيزرى ص٤٢ حاشية ٢ .

(٤٨) نوع من الأدوية ، يتخذ قمعا او تلبيسه لمعالجة أمراض المستقيم ، أو دواء سائلا لأمراض العيون . المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٩٩٩ حاشية ٣/ابن بسام/نخبة من كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، مجلة المشرق سنة ١٩٠٨ المجلد ١١ص٥٨٢/الشيزرى ص٤٢ حاشية٣ .

(٤٩) ماميثا : نبات قليل الارتفاع مر الطعم ، وورقه شبيه بورق الخشخاش ، وزهره يميل الى الزرقة . ابن البيطار المفردات جـ٤ ، ص١٢٤ - ١٢٥/الشيزرى : ص٤٢ . حاشية ٤

(٥٠) الشيزرى ، ص٤٢ .

وكان عريف المحتسب يمنع الصيادلة أيضاً من بيع دهن نوى المشمش والسمسم - بعد دقهما وعصرهما - على أنه دهن لوز[٥١] .

● الحسبة على الشرابيين :

لايمكن المحتسب من يعقد الأشربة ، ويركب المعاجين والأدوية الهاضمة[٥٢] إلا من اشتهرت معرفته ، وظهرت خبرته ، وكثرت تجربته ، وشاهد تجريب العقاقير ومقاديرها من أربابها وأهل الخبرة بها . ولايمكن المحتسب الشرابي من تركيبها إلا من الكناشات[٥٣] المشهورة ، والأ قرابا ذينات[٥٤] المعروفة مما يوثق به . وألا يدخل عليها ما ينافيها ويسلبها خاصيتها مثل عسل القصب المدبر باللبن الحليب والخل والاسفيداج[٥٥] «فإن هذا يعمله كثير منهم» ، فيخرج صافى اللون طيب الطعم والرائحة ، فيركب منه الأشربة والمعاجين بدلا من السكر وعسل النحل . وكان المحتسب يمنعهم من فعل ذلك لأنه يضر الصحة ويحرف الأمزجة ويفسدها . وكان يكشف غشهم بأن يترك هذا الشراب مدة فإذا به يرجع إلى السواد إذا كان مضافاً إليه أشربة أخرى ، كما تظهر فيه رائحة الخل . ولا يكتفى المحتسب بهذا بل كان يلجأ إلى الحل السريع بأنه كان يطرح منه شيئا ، ويقطر عليه الماء ، ثم يحله باصبعه ، فإن العسل يصبح لونه أبيض .

وكان المحتسب أيضاً يفتش على أشربتهم كل شهر ، فما وجده فيها حامضاً لطول المدة عليه ومتغيراً ، فلا يمكن صاحبه أن يعيده إلى الطبخ ثانية لفسادها إلا إذا كانت أشربة لاتتغير إذا طالت المدة عليها[٥٦] .

● الحسبة على العطارين :

يبدأ الشيزرى هذا الفصل بقوله : «إن غشوش العطر كثيرة - مختلفة أيضاً . . لاختلاف أجناس الطيب وأنواعه ، وتجانس العقاقير الطيبة وتقاربها فى الرائحة ، وسأذكر

---

(٥١) نفسه ص٤٦ .

(٥٢) ويقال لها «الجوارشنات» : التهانوى · كشاف اصطلاحات الفنون ، جـ١ ، ص ٢٣٠ / الشيزرى : ص٥٦ ، حاشية٢ .

(٥٣) الكناشات : هى مجموعة المذكرات الطبية المصطلح عليها . Dozy : Dict . Ar/الشيزرى : ص٥٦ حاشية ٤ .

(٥٤) مفردها اقرا باذين Pharmacopce أى دستور الأدوية Dozy Dict. Ar./ الشيزرى ، ص٥٦ حاشية ٥ .

(٥٥) رماد الرصاص ، وكان يدخل فى عمل المراهم المفيدة فى معالجة الأورام ابن سينا القانون ، جـ١ ، ص٢٥٨ ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص١٤٩/الشيزرى ، ص٥٦ حاشية ٩ .

(٥٦) الشيزرى : ص٥٧ .

من ذلك ما اشتهر غشه وصنعته ، وأعرض عما خفى غشه وصنعته» ، ومن عشوشهم المشهورة التى كانوا يفعلونها أنهم كانوا يعملون نافجة(٥٧) المسك من قشور الأملج(٥٨) والشيطرج(٥٩) الهندى ، ومثلها شادوران(٦٠) ويعجنونه بماء صمغ الصنوبر ، ويجعلون مع كل أربعة دراهم من هذا درهم مسك ، ويحشون به النافجة ، ويسدون رأسها بالصمغ ، ثم يجففونها على رأس تنور . وكان المحتسب يفتح النافجة - أو سائر النوافج - ويلثمها كالمتحشى للشىء ، فان فاحت رائحة المسك حدة كالنار عرف المحتسب أنه نقى لاغش فيه ، وان كان الضد فهو مغشوش .

ومنهم من كان يغش الزعفران الشعر(٦١)بصدور الدجاج ولحوم البقر ، بعد سلقها بالماء ثم ينشر ما شاء منها ويقدده ويصبغه بالزعفران ، ثم يجففه ويخلطه فى السلال ، وكان المحتسب يأخذ منه شيئاً وينقعه فى الخل ، فان تقلص فهو مغشوش باللحم ، ويتغير لونه ، والخالص يبقى على لونه(٦٢) .

أما «الغالية»(٦٣) ، فمنهم من يجعل أصلها من الماء المغلى مع بعض المواد الطبية ليكون شراباً للمريض ، ثم يجعل على كل درهمين منه درهم مسك جيد ، ودرهم عود مسحوق ، ودرهم مسك لادن(٦٤) مسبوك على النار ويضيف إليه نصف مثقال عنبر ، ويخلط الجميع فى

---

(٥٧) وجمعها نوافج : الجلد الذى يجتمع فيه المسك لسان العرب Dozy: Supp, Dict, Ar. والمسك : مادة تؤخذ من حيوان خاص يوجد بالتبت والصين والهند الصينية وجزائر سيلان وجاوة واليابان ، مسك التبت أطيب أنواع المسك رائحة ، وهو الى جانب فائدته العطرية كان يستخدم فى معالجة المصابين بالخفقان وضعف القلب ابن سينا : القانون ، جـ١ ص٣٦/الشيزرى ص٤٨ حاشية ٣ .

(٥٨) ينمو ببعض أقاليم الهند ، وثمرته تشبه الكمثرى الصغيرة ، وكانت تستخدم فى العقاقير النويرى : نهاية الأرب ، جـ١٢ ص ١١٢ حاشية ٢ ولسان العرب ./الشيزرى ، ص٤٨ حاشية ٤ .

(٥٩) نبات هندى ينمو فى القبور والحيطان العتيقة ، وهو ناضر دائما وله رائحة حادة جدا ابن سينا : القانون جـ١ ، ص٤٣٤/الشيزرى ص٤٨ حاشية ٥ .

(٦٠) حجر أسود براق وهو يتكون فى تجويفات أصول الأشجار العتيقة مثل الجوز فإذا قطعت الشجرة وجد فى وسطها ، ويوجد ببعض أقاليم الهند . النويرى ، نهاية الأرب ، جـ١١ ، ص٣١٧ حاشية ١/ الشيزرى ، ص٤٨ حاشية ٥ .

(٦١) شجر يمتاز زغبه ببياض يسير ، وكان يستخدم بعد سحقه فى الصباغة ابن البيطار المفردات ، جـ٢ ، ص١٦٢ - ١٦٣/الشيزرى : ص٥٢ حاشية١ .

(٦٢) الشيزرى ، ص٥٢ .

(٦٣) مسك وعنبر معجونان با ىان المخصص ، جـ١١ ، ص٢٠١ ط بولاق سنة١٣٢١هـ/الشيزرى : ص٥٣ حاشية٥ .

(٦٤) مادة لزجة تستخرج من شجر يكثر فى أواسط اوربا وغرب آسيا والشام وكانت سلعة تجارية هامة فى العصور الوسطى ، لاستعماله فى تركيب المراهم وربط أكفان الموتى/الشيزرى ، ص٥٣ حاشية ٨ .

أربعة مثاقيل دهن بان[٦٥] فتصبح غالية لاتكاد تعرف ومنهم من يعمل جسدها من نخالة الرخام الرخو الشادوران المدبر ، ويجعل على كل درهمين منه ما قد ذكرنا من الطيب ، ومنهم من يعمل جسدها من السمسم الحديث المقشر[٦٦] والقرطاس المحرق[٦٧] ، ويجعل عليها الطيب المعروف ، وجميع هذه الغشوش كانت لاتخفى على المحتسب والعريف ، من اللون والرائحة والقوام ويقول الشيزرى : «فأكثر من يبيعها الدوارون[٦٨]والذين يجلسون على الطرقات .

وأما الزباد[٦٩] فغشوشه كثيرة - ولا فرق بين جسده وجسد الغالية فى الغش ، وإنما يعرفها المحتسب من وزن الخميرة . ومنهم من يغش دهن البان ، فيعمله من دهن القطن أو دهن نوى المشمش ويصلحه بشىء من المسك ، ومنهم من يعمله أيضاً من زيت الأنفاق[٧٠] ثم يصلحه ويطرح أطراف الآس[٧١] ، فيصبح فيه خضرة . ومنهم من يصعد عقد الصنوبر وقشور الكندر[٧٢] ، فلا يشك أنه ماء كافور ، وكان المحتسب يقطر منه شيئاً على خرقة بيضاء ، ثم يغسلها ، فإن علق فيها وأثر فهو مغشوش .

ويختتم الشيزرى حديثه عن هذا الفصل بقوله : «ولا يتجاسر على عمله وبيعه إلا الغرباء الأعاجم ، ومن يدور فى خلال الدروب والحارات ، وكان المحتسب لا يهمل الكشف عن ذلك بنفسه ، وإشهار فاعله بالتعزير»[٧٣] .

---

(٦٥) شجر ثمرته تشبه قرون اللوبيا ، وإذا نضج خشبه يستخرج منه دهن البان الذى يستعمل فى الطيب والأدوية وكان ينمو فى مصر وبلاد المغرب والحبشة ، ابن البيطار جـ١ ، ص٧٩/الشيزرى ص٥٣ حاشية ١٠

(٦٦) الشيزرى ، ص٥٣ .

(٦٧) هو الكاغد الأبيض المصنوع من نبات البردى ابن البيطار : المفردات ، جـ١ ، ص٨٩ الشيزرى : ص٥٤ حاشية ١ .

(٦٨) الدوارون هم الباعة المتجولة Dozy : Dict . Ar. الشيزرى ص٥٤ حاشية ٢ .

(٦٩) نوع من الطيب ، وكان يستعمل لمداواة الزكام ، القاموس المحيط ، الشيزرى : نفس المرجع ، ص٥٤ ، حاشية ٣ .

(٧٠) الأنفاق هو الزيت الذى يستخرج من ثمر الزيتون قبل نضجه على الشجر انظر الشيزرى ص٥٥ حاشية١ .

(٧١) الآس : شجر طيب الرائحة ، وكان من المواد المستعملة فى الأدوية ، فضلا عن استخدامه فى الطيب ، المخصص ، جـ١١ ، ص ١٩٥/الرشيدى : عمدة المحتاج ، جـ ٢ ص٢٩٧/الشيزرى ، ص٥٥ حاشية ٣ .

(٧٢) الكندر هو اللبان ، وشجرته شوكية ، وثمره له مرارة ، وعلكة فى الفم : النويرى : نهاية الأرب ، جـ١٢ ، ص١٥٧ الرشيدى : عمدة المحتاج ، جـ٢ ، ص٨٢١/الشيزرى ، ص٥٥ حاشية ٥ .

(٧٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٥٥ .

وكان للمحتسب أيضا السلطة والإشراف على أصحاب الوظائف الصحية . كالأطباء ، والكحالين ، والمجبرين ، والجرائحيين ، وتفيض كتب الحسبة فى ذكر أهمية هذه المهن التى تخص المحافظة على صحة الناس ، وكان المحتسب يشترط فى القائم بها شروطاً خاصة ، وكان يعقد لهم اختبارات وامتحانات ، فمن كان كفؤاً بحيث يجتاز هذه الاختبارات بنجاح يسمح له المحتسب بممارسة المهنة - وأعطى إجازة بذلك بإمضاء نقيب الأطباء(٧٤) بعد أن تتوفر لديه جميع الآلات والأدوات اللازمة لمهنته - على حين من أعوزته الكفاءة لم يبح له الممارسة ، ويمنعه المحتسب من التعرض إلى أعين الناس إذا كان كحالا ، ومن التعرض لدواب الناس إذا كان بيطرياً . . . وهكذا .

ومما ذكر فى هذا المجال أنه فى سنة ٩٣١م بلغ الخليفة «المقتدر» العباسى أن رجلاً توفى نتيجة لخطأ طبيب ، فأمر الخليفة على الفور المحتسب «ابراهيم بن بطحاء(٧٥)» أن يمنع أى طبيب من ممارسة المهنة باستثناء أولئك الذين اختبرهم نقيب الأطباء «سنان بن ثابت» وصدرت الإجازات بأسمائهم ، وقد ألحق بكل إجازة إمضاء سنان(٧٦) .

وذلك دليل واضح يثبت لنا ما كانت الصحة العامة تلقاه من اهتمام وعناية ، وما كان اختيار الأطباء يلقاه من تدقيق واختبار .

● إشراف المحتسب على البلانين(٧٧) :

وكان المحتسب يختار البلان خفيفاً رشيقاً خبيراً بالحلاقة ، ممن يتوفر فيهم الثقة والأمانة ، وتكون حديدته رطبة قاطعة . وكان المحتسب يأمره بأن لا يأكل ما يغير نكهته كالبصل والثوم والكرات فإن فعل ذلك أضر الناس برائحته ، وكان المحتسب يراقبه حتى لا يحلق شعر صبى إلا بإذن وليه(٧٨) .

---

(٧٤) أحمدبن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء مجلد ٢ ص٢٠٤ . Hamarnah : Op , Cit P. 160.

(٧٥) الماوردى : الأحكام ، ص٢٢٢ .

(٧٦) أحمد بن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، مجلد ٢ ، ص٢٠٤ ط بيروت ١٩٥٧/ «سنان بن ثابت بن قرة الحرانى ، ابو سعيد (+ ٣٣١هـ/٩٤٣م) طبيب عالم أصله من حران ، ومنشأه ببغداد . وكان رفيع المنزلة عند المقتدر العباسى وجعله أساسا للأطباء - وكان منهم ببغداد ثمانمائة وستون طبيبا ، لم يؤذن لأحد منهم باحتراف الطب الا بعد أن امتحنه سنان . الزركلى : الأعلام ، جـ٣ ، ص٢٠٦ .

(٧٧) ابن بسام : ورقة ٢٠ ، المخطوط .

(٧٨) ويفهم من النص أنهم الحلاقون .

● إشراف المحتسب على الحمامات :

كما كان للمحتسب دور كبير فى الإشراف على «الحمامات» لما كان لها فى مصر الإسلامية - فى مختلف العصور - من أثر عظيم ، وأهمية بالغة على النواحى الصحية ، وكان المحتسب يتفقد الحمامات كل يوم(٧٩) ليشرف عليها من حيث نظافتها وصلاحيتها للاستعمال ودخول الناس فيها ، وآداب الدخول(٨٠) ، ومنع المرضى من الاختلاط بالأصحاء ، وتعهد القائم بالأعمال بها بحفظ ثياب رواد الحمام فإن ضاع منها شيء التزم بدفع تعويض عن ذلك(٨١) .

وقد أثمر هذا الإشراف الدقيق على الحمامات فى مصر حتى إنه عندما زار مصر الرحالة عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر زمن الأيوبيين فى سنة ١٢٠٠ هـ سجل مشاهداته عن حمامات القاهرة فذكر أنه لم يشاهد فيما زاره من البلاد «أتقن منها وصفا ، ولا أتم إحكاماً ، ولا أحسن منظراً(٨٢) . . .»

---

(٧٩) ابن بسام : نهاية الرتبة ، ورقة ٢٠ .

(٨٠) ابن الأخوة : معالم ، مخطوط ، الباب ٤٢ .

(٨١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٨٧ - ٨٨ .

(٨٢) الافادة والاعتبار ، ص٤٠ .

البــــاب الســــادس

« الحسبة وارتباطها بوظائف الدولة الأخرى »

ويتكون من ثلاثة فصول :

- الحســبة والقضاء .
- الحســبة والمظالم .
- الحســبة والشرطة .

الفصـــل الأول

الحسـبة وعلاقتهـا بالقضـاء

قام القضاء والحسبـة - فى العصور الإسـلامية - بـدور نبيل فى صـون كيان الهيئـة الاجتماعية والجماعة الإسلامية ، وقد بلغا ، فى بعض العهود ، من القوة والحصانة شأوا بحيث كان المحتسبون يوجهون نصائحهم إلى الحكام والولاة[1] ، كما حرص بعض الولاة على حضور مجالس القضاة أحياناً[2] .

كما كان بين القضاء والحسبة من الصلات ما جعل منهما سوياً ، دعامة قوية للعدالة يضاء بهما طريق المثل العليا . وإذا كان القضاء بطبيعته يقوم على الأناة والتدقيق فى الحكم ، على حين أن الحسبة تتميز بسرعة الحسم ، فهما مع ذلك ليسا ضئيلى الشأن لاسيما إذا اجتمعا

---

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، التحقيق ، ص٨٥ أنظر ماذكرناه سابقا عن عـلاقة المحتسب بـالحكام والولاة ص٨٠ من الكتاب/العينى جـ٢٥ القسم ١ ورقة ٢٧ الغزالى جـ٢ ص٣٠٠ .

(٢) «عظم شأن القضاة وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بنى العباسى ، فقد كانت العادة أن الولاة يحضرون القضاة إلى مجالسهم ، فلما قدم محمد بن مسروق الكندى قاضيا على مصر من قبل الرشيد سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م أرسل اليه الأمير عبد الله بن المسيب يأمره بحضور مجلسه ، فقال لو كنت تقدمت إليك فى هذا لفعلت بك وفعلت يا كذا وكذا ، فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ» . الكندى : الولاة والقضاة ص٣٨٨/ ميتز : الحضارة جـ١ ص٣٨٠ بل نجد أن الآية قد انعكست فى القرن الثالث الهجرى فكان الولاة يحضرون مجلس القـاضى فى كل صبـاح انظر : "Wustenfeld, AGGW, 37, nr. 91طبقـات السبكى ، جـ٢ ، ص٣٠٢/ميتز : الحضارة ، جـ١ ، ص٣٨١ الى ايام القاضى ابن حربويه سنة ٣٢٩هـ/٩٤١م ، فكان آخر من ركب اليه الأمراء ، لأنه كان يقوم للأمير إذا أتاه (السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ، ص١٠١ ملحق الكندى ص٥٢٨ / ميتز جـ١ ، ص٣٨١ ويحكى أيضا عن قضاة كانوا يفعلون ذلك ايضا الإرشاد لياقوت جـ٢ ، ص٣٣٨) وكان هذا القاضى لا يؤمر أحدا من ولاة مصر ، بل كان يدعوهم بأسمائهم . انظر أمثلة من طبقات السبكى جـ٢ ص٣٠٢ - ٣٠٥ - ٣٠٦ وملحق الكندى ص٥٢٨ وميتز : الحضارة ، جـ١ ص٣٨٢ - ٣٨٣ . ومما يدل على رهبة منصب القضاة واحترامه فى ذلك العهد أننا نجد الأمراء والوزراء كثيرا ما يساقون الى السجن . (ابن الجوزى : المنتظم ص٧ ب/متيز جـ١ ص٢٨٣ . انظر د . زكى حسن Zaky Hassan :Les Tulunides , P. 223 — 226.

معا فى يد واحدة[٣] - كما كان يحدث فى مصر فى بعض الأحيان[٤] - على الرغم مما كان بينهما من ضروب التوافق وألوان التباين .

ويرى الماوردى[٥] وآخرون[٦] أن الحسبة لها علاقة قوية ومتميزة بالقضاء من ثلاث نواحٍ :

١ - الحسبة موافقة للقضاء من ناحيتين .
٢ - الحسبة زائدة على القضاء من ناحيتين .
٣ - الحسبة ناقصة عن القضاء من وجهتين .

وفى هذا يقول الماوردى : « اعلم أن الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم ، فاما ما بينها وبين القضاء فهى موافقة لاحكام القضاء من وجهين ، ومقصرة عنه من وجهين ، وزائدة عليه من وجهين »[٧] .

فأما الوجهان الموافقان لأحكام القضاء : -

فأولهما : «أن كلا المنصبين موضوع لإنصاف المظلوم من الظالم ، وللاثنين حق جواز سماع الشكوى المقدمة من المعتدى عليه ضد المعتدى ، أو من المسلوب حقه ضد من سلب حقه ، ولهما حق اقامة العدل بين الناس ، غير أن هذا الحق ليس مطلقاً ، وإنما يختص بالدعاوى التى تتعلق بمنكر ظاهر - هو منصوب لازالته - أومعروف بين - هو مندوب لإقامته ، لأن موضوع الحسبة الزام الحقوق والمعونة على استيفائها ، وليس للناظر فيها أن يتجاوز ذلك إلى الحكم الناجز» أى الحكم المنفذ .

ويضرب صاحب الأحكام السلطانية[٨] أمثلة لثلاثة أنواع من هذه الدعاوى : -

١ - الدعاوى المتعلقة ببخس أو تطفيف فى كيل أو وزن .
٢ - الدعاوى المتعلقة بالغش والتدليس فى البيع أو الثمن .
٣ -الدعاوى المتعلقة بتأخير الدين المستحق - مع الميسرة - وإمكان السداد . وغير ذلك من كل ما كان البغى والعدوان فيه بين واضح ، وإنما جاز للمحتسب النظر فى هذه الدعوى وما ماثلها ، لأنه من طبيعة عمله ومشتملات وظيفته .

---

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص٦١ .
(٤) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ٢٥ القسم ٢ ورقة ١٦٠ .
(٥) الأحكام ، ص٢٤١ .
(٦) ابن الرفعة : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٥ .
(٧) الماوردى : الأحكام ، ص٢٤١ .
(٨) أبى يعلى : ص٢٦٩ .

والثانى : يجوز للمحتسب كما يجوز للقاضى أن يلزم المعتدى برد الحقوق المغتصبة ، أو يلزمه بأداء الحق الواجب عليه ، غير أن هذا الحق غير مطلق - كما هو الحال فى الحالة الأولى - وإنما يقتصر على الحقوق التى جاز له سماع الدعوى فيها من كل ما هو متعلق بحق ظاهر .

وإذا وجب حق من هذه الحقوق - باقرار المدعى عليه ، وكان من أهل المقدرة واليسار القادرين على أداء الحقوق - ألزمه المحتسب بأداء الحقوق فى الحال ، لأن تأخير الأداء والتقصير فيه منكر هو منصوب لإزالته[9] .

وأما الوجهان فى قصور الحسبة عن أحكام القضاء : -

فأحدهما : قصورها عن سماع عموم الدعاوى الخارجة عن ظواهر المنكرات : من الدعاوى فى العقود والمعاملات وسائر الحقوق والمطالبات ، فلا يجوز أن ينتدب لسماع الدعاوى لها ، ولا أن يتعرض للحكم فيها ، لا فى كثير الحقوق ولا فى قليلها من درهم فما دونه ، إلا أن يرد ذلك بنص صريح يزيد على إطلاق الحسبة ، فيجوز ، ويصير بهذه الزيادة جامعاً بين قضاء وحسبة .

وهكذا نجد أن القاضى له أن ينظر فى جميع أنواع القضايا أو الدعاوى ، بينما يقتصر نظر المحتسب فى أنواع القضايا الخاصة بالمنكرات فحسب .

والوجه الثانى : أن الحسبة مقصورة على الحقوق المعترف بها فأما ما يدخله التجاحد والتناكر فلا يجوز له النظر فيها لأن الحاكم فيها يحتاج فى تحقيقها وتقرير العدالة فيها - إلى سماع بينة أو إحلاف يمين ، ولا يجوز للمحتسب أن يسمع بينة على إثبات الحق ، ولا أن يحلف يميناً على نفى حق فإن القضاة والحكام أحق بسماع البينة وتحليف الخصوم ، والحسبة فصل فى مسائل مستعجلة لا تحتمل ذلك كله .

وهكذا نجد أن المحتسب ليس له الحق فى النظر إلا فى النزاع بشأن الحقوق المعترف بوجودها من الطرفين . أما القاضى فله الحق فى النظر فى النزاع بشأن الحقوق المعترف بوجودها من الطرفين كما أن له الحق فى النظر فى النزاع حتى ولو كان أحد الطرفين ينكر وجود هذا النزاع .

أما الوجهان فى زيادة الحسبة على أحكام القضاء : -

فأحدهما : أنه يجوز للمحتسب التعرض لتصفح ما يأمر به من معروف ، وما ينهى عنه من منكر ، وإن لم يحضر إليه من يدعى على آخر . وليس للقاضى أن يتعرض لذلك إلا بحضور

---

(٩) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص٢٤١ .

خصم يجوز سماع الدعوى منه ، فإن تعرض القاضى لذلك خرج عن منصب ولايته ، وصار متعدياً حدود منصبه ، وخارجاً عما رسم له من أمور ولايته[١٠] .

ومن ثم فالمحتسب يجوز له أن ينظر فى النزاع حتى بغير وجود الشاكى ، كما يجوز له أن يطبق القانون بدون أن ينتظر المدعى وليس للقاضى ذلك .

والثانى : أن المحتسب له أن يستعمل فى دعوته بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، القوة ، وأن يظهر بما يرهب ، ويقوى سلطانه ، لأن الحسبة موضوعة لإلزام الناس بفعل المعروف ، وامتناعهم عن المنكر . فلا يكون ظهور المحتسب بقوة السلطنة ، وعظيم الرهبة ، خروجاً عما اختص به ، ولا تعدياً عن حدود ولايته بخلاف القاضى ، فإن منصبه يقوم على المناصفة وإقرار العدل بين الناس ، وذلك يتطلب الهوادة والأناة ، والوقار ، والملاطفة ، وخروج القاضى عن ذلك - إلى رهبة المحتسب وقهره - يعتبر تعدياً وخروجاً عما ينبغى أن يكون عليه ، وذلك لأن موضوع كل من المنصبين مختلف[١١] .

وبعد هذا العرض البسيط لأوجه التوافق والتباين بين الحسبة والقضاء ، والمحتسب والقاضى ، نعرض لبعض الآراء التى تخص هذا الموضوع . فيرى مؤرخنا العلامة ابن خلدون أن «الحسبة خادمة لمنصب القضاء»[١٢] . ويوضح ذلك بقوله «فقد كانت الحسبة فى كثير من الدول الإسلامية داخلة فى عموم ولاية القاضى ، يولى فيها باختياره»[١٣] .

ولا ندرى ما الذى دعا المؤرخ الجليل إلى ذلك القول : أهو اعتباره أن الحسبة خادمة للقضاء على أساس أن الولاية الأولى كانت داخلة فى عموم الولاية الثانية ؟ فهى وإن كانت كذلك فى بداية أمرها إلا أنها أصبحت ولاية مستقلة لها شأن مستقل بعد ذلك ، كما شهد ابن خلدون بنفسه على هذا الاستقلال بقوله : «ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاماً فى أمور السياسة اندرجت وظائف الملك وانفردت بالولاية . . . »[١٤] .

هل كان ابن خلدون يعد وظيفة القاضى أعلى شأناً وأرفع كعباً من وظيفة المحتسب ؟ أم كان يعتبر أن سلطة القاضى أكبر وأوسع من سلطة المحتسب فى الأحكام وإقامة الحدود ؟ أم الأمران معاً ؟

هذا بينما يرى الماوردى «أن الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم»[١٥] .

---

(١٠) الماوردى : الأحكام ص ٢٤٢/أبى يعلى : الأحكام ص ٢٧٠ .

(١١) الماوردى : الأحكام ، ٢٤٢ ، أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٧٠ .

(١٢) المقدمة ، ص ٥٧٦ .

(١٣) ابن خلدون ، نفسه .

(١٤) نفس المرجع .

(١٥) الأحكام ، ص٢٢٩ .

على حين أن صاحب «نصاب الاحتساب»[١٦] يعد القضاء ليس فحسب باباً من أبواب الحسبة ، وإنما كذلك جزءا من أجزاء الاحتساب ، وهو يعلل ذلك بأن الحسبة تنظر فى الشريعة بوجه عام ، وتتناول كل مشروع عام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإنما القضاء يختص بأمور معينة تخص الشريعة الإسلامية ، أى إنه يتولى فصل الأمور بين المتداعين فى الأحكام الشرعية[١٧] ، وحكمه مقصور على هذه الأمور .

ويقول القلقشندى : ان القاضى سمى قاضياً ، لأنه يقال : قضى بين الخصمين ، أو فصل بينهما ، أو قطع بينهما[١٨] .

وعلى ذلك فوظيفة القاضى هى : فض المنازعات المرتبطة بالدين ، ووظيفة المحتسب : النظر فيما يتعلق بالنظام العام[١٩] ، ومراعاة أحكام الشرع[٢٠] .

وهناك رأى يقول : «إن واجبات المحتسب ومسئوليته قد تتضخم وتتزايد بحيث تجعل من هيبة وظيفته تطاول وظيفة القاضى[٢١]

وعلى هذا النحو كان اختلاف الآراء وتباين المذاهب ، حول العلاقة التى تربط الحسبة والقضاء .

ونحن نرى أن الحسبة وإن كانت كالقضاء من الأمور الدينية المتعلقة بالخلافة فى بادىء الأمر ، إلا أن كلاهما قد اختص بأمور لا يختص بها الآخر ، وتميز أحدهما بمميزات أعوزت الآخر بحيث نراهما فى نهاية الأمر وقد تعادل ما لكل منهما من مميزات ، وما ينتقص من كل منهما من قصور بحيث نجد أنفسنا وقد انتهى بنا الأمر إلى أن الحسبة لا تقل شأوا بحال من الأحوال عن القضاء .

وليس أدل على ذلك من الأمور التى سنعرض لها بعد :

أولاً : كان رسول الله ﷺ أول قاض فى الإسلام[٢٢] ، فكثيراً ما كانت تعرض عليه كبير

---

(١٦) السنامى : مخطوط ، ص١ .

(١٧) القلقشندى : صبح ، جـ٥ ، ص٤٥١ .

(١٨) نفسه .

(١٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ، جـ١ ، ص ٤٨٩ .

(٢٠) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٩/ميتز : الحضارة جـ٢ ص٢٣٣ - ٢٣٤/د . زكى حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى ص ١٧٣ = ١٧٤ وما ذكر فيها من مراجع/د . سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٢٢٩/مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه ، ص٨٠

(٢١) Ency. isl. Art. Muhtasib. Vol, 2, 3, P. 702 1933.

(٢٢) القلشندى : صبح/جـ٥ ، ص ٤٥١ .

القضايا ، وصور الخلاف ليفصل فيها[٢٣] ، ويعطى كل ذى حق حقه - بقدر ما كان ﷺ كذلك أول من قام بأعمال الحسبة فى الإسلام[٢٤] .

وسار الخلفاء الراشدون على نهج رسول الإسلام ﷺ ، واتخذوا منه نبراساً ، وساروا على دربه بحيث كانوا يؤثرون الإشراف بأنفسهم على فض مشاكل المسلمين وحلها ، لا سيما وأن السلطة التنفيذية والقضائية فى هذا الوقت المبكر لم تكن تتميز إحداهما عن الأخرى . على أنهم لما ازدادت أعباؤهم بسبب اتساع الدولة الإسلامية وتبار الفتوحات بحيث تعذر أن يضطلعوا بتلك المهام بأنفسهم ، فكان لزاماً عليهم ، من ثم ، أن يفوضوا فى القضاء من يقوم به فى الأقاليم[٢٥] - على نحو ما فوضوا فى أعمال الحسبة من يقوم بأمورها وأعمالها[٢٦] .

ثانيا : كان القضاء فى الدولة الاسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة فكان الخليفة هو الذى يعين القاضى فى مصر منذ فتحها العرب إلى العصر الطولونى ، [٢٧] وأحيانا كان الخليفة يترك للوالى سلطة تعيين قاضى ولايته . [٢٨] وذلك بعينه ماكان يتم بالنسبة إلى المحتسب . [٢٩] وكان القاضى مسئولا غالبا أمام الخليفة ، [٣٠] وكان من سلطة الخليفة أو واليه أن يعزل القاضى إذا رأى فى أحكامه بعدا عن العدالة ، [٣١] كما كان لهما أن يعزلا المحتسب لنفس الأسباب .

---

(٢٣) ابن هشام : سيرة الرسول ، جـ٢ ،ص ٩٤ .

(٢٤) ابن القيم : السياسة الشرعية ، ص٢٧٢ وما بعدها/ابن عساكر : تبيين ، ص٧٠ - ٧١ .

(٢٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٧٣ - ١٧٥ . كما كان يحكى عن المختار ، فإنه كان يجلس للقضاء بنفسه ، وقد نشط فى ذلك واحسن حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة : ميتز : الحضارة ، جـ١ ، ص٣٧٨ عن : Welhausen. Die Religios — Politischen Oppositions Parteien in Alten Islam, S. 78.

(٢٦) السنامى : نصاب الاحتساب و مخطوط ص ٨٤ .

(٢٧) «وكان عبد الله بن لهيعة الحضرمى الذى ولى قضاء مصر فى مستهل سنة١٥٥هـ - ٧٧٢م ، أول قاض ولى مصر من قبل الخليفة . الكندى ، القضاة ، ص٣٦٨ . ولما قام أحمد بن طولون إلى مصر وجد بكارا ابن قتيبة قاضيا فيها منذ ارسله الخليفة المتوكل سنة ٢٤٦هـ فاستمر على القضاء . ود . سيدة كاشف : مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ص١٩٩ . وأحمد بن طولون ، ص٢٢٤ .

(٢٨) وكان الأمير الإخشيدى فى بعض الحالات يولى القضاء لمن يشاء بدون موافقة الخليفة د . سيدة : مصر ، فى عصر الأخشيديين ، ص٢٠١ .

(٢٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٨٧ .

(٣٠) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص٤٠٣/جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، جـ١ ، ص ٢٤٥ .

(٣١) قد ساق لنا الكندى الكثير من النماذج التى تدلنا على تلك الحوادث فى الولاة والقضاء ص ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٥٨٤ السيوطى حسن جـ٢/ص ٩١ قارن بين أسباب سقوط تولية القاضى والمحتسب .

ثالثا : وإذ كانت الحسبة وكان القضاء أمرين على قدر بالغ من الأهمية فقد تحرز الفقهاء والمشرعون الإسلاميون فى من يختار لشغلهما بحيث إنهم وضعوا شروطا معينة ضمنوها مصنفات فقهية ، وهذه الشروط لاختيار كل من القاضى(٣٢) والمحتسب ،(٣٣) هى فى عمومها تكاد أن تكون واحدة فى الوظيفتين .

رابعا : كما كان القاضى يتولى بمرسوم من الخليفة يسمى «سجلا» ، أو «عهدا» أو «توقيعا»(٣٤) ، ويقرأ سجله فى المسجد الجامع ، ويخلع عليه ، وقد كان ذلك هو المتبع فى تولية كبار موظفى الدولة ، ومنهم المحتسب وصاحب الشرطة وصاحب المظالم(٣٥) .

خامسا : كان القضاة والمحتسبون يعتبرون من طائفة واحدة ، وهى «طائفة العلماء» - على حد تعبير المؤرخين - وكان لبسهم وركوبهم واحدا كذلك، فهو زى مشترك لطائفة العلماء كلهم(٣٦) .

سادسا : ولكى تأخذ العدالة مجراها ، كان كل من القاضى والمحتسب يتسلم مرتبه من بيت المال(٣٧) . ويمنع من أخذ الهدايا(٣٨) والرشوة(٣٩) .

وقد علل الرحالة الفارسى ناصر خسرو كبر مرتبات القضاء فى مصر بدرجة كبيرة جدا

---

(٣٢) أنظر تفصيل هذه الشروط كما ورد فى الكندى : قضاة مصر ص ٤٩٥ - ٥٩٢/النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٦ ورقة ٩١ مخطوط/ابن منجب الصيرفى تاريخ مصر ، جـ٢ ، ص ٨٣ - ٨٤/زكى حسن : Les tulunides p. 223.

(٣٣) ومما هو جدير بالذكر أن الماوردى يذكر من هذه الشروط العقل والحرية والعلم بالأحكام الشرعية ، واذا تم له ذلك صار من أهل الاجتهاد فى الدين . الماوردى ص ٦٥ - ٦٦ . ثم اشترط أن يكون المحتسب عالما من أهل الاجتهاد فى أحكام الدين . نفسه ، ص٢٤١ كما اشترط الغزالى فى المحتسب العقل والحرية ، والعلم بالأحكام الشرعية أيضا ، الغزالى ، جـ٢/ص ٢٩٢ .

(٣٤) الكندى : القضاة ص ٥٩٢ ، ٥٩٦ ، ٥٨٩ ، ٥٩٩/القلقشندى : صبح جـ١ ، ص ٣٨٤/ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨/د . سيدة كاشف : مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ، ص ٢٠٢ .

(٣٥) الكندى : نفسه ، ص٥٩٦ .

(٣٦) انظر ملابس وركوب المحتسب الباب الرابع من الكتاب.

(٣٧) القلقشندى : صبح ، جـ٥ ، ص٤٨٩/د . سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٢٩ .

(٣٨) الخراج : لأبى يوسف ، ص ١١٥ . الكندى : القضاة ، ص ٥٩٢/المقريزى : الخطط : جـ١ ، ص ٤٠١ .

(٣٩) كان بعض القضاة فى بعض العهود - لايتسلمون مرتباتهم لأنهم اعتبروا القضاء خدمة دينية لايجوز أخذ مرتب عليها - ملحق الكندى ص ٥٧٣ وابن الجوزى : المنتظم ص ١٠٥ ب/والسبكى : الطبقات جـ٣ ص ٨٤/ميتز : الحضارة الترجمة . جـ١ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١/حسن ابراهيم : النظم الإسلامية ، ص ٣٥١ .

حتى يتم الاطمئنان إلى عدالتهم ، وبعدهم عن المؤثرات المختلفة ، ولتقل حاجتهم إلى الناس[40] .

سابعا : كان القاضى يستمد أحكامه من المصادر الإسلامية الرئيسية وهى الكتاب والسنة[41] ، وكان أحيانا يجتهد إذا لم يجد فى المصادر المذكورة ما يشفى غلته[42] . وهذا بعينه ما ذكرناه عن المحتسب[43] . وكان لا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها[44] .

حدد الماوردى[45] اختصاص القاضى بعشرة أحكام هى : -

١ - الفصل فى المنازعات وقطع التشاجر والخصومات .
٢ - استيفاء الحقوق ممن مطل بها وإيصالها إلى مستحقيها بعد ثبوت استحقاقها .
٣ - ثبوت الولاية على من كان ممنوع التصرف بجنون أو صغر . والحجر على من يرى الحجر عليه لسفه أو فليس حفظا للأموال على مستحقيها وتصحيحا لأحكام العقود فيها .
٤ - النظر فى الأوقاف بحفظ أصولها وتنمية فروعها والقبض عليها وصرفها فى سبيلها .
٥ - تنفيذ الوصايا فيما أباحه الشرع ولم يحظره .
٦ - تزويج الأيامى بالأكفاء إذا عد من الأولياء ودعين إلى النكاح .
٧ - إقامة الحدود على مستحقيها .
٨ - النظر فى مصالح عمله من الكف عن التعدى فى الطرقات والأفنية وإخراج ما لا يستحق من الأجنحة والأبنية .
٩ - تصفح شهوده وأمنائه واختيار النائبين عنه من خلفائه فى إقرارهم والتعويل عليهم مع ظهور السلامة والاستقامة وصرفهم والاستبدال بهم مع ظهور الجرح والخيانة .
١٠ - التسوية فى الحكم بين القوى والضعيف والعدل فى القضاء بين المشروف والشريف[46] .

ولكن الواقع كان يخالف ذلك ، فالحقيقة أن اختصاص القاضى كان غير محدد سواء أكان فى الأمور الدينية أو الجنائية[47] ، ولم تكن سلطة القاضى قاصرة على أعمال قضائية

---

(٤٠) سفرنامه ، الترجمة العربية ، ص٦

(٤١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٦٧ السيوطى : حسن ، جـ١ ، ص ٩٩ - ١٠٠ /ابن إياس : بدائع ، جـ١ ، ص١٠١ - ١٠٣ .

(٤٢) الماوردى : الأحكام ، ص ٦١ .

(٤٣) الماوردى : نفسه ، ص ٢٤١ . وانظر شروط تولية المحتسب ص ١٠٣ من الكتاب .

(٤٤) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٤٦٤ .

(٤٥) الأحكام ، ص ٧١ .

(٤٦) الماوردى : الأحكام ، ص ٧١ .

(٤٧) Wiet : Precis De IHist. dEgypte. T. 11 pp. 124, 125. د . سيده كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ١٠٤

صرفة فحسب ، وإنما كانت كذلك أمورا دينية لها علاقة بالقضاء فى بعض الأزمنة[٤٨] ، وكان يوكل إلى القضاة فى بعض الأحيان إلى جانب ولاية القضاء القصص وإدارة بيت المال[٤٩] ، ولكنها كانت كاختصاصات سائر الموظفين غير محدودة .[٥٠]

كما لم تكن سلطة المحتسب قاصرة على الأعمال الدينية فحسب ، ولكن كانت له سلطة تنفيذية وقضائية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وصحية . وكانت الدولة توكل له الإشراف على بيت المال وقضاء الجيش[٥١] فى بعض الأحيان إلى جانب مهام عمله الرئيسية .

وتتضح أعمال القاضى إذا دققنا النظر فى وصية الخليفة الطائع فى عهده لقاضى القضاة أبى محمد بن معروف ، وهو العهد الذى كتبه الصابى فى سنة ٣٦٦ هـ ٩٧٦ م ، وصية متكررة بالاكثار من تلاوة القرآن وأن يتخذه اماما يهتدى بآياته ، وبالمحافظة على الصلوات فى أوقاتها ، وبالجلوس للخصوم وفتح بابه لهم على العموم وأن يوازى بين الفريقين المتحاكمين إليه ، ولا يحابى مليا على ذمى . وأمره بالقصد فى مشيته ، وبالغض من صوته ، وحذف الفضول ، وأن يخفف من حركاته ولفتاته ، ويتوقف من سائر جنباته وجهاته ، وأن يستعصب كاتبا دربا بالمحاضرات والسجلات ، ماهرا فى القضايا والحكومة غير مقصر عن قضاة المستورين والشهود المقبولين فى طهارة ذيله ونقاء جيبه ، وحاجبا سديدا رشيداً لا يسف إلى دنيئة ، ولا يقبل رشوة ، ولا يلتمس جعلا ، وخلفاء يرد إليهم ما بعد العمل عن مقره ، وأعجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه ، ويجعل لكل من هذه الطوائف رزقا يكفه ويكفيه ، وأن يبحث عن أديان الشهود ويفحص عن أمانتهم ، وأمره أن يضبط ما يجرى فى عمله من الوقوف الثابتة فى ديوان حكمه ، ويحتاط على أموال الأيتام ويسندها إلى أعف وأوثق القوّام ، وأمره إن ورد عليه أمر يعيه الفصل فيه أن يرده إلى كتاب الله ، فإن وجد فيه الحكم والافقى السنة ، فإن أدركه والا استقتى ذوى الفقه والفهم وأهل الدراية ، وأمره ألا ينقض حكما حكم به من كان قبله إلا إذا كان خارجاً عن الإجماع وأنكره جميع العلماء ، عند ذلك ينقضه نقضا يشيع ويذيع[٥٢] .

ثامنا : وكان قاضى القضاة يتزعم الاحتفالات الدينية ورؤ ية هلال رمضان[٥٣] ، كما

---

(٤٨) ابن خلدون المقدمة ص٥٧٠ عرنوس تاريخ القضاء فى الإسلام ص ١١٢ - ١١٣ .

(٤٩) راجع الكندى ، ص ٣١٧ و ٣٥٤ أنظر بخصوص القصص ص٢٣٠ هامش[١٩] من الكتاب .

(٥٠) سيدة كاشف : احمد بن طولون ، ص ٢٢٢/مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ص ٢٠٣ .

(٥١) العينى : الجمان ، مخطوط ، جـ٢٥/٣ ، ورقة ٥٣٤ .

(٥٢) رسائل الصابى ، ص ١١٥ وما بعدها . هذه الوصية وردت فى الحضارة العربية لميتز جـ١ ، ص٤٠٦ ، ص ٤٠٧ .

(٥٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٧/د . سيدة كاشف مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ، ص٢٠٣ .

كان لابد لطبقة العلماء وكبار موظفى الدولة - ومنهم المحتسب - وصاحب الشرطة[٥٤] من حضور مثل هذه الاحتفالات .

تاسعا : وقد كان تضخم أعمال القاضى سببا فى أن يتخذ له نوابا أو مساعدين لوظيفته الأصلية فى أعمال القضاء الواسعة ، وهو لا يتخذهم فى العاصمة فحسب وهى مقره - وإنما كذلك فى بقية الأقاليم حيث كان يطلق عليهم نواب الحكم[٥٥] وخلفاء النواحى[٥٦] وأحيانا ما كان يعين قاضياً للقاهرة[٥٧] والوجه البحرى[٥٨] ، ثم يعين قضاة آخرين فى اقاليم مصر أيضا . أو كان القاضى يولى قضاة فى البلاد المختلفة فى مصر أو فى غيرها من البلاد التابعة لنفوذه القضائى .[٥٩]

وهذا بعينه ما كان يتبع باللقاء إلى المحتسب ، فكان له الحق فى اتخاذ الأعوان فى القاهرة وجميع النواحى كنواب الحكم فى ذلك . الذين يقال لهم الغلمان أو الأعوان أو العيون .[٦٠]

عاشرا : وكان يطلق على المكان الذى يجتمع فيه القاضى بالخصوم اسم مجلس الحكم[٦١] ، أو مجلس القاضى[٦٢] ، وهو لا يعقد فى بناء خاص كما فى وقتنا الحاضر ، وإنما فى مسجد العاصمة الكبيرة[٦٣] حيث كان القضاة يفصلون بين الخصوم فى المسجد منذ فجر الاسلام .

وكان محتسب العصر الأيوبى والمملوكى ينكر على القاضى جلوسه فى المسجد للفصل بين الناس لما سبق ذكره من أسباب[٦٤] ، وكذلك كان مجلس القاضى يعقد فى منزله

---

(٥٤) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٨٧ .

(٥٥) الكندى : القضاة ، ص٥٩٠ : المقريزى ، الخطط/جـ١ ، ص٤٠٤ .

(٥٦) الكندى : نفسه ، ص ٥٩٢ .

(٥٧) على ابراهيم : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٥٩ .

(٥٨) أبوشامة : الروضتين فى اخبار الدولتين ، جـ١ ص ١٩١ .

(٥٩) د . سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص ٢٠٢ .

(٦٠) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤/الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١٠ أنظر ما سبق ذكره عن أعوان المحتسب ص ١٢٣ من الكتاب .

(٦١) الكندى : القضاة ، ص٦٠٤ ، ص ٦١٠ .

(٦٢) القلقشندى : صبح ، جـ٥ ، ص ٤٩٧ .

(٦٣) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٤٠٣/ميتز ، جـ١ /ص ٣٩٧ ود . سيدة كاشف نفسه ص ٢٠٣ .

(٦٤) انظر ذلك ص ٨١ من الكتاب .

أحياناً[٦٥] . وقد ينتقل هو لمكان النزاع إذا لزم الأمر معاينته[٦٦] . ويرى ابن حجر أنه لابد أن تكون جلسات القاضى فى موضع واسع فى وسط البلد يعرفه الناس ويقصدونه[٦٧] .

كما كان للمحتسب دار خاصة يجتمع فيها بالتجار تسمى دار العيار[٦٨] ، وإذا لزم الأمر كان ينتقل إلى مكان التفتيش فى الأسواق حيث يستطيع أن يقوم بمهمته على خير وجه كما سبق أن ذكرنا .[٦٩]

كره كثير من قضاة مصر العمل فى هذه الوظيفة[٧٠] ، وطلبوا الاستعفاء منها . وإذا نظرنا إلى تاريخ الحسبة نجد أن بعض المحتسبين كره تولى هذه الوظيفة وطلبوا بدورهم الاستعفاء منها[٧١] .

وعلى الرغم من محاسن النظام القضائى ، الذى اتصف فيه القضاء فى بعض العصور بالاستقامة والاجتهاد والاستقلال فى الرأى[٧٢] . والإصلاح والنزاهة ، فإنه لم يكن خاليا من العيوب والنقائض ، فقد بلغت الرشوة درجة انحطت معها نفوس القضاة[٧٣] ، ومنهم عبدالرحمن بن عبد الله العمرى الذى قيل إنه أصاب من الرشوة مائة ألف دينار ، وزاد على ذلك من شرب الخمر وسماع المغنيات مما أساء إلى سمعته وسمعة وظيفته .[٧٤]

---

(٦٥) د . سيدة كاشف : مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ، ص ٢٠٣ .
ويحكى عن خير بن نعيم الذى تولى قضاء مصر عام ١٢٠هـ - ٧٣٨م أنه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره ، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجرى بين الخصوم من الكلام الكندى ص ٣٥١/ميتز ، جـ١ ص ٣٩٥ .

(٦٦) مشرفة : نظم الحكم بمصر على عهد الفاطميين ، ص ٢٣٨ .

(٦٧) رفع الإصر عن قضاة مصر ، جـ٢ ، ص ٣٧٧/ابن الأخوة . معالم القربة ص ٢٠٨ .

(٦٨) المقريزى : جـ١ ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤/ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٦٩) أنظر مكان تفتيش المحتسب ، ص ١٢٨ من الكتاب .

(٧٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٢٢٦ أفرد باباً مستقلا عن قضاة مصر وكراهية العمل على القضاة ليدن ١٩٢٠ ابن خلكان : وفيات الأعيان/جـ٢ ص ١٢٥ - ٢١٨/ابن حجر رفع مخطوط ، ورقة ١٧ وهو يسوق أمثلة لمن كره تولية هذه الوظيفة السمرقندى : بستان العارفين ، ص ٣٩ .

(٧١) انظر ص ٢٩١ ، ٢١٤ من البحث .

(٧٢) Lane Poole : AHist pp. 39 — 39 — 406 44.

(٧٣) الماوردى : الأحكام ص ٧٥ . د . سيدة الكاشف : مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ، ص ٢٠١ .

(٧٤) حسن ابراهيم : النظم الإسلامية ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥/د. سيدة كاشف مصر فى عصر الولاة ، ص ٥٨ .

وشبيه بذلك أمر الحسبة ، إذ على الرغم من رهبة الحسبة وصلاحها ، وأهمية وظيفة المحتسب ، وما تمتع به من نفوذ كبير فإننا نجد فى بعض العصور محتسبين سيئى السيرة ، وقد مدوا أيديهم إلى الارتشاء كما ذكرنا آنفا[٧٥] .

= ويحكى أنه فى سنة ٣٥٠هـ - ٩٦١م تقلد أبو العباس بن أبي الشوارب قضاء بغداد بعد أن وافق على أن يحمل إلى خزانة الأمير معز الدولة مائتى ألف درهم فى كل سنة وقد اتهم هذا القاضى «بالغلمان والشهوات والخمور» ميتز : الحضارة جـ١ ، ص ٣٩٣ عن تذكرة ابن حمدون عند امدرز .
Amedroz , jRAS 1910 S. 789. وهكذا نرى أنه قد اشترى منصبه بالأموال ابن الأثير ، جـ ٨ ، ص ٤٠٠ ، ٤٠٧ انظر أمثلة على ذلك فى ابن حجر : انباء ، جـ١ ، ص ١٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٧٥) انظر ص ٩٣ و ١٩٧ من الكتاب .

الفصل الثانى

الحسبة وعلاقتها بالمظالم

وبسبب تضخم ظروف الحياة فى الخلافة الإسلامية ظهرت وظيفة ، إلى جانب الوظائف الدينية الأخرى ، القضاء والحسبة ، وهى النظر فى المظالم ، وكانت تلك الجهات الثلاث - على تفاوت ما بينها فى الاختصاص - تقوم على النظر فى منازعات الناس ومايرتكبونه من أفعال تخالف الشريعة الإسلامية ، ولم تظهر جميعها فى وقت واحد ، وإنما ظهرت حسب الحاجة إليها ، وان كلا منها كان بسيطا فى أول نشأته ، ثم تطور وظهرت له اختصاصات .

ولقد عرفت وظيفة والى المظالم منذ الصدر الأول للدولة الإسلامية وإن اختلطت سلطته كثيرا بسلطة الحاكم[١] . وذلك عندما أحس الناس جور الولاة[٢] .

وقد أصبح النظر فى المظالم منصباً قضائيا هاماً [٣] ، يعنى منع الظلم عن الرعية ، وهو تعبير اصطلاحى يدل على الظلم الذى يأتى من التعدى أو الفساد فى الدواوين المركزية أو الادارة المحلية ، ولما كان القاضى والمحتسب يعجزان عن النظر فيه لتناوله جهاز الحكم ، فإن الذى كان ينظر فيه هو الخليفة نفسه أو من ينوب عنه من كبار رجال الدولة[٤] .

---

(١) كان أول من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان ، فكان إذا وقف منها على مشكل أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه الماوردى : الأحكام ، ص ٧٨٠ .

(٢) الماوردى : نفسه .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٢٤٤ . ص ٢٤٥ ، جـ٣ ، ص ٣٣٦ فما بعدها .

(٤) الماوردى : الأحكام ، ص ٧٨/ماجد نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١٥٥ وما بعدها وتاريخ الحضارة ، ص ٥٣ .

● ويقول الماوردى إن الذى يختص بنظر المظالم له أن ينظر فى عشر نواح هى :

١ - النظر فى تعدى الولاة على الرعية وأخذهم بالعنف فى السيرة ويكون لسيرة الولاة متصفحاً ، وعن أحوالهم مستكشفاً ليقويهم إن أنصفوا ، ويكفهم إن عسفوا ، ويستبدل بهم إن لم ينصفوا .
٢ - جور العمال فيما يجبونه من الأموال فيرجع فيه إلى القوانين العادلة فى دواوين الأئمة فيحمل الناس عليها ويأخذ العمال بها ، وينظر فيما استردوه فإن رفعوه إلى بيت المال أمر برده ، وأن أخذوه لأنفسهم استرجعه لأربابه .[٥]
٣ - كتاب الدواوين لأنهم أمناء المسلمين على ثبوت أموالهم فيما يستوفون له ويوفونه منه اعادة[٦] ، فيتصفح أحوال ما وكل إليهم ، فإن عدلوا بحق من دخل أو خرج إلى زيادة أو نقصان إلى قوانينه وقابل على تجاوزه .
٤ - تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم وإجحاف النظر بهم فيرجع إلى ديوانه فى فرض العطاء العادل فيجريهم عليه وينظر فيما نقصوه أو منعوه من قبل - فإن أخذه ولاة أمورهم استرجعه منهم ، وإن لم يأخذوه قضاه من بيت المال[٧] .
٥ - رد الغصوب : وهى نوعان : غصوب سلطانية قد تغلب عليها ولاة الجور كالأملاك المقبوضة عن أربابها ، وهذا يأمر برده والى المظالم . والنوع الثانى من الغصوب ما تغلب عليها ذوو الأيدى القوية وتصرفوا فيه تصرف الملاك بالقهر والغلبة ، فهذا موقوف على تظلم أربابه ، ويرد والى المظالم ذلك .
٦ - مشارفة الوقوف[٨]
٧ - تنفيذ ماوقف القضاة من أحكامها لضعفهم عن إنفاذها وعجزهم عن المحكوم عليه لتعززه وقوة يده أو لعلو قدره وعظم خطره ، فيكون ناظر المظالم أقوى يدا ، وأنفذ أمرا ، فينفذ الحكم على من توجه اليه بانتزاع ما فى يده أو بإلزامه الخروج مما فى ذمته .
٨ - النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة فى المصالح العامة ، كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه ، والتعدى فى طريق عجز عن منعه ، والتحيف فى حق لم يقدر على رده . فيأخذهم بحق الله تعالى فى جميعه ويأمر بحملهم على موجبه
٩ - مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والأعياد والحج والجهاد من تقصير فيها واخلال بشروطها فإن حقوق الله أولى أن تستوفى وفروضه أحق أن تؤدى .

---

(٥) الماوردى : ص ٨٠ - ٨١ أنظر ما أورده من أمثلة فى هذه الصفحات .
(٦) يلاحظ ان : «اعادة» توضع قبل «إلى قوانينه» كى يتسق معها النص
(٧) الماوردى : الأحكام ، ص ٨١ .
(٨) نفسه : نفس المرجع ، ص ٨٢ .

١٠ - النظر بين المتشاجرين ، والحكم بين المتنازعين ، فلا يخرج فى النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه»[٩] .

وهذه الولاية - وإن كانت صورة من صور القضاء - فهى أعظم منه شأنا ، وأبعد أثرا[١٠] . ويقول ابن خلدون : «إنها وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد ، وعظيم رهبة ، وتقمع الظالم من الخصميين ، وتزجر المعتدى . . .»[١١] .

أما المقريزى فقد عبر عن رأيه فى هذه الولاية بقوله : «النظر فى المظالم عبارة عن قيد المتظالمين إلى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة»[١٢] .

وإذ سبق لنا بيان أوجه التوافق والافتراق بين الحسبة والقضاء ، فهل ثمة جامع ما بين الحسبة والمظالم ؟

ويجيبنا الماوردى على هذا التساؤل بقوله : «وأما ما بين الحسبة والمظالم فبينهما شبه مؤتلف - وفرق مختلف»[١٣] .

● **أما الشبه الجامع بينهما فمن وجهين :-**

أحدهما :-أن موضوعها مستقر على الرهبة المختصة بسلاطة السلطنة وقوة الصرامة[١٤] .

والثانى :- جواز التعرض فيهما لأسباب المصالح ، والتطلع إلى إنكار العدوان الظاهر .[١٥] .

● **وأما الفرق بين الحسبة والمظالم فمن وجهين :**

أحدهما : أن النظر فى المظالم موضوع لما عجز عنه القضاة ، والناظر فى الحسبة ولذلك كانت رتبة المظالم أعلى ، ورتبة الحسبة أخص ، وجاز لوالى المظالم أن يوقع إلى القاضى والمحتسب ، ولم يجز للقاضى أن يوقع إلى والى المظالم ، وجاز له أن يوقع إلى المحتسب ، ولم يجز للمحتسب أن يوقع إلى واحد منهما .

---

(٩) الماوردى : الأحكام ، ص ٨٣ .

(١٠) انظر الفروق بين القضاء والمظالم كما أوردها الماوردى فى الأحكام ، ص ٨٣ وما بعدها .

(١١) المقدمة ، ص ٢٤٦ «النظر فى المظالم» .

(١٢) الخطط ، جـ١ المجلد ٣ ، ص ١٣٦ وغالبا نقل ذلك عن الماوردى الأحكام ص٧٧ .

(١٣) الماوردى : الأحكام ، ص ٢٤٢ .

(١٤) أبو يعلى : الأحكام ، ص ٢٧٠ ، ابن الرفعة : الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٥ .

(١٥) الماوردى : الأحكام ، ص ٢٤٢ ، أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٧١ .

والفرق الثانى بين الحسبة والمظالم : أنه يجوز لوالى المظالم أن يحكم ولا يجوز لوالى الحسبة أن يحكم [١٦] . ويحكم بين المتنازعين فيحق الحق ويقيم العدل[١٧] .

وخلاصة القول أن قاضى المظالم ينفذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام ، أو ما يعجز عنه المحتسب فى المصالح العامة كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه ، أو التعدى فى طريق عجز عن منعه ، والتحيف فى حق لم يقدر على رده ، فيأخذهم بحق الله فى جميعه كما سبق لنا القول .

ومهما يكن من أمر تفصيل الماوردى لما بين الحسبة والقضاء من ناحية ، وما بين الحسبة والمظالم من ناحية أخرى من صلات وعلاقات ، فإنه فى معرض حديثه عن تلك الأمور قد قلل من شأن الحسبة وذلك حين يقول : «ولا يجوز للمحتسب أن يوقع إلى واحد منهما» . ونراه بعد ذلك يقول : «الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم[٣] . فكيف يتفق ذلك مع النص الأول ؟

والظاهر أن الماوردى لا يقصد «بالواسطة» هنا المرتبة الوسط ، وإنما يقصد بها الوسيلة والأداة ، بمعنى أن الحسبة أداة أو وسيلة يتأدى بها وعن طريقها إلى كل من ولاه أحكام القضاء وأحكام المظالم .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الماوردى لم يكن دقيقا فى هذا التعبير فى النص الأخير ، إذ إن ما يفهم من تفصيلات النص الأول تدلنا على أحكام القضاء يمكن أن تكون الوسيلة كذلك لأحكام المظالم وذلك لأن ما يعجز القاضى عن النظر فيه يرفع إلى والى المظالم ، وكذلك ما يعجز المحتسب عن النظر فيه يرفع إلى والى المظالم ، فكان الأدق فى التعبير أن تجرى عبارة الماوردى على النحو التالى : «القضاء والحسبة وسائط لأحكام المظالم» .

وليس أدل على ما ذهبنا إليه من اتجاه فى تفسير نصوص الماوردى مما أورده ابن حجر من تفصيل للقضاء والمظالم وذلك حين يقول : «إنه كان يعهد إلى القاضى بالاختصاص فى المظالم فيكون قاضيا وناظرا للمظالم»[١٩] .

---

(١٦) الماوردى : الأحكام ، ص ٢٤٣ ، أبى يعلى : الأحكام ص ٢٧١ .

(١٧) نفسه ، ص٧٠ .

(١٨) الماوردى : الأحكام ، ص ٢٢٩ .

(١٩) رفع الإصر عن قضاة مصر ، مخطوط ، ورقة ٤٢ تحت رقم ١٠٥ تاريخ بدار الكتب كان ينظر فى المظالم بمصر قاضى الأخشيد الذى ولى القضاء سنة ٣٢٤هـ - ٩٣٦م - طبقات السبكى جـ٢ ص ١١٣ - ١١٤ . وفى سنة ٣٣١هـ أفرد للنظر فى المظالم قاض مستقل الكندى ص ٥٧٢ وعندما لا ينظر القاضى فى المظالم كانت ترسل اليه قصص المتظلمين بعد التوقيع فيها . أنظر كتاب الوزراء ص ١٥١ /ميتز : الحضارة ، ج١ ص ٤٠٩

وكانت ترفع إلى المظالم الشكاوى من الأسعار والتسعير[٢٠] ، كما وجدنا بعض التجار العجم يتظلمون لهذا المجلس نتيجة لاستبداد التجار المصريين[٢١] . وغالبا ما كانت هذه الشكاوى ، تقدم أولا إلى الجهات المسئولة ، فاذا لم يستطيعوا حلها رفعت الشكاوى إلى مجلس المظالم ، ويعلل الماوردى ما لأحكام المظالم من شأن وقوة بقوله : «إن ولاية المظالم تقوم على التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ، ولذا يقوم بها من كان جليل القدر ، عظيم الهيبة ، ظاهر الحكمة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، فإن قيامه بعمله هذا يحتاج إلى سطوة الحماة ، وثبت القضاة ، فوجب أن يجتمع فيه صفاتها ، ولذا كان من سلطانه تنفيذ ما لم ينفذ من أحكام القضاة لضعفهم عن تنفيذه وضعفهم عن إنفاذه ، والنظر فيما عجز عنه المحتسب من ردع ذوى القوة والسلطان»[٢٢] .

وقريب مما قامت به ولاية المظالم فى القديم ما تقوم به فى عصرنا الحاضر محكمة الاستئناف ومحكمة النقض ، ومجلس الدولة ، وكان المفروض نظريا أن تعرض عليه القضايا العشرة التى أشار إليها الماوردى والسابق ذكرها[٢٣] . ولكن الواقع فى مصر الإسلامية يخالف ما تكتبه المراجع النظرية أو الفقهية فى هذا الشأن ، فإن اختصاص الناظر فى المظالم كان غير محدود ، فكان دون اختصاص القاضى فى بعض الاحيان وفوقه فى أحيان أخرى ولم يكن سلطانه واسعاً الا حين كان هو الخليفة نفسه أو الأمير[٢٤] .

---

(٢٠) المقريزى : الخطط جـ٣ ، ص ٣٣٣ .

(٢١) نفسه ، جـ٣ ، ص ٣٦٠ .

(٢٢) الأحكام ، ص ١٢٠ وما بعدها/أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٦٩ وما بعدها .

(٢٣) أنظر الماوردى ص ٨١ وما بعدها .

(٢٤) أنظر أمثلة موضحة فى كتاب د . سيدة كاشف : مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ص ٢٠٦/حسن إبراهيم : النظم الإسلامية ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

الفصـــل الثـالث

الحســبة وعلاقتهـا بالشــرطة

خضعت مصر منذ الفتح الإسلامى لأنظمة الشرطة العربية ، وكان منصب (صاحب الشرطة) من المناصب الرفيعة إذ كان يقوم بأعباء الوالى فى غيابه[1] . وقد سموا رجال الشرطة بذلك لأنهم أشرطوا لأنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها[2] . وقيل لأنهم الأقوياء الأشداء من الجند[3] .

والظاهر أن الوظيفة كانت فى بداية تكوينها أداة فى يد عمال الخليفة لتنفيذ سياسته[4] . وقد ابتدأت بسيطة فى أول نشأتها شأن كل مستحدث[5] .

ويعرف الدكتور حسن ابراهيم الشرطة بأنها هى : «الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى فى استتباب الأمن ، وحفظ النظام ، والقبض على الجناة المفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التى تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم[6] .

ومهما يكن من أمر فإن صاحب الشرطة ظل ينفذ أحكام القضاة والمحتسبين[7] حتى سنة ٣٦٩هـ - ٩٧٩ م عندما وقع نزاع بين صاحب الشرطة وبين القـاضى ، وذلك أن

---

(١) الشرطة فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين «مجلة الأمن العام العدد ١١ أكتوبر سنة ١٩٦٠ ، ص ٥٥ ابراهيم الفحام .

(٢) لسان العرب ، جـ ٩ ، ص ٢٠٢ وما بعدها/القلقشندى ، صبح ، جـ ٥ ص ٤٥٠ .

(٣) الكتانى : التراتيب الإدارية ، المقدمة ، ص ١٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٣ ، ص ١٩٨ .

(٥) كرد على : الإدارة الإسلامية فى عز العرب ، ص ٣١ ط مصر سنة ١٩٣٤ .

(٦) النظم الإسلامية ، ص ٢٦٠ ، تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص ٤٦/ Ency : Isl. Art Shurata p. 408 انظر مولاى الحسينى : الفصل الثانى عشر من كتابه الإدارة الإقليمية فى عهد أوائل الخلفـاء من بنى العباس ، ص ٣٤٠ وتعريف د . سرور للشرطة فى كتابه مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٨٨ .

(٧) ابن خلدون : المقدمة ، جـ١ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، ٤٠١/الركايبى : إدارة الشرطة فى مصر ص ٨ ط القاهرة ١٩٦٦ .

صاحب الشرطة حكم فى شىء ليس من اختصاصه ، فأنكر القاضى حكمه ، واعترض فيه ، فوقع الوزير بأنه ليس لأحد الفريقين أن يعترض على الآخر فيما حكم به[٨] .

وفى حوالى سنة ٤٠٠ هـ منع القاضى أصحاب الشرطة من التكلم فى الأحكام الشرعية (ثم أنهى الخليفة النزاع بأن أضاف للقاضى النظر فى المظالم .)[٩] .

وعلى ذلك أصبح لصاحب الشرطة الاستقلال بالنظر فى الجرائم التى تعرض عليه ، وبذلك يصح لنا أن نقول إن هذه الوظيفة أصبحت إدارية أكثر منها دينية ، ولكن استقلالها لم يكن فى أغلب الأحيان تاماً ، فقد كان صاحبها فى أيام الدولة الفاطمية مثلا يساعد القاضى فى إثبات التهم ونفيها ، وتنفيذ الأحكام القضائية الصادرة من القاضى أو المحتسب علاوة على عمله الأصلى وهو بث الأمن والطمأنينة فى البلاد[١٠] ,

وكثيراً ما جمع ما بين الشرطة والقضاة فى يد واحدة[١١] ، بل وكثيراً ما أضيفت الحسبة إلى اعمال صاحب الشرطة فى مصر[١٢] ، فمثلا ولى الحاكم بأمر الله «الخليفة الفاطمى» غبنا الصقلبى «الشرطتين والحسبة بالقاهرة ومصر والجيزة[١٣] .

ومن طريف ماذكر عن الخليفة الحاكم بأمر الله أنه اهتم بأحكام نظام المباحث ، وكان معظم اعتماده على النسوة العجائز . كما كان يفعل الخليفة المأمون العباسى - وقد بلغ من دقة . ما كان يحصل عليه من أسرار المجتمعات أن صار يدعى العلم بالغيب ، إذ كانت تأتيه أخبار وافية عن الجرائم ومرتكبيها فور وقوعها[١٤] .

وإن دل هذا النص على شىء ، فإنما يدل على دقة الخليفة الحاكم بأمر الله وشدته فى طلب الحق والتحرى عن الحقيقة والاهتمام بما يجرى فى أمور دولته فلا ننسى أنه كان يتولى أعمال الحسبة بنفسه[١٥] ، كما كان يتولى عقاب المخالفين[١٦] فقد كان محتسبا وشرطيا .

---

(٨) ملحق الكندى ، ص ٥٩١ . /ميتز : الحضارة ، جـ١ ، ص ٤١٢ .

(٩) الكندى ، ص ٦٠٤/ميتز جـ١ ، ص ٤١٢ .

(١٠) مشرفة : نظم الحكم بمصر ، ص ١٦٤ .

(١١) الكندى : ص ٣٩٠ ، ابن حجر : رفع الإصر ، المخطوط ورقة ١٩١ /السيوطى : حسن جـ٢ ص ١٣٨ حيث أشار إلى ذلك فى أكثر من موضع من كتابه .

(١٢) القلقشندى : صبح ، جـ٣ ، ص٤٨٧/شلبى السياسة والاقتصاد سنة ١٩٦٦ .

(١٣) ابن منجب الصيرفى : الإشارة ، ص ٣٥ . أنظر ما فعله الحاكم بغبن حتى تم قتله ٤٠٥هـ/١٠٩٤ .

(١٤) ابن إياس : بدائع ، جـ١ ، ص ٥٤ - ٥٦ .

(١٥) نفسه ، جـ١ ، ص ٥٢/يوسف المقدسى الحنبلى نزهة الناظرين مخطوط ص ٣٩ - ٤٠ .

(١٦) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ١٩/٤ ورقة ٦٨١/ابن إياس : بدائع ، جـ١ ، ص ٥٣ .

وكما شبه المحتسب بالنائب العام فى زمننا هذا شبه رئيس الشرطة بالمحافظ فى هذا العصر أيضا ، لأنه يتولى رئاسة الجند الذين يساعدون الوالى على استتباب الأمن لأن استتباب الأمن يكون جزءا كبيرا من عمل المحافظ ، ولذا كان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة ، وقد كان صاحب الشرطة هو الحاكم الفعلى للمدينة ، وكان له سلطان واسع مستمد من الخليفة أو الأمير(١٧) .

ولسنا نريد أن ندخل فى مجادلات بشأن وظيفة الشرطة ، ولكن الذى يهمنا هنا هو دراسة علاقتها بالحسبة . وقد عبر صاحب (التيسير فى أحكام التسعير)(١٨) عن العلاقة على نحو غاية فى الدقة والجمال وذلك حين يقول :

«الحسبة بين خطة القضاء وخطة الشرطة ، جامعة بين نظر شرعى دينى وزجر سياسى سلطانى» .

ومن المصادر التى بين أيدينا أيضا استطعنا أن نستخلص بعض أوجه الشبه بين الحسبة والشرطة ، كما استطعنا أيضا أن نستقى أوجه الخلاف بين الوظيفتين :-

أما أوجه الشبه فتتجلى فيما للفئتين من حقوق :-

فعلى نحو ما كان للحسبة من مكانة رفيعة فى الدولة الإسلامية ، كان للشرطة كذلك هذه المكانة بحيث كان يتقلدها كبار القواد والخاصة من العظماء ، ولم تكن عامة التنفيذ فى طبقات الناس ، وإنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدى الرعاع والفجرة(١٩) .

وهناك أيضا شروط لازمة يجب أن تتوفر فى اختيار صاحب الشرطة(٢٠) ، وأخرى لازمة للمحتسب ، نجد أنها تكاد تكون متشابهة من حيث توفر الثقة والأمانة . . .

وكان أصحاب الشرطة يهتمون بنشر الفضيلة ، والمحافظة على الأخلاق الفاضلة وقمع الفساد ، فكان والى مصر (مزاحم بن خاقان) سنة ٢٥٣ هـ يتشدد فى نشر الأخلاق الفاضلة ، وقمع أهل الفساد ولذلك نراه ينبه صاحب شرطته (أزجور) إلى ذلك(٢١) . وهذه الأعمال تمثل جانبا من أعمال المحتسب كما رأينا .

---

(١٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص ٤٦٠/جـ٢ ، ص ٢٠٧ . لعل أقرب وظيفة حالية لرئيس الشرطة هى وظيفة «مدير الأمن» أو «وزير الداخلية» .

(١٨) أحمد بن سعيد المجيلدى . التحقيق ، ص٨ .

(١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٢ ، ص ٦٢٥ .

(٢٠) مولاى الحسينى : الإدارة العربية ، ص ٣٤١ .

(٢١) د . سيدة كاشف : أحمد بن طولون ، ص ١٦٤ .

ومن المحتمل أن صاحب الشرطة فى الحاضرة كان له أعوان فى سائر أنحاء البلاد . ولكن الراجح أن ولاة المدن والأقاليم فى ريف مصر كان لكل منهم شرطة يتخذونها لإقرار الأمن والمحافظة على النظام فى منطقة حكمه(٢٢) . وكما رأينا كان المحتسب يستقر فى القاهرة أو الفسطاط أو غيرها من المدن الكبيرة ، وكان يشرف على مدن الوجه البحرى والـوجه القبلى عن طريق معاونيه(٢٣) .

فالشرطة إذن كالحسبة ، أداة تنفيذ حيث إن عمل والى الشرطة هو تنفيذ الحدود(٢٤) والأحكام التى يصدرها القاضى أو المحتسب على من تجب عليه(٢٥) .

وفى كثير من الحالات كان المحتسب يتقدم إلى الشرطة لشد أزره فيما يوقعه من تعزير ، أى أن الشرطة كانت أداة تنفيذ للحسبة .

● **أما أوجه الاختلاف بين الحسبة والشرطة فهى :**

كانت الشرطة فى بداية أمرها وظيفة دينيـة(٢٦) ، وذلك لأن مـوضوعهـا هو تنفيـذ العقوبات الشـرعية ، ثم صـدر أمر من القـاضى بمنع الشـرطة من التكلم فى الأحكـام الشرعية ، وقد لا يتفق إجراء الشرطة مع الشرع ولا مع إجماع الفقهاء وإنما إجراء تتخذه السلطة الحاكمة لمعالجة أمرها . على حين كان المحتسب على عكس ذلك ، فقد كان يبحث عن المنكرات التى تتصل بالدين ويعمل على استئصالها وفقا لأحكام الشريعة . ومعنى ذلك أن الشرطة - وهى أداة تنفيذية كالحسبة قد تتفق فيما تقوم به مع الشرع إذا وافق ذلك هوى الحكام ، وقد لا تتفق مع الشريعة إذا خالفت هواهم . ولكن الحسبة لا تضع فى حسابها ، بأى حال من الأحوال ، مبتغى الحكام ومقصدهم ، وإنما ديدنها هو أوامر الشرع الصريحة ونواهيه القاطعة(٢٧) .

---

(٢٢) المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، ص ٣٠٤/سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٢٣٠ كان لصاحب الشرطة أعوان يسمون بأسماء مختلفة أنظر المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص١٤٣ ، ابن إياس : بدائع ، جـ٢ ، ص ٣١٢ ، جـ٣ ، ص ٩٣ .

(٢٣) أنظر فصل العصر المملوكى من الكتاب .

(٢٤) الماوردى : الأحكام ، ص ١٩٤/Ency Isl. Art. Hadd. ,P. 199

(٢٥) الكندى : ص ١١٠/فالتربرناور : مقالة الضبطية المنشورة فى مجلة روضة المدارس العدد ١٧ ص ١٤ لسنة ١٢٨٩ .

أنظر وصية أحمد بن طولون لصاحب شرطته من كتاب سيرة أحمد بن طولون للبلوى ، ص ٢٠٥ .

(٢٦) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩٨ .

(٢٧) ماجد : دولة سلاطين المماليك ، ١٣٣ وعبارة الدكتور ماجد صحيحة من الوجهة النظرية ولكنها ليست كذلك عمليا وتاريخيا كما ذكرنا سابقا .

كان لصاحب الشرطة الحق فى أن يجرى التحريات عن الجرائم التى تبلغ له ، أو عن المشتبه فى أمرهم[٢٨] تحريات علانية أو سرية ، وليس هذا للمحتسب ، فقد كان يبحث عن المنكرات العلانية ، ويأمر بإزالتها وليس له أن يتجسس على أحوال الناس[٢٩] للوصول إلى المنكر . ولصاحب الشرطة أن يستخدم القوة لانتزاع الاعتراف من المتهمين[٣٠] وليس هذا للمحتسب .

وفى ميسور صاحب الشرطة أن يأمر بسجن الشخص المشتبه فى أمره ليجرى التحريات عنه (على ذمة التحقيق كما يفعل الآن) ، ويمكنه تعذيبه ليحمله على الاعتراف[٣١] وليس للمحتسب أو القاضى ذلك . ولصاحب الشرطة النظر والفصل فى قضايا الاعتداءات[٣٢] ، وليس للمحتسب ذلك .

ومن خلال استعراضنا لنظم الحسبة ، والقضاء ، والمظالم ، والشرطة نرجو أن يكون قد اتضحت معالمها للقارىء ، كيف قامت ، مقصدها الاجتماعى ، والآثار التى تركتها منذ نشأت بصورة بالغة البساطة ثم فى صورها المختلفة المتطورة على مر العصور .

---

(٢٨) مولاى الحسينى : الإدارة العربية ، ص ٣٤١ .

(٢٩) ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ، ص ٤٥ .

(٣٠) مولاى الحسينى : الإدارة العربية ص ٣٤١ .

(٣١) أنظر أبو يوسف : الخراج ، ص ١٠٧ .

(٣٢) مولاى الحسينى : الإدارة العربية ص ٣٤١ .

الخاتمة

نشأت الحسبة فى بداية أمرها نشأة بسيطة - شأنها فى ذلك شأن كل وظيفة فى العالم الإسلامى ، بل إنها لم تكن وظيفة مستقلة فى بدايتها وإنما كانت مجرد أوامر بالمعروف ونواه عن المنكر .

غير أن الحسبة احتلت مكـانة فى اللغـة ، فهى اسم من الاحتساب ، وتعنى حسن التدبير . والاحتساب يعنى : إنكار العمل القبيح وقد تكون الحسبة من الحساب بمعنى محاسبة النفس أو محاسبة الغير أو محاسبة الله تعالى للناس .

وترجع الحسبة فى أصولهـا إلى مصادر إسـلامية أسـاسها القـرآن الكريم والحـديث الشريف ، فقد كثرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تأمر بالمعـروف وتنهى عن المنكر .

ولا ترجع أصول الحسبة - فى مصر - إلى الروم أو البيزنطيين حيث كان عندهم وظيفة تشبه وظيفة العامل على السوق .

وقد أخذ المسلمون بعد الفتح العربى لمصرَ الكثير من الأنظمة السابقة إلا وظيفة والى المدينة البيزنطى التى كانت تشبه وظيفة المحتسب والتى لم تشر المراجع - التى أرخت للفتح العربى - إلى وجودها البتة .

وأول ما صادفتنا هذه الوظيفة فى الدولة الإسلامية فى أواخر العصر الأموى . ولم تكن هناك حسبة فى مصر منذ الفتح العربى حتى أوائل العصر الطولونى .

أما فى العصر الطولونى فقد قام القاضى بأعمال الحسبة حين قلد «أبو الجيش خمارويه القاضى محمد بن عبده بن حرب القضاء والأحباس والحسبة سنة ٢٧٧ هـ .

وأول ما أدخل وظيفة المحتسب فى مصر هم العباسيون حين فقدت مصر استقلالها بعد زوال الدولة الطولونية فعين مؤنس الخادم ، «محمد بن جعفر القرطى» ، أول محتسب لمصر كذلك أثناء وجوده فى مصر لصد الجيوش الفاطمية .

وأصبح المحتسب بعد ذلك موظفا يعينه الخليفة أو الوزير أو القاضى للنظر فى شئون الرعية ، فيأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر فيما يخص حياتهم الدينية والدنيوية ، وكان يشترط لاختياره العلم والورع ، والعفة ، والبعد عن الارتشاء ، والتعمق فى علوم الفقه والشريعة .

وفى العصر الإخشيدى لا تتضح لنا صورة المحتسب وأعوانه إلا من خلال تهكمات سيبويه المصرى الذى كان يعتبر من عقلاء المجانين .

وابتداء من العصر الفاطمى ، كان المحتسب يعين بمرسوم من الخليفة ويعمل له احتفال فى الجامعين : عمرو بن العاص والأزهر ، وتقرأ وصيته على المنبر ، ولما كان يختار من بين العلماء ، فإنه يلبس زيهم ، ويركب مثلهم ، ويختار أعوانه ، وقد اختلفت سلطاته التنفيذية باختلاف حال الشخص ونوع الجريمة .

وفى العصر الفاطمى ، وضحت اختصاصات محتسب مصر من حيث : تنفيذ تعاليم المذهب الشيعى فى الأذان والصلاة . . . الخ . كما وضحت اختصاصاته فى الأسواق ، وتسعير البضائع ، والإشراف على دار العيار .

ثم تطورت وظيفة المحتسب تطورا بعيد المدى فى العصرين الأيوبى والمملوكى . وفضلا عن أن محتسب العصر الأيوبى كان يضطلع بالإشراف على دار العيار ، والنظر فى أحوال الرعية ، وكشف أحوال السوق ، ومنع التجار من تسعير البضائع ، وعدم احتكار الطعام ، ومنع الغش ، وضرورة التعامل بالنقود المتداولة - فقد اتسعت مهامه حتى شملت توفير الخبز فى الأسواق ، ومعرفة الطحانين والخبازين وتقدير كمية معينة من الدقيق لكل بائع ، وذلك حفظا على اقتصاد البلد ، كما كان له السلطة فى ترتيب أماكن الصناعات المختلفة فى الأسواق ، والإشراف على المساجد ، وتعيين قومة لتنظيفها . وقد ظل محتسب ذلك العصر ذا شخصية قوية يملك حق التدخل لمصلحة الحق والعدالة ضد القضاة والأمراء والسلاطين .

أعجب الصليبيون بالمحتسب الأيوبى حيث نقلوا هذه الوظيفة إلى ولاياتهم فى القرن (٦ هـ = ١٢ م) ، وكانوا يطلقون على القائم بها لقب «المحتسب» ، والذى لا يختلف عمله عن عمل محتسب مصر .

كما انتقلت وظيفة الحسبة مع الصليبيين إلى جزيرة قبرص فى القرن ١٢ م أيضا ، واستمرت هناك مدة طويلة .

وفى العصر المملوكى ازدادت واجبات محتسب مصر عما كانت عليه فى العصور السابقة وتعددت جوانبها ، وتطلب هذا الأمر توزيع اختصاصات الوظيفة بين عدد من المحتسبين ، فأصبح يوجد محتسب القاهرة ، الفسطاط ، الإسكندرية ، البهنسا ، الريدانية ، الحسينية ، ومحتسب القلعة ، ومحتسب للحسبة على الخبز ، ومحتسب للحسبة على دخان الطباخين والحلاويين . وكان هذا النظام تمشيا مع تعدد الولاة والقضاة .

وكان محتسب القاهرة أعظم هؤلاء قدرا ، فكان له حق الجلوس بدار العدل مع قضاة مصر الأربعة ، وقضاة العسكر ، ومفتى دار العدل دون بقية المحتسبين . ويحضر مع القضاة لرؤية هلال شهر رمضان ، كما كان يحمل إلى السلطان فى أوائل هذا الشهر من كل سنة جملة من الهدايا تعرض فى حفل يحضره الوزير وكبار رجال الدولة .

حرص محتسب العصر المملوكى على تنفيذ تعاليم الإسلام ومعاقبة المخالفين والمرتدين والزنادقة والمجسمة ، كما كان يأخذ بطرف من إختصاصات عامل الخراج فيتولى جمع الجزية من أهل الذمة والزكاة من المسلمين .

كما أشرف محتسب العصر المملوكى على المساجد من حيث : عمارتها ، نظافتها ، وصيانتها ، توفر شروط الصلاحية فى الأئمة والمؤذنين والوعاظ ، والقومة ، وقيامهم بأعمالهم على الوجه الصحيح .

وقد تدخل كبار الأمراء وأصحاب السلطة والنفوذ فى الدولة - فى بعض الأحيان - لتولية أعوانهم فى وظائف الدولة بوجه عام ، ووظيفة الحسبة بوجه خاص ، وأدى هذا الأمر إلى التنافس على تولى الوظائف ، فدفع المحتسبون الرشاوى وبذلوا الأموال لمن بيدهم سلطة تعيينهم أملا فى تعويض ما دفعوه أضعافا مضاعفة عند قبضهم على ناصية المنصب مما أدى إلى زيادة وطأة الظلم على الناس . أصبحت الرشاوى والمبذولات هى القاعدة المتبعة فى تولى كثير من وظائف الدولة ومن بينها وظيفة الحسبة حتى أصبح تحرى صفات الأهلية والصلاحية الشرعية والعلمية فى المحتسب أمورا غير ذات بال ، وكل ما يهم هو ما يستطيع أن يدفعه ويبذله المحتسب للمسئولين من أموال . أصبح نظام الحسبة فى بعض مدن المغرب إلتزاما كما حدث فى مصر ، وصار المحتسب يأخذ أجرا محددا على نسبة المبيعات .

ومع ذلك فقد تمتع بعض المحتسبين بثقة بعض السلاطين ، فعهدوا إليهم بمهمات خارج القطر المصرى .

والحسبة كوظيفة كانت تمارس فى الإطار الدينى فى أول الامر ، ثم ارتبطت بنظم السوق وبالإشراف على المكاييل والموازين ، ثم تخطت هذا إلى الإشراف على أخلاق أهل السوق وحياتهم الإجتماعية ، وفض المنازعات بين أهل الطبقة الواحدة من ناحية وبينهم وبين المشترين من ناحية أخرى ، وعلى فساد بضاعتهم وأطعمتهم ومشروباتهم ، ولذلك حاولت

أن أبرز الحسبة ، نظاما متكاملا للرقابة على الشئون الدينية والدنيوية لجميع أنشطة الناس فى حياتهم الدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والصحية .

والحسبة مثل القضاء فى كونها وضعت لإنصاف المظلوم ، وإلزام الظالم بأداء الحق ، غير أنها تقتصر على ميادين خاصة ، لأن المحتسب لا يتعرض لدعوى العقود والمعاملات ، وليس من شأنه أن يحكم فيما يدخله الإنكار ، بحيث يحتاج فى الأثبات إلى بينة أو يمين ، وإنما يختص بالنظر فى المخالفات الاقتصادية فى الأسواق ، وما يحدث فى الشوارع والأماكن العامة من منكرات ، وكان يقوم بواجبه هذا مستخدما الوسائل التى يجيزها الشرع ولو لم يطلبه أحد للتدخل . أما القاضى فهو فى الأحكام - أسير للبينة - وسلطته إصدار الأحكام فى كل شىء ، وبعد القضاء بالحكم كان يكل التنفيذ إلى والى الشرطة الذى يشبه المحتسب فى هذه الناحية ، كما يشبهه فى كون سلطتهما معا ، موضوعة لردع المخالفين ورهبتهم .

وقد بدا لى بعد الاطلاع على بعض المصادر المخطوطة والمطبوعة ، أن الحسبة وقواعدها كنظام قائم بالفعل كان يمارس فى جميع العالم الإسلامى مشرقه ومغربه بطريقة متشابهة .

الملحق (١)
سجل تولية محتسب القاهرة

وبين أيدينا نسخة من تقليد حسبة القاهرة أوردها صاحب صبح الأعشى[١] ، وهى لمحتسب فى العصر المملوكى كما يتضح ذلك من الوصية .

« الحمدُ لله مجددّ عوائد الإحسان ، ومُجرى أولياء دولتنا القاهرة فى أيامنا الزاهرة ، على ما ألفُوه من الرُتَب الحسان ، ومضاعِفِ نعمنا على من اجتنى لنا بُحسْن سيرته الدعاء الصالح من كل لسان . نحمدُه على نِعمَه التى لا تحصى بعدها ، ولاتُحصَر بجدُها ، ولاُ تستزادُ بغير شكر آلاء المنعم وحْمدها . ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة نُقيمها فى كل حكُم ، وتحاول[٢] سيوفُنا جاحديها فتنهُض فتنطقُ بالحجة عليهم وهمُ بكُم ، ونشهد ان محمدا عبدُه ورسوله أشرفُ من ائتمر بالعدل والاحسان ، وأعدلُ أمر أمته بالوزن بالقِسط وأنْ لا يُخسروا الميزان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين احتسُبوا فى سبيل الله جُل عتادهم ، واحتَسُبوا أنفسَهم فى مقاطعة أهل الكُفْر وجهادّهم ، فلا تُنْتَهَب جَنائبهُا فى الوجُود ، وتسْرى نجائبهُا فى التهائم والنُجود ، وسلم تسليما كثيراً . وبعدُ ، فانّ أولى مَنْ دعاه إحسانُنا لرَفْع قَدْره ، وانارة بَدْره ، وإعلاء رُتبْته ، وادناء منزلـه ، وإعلام مُخلص الأولياء بمضاعفة الإحسان إليه ، أنّ الله لا يُضيعُ أجْر من أحسن عَملا ، وأنّ اكرمنا لا يُخَيِّب لِمَنْ أسلف سَوابَق طاعته فى أيامنا الشريفة أملاً ، مَنْ لم تَزلْ خَدَمُه السابقة إلى الله مقربة ، وعن طُرق الهوى منكبه ، وبالله مُذَكَرة ، وعلى الباقيات الصالحات من الأعمال موفرة ، مع ما أضافه إلى ذلك من أمر بمعـروف ، واغاثـة ملهُوف ، ونهى عن منكـر ، واحتساب فى الحق أتى فيه بكل ما تحمد خلائقُه وتشُكر ، واجتناب لأعراض الدنيا الدُنية ، واجتهادٍ لما يُرضى الله ويرضينا من اتّباع سيرتنا السُـريَّة ، وشـدة فى الحق حتى يُقال بـه ويُقام ، ورفق بالخلق إلا فى بدع تُنْتَهك بها حرمة الإسلام ، أو غش إن لم يَخُصّ ضررُه الخاصّ فإن ذلك يعُمّ العام .

---

(١) القلقشندى : جـ١١ من ص ٢١٠ - ٢١٥ .

(٢) لعلها وتصاول

ولما كان فلان هو الذى اختص من خِدْمتنا بما رَفعه لَدْينا ، وأسلف من طاعتنا ، ما اقتضى تقريبه منّا واستدعاءه إلينا ، ونهض فيما عرّفناه به من مصالح الرعايا وكان مشكُور المساعى فى كل ما عُرِض - من أعمالٍ فى ذلك علينا - اقتضى رأينا الشريف أن يفوِّض إليه كذا ، فليستقر فى ذلك مجتهدا فى كلّ ما يُعمّ البَرايا نفعُه ، ويُجْمِل لديهم وَقْعُه ، ويَمنع من يتعرَّض باليَسار ، إلى مالهم بغير حقٍ ، أو يضَيقّ بالاحتكار ، على ضعفائهم ما بَسط الله لهم من رِزْق ، ويذبَّ عنهم بإقامة الحُدود شُبَه تعطيلها ، ويعرِّفهم بالمحافظة على الحق فى المعاملات قواعِدَ تحريها وتحليلها ، ويُريهم بـالانصاف منَـار القسطاس المستقيم لعلهم يُنْصـرون ، ويؤدِّب من يجدُ فيهم من المُطَففين ، ويأمرُ أهلَ الأسواق بإقامـة الجماعـات والجُمَع ، ويقابل من تخلَّف عن ذلك بالتأديب الذى يَرْدَعُ من أصَّر فيه على المخالفة وَيزع ، وُيلزم ذوى الهيئات بالصِّيـانة التى تنـاسب مناصبَهم ، وتـوافِق مراتبَهم ، وتَنـزِّه عن الأدناس مكاسبَهم ، وتصُون عن الشوائب شاهدَهم وغائبَهم ، ولا يمـك ذوى البيوع أن يغبنـوا ضُعفَاءَ الرعايا وأغبياءهم ، ولا يُفَسِّح لهم أن يَرْفَعوا على الحق أسعارهم وَيبْخسوا الناسَ أشياءهُم ، وليحمل كلاً منهم على المعاملات الصحيحة ، والعُقود التى غدت لها الشريعةُ الشريفة مُبيحة ، ويجَنِّبهم العقُودَ الفاسدة ، والحيلَ التى تَغرُ بتدليس السِّلع الكاسدة ، وهو أخبر بالبيوع المنصوص على فسادها فى الشرع الشـريف ، وأدرى بما فى عـدَم تحريـرهم المكاييل والموازين من الإخسار والتطفيف ، فليفعلْ ذلك فى كل ما يجب ، ويحتَسِب فيه ما يدَّخره عند الله ويحتسب ، ولتكن كلمته فى ذلك مبْسوطة ، وِيدُ تصرفه فى جميع ذلك مُحيطة وبما تَستَند إليه من أوامره مَحُوطة ، ولْيوص بمثلِ ذلك ، ويوضح لهم بإنارة طريقته كلَّ حالٍ حالِك ، ويقدِّمْ تقوى الله على كل أمر ، ويتبع فيه رضا الله تعالى لإرضاء زيد وعمر .

الملحق (٢)
سجل تولية محتسب الفسطاط

وهذه نسخة توقيع من ذلك بحسبة الفسطاط عنه الآن بمصر عوداً إليها ، وهى :

الحمدُ لله الآمر بالمعروفِ والناهي عن المنكر ، الشاهدِ بالعَدْل الذى تقوى به كلمة الإيمان وتنْصَر ، والغامِر بالجود الذى لا يُحصى والفَضْل الذى لا يحصر ، العامر ربوع ذوِى البيوت بتقديم من انعقدت الخناصرُ على فَضْله الذى لا يُجْحَد ولا ينكر .

نحمدُه على نِعمَه التى لا تزال ألسنة الأقلام تُرنِّم لها فى صُحُف الانعام ذِكْرا ، وتجدد لها بإصابة مواقع الإحسان شُكراً .

ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تَصْدَع بنُورها ليل الشرك فيئُول فجْرا ، ونشهد أن سيدنا محمد عبدُه ورسوله الذى قمع الله به من اغتر بالمعاصى وغرَّر ، وأقام بشريعته لواء الحق الأظهر ومنار العدل الأظهر ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا من الهداية بإرشاده نهج الحق الأنور ، واحتَسَبوا نفوسهم فى نُصرتـه ففازُوا من رضـاه بالحظ الأوفى والنصيب الأوفر .

وبعدُ ، فإن الله تعالى لما جعل كلمتنا المبسوطة على العدل والإحسان معصُورة ، وأوامرنا الشريفة باقامة مَنار المعروف مؤيدة منصورة ، وأحكامنا المشهورة بالإنصاف فى صحائف الدهر بالمحاسن مَسْطُوره ، وألهمنا من اتِّباع الشرع الشريف ما غَدتْ به قلوبُ الرعاية آمنة مسرورة – قصدنا أن نختار لمراتب الدِّيانة والعفاف منْ لم يزل بيته بالصَّدارة عليًّا ، ووصفُه بانواع المحامد والممادح مليا .

ولما كان فلان هو الذى ورث السِّيادة ، عن سلفٍ طاهر ، وتلقى السعادة ، عن بَيتْ فُروعه التقوى فأزرت بالروض الزاهر الزاهير ، وسرتْ سرائره بحسن سيرته وسيره ، وأبطن من الدِّيانة ما أظهرتْه أدلة خيرْه ، وتنقَّل فى المراتب الدينية فأرْبى من حُسْن السُّلوك على غيره ، وسلك من الأمانة الطريق المثْلى ، واعتَمدَ ما عَدمَ به مضَاهيا ومثْلا ، وجنى ما نطق بانْصافه

فَضْل الكيل والميزان ، ورجاه من أهل الخير كلُّ ذى إحسان وخشية أهلُ الزيغ والبهْتان ، وكانت الحسبة المباركة بمصر المحروسة قد ألغَتْ قضاياه واحكامَه ، وعَرفَت بالخُبْر معروفه وشكَرت نقَضْه وابرامه ، وفارقها على رَغْمها منه اختياراً ، وعادَتْ له خاطبة عقيلة نزاهته التى لاتُجارى .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى أن يفوض إليه كذا . فليقدِّم خيرة الله فى مباشرة هذه الوظيفة ، وليُقم منارَها بإقامة حدُودها الشريفة ، ولينظُرْ فى الكيل والميزان اللذين هما لسانُ الحق الناطق ، ولينْشُر لواء العَدْل الذى طالما خفقتْ بنوده فى أيامنا حتى غدا قلب المجرم وهو خافق ، وليُحسن النظر فى المطاعم (ص ٢١٤) والمشَارب ، وليردع أهل البدَع ممن هو مستخفٍ بالليل وسارِب ، وفيه بحمد الله تعالى - من حُسْن الألمعيَّة ما يُغْني عن الإسهاب فى الوصايا ، ويُعين على السَّداد فى نفاد الأحكام وفَصْل القضايا ، وكيف لا وهو الخبير بما يأتى ويذَر ، والصدر الذى لا تعْدُو الصوَّاب إن وَرَد أو صَدَر ، والله تعالى يَعْمرُ به للعَدْل مَعْلَما ، ويكسوه بالإقبال فى أيامنا الشريفة ثوباً بالثواب مُعلَما . والخط الشريف أعلاه ، حجه بمقتضاه[1] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١١ ، ص٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ .

الملحق (٣)

سجل تولية محتسب الإسكندرية

نسخة توقيع بالحسبة بثغر الإسكندرية

الحمدُ لله جعل المناصب فى أيامنا الزاهرة محفوظة فى أكفائها ، مضمونة لمن تقاضت له من الأقبال رد جفائها ، معدومة فى مآلها إلى من زانها بمعرفته الحسية بحسن الحسنة وحسن بهائها بمن دلت كفاءتُه وكفايته على أن أولى بتقرُّبها وأحق باصطفائها .

أحمده على نعمه التى لم تخيب فى إحساننا أملا ، ولم تُضَيِّع سعْىَ من أحسن العمل فى مصالح دولتنا ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ونشهدُ أنْ لا اله إلا الله وحدَه لا شريك له شهادة هى أشرف ما فاه به اللسان ، وأفضل ما تُعبد به الإنسان ، وأرفع ما ملكت به فى الدنيا والآخرة عظام الرتب الحسان ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى احل الطيبات وأباحها ، وأزال الشبهات وأزاحها ، ﷺ وعلى آله وصَحْبه الذى تَمَسَّكوا بأحكامه ، ووقفُوا مع ما شَرّع لهم من حلال دينه وحرامه ، وحافظُوا على العمل بسُنّته بعدَه محافظتهم عليها فى أيامه ، صلاة يتوقّد سراجُها ، ويتأكد بها انتساقُ السنّة وانتساجُها ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعدُ فإن أوْلى مَن رجع فيه حقُّ منصبه إلى نصابه ، وردّ به واجبُ رتْبته إلى من جعلَته سوابقُ سيرته أوْلى به ، وتقاضت له سيرته عواطف كرمنا ، ونهضت نزاهته باستطلاع ما غاب عنه عوارفنا ونعمِنا ، وأغنَتْه أوصافه عن تجديد ثناء يستعادُ به برُّنا القديم ، ويستدّام له به فضلنا العميم ، وتستور به أخلافُ كرمِنا الذى تساوى فى عمومه الظاعن والمُقيم — من زان التقى أوصافَه ، وكمّلت العفة معرفته وإنصافه ، وتولت الديانة نظره فيما عذُق به من مصالح الرعايا خُصوصا وعموماً ، وتكفلت الخبرة من اعتباره لأمور الأقوات بأن جَعَل لكل منها فى الجودة حداً معلوماً ، وباشَر ما فوض إليه فجمع بين رضا الله تعالى ورضا خلقه ، وعول عليه فى حسبة أعز الثغور لدينا فتصبح الرعاية فيها بسط لهم من رزقه .

ولما كان فلان هو الذى أضاءت أوصافه وهل تنكر الإضاءة لسراج ، وتشوقت اليه رتبته فلم يكن لها الا إليه ملاذ والا عليه معاج ، فسلك من السير أرضاها لربه ، ومن الأحوال أجمعها

لأمن عاقبته وسلامة غبه ، ومن الاجتهاد فى مصالح الرعايا ما يضاعف شكره على احتسابه ، ومن الخبرة ما يعرف كلا منهم كيف اكتساء البرية فى اكتسابه - رسم أن يستقر . . .

فليستقر فى ذلك على عادته التى ناضلت عنه فأصابت ، وقاعدته التى دعت له عواطف نعمنا فأجابت ، وليزِدْ فى التحذير والتحقيق ما استطاع ، ويناُقش حتى يستقر على الصحة فيما يُباع أو يبتاع ، ويقابلْ على الغش بما يردع متعاطيه ، ويزجُر صانع الأعمال الفاسدة عن استدامتها ومَن يُوافقه على ذلك ويواطيه ، ويثمِّر أموال الأحباس بملاحظة أصوُلها ، والمحافظة على رَيْعها ومحصُولها ، وإمضاء مصارفيها على شروط واقفيها إن علمت ومزية ما قدم من شكْر والثناء عليه ، ويلاكُ ذلك . جميعه تقوْى الله تعالى وهى أخصُّ ما قدِّم من أوصافه ، والرفْق بالرعايا وانه من أحسن حلى معرفَتِه وانصافِه ، والخير يكوُن إن شاء الله تعالى[1]

---

(١) القلقشندى : صبح ، جـ١١ ، ص ٤١٤ - ٤١٦ .

الملحق (٤)

مرسوم الحسبة بالإسكندرية [1]

(١) برز المرسوم من المقام الش (ر) ى (ف) [الشريف]
(٢) السلطان المالك الملك (الأشرف)
(٣) أبو النصر طومان باى سلطان
(٤) الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة .
(٥) والمشركين محيى العدل فى
(٦) العالمين عز نصره أن يبطل
(٧) ما على مقرر الحسبة بثغر الإسكندرية
(٨) المحروسة ما هو فى كل شهر
(٩) سبعة آلاف وخمسمائة درهم
(١٠) بتاريخ سنة اثنين وعشرين وتسعمائة .

---

(١) هذا المرسوم ـ وغيره من المراسيم ـ أوردها الأستاذ الدكتور دراج فى نهاية مقاله : الحسبة وعلاقتها بالاقتصاد فى عصر المماليك ، ص ١٣١ نقلا عن : Hall Etem: Melik Tumonibay p. 6.

الملحــق (٥)

جدول بأسماء أهم المحتسبين فى مصر ، وسنوات توليتهم ، والحكام الذين تولوا فى عهودهم

الحـكام	المحتســبون	الســنوات	ملاحظــات
أبى الجيش خمارويه ابن أحمد بن طولون .	القاضى محمد بن عبده ابن حرب .[1]	٢٧٧هـ/٨٩٠م .	قبـل استـقـلال الأخشيديين بمصر .
الخليفة العباسى المقتدر	محمد بن جعفر القرطى[2]	٣٠٢هـ/٩١٤م[3]	
الخليفة العباسى المقتدر	أبو مقاتل صالح بن على[4]	٣١٧هـ/٩٢٩	
الأخشيد .	محمد بن جعفر بن سلام[5]	٣٢٣هـ/٩٣٤م	

---

(١) ذيل الكندى ، ص٥١٥ ، العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، ح١٤/٣ ، ورقة ٤٦٢ ،
Zaky Mohamed Hassan:Les tulunides p. 226.

يلاحظ ان خمارويه بن أحمد بن طولون هو الذى ولاه القضاء .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، التحقيق ، ص١٥٤ ، د . سيده كاشف : «مصر فى عصر الاخشيديين» ، ص ٢٢٩ .

(٣) انظر الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ، ص٣٥٠ وما بعدها

(٤) ملحق الكندى ، ص٥٣٩ ، د . سيدة كاشف : الاخشيديين ، ص٢٢٩ .

(٥) ابن زولاق : أخبار سيبوية المصرى ، ص٢٩ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
أحمد بن أبي الفوارس بن أبي الحسن على بن محمد الاخشيدى .	أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا (محتسبا بسوق الغزل) ويعرف « بالمعلم » .	٣٥٧هـ/٩٦٧م .	يذكر صاحب النجوم الزاهرة فى وفيات سنة ٣٥٧ - وهى السنة الثالثة من ولاية كافور الاخشيدى على مصر أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن على بن محرم المحتسب ويذكر إنه نقل ذلك عن الذهبى الذى لم يذكر سنة توليته .
جوهر الصقلى	أبو جعفر الخرسانى[٦] .	٣٥٨هـ/٩٦٨م .	
المعز لدين الله الفاطمى .	سليمان بن عزه[٧] .	٣٥٩هـ/٩٦٩م .	
	يعقوب بن يوسف ابن كاس وعسلوج ابن الحسن[٨] .	٣٦٣هـ/٩٧٣م .	
أبو المنصور الملقب بالعزيز بالله .	الحسين بن عبد العزيز[٩]	٣٦٧هـ/٩٧٧م .	
المنصور أبو على الملقب بالحاكم بأمر الله .	على بن سعد[١٠] .	٣٨٠هـ/٩٩٠م .	
	الحاكم بأمر الله نفسه[١١]	٣٨٦هـ/٩٩٦م.	

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص٢٧ ، ط القدس ١٩٠٩ .
(٧) المقريزى : نفس المرجع ، ص٧٨ .
(٨) ابن ميسر : اخبار مصر ، ح٢ ، ص٤٥ .
(٩) المقريزى : الخطط ، ح١ ، ص٤٨٦ .
(١٠) المقريزى : نفس المرجع ، ح١ ، ص٣٨٧ .
(١١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ح١ ، ص٥٢ - ٥٣ . يوسف المقدسى الحنبل : نزهة الناظرين ص٣٩ - ٤٠ مخطوط .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	غبن الصقلبى[١٢] .		لم نوفق فى العثور على أسماء محتسبين لبقية العصر الفاطمى ، وطوال العصر الأيوبى
السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بيبرس .	علاء الدين أحمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلامى المعروف بابن بنت الأعز الشافعى المتوفى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م .	٦٧٠/٦٧٧هـ ١٢٧١/١٢٧٨م	لم يفصح المقريزى فى أى سنة تولى الحسبة بالضبط ، وإنما أفصح عن سنة وفاته . ويحتمل أن تكون توليته لها ما بين سنتى (٦٧٠هـ - ٦٧٧هـ) كما ذكرنا . وذلك لأن محمد بن عيسى بن الخشاب تولى الحسبة من ٦٧٨هـ واستمر بها حتى سنة ٦٩٩هـ كما ذكر المقريزى .
العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس . الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون[١٤] .	محمد بن عيسى بن الخشاب[١٣] .	٦٧٨هـ/١٢٧٩م ٦٨٩هـ/١٢٩٠	

(١٢) المقريزى : الخطط ، حـ٤ ، ص١٦٠ .

(١٣) المقريزى : السلوك ، حـ١ ، ص٦٧٠ ، ٨٩٧ ط القاهرة ١٩٤٢ .

(١٤) راجع الجزرى : تاريخ الجزرى : حوادث سنة ٦٩٢ مخطوط مجلد ١ بدار الكتب تحت رقم ٢١٥٩ تاريخ تيمور حيث عين هذا الملك المحتسب شرف الدين بن الشراجى محتسب على دمشق

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
السلطان الملك الناصر/ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون .		٦٩٣هـ/١٢٩٣ .	
السلطان/الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى .		٦٩٤هـ/١٢٩٤م	
الملك الناصر محمد ابن قلاوون ثانيا .		٦٩٨هـ/١٢٩٨م .	
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون للمرة الثالثة .	ابو العباس أحمد ابن الرفعة[15] .	توفى ٧١٠هـ/١٢١٠م .	لم تفصح المراجع عن سنوات تولية الحسبة بل ذكرت جميعها سنة وفاته
	شرف الدين عبد الكريم أبى الفرج ابن الحكم الحموى .	توفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م .	لم تذكر المراجع سنوات تولية الحسبة واكتفت بذكر سنة وفاته .
	أبو المعالى محمد ابن يوسف اللاطى[16] .	توفى سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م	ذكرت المراجع سنة وفاته فقط
	نجم الدين محمد ابن عثمان البصروى[17] .		
	زين الدين أبو بكر ابن حسين بن حسن ابن حسين الأسعردى[18] .	توفى سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م .	ذكرت المراجع سنة وفاته فقط .
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون .	محمد بن حسين الأسعردى[19] .	توفى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م .	

(١٥) ابن الرفعة : الايضاح والتباين ، ص١٥/السيوطى : حسن المحاضرة ، ح١ ، ص١٣٠ .
(١٦) ابن حجر : الدرر ، جـ ٤ ، ص ٢٩١ ، ط حيدر أباد .
(١٧) نفسه : نفس المرجع ، جـ ٤ ، ص ٤٦ .
(١٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢١٣/ابن حجر : الدرر ، جـ ١ ، ص ٤٨٦ .
(١٩) K. Vollers : Enay Isi . Vol . III p . 202.

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	عز الدين القلانس[20] شهاب الدين عبد الرحمن ابن محمد بن وهبة الله النسيبى[21]	توفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م .	
	نجم الدين محمد ابن حسين بن على الأسعردى[22] حسبة القاهرة .	توفى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م .	
	استمر ضياء الدين يوسف ابن أبي بكر بن محمد ــ الشهير بالضياء ابن خطيب بيت الآبار الشامى ، حسبة مصر[23]	توفى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م .	
	نجم الدين أحمد بن محمد القمولى[24] .	توفى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م .	ذكرت لنا المراجع وفاته .
	تولى الضياء محتسب مصر حسبة القاهرة عوضا عن نجم الدين محمد بن حسين بن على الأسعردى .	٧٣٧هـ/١٣٣٦م .	
	الشهاب أحمد بن الحاج على الطباخ (تولى حسبة الدخان على الطباخين والحلاويين[25]	٧٣٧هـ/١٣٣٦م .	

(٢٠) ابن حجر : الدرر ، جـ ١ ، ص ٥٧ .

(٢١) ابن حجر : الدرر ، جـ ٢ ، ص ٣٤٥

(٢٢) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣٧٥ ، ص ٣٩٤ .

(٢٣) نفسه : نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٤١٣ .

(٢٤) ابن حجر : الدرر ، جـ ١ ، ص ٣٠٤

(٢٥) المقريزى : السلوك ، جـ ٢/٢ ، ص ٤١٤ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	استقر فى حسبة مصر شهاب الدين محمد ابن علاء الدين أحمد ابن قاضى القضاه تاج الدين بن بنت الأعز عوضاً عن ضياء الدين[٢٦]	٧٣٧هـ/١٣٣٦م	
	استقر شرف الدين على ابن حسين بن محمد نقيب الأشراف فى حسبة القاهرة .	٧٣٨هـ/١٣٣٦م .	
	الشريف المحتسب .	٧٤٠هـ/١٣٣٩م	
	الشيخ تاج الدين ابن السكرى تولى حسبة القلعة[٢٧] .		
	القاضى ابن ابراهيم البرلسى المالكى[٢٨] .	توفى سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٣م	ذكرت لنا المراجع سنة وفاته فقط .
الأشرف شعبان ابن الناصر حسن	تولاها كل من : ابراهيم بن أحمد ابن الصاخب[٢٩] .	٧٧٤هـ/١٣٧٢م	

(٢٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٢١ .
(٢٧) ابن حجر: الدرر، جـ ٤، ص ٦٨/المقريزى: السلوك، جـ ٢/٢، ص ٤١٤، ٤١٥، حاشية ٦ .
(٢٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٢٣٩ .
(٢٩) أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٥ ، ص ٢٧٥ . ط كاليفورنيا .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	ابن أحمد المخزومى(٣٠) .		
	محمد بن التقى الدين المصرى(٣١) .	توفى سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م	ذكرت المراجع سنة وفاته فقط
	فخر الدين محمد ابن برهان الدين .		
	عزل علاء الدين ابن عرب من حسبة مصر استقر بهاء الدين بن محمد ابن المعشر . ثم عزل ثم أعيد علاء الدين على حسبة مصر(٣٢) .	٧٧٥هـ/١٣٧٣م	
	نائب الحسبة « يوسف الحاضرى الحنفى »(٢٤)	توفى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م	
	فخر الدين محمد ابن برهان الدين ابراهيم بن محمد ابن أحمد السعدى الاخنائى(٣٤) .	توفى سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م	
	محمد بن على بن أحمد بن أبى رقية(٣٥) نائب الحسبة .	توفى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م	ذكر ابن حجر أنه تولى نيابة الحسبة أيام الأشرف شعبان ولم يحدد السنة .

(٣٠) ابن حجر : الدرر ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ .
(٣١) نفسه : نفس المرجع ، جـ ٤ ، ص ١٦٦ .
(٣٢) ابن حجر : أنباء العمر ، جـ١ ، ص ٥٩ ، التحقيق .
(٣٣) نفسه : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ١٠٢ ، التحقيق .
(٣٤) نفسه : نفس المرجع ، جـ١ ، ص ١٠٨ ، الدرر جـ ١ ، ص ٥٨ - ٥٩ .
(٣٥) ابن حجر : ابناء ، جـ١ ، ص ١٤٥ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
المنصور علاء الدين على بن شعبان ابن حسين بن الناصر محمد .	عزل شمس الدين الدميرى وتولى جمال الدين محمود القيسرى حسبة القاهرة[٣٦]	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	
	محمد بن على بن عمر ابن خالد بن الخشاب المصرى[٣٧] .	توفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م	لم يذكر ابن حجر سنة توليته للحسبة ، كما ذكر أنه كان نائباً للحسبة فقط .
	عزل الشريف عاصم ابن محمد الحسينى وتولى جمال الدين العجمى الذى قرر رفيقه سراج الدين عمر الفيومى القيسرى على حسبة مصر[٣٨]	٧٨٠هـ/١٣٧٨م	
	جمال الدين العجمى .	٧٨١هـ/١٣٧٩م	
	عزل جمال الدين تولى شمس الدين الدميرى حسبة القاهرة والشريف شرف الدين حسبة مصر[٣٩] .	٧٨٢هـ/١٣٨٠م ١٢ربيع الأول	
	اعيد جمال الدين إلى حسبة القاهرة . تولى شرف الدين بن عرب حسبة مصر[٤٠]	جمادى الآخره	

(٣٦) ابن حجر : ابناء ، جـ١ ، ص ١٣٣ .
(٣٧) نفسه : نفس المرجع ، جـ١ ، ص ٣٤٤ التحقيق
(٣٨) نفسه : نفس المرجع ، جـ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٥ ، ص ٣٣٧
(٣٩) نفسه : نفس المرجع ، جـ١ ، ص ٢١١ .
(٤٠) ابن حجر : انباء ، جـ١ ، ص ٢١٤ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
الصالح صلاح الدين (زين الدين) حاجى (الثانى) ابن شعبان ابن حسين بن الناصر حسن .	عزل جمال الدين محتسب القاهرة ونفى . ثم تولى تاج الدين المليحى . ثم أعيد جمال الدين محمود القيصرى على حسبة القاهرة . وتولى صلاح الدين خليل ابن عبد المعطى حسبة مصر[41]	٧٨٣هـ/١٣٨١م	
الملك بقوق الملقب « بالظاهر » أول المماليك الجراكسة .	جمال الدين محمود القيسرى حسبة القاهرة[42]	٧٨٨٥هـ/١٣٨٣م	
	عزل محمود القيسرى عن حسبة القاهرة .	٧٨٨هـ/١٣٨٦م	
	تولى نجم الدين بن عرب الطنبدى عليها[43]		
	عزل سراج الدين محتسب مصر . واستقر همام الدين على حسبة مصر[44] .	١٩ محرم ٧٩١هـ/١٣٨٨م	
	عزل همام الدين عن حسبة مصر وأستقر عليها شمس الدين ابن العلاف[45] .	ربيع الآخر .	
	عزل نجم الدين الطنبدى عن حسبة القاهرة وتولاها سراج الدين القيسرى . ثم استقر نجم الدين الطنبدى	١٠ صفر ٧٩٢هـ/١٣٨٩م	

(٤١) نفسه : نفس المراجع ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ .
(٤٢) نفسه : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٣٣٧ .
(٤٣) نفسه : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٤١٣ .
(٤٤) نفسه : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ .
(٤٥) ابن حجر : انباء ، جـ ١ ، ص ٣٧١ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	فى حسبة القاهرة عوضا عن القيسرى . واستقر نور الدين على عبد الوارث على حسبة مصر عوضا عن همام الدين[٤٦] .		
	عزل نجم الدين الطنبدى عن حسبة القاهرة . وتولاها بهاء الدين ابن البرجى[٤٧] .	فى رمضان ٧٩٣هـ/١٣٩٠م	
	استقر الشريف شهاب الدين أحمد بن محمد ابن حسين بن حيدر ابن بنت عطا فى حسبة مصر[٤٨] .	١٣ شوال	
	عزل ابن البرجى عن حسبة القاهرة . أعيد اليها نجم الدين الطنبدى[٤٩]	آخر ربيع الآخر ٧٩٤هـ/١٣٩١م .	
	أمر السلطان الأمير علاء الدين بن الطبلاوى أن يتحدث فى الأسعار[٥٠]	٧٩٦هـ/١٣٩٣م .	
	تولى شرف الدين الدمامينى على حسبة القاهرة[٥١]	٧٩٧هـ/١٣٩٤م .	

(٤٦) ابن حجر : انباء ، جـ ١ ، ص ٣٩٦ .
(٤٧) نفسه : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٤١٨ .
(٤٨) نفسه : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٤٢١ .
(٤٩) ابن حجر : انباء ، جـ ١ ، ص ٤٣٤
(٥٠) ابن حجر : ابناء ، جـ ١ ، ص ٤٧٧ .
(٥١) نفسه : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٤٩٤ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	عزل الدماميني عن حسبة القاهرة واستقر فيها بدر الدين الجبرى المعروف « بالعور » ثم عزل بعد أيام وأعيد إليها الدماميني .	صفر ٧٩٨هـ/١٣٩٥م .	
	عزل الدماميني واستقر فيها شرف الدين البجاسى	جمادى الآخرة .	
	استقر نور الدين عبد الوارث البكرى على حسبة مصر(٥٢)	صفر ٧٩٩هـ/١٣٩٦م .	
	عزل البجاسى عن حسبة القاهرة أعيد شرف الدين الدماميني وبهاء الدين بن البرجى ثم عزلا وأعيد البجاسى على حسبة القاهرة(٥٣) . تكلم الأمير طشتمر فى حسبة القاهرة	فى أواخر شعبان	
	استقر ابن دواد الشاعر فى حسبة مصر عوضاً عن شيخه نور الدين البكرى(٥٤)	٨٠٠هـ/١٣٩٧م .	ورد اسم هذا المحتسب ابن داود الآثارى فى المقريزى : « السلوك » ، فى حوادث سنة ٧٩٩هـ .
	كان « ابن شعبان » على حسبة مصر عزل وتولاها « الشاذلى »	٨٠٠ هـ/١٣٩٧م.	

(٥٢) نفسه : نفس المرجع ص ٥٠٨ .

(٥٣) نفسه : نفس المرجع جـ ١ ص ٥٢٤/العينى/عقد الجمان ، جـ ١/٢٥ ، ورقة ٤ ، ٥ .

(٥٤) ابن حجر : أنباء ، جـ ١ ، ص ٥٢٨ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
السلطان فرج زين الدين الملقب بأبي السعادات ولقبوه بالملك الناصر .	بهاء الدين بن البرجى ثم عزل . وأعيد شمس الدين البجاسي على حسبة القاهرة	محرم ٨٠١هـ/١٣٩٨م .	
	جمال الدين الطنبدى حسبة القاهرة	محرم	
	بدر الدين العينى حسبة القاهرة	١٤ربيع الآخر	
	عزل العينى[٥٥]	١٦ ربيع الآخر	
	تقى الدين المقريزى	١٧ ربيع الآخر	
	جمال الدين الطنبدى	١٠ شعبان	
	عاد المقريزى ثم عزل وتولى الطنبدى ثم عزل وتولى	١١ رمضان	
	شمس الدين محمد البجاسي حسبة القاهرة[٥٦]	١٤ شوال	
	تولى العيمى حسبة القاهرة[٥٧] ثم صرف وأعيد جمال الدين محمود بن عم الطنبدى	٧ ذى الحجة	
	صرف شمس الدين الشاذلى عن حسبة مصر وأعيد الشيخ نور الدين على بن محمد بن عبد الوارث	ذى القعدة ١٣٩٨م	

(٥٥) المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، المخطوط ، حوادث سنة ٨٠١ هـ ،
ابن حجر : أنباء ، جـ٢ ، المخطوط ، حوادث سنة ٨٠١ هـ ،
العينى : عقد الجمان ، ج ٢٥ مخطوط ، حوادث سنة ٨٠١ هـ .

(٥٦) السلوك ، الجمان ، نفس الأجزاء والسنوات .

(٥٧) المقريزى : نفسه ، أنباء ، جـ١ ، ص ٢٦٤ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	عزل الطنبدى وأعيد العينى	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	
	عزل العينى بعد ٦ شهور وأعيد المقريزى على حسبة القاهرة .		
	صرف الشيخ نور الدين البكرى عن حسبة مصر ، وأعيد إليها محمد الشاذلى .	صفر .	
	عزل البجاسى وتولى العينى[٥٨] حسبة القاهرة واستقر أيضا على حسبة مصر عوضاً عن شمس الدين الشاذلى بحكم عزله فأصبح العينى محتسباً لمصر والقاهرة[٥٩] .	١٠ ربيع الأول ٨٠٣هـ/١٤٠٠م	
	صرف العينى وأعيد البجاسى على حسبة القاهرة[٦٠]	٧ جمادى الآخرة	
	خلع البجاسى عن حسبة القاهرة وتولاها شمس الدين محمد الشاذلى .	٨٠٤هـ/١٤٠١م	
	استقر القاضى تاج الدين فى حسبة مصر[٦١]		

(٥٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، حوادث سنة ٨٠٢ هـ ، /العينى : عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، حوادث سنة ٨٠٢هـ.

(٥٩) العينى : نفس المرجع ، والجزء ، وحوادث سنة ٨٠٣ هـ .

(٦٠) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، حوادث سنة ٨٠٣ هـ/ابن حجر : أنباء ، جـ ٢، مخطوط ، حوادث سنة ٨٠٣ هـ/العينى : الجم ، جـ ٢٥ ، مخطوط ، حوادث سنة ٨٠٣هـ .

(٦١) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢٥ ، حوادث سنة ٨٠٤ هـ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	عزل شمس الدين محمد الشاذلى عن حسبة القاهرة وتولاها كريم الدين محمد الهوى .	٨٠٥هـ/١٤٠٢م جمادى الأولى .	
	استقر محمد بن شعبان فى حسبة القاهرة[٦٢]	١٠ رمضان .	
	ثم صرف وأعيد الشاذلى		
	صرف شمس الدين محمد الشاذلى عن حسبة القاهرة وتولاها شمس الدين محمد ابن شعبان .	١٠ محرم ٨٠٦هـ/١٤٠٣م	
	تولاها البجاسى مراراً[٦٣]	٦ربيع الأول	
	استقر كريم الدين بن النعمان الهوى فى حسبة القاهرة .	أول جمادى الأولى	
	استقر القاضى شمس الدين محمد محمد البجاسى فى حسبة القاهرة . القاضى جمال الدين محمد القيسرانى فى حسبة القاهرة .	فى أواخر السنة	

(٦٢) المقريزى: السلوك، جـ٣، حوادث سنة ٨٠٥ هـ/ابن حجر: انباء، جـ٢، حوادث سنة ٨٠٥ هـ .
(٦٣) المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، حوادث سنة ٨٠٦ هـ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	تاج الدين شمس الدين المنهاجى .	٨٠٧هـ/١٤٠٤م	ذكر ابن حجر أن الفرق بين عزل الأول وتولية الثانى ٥ أيام فقط .
	شمس الدين بن العطار حسبة مصر .	٢٢ شوال .	
	شمس الدين سويدان حسبة القاهرة .(٦٤)		
	شمس الدين بن الحباس حسبة القاهرة .	٢١ ذى القعدة	
	شمس الدين بن شعبان حسبة مصر والقاهرة	١١ ذى الحجة .	
	شمس الدين بن الحباس حسبة القاهرة	١٣ ذى الحجة .	
	محمد بن محمد بن المنهاجى حسبة مصر .		
عز الدين عبد العزيز لقب بالمنصور ثم عزل وتولى فرج بن برقوق (ثانيا) .	شرف الدين محمد ابن على بن الجبرى السكرى حسبة مصر . وكريم الدين الهوى حسبة القاهرة .	٨٠٨ هـ/١٤٠٥م ١٦ جمادى الاخرة	

(٦٤) المقريزى : السلوك : جـ٣ ، المخطوط ، حوادث ٨٠٧ هـ/العينى : الجمان ، مخطوط ، جـ٢٥/١ ورقة ٢١٥ - ٢١٧ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	شمس الدين محمد ابن على بن المعلمة الاسكندرى (ابن المعلم) حسبة القاهرة .	١٨ جمادى الآخرة	
	عزل ابن المعلم عن حسبة القاهرة وتولية ابن شعبان عليها	١٤ رمضان .	يلاحظ أن ابن شعبان استمر يومين فقط فى وظيفة محتسب القاهرة .
	عزل ابن شعبان وأعيد ابن المعلم(٦٥)	١٦ رمضان	
	تولى أينال الأشقر حسبة القاهرة .	٢٣ رمضان .	يلاحظ أن توليته الحسبة استمرت يوما واحدا
	ابن المعلم حسبة القاهرة .		
	استقر الهوى فى حسبة القاهرة .	٢٤ رمضان .	
	محمد بن شعبان حسبة القاهرة .	٢٠ شوال .	
	استقر الهوى فى حسبة القاهرة(٦٦)	٥ ذى القعدة .	
	محمد بن الشاذلى(٦٧)	٨١٠هـ/١٤٠٧م	
	ابن شعبان .	٨١١هـ/١٤٠٨م	

(٦٥) المقريزى : السلوك ، حـ٣ ، حوادث سنة ٨٠٨ هـ .
(٦٦) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، حـ٢/٢٥ ، ورقة ٢٣٥ - ٢٣٦ .
(٦٧) ابن حجر : أنباء ، حـ٢ ، مخطوط ، ورقة ٧٦٢ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
الملك المؤيد شيخ المحمودى .	صرف ابن شعبان وتولى الطويل . عزل الطويل : واستقر محمود بن يعقوب الدمشقى ثم صرف وتولى كريم الدين الهوى ثم صرف وأعيد ابن شعبان ناصر الدين ابن الجابى . تقى الدين يحيى الكرمانى[٦٨] . استقر تاج الدين محمد بن الحسبانى[٦٩]	٨١٢هـ/١٤٠٩م	
	زين الدين بن الدميرى[٧٠]	٨١٣هـ/١٤١٠م	
	عزل صدر الدين ابن العجمى . وتولية ابن شعبان[٧١] عزل ابن شعبان وتولية صدر الدين ابن الأزى[٧٢]	٨١٥هـ/١٤١٢م	
	منكلى بغا الظاهرى[٧٣]	٨١٦هـ/١٤١٣م	استمر فى وظيفته ثلاث سنوات عزل فى المحرم ٨١٩هـ .

(٦٨) العينى : الجمان ، مخطوط ، حـ ٢٥ ، حوادت سة ٨١٢ هـ

(٦٩) ابن حجر : أنباء ، حـ٢ ، مخطوط ، حوادث سنة ٨١٢ هـ .

(٧٠) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، جـ ٢٥ ، حوادث سنة ٨١٣هـ .

(٧١) نفسه : نفس المرجع ، حـ ٢٥/٢ ، حوادث سنة ٨١٥ هـ ، ورقة ٣٦٨ .

(٧٢) ابن حجر : انباء ، مخطوط ، جـ ٢ ، حوادث سنة ٨١٥ هـ .

(٧٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٢١٠ ، ابن حجر ، انباء ، مخطوط ، جـ ٢ ، حوادث سنة ٨١٦ هـ .

الحكام	المحتسون	السنوات	ملاحظات
	تكلم معه فى الحسبة الأميرتاج(٧٤)	٨١٧هـ/١٤١٤م .	
	الشيخ بدر الدين العنتابى حسبة القاهرة وتكلم معه الأمير أينال الأزعرى . ابن شعبان منكلى بغا(٧٥)	٨١٩هـ/١٤١٦م	يلاحظ أنه هو العينى
	صرف منكلى بغا وأعيد محمد بن يعقوب . ثم أضيفت الحسبة إلى اقبغا(٧٦)	٨٢٠هـ/١٤١٧م	
	صدر الدين بن العجمى(٧٧)	٨٢٢هـ/١٤١٩م	
	استمر صدر الدين بن العجمى على حسبة القاهرة(٧٨)	٨٢٣هـ/١٤٢٠	
السلطان أحمد الذى تلقب بالملك « المظفر » ثم ابنه سيف الدين الملقب بالملك « الظاهر » . ثم ابنه ناصر الدين ولقب بالملك « الصالح »	تولى ابراهيم بن حسام القاهرة . وابن القطيط حسبة مصر . تولى صدر الدين بن العجمى حسبة القاهرة ومصر عوضا عن سابقيه .	٨٢٤هـ/١٤٢١م	

(٧٤) العينى : الجمان ، مخطوط ، جـ ٢/٢٥ ، ورقة ٣٩٦ .
(٧٥) ابن حجر : أنباء ، مخطوط ، جـ٢ حوادث سنة ٨١٩ .
(٧٦) نفسه : حوادث سنة ٨٢٠ هـ .
(٧٧) ابن حجر · ابناء ، مخطوط، جـ ٢ ، حوادث سنة ٨٢٢ هـ .
(٧٨) العينى : الجمان ، مخطوط ، جـ ٣/٢٥ ، حوادث سنة ٨٢٣ هـ ، ورقة ١٤٩٣ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
الملك الأشرف برسباق .	تولى القاضى جمال الدين يوسف البساطى حسبة الديار المصرية[79] صدر الدين أحمد بن العجمى . ابن شعبان العينى حسبة القاهرة[80]	٨٢٥هـ/١٤٢١م	استمر العينى من ٨٢٥ إلى ٨٢٨هـ .
	صرف العينى واستقر الأمير أينال الشثمانى فى حسبة القاهرة[81]	٨٢٩هـ/١٤٢٥م	
	صرف أينال الششمانى العينى وأعيد إلى حسبة القاهرة[82]	٨٣٣هـ/١٤٢٩م .	
جمال الدين يوسف الذى لقب « بالعزيز »	الأمير دولات حجا عبد الله الظاهرى (حسبة القاهرة)[83]	٨٤١هـ/١٤٣٧م .	
الملك سيف الدين حقمق الملقب « بالظاهر »	تنم بن بخشايش الظاهرى (حسبة القاهرة)[84]	٨٤٢هـ/١٤٣٩م	
	العينى (حسبة القاهرة)[85]	٨٤٤هـ/١٤٤٠م.	

(٧٩) نفسه : نفس المرجع والجزء ، حوادث سنة ٨٢٤ هـ ، ورقة ٥١٢ - ٥١٩ .
(٨٠) نفسه : نفس المرجع والجزء ، حوادث سنة ٨٢٥ هـ . ورقة ٨٢٥ - ٨٢٨ .
(٨١) ابن حجر : انباء ، مخطوط ، جـ ٢ ، حوادث سنة ٨٢٩ هـ/أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٥٩٥ .
(٨٢) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، حـ٢٥/٤ حوادث سنة ٨٣٣هـ ، ورقة ٦٣٩ .
(٨٣) الضوء اللامع ، جـ٣ ، رقم ٨٣٠/أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، حـ٦ ، ص٧٦١ . ط كاليفورنيا .
(٨٤) أبو المحاسن . النجوم ، جـ٧ ، ص٣٥٢ ، ٧٨٨ حاشية ٢ .
(٨٥) العينى : الجمان ، حـ٥ ٢/٤ ، حوادث سنة ٨٤٤هـ ، ورقة ٧١٧ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
	صرف بدر الدين العينى وخلع على الشيخ على الخراسانى[86]	٨٤٥هـ/١٤٤١م .	كانت مدة تسلمه الوظيفة دون السنه .
الملك المنصور فخر الدين عثمان ابن القائم بأمر الله ثم خلع بعد شهر وتولى الملك الأشرف أبو النصر أرسال	تولى العينى حسبة مصر والقاهرة[87]	-٨٤٧هـ/١٤٤٣م .	
	خلع على الشيخ على الخراسانى خلعة الاستمرار .	٨٥٧هـ/١٤٥٣م .	
	عزل الشيخ على الخراسانى[88]	-٨ ذى القعدة .	
	عزل على الخراسانى وتولى عبد العزيز محمد الصغير[89]	-٨٥٩هـ/١٤٥٤م	
الملك المؤيد شهاب الدين أحمد الملقب « بأبى الفتح » الملك سيف الدين خوش الملقب « بالظاهر » .	تولى حسبة القاهرة على بن اسكندر بدلا من تنم بن بخشايش الظاهرى الخاصكى المعروف « برصاص »[90] الأمير تنم بن بخشايش الظاهرى[91] .	٨٦٥هـ/١٤٦٠م	لم أجد ما يثبت تاريخ تولى تنم بن بخشاش الظاهرى الحسبة هذه المرة

(٨٦) حوادث الزهور ، ص١٩٦ - ١٩٨ .
(٨٧) العينى : الجمان ، جـ٢٥/٤ ، حوادث سنة ٨٤٧هـ ، ورقة ، ٧٣٤ .
(٨٨) حوادث الزهور ، ص٢٣٠ .
(٨٩) حوادث الدهور ، ص ٢٣٠ .
(٩٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص٣٥٢ .
(٩١) نفسه : نفس المرجع ، جـ٧ ، ص٣٥٢ ، ٧٨٨ حاشية٢ .

الحكام	المحتسبون	السنوات	ملاحظات
الملك الأشرف قايتباى	قانصوة الخفيف حسبة القاهرة تولى يشبك الجمالى حسبة القاهرة عوضا عن قانصوة الخفيف[٩٢]	٨٧٣هـ/١٤٦٨م	لم تذكر المراجع سنة توليته الحسبة .
السلطان قانصوة الغورى	كان المحتسب هو ثانى بك الخازندار	٩٠٩هـ/١٥٠٣م	
	كان المحتسب هو الزينى بركات[٩٣]	٩١٤هـ/١٥٠٨م	نلاحظ أنه أستمر حتى سنة ٩٢٢هـ

(٩٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، ص٤٦ .
(٩٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص٤٧٤ ، جـ٣ ، ص٩٣

المراجع

● أولا : المصادر القديمة المخطوطة

١ - ابراهيم النابلسي : «لمع القوانين المضيعة فى دواوين الديار المصرية مما خدم بتأليفه الخزاين الشريفة السلطانية» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢٢ تاريخ ٠

٢ - ابن الأخوة « معالم القربة فى أحكام الحسبة » مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٦٧٩٠ .

٣ - الأسدى : شمس الدين : «التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٤٨٦ تاريخ .

٤ - ايليا المطران : « مقاله فى المكاييل والموازين » مخطوط بدار الكتب رقم ٣٤١ رياضيات تيمور .

٥ - ابن بسام : « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٦١٤ اجتماع طلعت .

٦ - البلاذرى «أنساب الأشراف» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١٠٣ تاريخ .

٧ - ابن حجر العسقلانى :
(أ) «انباء الغمر بأنباء العمر» . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٤٧٦ تاريخ .
(ب) «رفع الإصر عن قضاة مصر» . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٠٥ تاريخ الجزرى [مجلدين] مخطوط بدار الكتب رقم ٢١٥٩ تاريخ تيمور الجزرى .

٨ - الذهبى : «تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام» مخطوط بدار الكتب فى ٣٥ جزء تحت رقم ٤٢ تاريخ .

٩ - ابن الرفعة (أ) «نهاية الرتبة فى الحسبة» ميكروفيلم مصور عن النسخة الخطية بمكتبة استنابول موجود بجامعة الدول العربية تحت رقم ٢٥ سياسة واجتماع ،
(ب) «الايضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣١٢ رياضيات تيمور .

١٠- السلامى : «مختصر التواريخ» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٤٣٤ تاريخ .

١١- العدوى : «الجرائم فى أحكام السياسة الشرعية» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٢٠ اجتماع تيمور .

١٢- ابن عوض السنامى : «نصاب الاحتساب» . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٨٩ اجتماع تيمور أو ٥ معارف عامة حليم .

١٣- العينى : «عقد الجمان فى معرفة أهل الزمان» ٢٥٠ جزء مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .

١٤- الماوردى : «الرتبة فى طلب الحسبة» . ميكروفيلم مصور فى مكتبة جامعة الدول العربية تحت رقم ٢٤ سياسة واجتماع .

١٥- مصطفى الذهبى الشافعى : «تحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال بيان مقادير النقود المتداولة بمصر على مقتضى ماحدد بدار الضرب» . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٢٥٦ .

١٦- المقريزى : «السلوك لمعرفة دول الملوك» . حـ٣ ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٤٦٤ تاريخ فى مجلدان ١، ٢ .

١٧- النويـــرى : «نهاية الأرب فى فنون العرب» . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٥٤ «معارف عامة» .

١٨- يوسف ضياء الـديـن : «أحكام الاحتسـاب» مخطوط بـدار الكتب تحت رقم ٣٧ اجتماع تيمور .

١٩- يـوسف المقدسى الحنبـلى : «نزهـة الناظـرين فى تاريـخ من ولى مصر من الخلفـاء والسلاطين» مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١٧٠٦ح .

● المصادر القديمة المطبوعة

١ - ابن الأثـيـر«الكامل فى التاريخ» ١٢ جزءا ليدن ١٨٦٦ - ١٨٧٤م . - «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» . ط القاهرة ١٩٦٠ .

٢ - أحمد بن سعيـد : «التيسير فى أحكام التسعير» حققه ونشره إقبال موسى سنة ١٩٦٨ .

٣ - ابن الأخـوة : «معالم القربة فى أحكام الحسبة» نشرة روبين ليفى كمبردج سنة ١٩٣٨ .

٤ - الادريـــسى : «صفة المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة عن نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» ليدن ١٨٦٤ - ١٨٦٦ .

٥ - الأصفهانى أبو الفرج : الأغانى مطبعة التقدم يس محمد على بدون سنة .

٦ - أحمد بن أبى أصيبعة : «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» جزءان القاهرة ١٢٩٩ ه بيروت ١٩٥٧ تحقيق وشرح د نزار رضا بيروت ١٩٦٥ .

٧ - ابن إيـــاس : «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» بولاق ١٣١١ - ١٣١٢هـ .

٨ - البخـــارى : إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

٩ - ابن بطوطـــة : «الرحلة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» جزءان فى مجلد واحد . القاهرة ١٢٨٣هـ/١٩٦٤م .

١٠- البغدادى : «اسماعيل بن محمد بن منير سليم البابانى . هدية العارفين «أسماء المؤلفين وآثار المصنفين . ط . استمبول ١٩٥١ .

١١- البغدادى : «أبو المنصور عبد القاهر بن محمد» . «الفرق بين الفرق» وبيان الفرقة الناجية منهم . تحقيق أحمد بدر . مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩١٠م .

١٢- أبو بكر المالكــى : «رياض النفوس» وتحقيق حسين مؤنس القاهرة ١٩٥١ .

١٣- البلاذرى : «فتوح البلدان» ليدن ١٨٦٦ .

١٤- البلــوى : «أحمد بن طولون» نشر كرد على د مشق ١٣٥٨هـ/١٩٠١م .

١٥- ابن البيطار : «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» بولاق سنة ١٢٩١هـ .

١٦- التنوخــى : «كتاب جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» ط مصر .

١٧- التهانــوى : «كشاف اصطلاحات الفنون» ط كلكتا ١٨٦٢ .

١٨- ابن تيمية : «الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية» مطبوع بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٩ اجتماع تيمور .

١٩- الجاحــظ : «البيان والتبيين» القاهرة ١٩٥٠ .

٢٠- ابن جبـــير : «الرحلة» الطبعة الثانية طبعة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٠٧ .

٢١- الجرسيفى : «ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة والمحتسب نشر ليفى بروفنسال طبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ .

٢٢- ابن الحـــاج : «المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات» ٤ أجزاء ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م القاهرة المطبعة المصرية بالأزهر .

٢٣ - حـاجى خليفة : « كشف الـظنـون عن أسـامى الكتب والفنـون » . ط أستنبـول ١٩٤١ .

٢٤ -ابن حجر : « أبناء العمر بأبناء العمر » ، حقق الجزء الأول منه ونشره الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٩م .

- « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » . ط حيدر أباد سنة ١٩٤٨ . وطبعة المدنى بدون سنة . وطبعة دار الكتب الحديثة .

٢٥ -الحلبى (نور الدين بن برهان الدين) . « السير الحلية المسماة إنسان العيون سيـرة الأمين والمأمون » . جزءان فى مجلدين . مطبعة الحلبى ، سنـة ١٣٤٩هـ . وطبعة أخرى بمطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٦٢م ج ١ ، ٢ فقط .

٢٦ -ابن حماد
: « أخبار ملوك بنى عبيد »تحقيق'Wand'

٢٧ -ابن خرداذبة
« المسالك والممالك » ط دى غويه ١٩١٢م ليدن ١٨٨٩م » .

٢٨ -الخزرجى :
« العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية » . صححه محمد بسيونى جـزءان فى مجلدين . القاهرة مطبعة الهلال ١٩١١ - ١٩١٤ .

٢٩ -الخطيب البغدادى :
« تاريخ بغداد » . القاهرة سنة ١٩٣١ .

٣٠- ابن خلدون :
« العبر وديوان المبتدأ والخبر » و« المقدمة » ط . القاهرة . ١٩٣٠ ، ط . حققها د . على عبد الواحد وافى ١٩٥٨ .

٣١ - ابن خلكان :
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨ . ط بولاق ١٢٨٣هـ

٣٢ - الخوارزمى :
« مفاتيح العلوم » مطبعة المؤيد ، القاهرة سنة ١٣١٨هـ .

٣٣ - ابن البداية :
« أحمد بن طولـون » . تحقيق د . زكى محمد حسـين ود . سيدة كـاشف . ط . القاهرة ١٩٥٣ .

٣٤ - الدباغ :
« معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان » ٤ أجزاء فى مجلدين . تونس ١٩٠٢ .

٣٥ - ابن رسته :
« الأعلاق النفيسة » ليدن ١٨٩١ - ١٨٩٢م .

٣٦ - الرشيدى :
« عمدة المحتاج فى علمى الأدوية والعلاج » . بولاق سنة ١٢٨٣هـ .

٣٧ - الزبيدى :
« شرح القاموس المسمى تاج العروس » . ج١ (بولاق سنة ١٢٥٨هـ) .

٣٨ - ابن زولاق :
« أخبار سيبويه المصرى » . نشر الأساتذة محمد إبـراهيم سعد . وحسـين الديب وطبعه الأستاذ محمد عبد الله عنان القاهرة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣ .

٣٩ - السبكى :
« معيد النعم ومبيد النقم » . ط ليدن ١٩٠٨ .

٤٠ - السرخسى :
« المبسوط » ٣٠ جزء . القاهرة ١٣٢٤هـ .

٤١ - االسخاوى :
« الضوءاللامع لأهل القرن التاسع » القدس . القاهرة ١٣٥٣هـ .

٤٢ - ابن سعد :
« الطبقات الكبير » . ٨ أجزاء ليدن ١٩٠٥ - ١٩٢١م .

٤٣ - ابن سعيد :
« المغرب فى حلى المغرب » . حققه ونشره د . زكى حسن ، د . شوقى ضيف ، د . سيدة كاشف القاهرة ١٩٥٣ .

٤٤ - سليمان بن جلجل :
« طبقات الأطباء والحكماء » . مخطوط حققه فؤاد السيد . القاهرة ١٩٥٥ .

٤٥ - ابن سيده أبو الحسن على : « المخصص » . ط . بولاق سنة ١٣٢١ .

٤٦ - ابن سينا : - « أبو على الحسين بن عبد الله » :
« القانون » ٣ أجزاء . (بولاق ، سنة ١٢٩٤هـ) .

٤٧ - ابن شاهين :
« غرس الدين خليل الضاهرى » . « كشف المحالك وبيان الطرق والمسالك » .
باريس ١٣٨٩/١٣٩٨ .

٤٨ - ابن شاكر الكتبى :
« فوات الوفيات » . بولاق ١٢٩٩ .

٤٩ - أبو شامة :
« الروضتين فى أخبار الدولتين » (مطبعة وادى النيل ، القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ) .

٥٠ - الشيزرى :
« نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » . حققه ونشره الدكتور الباز العرينى القاهرة
١٩٤٦ .

٥١ - الصابى :
« تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » . لبنان ١٩٠٤ والقاهرة ١٩٥٨ .

٥٢ - الصعيدى :
« الإفصاح فى فقه اللغة » (مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩م)

٥٣ - ابن الصيرفى :
« قانون ديوان الرسائل » عنى بنشره ، والتعليق عليه الأستاذ على بهجت القاهرة سنة
١٩٠٥م .

٥٤ - الطبرى :
« تاريخ الرسل والملوك » ط . المطبعة الحسينية بمصر تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم . القاهرة١٩٦٢ .

٥٥ - ابن عبد الرؤوف :
ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة والمحتسب . نشر ليفى بروفنسال
القاهرة١٩٥٥ .

٥٦ - ابن عبد الحكم :
« فتوح مصر وأخبارها » . ط ١٩٢٢ ، ط . ليدن ١٩٢٠ .

٥٧ - عبد اللطيف البغدادى :

رحلته وهى الكتاب المعروف باسم : « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . ط المجلة الجديدة (سلامة موسى) .

٥٨ - ابن عبدون :
ضمن « ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة والمحتسب » نشر ليفى بروفنسال . القاهرة ١٩٥٥ .

٥٩ - ابن عذارى المراكشى :
« البيان المغرب فى أخبار المغرب » . ط . بيروت ١٩٤٧ - ١٩٥٠ .

٦٠ - ابن عساكر :
« تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام الحسين الأشعرى » . تحقيق ونشر القدسى ، دمشق ١٣٤٧هـ .

٦١ - على مبارك :
« الخطط التوفيقية » ج .٢ . حققه أنستاس مارى الكرملى ونشر بالقاهرة ١٩٣٩ .

٦٢ - ابن العماد :
« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » . مكتبة القدسى . القاهرة ١٣٥٠هـ .

٦٣ - عمر طوسون :
« مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » . الإسكندرية ١٩٣١ .

٦٤ - الغزالى :
« إحياء علوم الدين » . ٤ أجزاء . القاهرة المطبعة اليمنية .

٦٥ - أبو الفدا :
« المختصر فى أخبار البشر » . القاهرة ١٣٢٥هـ .

٦٦ - ابن فرحون :
« الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب » . القاهرة ١٣٢٩هـ .

٦٧ - الفيروز آبادى :
«القاموس المحيط» . (مطبعة بولاق) .

٦٨ - القرطبى :
«الجامع لأحكام القرآن» . القاهرة ١٩٥٠ .

٦٩ - القلقشندى :
«صبح الأعشى» ١٤ جزء القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ (١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

٧٠ - ابن القيم الجوزية :
«الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية أو الفراسة المرضية فى أحكام السياسة الشرعية» . تحقيق حامد الفقى . القاهرة ١٩٥٣ .
«أعلام الموقعين» . القاهرة ١٣٧٤/١٩٥٥ .

٧١ - الكتانى الإدريسى :
«التراتيب الإدراية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية فى المدينة المنورة العلية» . الرباط ١٣٤٩هـ/١٩٢٧م .

٧٢ - ابن كثير :
«البداية والنهاية» . الطبعة الأولى ١٣٤٨٠هـ .

٧٣ - الكندى :
«الولاة والقضاة» . ط بيروت ١٩٠٨
. لويس معلوف :
قاموس المنجد فى اللغة والأدب والعلوم» . بيروت سنة ١٩٠٨م .

٧٤ - الماوردى :
«الأحكام السلطانية والولايات الدينية» . ط القاهرة ١٩٦٦/٩٦٠م .

٧٥ - أبو المحاسن : (ابن تغرى بردى)
- منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور . ط ١٩٦٠ ، ط كاليفورنيا ١٩٣١م .
- «النجوم الزاهرة» . ط كاليفورنيا ١٩٠٩ .
- «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»

٧٦ - محى الدين بن عبد الظاهر :
«تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور» ما بين سنتى ٦٧٨ - ٦٨٩م .
حققه الدكتور مراد كامل وراجعه محمد على النجار . القاهرة سنة ١٩٦١ .

٧٧ - المسعودى :
«مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ ٨ أجزاء ط . باريس ١٨٦١ - ١٨٧٤م

٧٨ - المعجم الوسيط :
قام بإخراجه إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر محمد على النجار ، حـ١ ، مصر ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

٧٩ - المقرىء الفيومى : أحمد بن محمد بن على :
«مصباح المنير فى غريب الشرح الكبير» ط . المطبعة الأميرية سنة ١٩١٠ .

٨٠ - المقرى :
«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» القاهرة سنة ١٩٤٩ .

٨١ - المقريزى :
«المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» طبعات - النيل - بولاق - فيت ١٩٠٦ - لبنان .
«إغاثة الأمة بكشف الغمة» . حققه د : زيادة والشيال سنة ١٩٤٠ - ١٣٥٩هـ
«السلوك لمعرفة دول الملوك» . نشر زيادة حـ١ ، حـ٢ . ١٩٣٤ . القاهرة ١٩٤٢ نشر د . عاشور حـ٣ القاهرة ١٩٧٠ .
«إتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا» . القاهرة ١٩٤٨/ القدس ١٩٠٩ .
«النقود الإسلامية» . ط القاهرة ١٩٣٩م ، الأستانة ١٢٩٨هـ النجف ١٩٦٧ .

٨٢ - المقدسى :
«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم «ليدن ١٨٧٧ - ١٩٠٦م .

٨٣ - ابن مماتى :
«قوانين الدواوين» . تحقيق عزيز سوريال القاهرة ١٩٤٣ .

٨٤ - ابن منظور :
«قاموس لسان العرب» ، المجلد ١ بيروت ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م .

٨٥ - ابن ميسر :
«أخبار مصر» صححه هنرى ماسيه جزئين القاهرة ١٩١٩م مطبوعين بمطبعه المعهد العلمى الفرنسى الخاص بالعاديات الشرقية بمصر .

٨٦ - ناصر خسرو :
«سفر نامه» مخطوط بجامعة القاهرة برقم ٩٣٩٣ .
ترجمها ونشرها د . يحيى الخشاب سنة ١٩٤٥ القاهرة .

٨٧ - النويرى :
«نهاية الأرب فى فنون العرب» مطبوع تحت إشراف وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

٨٨ - ابن هشام :
«سيرة الرسول» راجعه محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة .

٨٩ - ابن واصل :
«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» حـ٣ تحقيق الشيال مطابع دار القلم بالقاهرة .

٩٠ - اليافعى اليمنى :
«الإمام أبى محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان عفيف الدين»
«مرآة الجنان وعبرة اليقظان» . ط أولى . حيدر أباد سنة ١٣٣٩ الدكن .

٩١ - ياقوت الحموى :
«معجم البلدان» . ط أوربا ٦ أجزاء ليبرج ١٨٦٦ - ١٨٧٣م .

٩٢ - يحيى بن عمر :
«أحكام السوق» ، تحقيق محمود على مكى . نشر فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد فى المجلد الرابع ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م العدد ١ ، ٢ .

٩٣ - اليعقوبى :
«تاريخ اليعقوبى» ط ليدن ١٨٨٣ .

٩٤ - أبى يعلى الفراء :
«الأحكام السلطانية القاهرة ١٣٥٧ ، ١٣٨٦/١٩٦٦ .

٩٥ - ابو يوسف صاحب ابى حنيفه :
«الخراج» بولاق ١٣٠٢ .

٩٦ - قرآن كريم .

1. **Casanova :**
— Catalogue des pieces de verre des epoque Byzantine et Arabe de la call., Fouquet Vol. VI, Memmoires publies par les Membres de la Mission Archcologique Francais au Caire. Paris. 1893.

2. **Grohman, A. :**
— Arabic papyri in the Egyptian library, Vol. I. II. III. V, VI & VII. ed.

3. **Lane** pool, Stanley :
— Catalogue of Arabic glass weights in the British Museum. London, 1891.

4. **Miles.** (G.C.) :
— Early Arabic glass weights and stamps. New York 1948.

5. **Petrie,** Flinders :
— Glass stamps and weights. London,1926.

5 — **Petrie,**Flinders,
— Glass stamps and weights. London, 1926 .

● ثانيا : المصادر الحديثة

١ : المصادر العربية

١ - ابراهيم الفحـام :
«الشرط فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين .» مجلة الأمن العام العدد ١١ أكتوبر سنة ١٩٦٠ .

٢ - أحمد أمـين :
«ضحى الإسلام» . القاهرة ، ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م
«ظهر الإسلام» القاهرة ، ١٩٤٥ .
«فجر الإسلام» القاهرة ، ١٩٥٥ .

٣ - أحمد عيسى : (دكتور) .
«تاريخ البيمارستانات» دمشق ١٣٥٧ هـ/١٩٣٩ م .

٤ - انستاس ماري الكرملي :
النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ .

٥ - الباز العريني (دكتور)
«الحسبة فى بيزنطة» أو كتاب والى المدينة البيزنطى . مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة . مجلد ١٩ حـ ١ مايو ١٩٥٧ . .
مقالة الحسبة والمحتسبون فى مصر نشرت فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية العدد ٢ مجلد ٣ سنة ١٩٥٠ .

٦ - البراوى : (دكتور راشد) .
«حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين» . القاهرة ١٣٦٨ هـ/١٩٤٨ م .

٧ - ابو بكر ذكرى : (دكتور) .
«تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية» القاهرة ١٩٥٨ .

٨ - جرجى زيدان :
«تاريخ التمدن الإسلامى «القاهرة ١٩٠٢ .
٩ - جمال الدين محمد سعيد : (دكتور) .
«النقود» القاهرة ١٩٥١ .
١٠ - حتى (فيليب) :
«تاريخ العرب» القاهرة ١٩٥٣ .
١١ - حسن ابراهيم حسن : (دكتور) .
«تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى «القاهرة ١٩٥٩ .
- النظم الإسلاميــة .
- «تاريخ الدولة الفاطمية» . القاهرة ١٩٥٨ - ١٩٦٤ .
هـ «كافور الإخشيدى» . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد ٦ القاهرة مايو ١٩٤٢ .
١٢ - حسن الباشا : (دكتور) .
«الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار» القاهرة سنة ١٩٥٧ .
١٣ - حسن محمود : (دكتور) .
«مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين» القاهرة ١٩٦٠ .
١٤- حسين مؤنس : (دكتور) .
«فجر الإسلام» القاهرة ١٩٥٩ .
١٥ - الحسينى (د . اسحق موسى) :
«ابحاث فى ماضى المسلمين وحاضرهم» القاهرة ١٣٨٦ هـ/١٩٤٥ م
١٦ - الخضرى
تاريخ التشريع الاسلامى ، القاهرة الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م .
«الأمم الإسلامية» (الدولة العباسية) ١٣٦٤ هـ/١٩٤٥ م
١٧ - دائرة المعارف الإسلامية :
«مادة حسبة» مجلد ٧ العدد ١٠ .
١٨ - الدورى (دكتور عبد العزيز)
«النظم الإسلامية» بغداد ١٩٥٠ .
١٩ - د . دراج : (دكتور سيد)
الجمعية التاريخية المصرية المجلد ١٤ لسنة ١٩٦٨ .
٢٠ - رشدى صالح :
«مسرح خيال الظل فى العالم الإسلامى»
٢١ - الزركلى :

«قاموس الاعلام تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب المستعربين والمستشرقين» الطبعة الثانية .
٢٢ - زكي محمد حسن (دكتور) .
«مصر والحضارة الإسلامية» القاهرة ١٩٤١ .
- «فنون الاسلام» القاهرة ١٩٤٨ .
- «كنوز الفاطميين» القاهرة ١٩٣٧
- «الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى» القاهرة ١٩٤٥ .
- «دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ»
٢٣ - دكتور زكي وآخرون :
«مصر الإسلامية» القاهرة ١٩٣٧ .
٢٤ - زيادة (د . محمد مصطفى) :
- «المؤرخون فى مصر فى القرن ١٥» القاهرة ١٩٤٩ .
- «دراسات فى التاريخ الإقتصادى والإجتماعى
٢٥ - الساعــى :
«إدارة الشرطة فى الدولة» المجلد ١ ط . القاهرة ١٩٦٣ .
٢٦ - سركيس يوسف إلياس :
«معجم المطبوعات العربية والمعربة «القاهرة ١٩٢٨/١٩٣٠م .
٢٧ - سرور (د . محمد جمال الدين) :
«مصر فى عصر الدولة الفاطمية «القاهرة ١٩٤٨ .
«الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عهده» .
٢٨ - د . سيدة إسماعيل كاشف : (دكتورة) .
«مصر فى فجر الإسلام . الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٧ .
«أحمد بن طولون» . القاهرة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
«مصر فى عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية» . الطبعة الأولى .
«مصر فى عصر الإخشيديين» . الطبعة القاهرة ١٩٥٠ .
«النقود العربية» . بحث منشور فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، سنة ١٩٦٤/سنة ١٩٦٥ .
«مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه» . القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠ .
«مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ؛ بالاشتراك مع الدكتور حسن محمود . القاهرة ١٩٦٠
٢٩ - شلبى : (دكتور) .
«السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى «القاهرة ١٩٦٤ .

٣٠ - الشهاوى :
«الحسبة فى مصر الإسلامية» القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م

٣١ - الشيال (دكتور محمد جمال الدين) .
«تاريخ مصر الإسلامية» . القاهرة ١٩٦١ .

٣٢ - صبحى الصالح : (دكتور) .
«النظم الإسلامية» بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م

٣٣ - طواخان : (دكتور) .
«مصر فى عصر المماليك الجراكسة» القاهرة ١٩٦٠ .

٣٤ - عاشور (دكتور . سعيد عبد الفتاح) .
«مصر فى عصور دولة المماليك البحرية» القاهرة يناير ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م .
- «العصر المماليكى فى مصر والشام» ١٩٦٥ القاهرة .
- «المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك» . ١٩٦٣ القاهرة .

٣٥ - عبد القادر على حسن : (دكتور) .
«نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى» .

٣٦ - عبد الرحمن فهمى . (دكتور) .
موسوعة النقود العربية وعلم النميات . القاهرة ١٩٦٥ .

صنج السكة فى فجر الإسلام . القاهرة ١٩٥٧ .

٣٧ - عبد الله عنان :
«مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية» القاهرة ١٩٣١ .

٣٨ - عبد الوهاب خلاف :
«الفقه على المذاهب الأربعة» .

٣٩ - عرنوس (محمد محمود) .
«تاريخ القضاء فى الإسلام» القاهرة ١٣٥٢ .

٤٠ - على الخفيف :
«مقالة الحسبة فى أسبوع الفقه الإسلامى ومهرجان ابن تيمية» دمشق شوال سنة ١٨٣٠ .

٤١ - على ابراهيم حسن : (دكتور)
«دراسات فى تاريخ المماليك البحرية» ١٩٤٤ ط القاهرة ١٩٤٩ .

٤٢ – على حسن فهمى :
«الحسبة فى الإسلام» مقالة بمهرجان ابن تيمية ١٩٥٥ دمشق .

٤٣ – عمر رضا كحالة :
«معجم المؤلفين» ط . دمشق ١٧٣٦ه/١٩٥٧م .

٤٤ – فؤاد عبد الباقى :
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . القاهرة ١٣٢٨ .

٤٥ – فهرس الكتب العربية بدار الكتب المصرية .

٤٦ – فهرس المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ص٥٥ – ٥٥١ .

٤٧ – القاموس الجغرافى للبلاد المصرية . القاهرة ١٩٦٠ .

٤٨ – كرد على :
«خطط الشام» ٥ أجزاء . دمشق ١٤٢٦هـ/١٩٢٧م .
«الإدارة الإسلامية فى عز العرب» ط . مصر ١٩٣٤ .

٤٩ – لقبال موسى :
«الحسبة فى المغرب» رسالة ماجستير سنة ١٩٦٨ .

٥٠ – لويس شيخو :
«مجلة المشرق» العدد ١٠ لسنة ١٩٠٧ – ١٩٠٨ .

٥١ – ماجد : (دكتور محمد عند المنعم) .
«نظم دولة المماليك ورسومهم فى مصر» القاهرة ١٩٦٤ .
«نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر» . القاهرة ١٩٥٣ .

٥٢ – مشرفة : (دكتور عطية) .
«نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين» القاهرة ١٩٤٨ .

٥٣ – المراغى :
«الحسبة فى الإسلام» نشرت بمجلة الموظف الغراء طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر .

٥٤ – مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠

٥٥ – مجلة المقتبس – حـ٩ المجلد ٣ سنة ١٩٠٨ مجلد ٦ سنة ١٩١١ .

٥٦ – محمد أفندى زكى :

«النفخة الزكية فى تاريخ مصر وأخبار الدولة الإسلامية» جزءان المطبعة الأميـرية ١٨٩٣ .

٥٧ - محمد مختار إلهامى :
«التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية» القاهرة ١٣١١ هـ .

٥٨ - الدكتور : منير العجلانى :
«تاريخ البلاد السعودية» ط السعودية بدون سنة .

٢ : المراجع الأفرنجية

1 — **Bernard Lewis:**

— The Origin of Isma' ilism, Cambridge, 1940 .

2 — **Behrnauer,** Walter:

— Memoire sur les institutions de police chez Les Arabes, Les persans et Les Turcs. Journal Asiatique. 5eme Seree, 1866. T. XV; XVT.

ترجمت إلى العربية بعنوان :
«نبذة فى التنظيمات السياسيه المختصة بالضبطية عند العرب والفرس والترك» .
نشرت فى مجلة روضة المدارس سنة ١٢٨٩= ١٨٧٢ . ويوجد نسخة بدار الكتب . برقم ١ مجلات تيمورية .

3 — **Bouard,** De:

— L'Evolution Monetaire de L'Egypte Medievale.

4 — **Brokelmann,** Carl:

— Geschichte der Arabischer litterature, 2 Vols.
Weimar, Berlin 1898— 1902, 3 suplemtband Leiden, 1937— 1938.

5 — **Butler,** Alfred:

— Conquest of Egypt. OXford, 1902.

تعريب الاستاذ محمد فريد ابو حديد بعنوان :
«فتح العرب لمصر» . القاهرة سنة ١٩٣٣م .

6 — **Darrag,**—Sayed:

— L'Egypte sous le regne de Barsbay. Damas, 1961.

7 — **Demombynes**, Gaudefroy:

— Les institutions Musulmanes.

ترجمه إلى العربيه الاستاذان فيصل السامر وصالح الشماع بعنوان :
«النظم الاسلامية» . بغداد ، سنة ١٩٥٢ .

8 — **Dozy**,.R.:

— Supplement aux Dictionnaires Arabes. 2 Vols. Leyden 1881; paris 1927.

— Dictionnaire detaille des noms des vetements chez les Arabes. Amesterdam 1845.

— Encyclopedy of Islam. Vol. II; Leyden, 1927.
Arts. AZ Har— Hisbed —Kaisa'riiya —Muhtasib — sanadjat.

— Encyclopedie de L'Islam. Nouvelle edition, 1967.
Tome III. art. Hisba.

9 — **Grunebaum**,Gustav Von:

— Medieval Islam. Chicago, 1947.

ترجمه إلى العربيه الاستاذ عبد العزيز جاويد بعنوان :
«حضارة الاسلام» . القاهرة سنة ١٩٤٥ .

10 — **Hamarneh**, .. .

— Origin and Functions of Hisband system in Islam and its Impact on The Health professions". 1964.

11 — **Husain;** Mawlawi, S.A.o. :—

— Arab Administration. India, Madrass, 1949.

ترجمه إلى العربية د . إبراهيم أحمد العدوى ، وراجعه الاستاذ عبد العزيز عبد الحق ، ونشر في القاهرة سنة ١٩٥٨م .

— Islamic Culture, Vol. XXX, VII. NI, 1963.

— Journal Asiatique. T. CCXX, IV. 1934.

رسالة عن القضاء والحسبة .

Levi Provencal:

12 — **Lane,** Edward William:

— The Manners and customs of the Modern Egyptians.
New York, 1954.

13 — **Lane—** poole, stanley:

— A History of Egypt in the Middle Ages. London 1925.

— Catalogue of Avabic Glass Weights in the British.
نقله إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون .
14 — **Levi,** Reuben:
— Sociology of Islam. I, London, 1931.
15 — **Mayer,** I.A.
— Mamluk Costume. Geneve, 1952.
16 — **Mez,** Adam:
— Die Renaissance des Islams. Heidelberg, 1922.
نقله إلى العربية فى جزئين ، الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة بعنوان :
«الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى» . القاهرة سنة ١٩٥٧ .
17 — **Miles,** (G.G)
— Contribution to arabic Metrology. I. New york 1958.
— Early Arabes glass Weights and stamps.
18 — **Nicholson**, A.R.
— Litrary history of the Arabes. Cambridge, 1930.
19 — **Quatremere,** Et.:—
— Memoires Geographiques et Historiques. 2 tomes, paris, 1811.
20 — **Thomas** Arnold:
— The preaching of Islam. London, 1935.
ترجم إلى العربية بعنوان «الدعوة إلى الاسلام» . . .
21 — **Tyan,** Emile:
— Histoire de L'organisation Judiciare en pays de L'Islam. T. 2.
22 — **Sauvaire,** (M.H.)
— Materiaux pour Servir a L'Histoire de La Numismatique et de la Metrologie Musulamanes (Extrait du Journale Asiatique, 7 eme Serie T. XIV, XV, XVIII, XIV, paris, 1879 in 2 Volts. paris, 1875.
23 — **Wensinck,** A.J..
— Conordance et indices de la tradition Musulmane.
24 — **Wiet,** Gaston:
— L'Egypte Arabe (Histoire de la nation Egyptienne, T. IV, paris, 1937)
— Precis de L'histoire d'Egypte. T. II, Le Caire, 1933.

25 — **William,** E. L.:

— Arabic English Lexicon. New York, 1955, London, 1863.

26 — **Zaky,** Mohamed Hassan:

— "Les Tulunides". paris, 1933.

27 — **Zambaur,** E. de:

— Manuel de genealogie et de chronologie, chronologie, Hanover, 1927.

ترجمه إلى العربية الاستاذ الدكتور زكى حسن وآخرون بعنوان «معجم الانساب .
الاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى «مطبعة فؤاد الأول» . القاهرة سنة ١٩٥١ .

فهـــرس الـكتاب

صفحة

الباب الثالث :

(نشأة الحسبة وتطورها فى مصر الإسلامية)

الباب الرابع :

(حقوق محتسب مصر وواجباته)

الباب الخامس :

(وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجالات المختلفة)

الباب السادس :

(الحسبة وارتباطها بالنظم الأخرى)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/٥٨٢٣

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١١٦٣ - ٥

هذا الكتاب

يقدم لنا دراسة هامة [illegible] مصادرها وآلاتها وأصولها في [illegible] [illegible] المسيحي وفي الدراسات [illegible] [illegible] مصر وبلاد [illegible] العربية والأندلسية التي [illegible] ودراسة [illegible] والمطالبة [illegible] وإيراد [illegible] من [illegible] العصر الإسلامية في [illegible] من [illegible] [illegible] في [illegible] في العصر الوسيط

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ث ٣٢ قرشاً